

أ. د. السماوي النصري محمد أحمد \*

## تواصل العادات والتقاليد الاجتماعية في السودان

### مدخل جغرافي تاريخي:

السودان أكبر أقطار أفريقيا والعالم العربي ومن أغنى الدول إيرثاً وتنوعاً ثقافياً، فامتداد هذه البلاد من الصحراء في الشمال إلى خط الاستواء في أواسط أفريقيا، ومن شواطئ البحر الأحمر الغربية في الشرق إلى قلب القارة في الغرب قد خصها بمزيج من التسوع الماسخي والثقافي على السواء. ونسبة لهذا الموقع الإستراتيجي فقد لعب السودان طيلة تاريخه دور نقطة الالتقاء والتلاقح بين عالم البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا.

وقد أصبحت هذه البقعة منطقة تزدهر وتلتقي فيها الحضارات، ومصدراً وممراً تعبر منه وخلاله البضائع والمنتجات وكذلك منبعاً ومعبراً للأفكار وحلقة وصل بين العالم الخارجي وأفريقيا منذ أقدم العصور، وقد ساهم النيل الخالد بروافده المختلفة، والذي يشق القنطرة بأكمله من الجنوب إلى الشمال محترقاً مصر حتى البحر الأبيض المتوسط ساهم بنصيب مقدر في أن يلعب السودان هذا الدور العظيم.

جعل هذا الموقع السودان واحداً من أغنى دول العالم فيما يخص إرثه الأثري السادي والاثنوغرافي، ويمكن إرجاع الوجود البشري في هذه البلاد إلى مئات الآلاف من السنين،

---

\* نائب عميد كلية التربية - جامعة الزعيم الأزهرى - السودان

فقد تم العثور على عظام بعض الحيوانات الضخمة مثل فرس البحر والأفيال وغيرها مع بعض الأدوات الحجرية في منطقة جزيرة بدين التي تقع إلى الجنوب مباشرة من الشلال الثالث بالقرب من كرمة، أمكن إرجاع تاريخها إلى أكثر من مليون ونصف سنة الأمر الذي يوحي بوجود ما يشير إلى دور بارز لحوض النيل في تطور الإنسان.<sup>(١)</sup>

وقد تم الكشف في مناطق متفرقة من البلاد على مواقع من حضارات العصور الحجرية القديم، الوسيط والحديث، عثر في منطقة حور أبو عنجة في مدينة أم درمان على أدوات حجرية مختلفة يرجع تاريخها إلى ١٣ ألف سنة (ق.م) تنتمي لفترة العصر الحجري القديم الذي انتشرت مواقعها في مختلف أنحاء السودان<sup>(٢)</sup>، ومن مواقع العصر الحجري الوسيط، موقع الخرطوم القديم الذي يرجع تاريخه إلى ٨,٠٠٠ ق.م وهذه هي الفترة التي ظهرت فيها صناعة متطورة للآنية الفخارية<sup>(٣)</sup> وهذا يكون السودان سابقاً للعالم في هذا المجال، والذي ظهرت فيه التقنية المتطورة في العصر التالي أي العصر الحجري الحديث<sup>(٤)</sup>، ويعرف في السودان من هذا العصر مئات المواقع الأثرية المنتشرة على جانبي النيل وفي مناطق كثيرة من الصحراء كما هو الحال في الصحراء الغربية حيث تنتشر مئات المواقع من فترات ما قبل التاريخ على جانبي وادي حور بشمال دارفور والذي كان ينبع من صحور تشاد بحري في الغرب ويمر عبر ولايات غرب السودان ليصب في مجرى النيل عند مدينة الدبة الواقعة عند منحى النيل قبل اتجاهه صوب الشمال ليصب في البحر الأبيض المتوسط.

مهدت هذه الفترة لظهور سمات حضارية مختلفة في السودان عرفت بثقافة أو حضارة المجموعات، والتي أفرزت بعد عطاء ثمر دولة كوش الأولى فترة كرمة والتي شهدت تطوراً سياسياً واجتماعياً وحضارياً جعلها تمثل القاعدة الراسخة للحضارة السودانية، أعقبها فترة كوش الثانية نبتة - مروية وهنا ظهرت ملامح الثقافة السودانية بشكل واضح وقوي ظل يؤثر في حياة إنسان السودان حتى اليوم. وبنهاية مروية جاءت فترة بلانا - قسطل وكانت استمراراً لفترة كوش وانتهت في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي لتحل محلها الممالك المسيحية والتي استمرت لحوالي ألف سنة تحولت البلاد بعدها لفترات الحكم الإسلامي بدءاً بدولة الفونج، ثم الخلافة الشريكية ثم فترة الدولة المهديية محمد أحمد المهدي والتي انتهت بالاحتلال البريطاني والذي استمر من ١٨٩٨م حتى نال السودان استقلاله في ١٩٥٦/١/١م لتبدأ فترات الحكم الوطني.

كل هذه الحقب أثرت بدرجات متفاوتة على مسيرة الثقافة السودانية لأن الاستمرارية خاصة جوهرية في الثقافة ولديها القدرة على البقاء بعد فناء الأفراد الحاملين لها، فهي مستقلة عن الأفراد الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية، فعناصر الثقافة يكتسبها الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه باعتبار أنها هي التراث الاجتماعي المتراكم عبر العصور بحيث يمثل في نهاية الأمر شكل التقاليد المتوارثة، وهذا هو الإرث الاجتماعي الذي يقبى رغم فناء الأفراد، فبعدم ارتباط الثقافة بأفراد معينين تأتي قدرتها على الانتقال والاستمرار عبر الزمن وعبر الأجيال لمئات السنين دون أن يعثرها تغيير جوهري، فالعادات والتقاليد والحرف الشعبية والسنن الاجتماعية والعقائد، والخرافات والأساطير يمكن أن تستمر لفترات طويلة، وقد تتأثر بعض جوانب الثقافة وسماقتها ويعثرها تغير واضح ومع ذلك تفلح السمات في البقاء والاستمرار.<sup>(٥)</sup>

فيما يلي سنتناول بشيء من التفصيل بعض العادات والتقاليد والحرف واستخدامات أدوات الحياة اليومية لتتعرف على عمق التواصل في سلوك وممارسات إنسان السودان عبر تاريخه الطويل.

#### الفخار والحرف:-

يمثل الفخار أحد أهم وأشهر الصناعات القديمة في السودان منذ أقدم العصور وحتى اليوم، فقد كان ضمن الأثاث الجنائزي في فترات العصور الحجرية بدءاً بالوسط وحتى قبل دخول المسيحية<sup>(٦)</sup> وفي العصور السابقة للمسيحية والإسلام كانت الأواني الفخارية توضع داخل المقبرة مع الميت وكانت توضع فيها بعض الأدوات التي كان الإنسان يستخدمها في حياته اليومية، وضعت معه لتساعده في حياته الأخرى بعد الموت بمعنى أن الفخار كان جزءاً من الأثاث الجنائزي يدفن مع الميت وكانت توضع بالقرب من رأس المتوفى، أما في العصور التالية فقد ظل الاستخدام موجود مع اختلاف في مكان وضعه حيث يتم تركها خارج المقبرة، كما أن هنالك اختلاف في المفهوم أيضاً في الوقت الحالي لأن الهدف من وضع الإلء الفخاري خارج المقبرة هو الأجر لصاحب المقبرة حيث تملأ بالماء لشرب منه الطيور وغيرها وتعود حسنت ذلك للمتوفى.

والفخار نلاحظ أيضاً استخداماته في مجتمعات السودان في الحياة اليومية كما كان عليه في السابق، فمثلاً الجرار الكبير (الزير) الحالية تطابق إلى حد كبير الجرار الكوشية في العهد المروي والتي كانت تستخدم لحفظ الماء والسوائل عموماً، كذلك الجرار الصغيرة مثل قلعة تبريد الماء (القسية) هي نفسها التي كانت موجودة في فترة دولة كوش، كذلك تستخدم الجرار الكبيرة ذات التصميم الخاص لحفظ (العجين) طحين الذرة والحمور البلدية المصنوعة من الذرة (مريسة) وتعرف حالياً باسم (الحمارة) وهي إناء خاص لتخمير طحين الذرة الذي زرعه الكوشيون في مروي كما أشارت إليه الرسوم الصخرية بجبل قبلي.<sup>(٧)</sup> وهناك أواني فخارية مختلفة الأشكال والأحجام كانت تستخدم في البخور حيث يتم وضع النار على المبخر ولأن الفخار يحتمل درجات الحرارة العالية وهذا المبخر كان الكهنة يحملونه ويطوفون به حول وداخل المعبد مليئاً بالبخور يتصاعد منه الدخان لطرد الأرواح الشريرة من المكان ولتعطير المعبد بالروائح الجميلة. وما يزال استخدام المبخر يتم لنفس الأغراض في المنازل وفي الأماكن العامة، كما أن حلقات الذكر عند المتصوفة لا تخلو من مبخر عليه بخور النيسان وجرات نار تفوح منه رائحة زكية.

ومما يؤكد استمرار استخدام الفخار في السودان طيلة العصور المختلفة أنه يعبر أهم الوسائل لتصنيف الفترات التاريخية، فلكل حضارة أو فترة زمنية نوع معين من الفخار يختلف عن الفترات السابقة واللاحقة، ويتضح ذلك من تشكيل وزخرفة الأواني الفخارية حيث كان أهل السودان يختارون القوالب مختلفة الأشكال والأحجام ومعالجة السطح باصطفاء جمالي رائع، لذلك فقيمة الفخار تنبع من كونه قادر على إعطاء فرصة لتقسيم الفترات التاريخية فأهميته تصنيفية أكثر منها وظيفية والفخار بالنسبة لعالم الآثار عبارة عن التوقيع أو الإمضاء للشعوب والحضارات القديمة.<sup>(٨)</sup> ولعل أشهر وأجمل فخار صنع في العالم القديم على الإطلاق هو فخار كرمة (كوش الأولى)، التي انفردت بنوع معين من الفخار الأحمر المصقول ذي الحافة السوداء<sup>(٩)</sup> أعد بطريقة فنية التصميم ومهارة الصنعة. وما زال طلاب كلية الفنون الجميلة والتطبيقية بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا يحاولون تقليد الفخار الكرمي ويقفون عاجزين عن إنتاج الكؤوس الطويلة والأواني الفخارية بنفس الدرجة من الإتقان الذي ظهر في فخار كرمة.



هنالك عادة سودانية ربما كانت مستوحاة من زخرفة الفخار تصقل في العلامات المميزة للقبائل النيلية مثل الشلك والدينكا والتوير وغيرها، والتي ترسم على الجبين وتأخذ إلى حد كبير جداً شكل الزخارف المميزة للفخار السوداني في فتراته المختلفة مثل الخطوط المتقطعة في شكل نقاط متصلة وشكل حرف ٧ أو الرقم ٧ متداخلاً وشكل الخطوط المقوسة في شكل هلال.

وعليه فإن استخدام الفخار كموروث حضاري رغم تغير الأزمان والمفاهيم الثقافية والعقائدية، يقف دليلاً على التواصل الحضاري منذ عهود الوثنية وعبر الفترات المسيحية والإسلامية وحتى الوقت الراهن.<sup>(١٠)</sup>

#### التعدين:-

عرف السودان خلال تاريخه القديم الاشغال باستخراج وصهر وتشكيل المعادن مثل الذهب والحديد والنحاس والبرونز، وقد حوت كل مقابر الملوك على كميات كبيرة من المعادن كانت تشكل أهم أجزاء الأثاث الجنائزي.

#### الذهب:

أما بالنسبة للذهب فقد اشتهر شرق السودان ووادي العلاقي بصفة خاصة، بوجود معدن الذهب فيه قد استغل مناجم الذهب في هذه المنطقة القراعنة والبطالة والرومان على التوالي وأشار بليني لوجود الذهب بكثرة في المنطقة الممتدة بين نبتة والبحر الأحمر، وهذه حقيقة يؤكدها الاندفاع الكبير من أجل الذهب في الصحراء الشرقية في عهد الطولونيين في مصر.<sup>(١١)</sup> وكانت أهم أهداف غزو محمد علي باشا للسودان الحصول على الذهب من المناطق المذكورة أعلاه ومن مناطق النيل الأزرق جبال بني شنقول وغيرها من المناطق وما زالت أرض السودان ذاعرة بهذا المعدن، يؤكد ذلك حركة التعدين النشطة التي تجري الآن من قبل حكومة السودان في تلك المناطق.

هنالك كثير من الأدلة تظهر في كتابات الملوك وآثارهم المنقوشة تؤكد أنهم عرفوا الذهب وتملكوا كميات كبيرة منه ومن ذلك ما ذكره الملك لما قرر عن كميات كبيرة من الذهب أهداها لمعبد آمون في الكوة وما ذكره الملك نستاسن أنه غنم كميات هائلة من الذهب من

أعدائه بدو الصحراء الشرقية، كما أن كثر الملكة أماني شاعبي الشهر دليل آخر على اهتمام المرويين بالذهب وامتلاكه وحبائته ضمن مجوهراتهم الشينة<sup>١٢٢</sup>، ولا تزال النساء في السودان يتفاخرن بامتلاك وليس الذهب واستبدال أشكاله المختلفة في كل مناسبة ويدخل تقديم الذهب للعروس في مقدمة المراسم الأوثية للزواج وتكاد لا تخلو أي حالة زواج سوداني من تقديم العريس لأطقم جميلة وفخمة ضمن (المهر أو سد المال والنشيلة) إلى جنب الصداق المتعارف عليه شرعاً، فمكانة العريس الاقتصادية والاجتماعية عند أهل العروس - من النساء - تتوقف إلى حد بعيد على كمية وشكل ونوع الذهب الذي يقدمه لعروسه. كما أن كثير من الألسنات العاملات بصرفن أغلب رواتبهن في شراء واستبدال المجوهرات وتعتبر أسواق الذهب السودانية من أنشط أسواق الذهب وأكثرها اكتظاظاً بالمشتريين والبائعين والمستبدلين وغالبية مرتادي محلات الذهب من النساء.

ويبدو أن الحلبي الذهبية كانت في السودان القديم وفقاً على النساء، ولكن الرجال كان لهم أيضاً بعض الحظ فيها فقد أوضحت لنا الآثار المادية لهذه الحلبي سواء كانت ثابتة (مثل النقوش والرسومات على حيطان المعابد والمدافن والتوابيت) أو كانت متقولة مصاحبة للموتى في مدافنهم، ألما كانت مستعملة في حياتهم اليومية وليست فقط للأغراض الجنائزية، ومن أشكال الحلبي التي استخدمت قديماً وما زالت تستخدم في وقتنا الحاضر الأقراط، الخواتم، القلائد والأساور<sup>١٢٣</sup>، وبعض هذه الحلبي في شكل تعاويذ يلاحظ استخدامها حتى اليوم مثل الجعران كما يلاحظ أيضاً أن الكشف عن كنوز الملكة أماني شاعبي قد فتح باباً جديداً لمناقشة استمرارية أشكال الحلبي وزخارفها والتي تجعل المرء يكاد يحزم بأنما من صنع اليوم ومن الطريف أن الخلخال والذي يستخدم كحلية تلبس حول العرقوب والذي ترتديه النساء اليوم في مختلف أقاليم السودان، ويستخدم كعويذة ضد بعض الأمراض، كما يرتديه الأطفال لمساعدتهم على المشي أو جلب الصحة، هذا الخلخال انتقل إلينا من الحضارة المروية القديمة حيث استعمله المرويون في حياتهم اليومية، وكجزء من الأثاث الجنائزي.<sup>١٢٤</sup>

والملاحظ أن الحلبي الذهبية قد احتفظت بمكانتها منذ قدم الزمان وحتى يومنا هذا حيث لا تزال تمثل مظهراً من مظاهر الثراء وتحتل المرتبة الأولى بين سائر أنواع الحلبي التي تزين بها النساء السودانيات وتستخدم في كل المناسبات الولادة، الختان، والزواج وفي المناسبات العامة والخاصة كالأعياد وغيرها.

## الحديد:

عرفت مملكة مروى في زمانها باستخراج الحديد دون كافة البلاد الأفريقية جنوب الصحراء حتى أطلقت عليها صفة (برمنجهام أفريقية) التي اشتهرت بها، وقد أبانت المكتشفات الأثرية المروية أن المرويين استخدموا الحديد في صنع أمشاط متنوعة من الأدوات أبرزها الأسلحة مثل السهام، الحراب، الفؤوس والسكاكين، والآلات الزراعية (المعازق والخارث، وللزينة صنعوا من الحديد الحلائيل، الأسورة، والأخراط كذلك صنعوا معدات أخرى للاستعمال المنزلي منها الملاعق الصغيرة والمقصات الكبيرة والأزاميل وأدوات الجراحة وغير ذلك. ويرجح أن كثيراً من المعدات الأخرى التي لم نصلنا قد تحللت بسبب طبيعة التربة والرطوبة.<sup>(١٥)</sup>

وتأكد من وجود أكوام حث الحديد الهائلة في الأطراف الشرقية من مدينة مروى العاصمة، ووجود أفران لصهر الحديد في المنطقة الصناعية من المدينة أن المرويين كانوا ينتجون الحديد في بلادهم. ولم يقتصر إنتاج الحديد في المملكة على منطقة العاصمة الملكية حيث الآثار البارزة للنشابات وإنما انتشرت مراكز صهر الحديد من أقصى شمال حدود المملكة حتى جبل موية في النيل الأزرق، كما عثر على آثار ترجح أن صناعة الحديد كانت قائمة في مواقع بعيدة عن النيل مثل جبل حرازة في كردفان وفي مواقع أخرى في وسط دارفور يؤرخ لها بمطلع القرن الأول الميلادي.<sup>(١٦)</sup>

وبالنسبة للمرويين فأقدم أثر للحديد وجد في هرم الملك تمارفو وهو عبارة عن رأس حربة ملبسة بالذهب لقيمتها العالية عندهم في ذلك الوقت. وأقدم دليل على بداية إنتاج الحديد في مروى ليعود تاريخه لمطلع القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد ذلك ظل المرويون ينتجون الحديد حتى نهاية القرن الخامس الميلادي. وبما ساعد المرويين على اتوسع والاستمرار في صناعة الحديد معرفتهم المسبقة بتقنية التحكم في درجات الحرارة ووفرة خام الحديد في صخور بلادهم مع وفرة الأخشاب التي أمدهم بالطاقة اللازمة لاستخلاص الحديد من الصخور.<sup>(١٧)</sup>

استمر استخدام الحديد إلى يومنا هذا لنفس الأغراض في صنع أدوات الزراعة مثل المنجل والطورية والكوريك وبعض أجزاء الآلات الزراعية التقليدية مثل الخرافات وفي صنع أدوات القتال مثل السيوف والسكاكين والخناجر والخراب وغيرها، كذلك يستخدم الحديد في صنع الأدوات المنزلية في صنع الأسرة والكراسي والأبواب والنوافذ أو الشايك وإنتاج حديد التسليح للمباني وغيره. وأخيراً في صناعة السيارات والجرارات والآلات الزراعية الحديثة وفي الصناعات المركبة.

### النحاس والبرونز:

هذه أقدم المعادن التي عرفها الإنسان، وكما يمثل اكتشاف النحاس مرحلة الانتقال من العصور الحجرية إلى عصر المعادن فقد تزامن حلول عصره مع انتقال البشرية من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، وعرف النحاس في أقصى شمال السودان القديم في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وتعتبر بوهين أهم مواقع صناعة النحاس في السودان الشمالي وفيها وجدت ثلاثة أفران لصهر النحاس هي الأقدم من نوعها وتعددت استعمالات النحاس عند المرويين إذ صنعوا منه الأسلحة والأدوات المنزلية والمهنية ومواد إغلاق الأبواب والمواد الطقسية وأدوات الزينة والتماثيل والعملات.<sup>(١٨)</sup>

أما بالنسبة للبرونز فقد كانت الأدوات البرونزية شائعة الاستعمال في كوش حيث تم العثور في مدينة كريمة على أفران صهر البرونز وأماكن صناعته، ومن هذه الأدوات الخناجر والسكاكين والملاقط وأشكال زخرفية حيوانية كالأسود ومنها ما صنع مخلوطاً مع المايكسا والعاج.<sup>(١٩)</sup>

استمرت أهمية هذين المعدنين في حياة السودانيين عبر العصور على الرغم من معرفتهم بمعادن أخرى مثل الذهب والفضة والحديد والألمونيوم وخلافه، حيث يدخلان في كثير من الصناعات الآن إلى جانب الاستخدامات القديمة والعملية السودانية المعدنية المتداولة اليوم. تؤكد استمرار أهميتهما في الحياة المعاصرة.

## صناعة النسيج والجلود:

تمثل صناعة النسيج إحدى الصناعات المتزلية الهامة التي مارسها سكان مملكة مروى، حيث وجدت العديد من المغازل والأنوال داخل الغرف المتزلية، مما يؤكد أنها كانت صناعة متزلية، وقد استمرت هذه الصناعة حتى اليوم في منطقة شندي - مركز حضارة مروى - وتعتبر الأقمشة المسوجة من أهم منتجات المنطقة.<sup>(١٠)</sup> ومن أهم المراكز بجانب مدينة شندي منطقة النوراب غرب مدينة مروى الملكية حيث تنتج أفضل أنواع (الفراد) وهو اسم محلي للثوب السوداني، كما تتميز بصنع قماش الخلاب للرجال والشال والملفحة وبعض المنسوجات التي تستخدم في الحياة المتزلية مثل فوط الترايز والستائر وغيرها.

أما الجلود فقد استخدمها إنسان السودان منذ عصور قديمة ترجع إلى فترة المجموعات الحضارية في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، وقد وجدت الأدلة على استخدام الجلود كقفر للميت في حضارة المجموعة الثالثة كما أشار لذلك رايزنر<sup>(١١)</sup> وقد استمر استخدام الجلد - خاصة الماعز - ككفن للميت في السودان حتى فترة مروى. كذلك وجدت صناعة الجلود في فترة كريمة حيث تم العثور على بعض الأدوات الجلدية مثل عنقريب القند وهو سرير من الخشب ينسج بجلد البقر بنفس الطريقة التي تعمل بالجلود العادية الشعبية من جريد النخل أو المصنعة من البلاستيك. ودخلت الجلود أيضاً في صناعة الأحذية والحقائب وأدوات حمل الماء مثل القربة أو السعن وهو عبارة عن جلد ماعز أو ضأن كامل تسمم معالجته بالملح والقرض بدوياً ثم يطرح بعد ذلك ويعمل بطريقة بلدية محلية ويتم ربط الأرجل الأربع ليترك مكان الذبح عند العنق للماء والتفريغ وما زال هذا النوع من الجلود شائع الاستخدام في السودان خاصة الرحل وأصحاب الشاحنات والعربات السفرية. وما زالت صناعة الجلود من الصناعات الحية في السودان اليوم حيث تصنع منه الأحذية والحقائب، وقد ساعد على ذلك كثافة وجود الثروة الحيوانية. كذلك استخدمت جلود الحيوانات خاصة الماعز والضأن لعمل الفروة - هي سجادة صلاة ظهرت في دولة القونج الإسلامية واستمرت حتى اليوم.



### صناعة السلال:

تعد صناعة السلال من أقدم الفنون المعروفة لدى سكان وادي النيل وتعتبر السلال هي المصدر الذي نبعت منه فكرة صناعة الفخار، حيث كانت تغطي بالطين ليتم حمل السوائل عليها، وهي صناعة حية ورخيصة وتُمارس في مختلف أرجاء السودان حتى اليوم، ويلاحظ أن الأشكال التي تصنع اليوم هي استمرارية لأشكال الأمس مثل القفة التي تستخدم للتسويق ولحفظ الخماصيل وهي عبارة عن إناء من السعف جريد النخل أو الكتان أو أي نوع من الخيط تنسج في شكل يشبه الأواني الفخارية وتعمل في جنبه العلويين يد تقصر وتطول حسب الطلب لتسهيل حملها.

ومن أنواع منتجات هذه الصناعة الأغطية التي يغطي بها الطعام والجرار وتسمى طبق، كما يستخدم السودانيون اليوم بعض أنواع المغاراش التي تنتج من سعف النخيل وتسمى البرش أو السبالا والتي تقل استمرارية هذه الصناعة منذ فترة مروي.<sup>(٢٢)</sup>

### العادات والتقاليد:

تقل العادات والتقاليد في أي بلد روح المجتمع التي تميزه عن غيره لذلك فإن السمات الثقافية تلعب دوراً كبيراً في تشكيل الملامح العامة لأي مجموعة بشرية. والكلمتان تحملان المعنى فالتعود يعني التكرار والتقليد يعني المحاكاة، وكثير من الممارسات تتم دون أي يسأل الشخص نفسه أو من حوله عن مصدرها، لأنه وجدها كجزء منه مثلها مثل السدء التي تجري في عروقه.

مارس الإنسان أثناء مراحل حياته المختلفة الكثير من العادات والتقاليد والتي تشكل في مجملها رغبة الإنسان الدائمة في الحفاظ على نفسه وحياته كافة عناصر حياته وتشكيلها الطبيعة وغير الطبيعة، ولما كانت حياة الإنسان هي الأهم إطلافاً لديه نجده قام بتقسيمها إلى ثلاث مراحل هي الطفولة، الشباب، والشيخوخة وجعل لكل مرحلة ما تذخر به من الممارسات والطقوس كما جعل لفترات العبور أهميتها ومكانتها في حياة الإنسان والمجتمع ككل. فكانت طقوس العبور أو طقوس دورة الحياة.

## الحمل والولادة:-

بمجرد حدوث الحمل تعتبر المرأة الحامل غير طاهرة أو ملوثة وكان المرويون يتعاملون معها بحرص شديد وتعامل باحترام ومودة حيث كانوا يعتقدون أن تلوثها هذا قد يصيب المجتمع إذا لم يتعامل معها معاملة جيدة. وهذه الحالة ما زالت موجودة حتى الآن في السودان برغم اختلاف المفهوم فتدعى المرأة الحامل أنها تعاني من حالة نفسية نتيجة للتغيرات الفسيولوجية، وتُحب وتبغض حسب مزاجها وتعرف هذه الحالة في الوقت الراهن بالوحم، وكان النوبة قديماً يعتقدون أن المرأة الحامل إذا اشتبهت شيئاً ما ولم يحضر لها فإن ذلك سوف يظهر في جسد المولود أو ربما أدى إلى تشوه في شكل الجنين<sup>(٦٦)</sup>، وعند دخول الحمل الشهر التاسع يعتقد المرويون أن الحامل تكون أكثر عرضة لخطر الشيطان أو العين والأرواح، فتعمل لها العديد من الطقوس لحمايتها، فتربط لها إبرة مغطاة بالفضة في شعرها حيث يعتقد في امتلاك المعادن الخاصة عند العين الشريفة، كما تربط لها أحياناً قطعة من الذهب حول عنقها وتقام لها مراسم الجرتق، وتوضع لها الضريبة فوق رأسها وعليها حُرزة كبيرة مربوطة بحريز أحمر موضعها مقدمة الرأس، ثم يزين الرأس ببعض الحُرز والأصداف، ويعمل لها أيضاً الكحل في عينيها وتربط حريزة حمراء في راسها الأيمن وبها بعض الحُرز والأصداف السود والتي تمتلك بعض الخواص السحرية، كما تربط لها أيضاً إحدى فقرات السمك من النيل ومعها ريش نعام، ترتدي هذه الأشياء لمدة سبعة أو خمسة عشر يوماً.

ويجب أن تبقى الحامل دائماً داخل غرفتها وألا تخرج من البيت في غروب الشمس ويجب ألا تنام خارج غرفتها لأنها إذا ما سمعت صوت اليوم فسيتقل إليها كل الشؤم الموجود بها، كما أنها إذا سمعت صوت أو رفرقة جناح البوم فإن ذلك سوف يتسبب في إسقاط جنينها، ويجب ألا تقفز فوق ماء جاري وألا تعبر النيل، وتنع المرأة الحامل في الشهر التاسع من الذهاب إلى بيوت الماتم والوفيات حيث يعطى لها سماح اجتماعي بذلك رغم أن عدم المشاركة في الأحران يعد عيباً كبيراً في المجتمع السوداني، ولكنها تصح في نظرهم معذورة، تمنع المرأة الحامل من كل هذه الأشياء للاعتقاد بأن هذا يصيبها بإسقاط جنينها أو ولادته

مبتأ، وقد تتعرض للموت، وتتعلق كل هذه المنسوعات بالفترة منذ دخولها الشهر التاسع وحتى فترة الوضع وإلى الأربعين من بعد الولادة.<sup>(٢٤)</sup>

ويمنع الرجل من الاتصال الجنسي بزوجه لأنها قد تصيبه بتلوث مما يؤدي إلى فقدانها طفلها، كذلك يمنع زوج الحامل من قتل أو ذبح أو جرح أي حيوان، فهو مثلاً لا يلكز حماره أو دابته ولا يقتل العقارب والتمارين وإلا سوف يؤدي ذلك إلى إجهاض زوجته، فإذا ضرب يد حيوان يعتقد أن ابنه سيولد مشوهاً أو فاقد اليد ويمكن للزوج أن يتخلص من جريمة ارتكابه إحدى هذه المخالفات بالذهاب إلى النيل ويغسل فيه ويغسل قاتلاً (نقضت فيك سر أمي وأبوي) حيث تقوم طهارة ونقاوة مياه النيل بغسل ما به من شوائب.<sup>(٢٥)</sup>

كذلك يمنع الرجل وكل أفراد أسرة المرأة الحامل من إيذاء الحيوانات وخاصة القطط، حيث يعود ذلك إلى الديانة الطوطمية وهي عبادة الحيوانات أو الظواهر الكونية أو الطبيعية، ويعتقد أن السودان كان في فترة من الفترات بعد القحط، وقد وجدت شواهد لذلك في مصر الفرعونية حيث كانت القطط تعبد كأثمة وعبروا عنها في معابدهم القديمة بأنها ترمز للضوء حيث يعتقد أنك إذا قتلت قطاً حتى لو عن طريق المصادفة فإنك سوف تتعرض للقتل.<sup>(٢٦)</sup>

عندما يحين موعد الولادة يجب أن يطلق البحور كما يجب تجهيز طاولة بوضع قرب الفرائش الذي سترقد عليه الأم، ويوضع فوقها بعض العطور ومصحف وجرس، يخرب ذلك الجرس كل يوم صباحاً ومساءً لمدة أربعين يوماً حيث يعتقد أن ضربه يوماً في هذا الوقت سيؤدي إلى عدم إصابة المولود بالصمم، وتعتبر عملية ضرب الجرس من آثار فترة الديانة المسيحية، وفي اليوم الثاني يعمل الصليب في جريدة النخيل ويثبت على يد الطفل اليمنى وهذا التقليد أيضاً من بقايا الديانة المسيحية.<sup>(٢٧)</sup>

#### مراسم وطقوس فترة الطفولة:

هي ممارسات قديمة وجدت آثارها في بعض المقابر الأثرية وتتمارس هذه الطقوس في مجملها لتقدم القرابين للآلهة، والحنان يوجد في معظم أفريقيا والوطن العربي للبنين والبنات ويعرف

عند البنات باسم الخفاض القرعوني كدليل على قدم هذه الممارسة ويجري الحديث الآن عن نوع من الخفاض يعرف بخفاض السنة كمنحولة لإحفاء الشرعية على هذه العادة وعلى الرغم من ظهور كثير من المنظمات الشعبية والرسمية التي تحارب هذه العادة المضارة منذ منتصف القرن العشرين إلا أنها لا زالت تمارس في السودان وبعض دول حوض النيل وحتى يقارم المجتمع الاتجاه الصاعد مخاربه هذه العادة نجد أن الموروث تمت صياغته بشكل جديد لرفض الإقلاع عنها ويمثل ذلك في وصف الفتاة غير المختونة بصفات ذميمة تصل إلى أبناءها وأحفادها والتشكيك في عذريتها وعدم قدرتها على إشباع رغبة الزوج.

من مراسم وطقوس فترة الطفولة عمل بعض العلامات والندبات الجسمانية وهي موجودة في كل أنحاء السودان ومثلها مثل الحتان تقام هذه الطقوس في جو احتفالي خاص يحشد له كل سكان القرية أو الحي ويضم بشكل خاص القادة الشعبيين، زعيم القبيلة أو القرية والذي غالباً ما يكون زعيم ديني أيضاً بعض النظر عن ديانة العصر المعين وتجري هذه الطقوس لكل الأطفال ممن هم في سن السادسة وحتى الحادية عشر، ويرمز ذلك إلى انتقال الطفل إلى عالم الشباب. ويتضمن أيضاً العمل على تطهير الجسم من شوائب الذنوب فتقدم القرابين للآلهة في شكل الأجزاء التي تقطع من الجسد أو في شكل نزيف الدم، كما أن تحمل هذه الآلام يعتبر دليلاً على اجتياز امتحانات اجتماعية في الأخلاق والروح العالية كما أنها تعبر عن درجة تحمل الإنسان للألم وتوجهه في نفس الوقت للإله أي تعتبر رمزاً لقوة الارتباط الديني الروحي بين العبد وربّه.<sup>(٢٨)</sup>

### الزواج:

يعتبر الزواج في المجتمع السوداني منذ أقدم العصور أهم المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته، وجميع الطقوس التي تمارس في هذه المرحلة سواء كانت للعريس أو العروس تعبد في مجملها رمزاً لانتقال كل منها من مرحلة الشباب والعزوبية إلى مرحلة الرجولة الكاملة والأنونة القصوى، فبعد مرحلة الاختيار والخطوبة يتم تحديد يوم لعقد القران حيث يتفاءلون ببعض الأيام ويتشاءمون بالأخرى، وفي هذه الفترة تجرى كثير من التجهيزات خصوصاً في بيت العروس.

تبدأ التجهيزات عند العروس بإعدادها بدياً ونفسياً للدخول في الحياة الزوجية ويعبر  
مرحلة الشباب بنات إلى النضج الكامل وكانت هذه العملية تتم في دولة كوش منذ  
تأسيسها بأن تنبئ الملكة الأم إحدى بناتها لتكون زوجة الملك القادم كما حدث عندما تبت  
الملكة مدكن الملكة حب، فهذا النبي يعني أن تقوم الملكة الأم بتوريث خيرتها في المشاركة في  
الحكم لابنتها الملكة القادمة، وفي العصر الحالي تجرى عملية تعرف بالتعليمية والتعليمية  
مقتصرة الآن على تعليم فنون الرقص، وهي جزء من عملية النبي السابقة.

بعد فترة يأتي العريس مقر العروس وهو ما يعرف بالسيرة حيث يتم حمل العريس على  
الأعناق ويردد الموكب أناشيد وأغاني تمجد العريس وتمتدحه بمجميل الصفات ويكونه أفضل  
شاب على وجه الأرض وأن عروسه سعيدة الحظ لأنها اقترنت به. هذا المشهد مطابق تمام  
التطابق بين دولة كوش واليوم، وتؤكد هذه المطابقة في المشهد التالي، بعد وصول موكب  
العريس وتخرج مجموعة من مقر العريس وتردد نفس الأغاني وتمجد العروس وأهلها وتبشر  
العريس بحياة زوجية سعيدة، وتوصي العريس بعروسه بعدد من الوصايا المهمة وتحنه على  
بذل كل ما في وسعه لإسعادها، وقبل دخول العريس يقدم له كوب لبن كناية عن المبادرة  
بالطيب والجميل وإظهار حسن النية.

#### الجرتق:

كل الطقوس التي تمارس في الزواج ذات أهمية عن السودانية ولكن أهمها على الإطلاق  
ما يعرف بالجرتق وهو طقس يجمع العروسين وأهلهم خاصة من النساء وبالأخص كبار السن  
الجذات أو الحبوبات ويتم في نفس يوم الزواج بعد حفل الزفاف.

أصل هذه العادة يرجع إلى فترة دولة كوش على أقل تقدير حيث كان حفل الزفاف  
والتويج يتم في آن واحد بالنسبة للملك لأن وراثة العرش في السودان كانت للإناث بنات  
الملك. والذي يريد أن يصبح ملكاً من الأمراء عليه الاقتراح بالابنة المثبتة وهي وريثة عرش  
الأم والأب، لذلك كانت مراسم تويج الملك هي مراسم زواجه في نفس الوقت من الملكة  
الجديدة لذلك كانت تجرى عملية طويلة من طقوس العبور ليستقل بعدها الملك والملكة من  
عالم البشر والأمراء إلى عالم الآلهة والملوك.



يبدأ الجرتق بجلوس العروسين على عنقريب أو سرير خشبي منسوج وهو بمثابة كرسي الحكم عند المرويين، يتم ربط يد العروس اليمنى مع يد عروسه اليسرى والرجلين كذلك بنفس الطريقة وهذا يعني أنهما أصبحا جسماً واحداً لشخص واحد، ويشير كذلك إلى أن الملكة بالنسبة للملك ذراعها الأيمن، ثم تردد أغاني تمجد العروسين وتتمنى لهم حياة زوجية سعيدة ويقوم أكبر رجال الدين ببداية وضع الحلب المسحون والذي يعرف باسم الضريبة على رأس العروسين ثم يوضع هلال مربوط على قطعة حراء على الجبين تقليداً للتاج الذي كان يلبسه الملك في السودان القديم، وبنفس هيئة تاج الملكات المروييات تلبس العروس الآن تاج منسوج بالحرز والأحجار الكريمة والذهب في شكل شعر مستعار تعرف باسم الجدلة.

هذا المشهد يتكرر اليوم خاصة عند الأنصار أتباع حزب الأمة حيث يقوم الإمام عندهم بوضع الضريبة والخنة ويقوم الآن السيد الصادق المهدي بوصفه إماماً للأنصار بهذا الدور الذي كان يلعبه كبير الكهنة في دولة كوش أما بالنسبة للآخرين في السودان فتقوم عندهم بهذا الدور أكبر النساء وتستمر الطقوس لفترة من الزمن تصل إلى ساعات تجسري فيها عمليات تبادل الحلوى والذرة والتمر بين العروسين وهناك فقرة مثيرة جداً حيث يعطى العريس كوب لبن يشرب منه ويسقى العروس ثم يأخذ كوباً آخراً ويملاً فيه ثم يقدسه في وجهها فإذا فعلت العروس كذلك يرتفع صوت الزغاريد والتصفيق لأن العروس لم تتسلم لزوجها، أما إذا لم تفعل فستقوم أمها أو إحدى أخواتها أو قريباتها بالانتقام للعروس وقذف اللبن في وجه العريس حتى يعم كل جسده وأحياناً يضطر لمغادرة المكان، وهذا يعني أن العروس وإن كانت ضعيفة فإنها قوية بأهلها.

في نهاية الجرتق يقوم العريس بتوزيع الحلوى والعطور والتمر على الحضور بشكل عشوائي وتتسابق الفتيات لالتقاطها إلى حد تحدث فيه مشاجرات وحسب أحياناً لأن الاعتقاد في أن الفتاة التي تقع عليها الحلوى سوف تتزوج في أقرب وقت ممكن وسيعيش حياة رغدة وهنية وستسعد أهلها.

ثم يخرج الجميع في موكب بهج لزيارة النيل وهناك تتم بعض الطقوس حيث يغسل العروسين ويتطهران بماء النيل لأنهما سيدآن حياة جديدة ويقذفون بعض الأطعمة والحرز

والأصداف والحبوب في الليل ثم ينصرفون إلى الحقل المهيج حيث يجدون أن خدام المعابد قد زينوا المكان وقاموا بإعداد المشروبات والمأكولات وتستغرق الاحتفالات أيام وربما أسابيع.

#### خاتمة:

تناولنا في هذه الورقة جانباً من تواصل العادات والتقاليد الاجتماعية وممارسة بعض الحرف في السودان لنبيّن أن ما نمارسه في حياتنا اليومية المعاصرة يمثل امتداداً لما فعله أسلافنا في قرون سابقة ولعل في ذلك قاسم مشترك لنا في وطن لا نفتق فيه على العلم رمز الدولة ولا على الشيد الوطني. عليه فإن الطرق المتكرر وبشدة على هذا الجانب من تاريخنا الاجتماعي يجعلنا في مأمن عن الافتراق والاحتراب ويجعل الانتماء للوطن أعلى من كل انتماء عرقي أو جهوي. ونحن أشد ما نكون في السودان مثل هذه الندوة حتى يعرف كل سوداني أنه جزء من تاريخ تليد صنعته أجدادنا فتحن شركاء جميعاً في السراء والضراء بل ويجب أن نتطلع إلى وحدة عربية وأفريقية فالسودان بحكم موقعه وتكوينه يمكن أن يلعب هذا الدور إذا ما ألحز مشروعاً وطنياً يجمع كل السودانين أولاً.

## الهوامش

- (١) علي عثمان محمد صالح وصالح محمد أحمد: السودان: الجغرافيا والحضارة والتاريخ، مجلة مجاور دورية محكمة تصدر عن مركز عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، العدد الأول يوليو ١٩٩٨م، ص ١١٢-١١٩.
- (٢) Arkell A.J: A history of the Sudan (2) from the earliest times to A.D. 1821, second edition Oxford University, 1961.
- (٣) Arkell A.J: Early Khartoum London, 1949
- (٤) Arkell, A.J: Shaheinab, London 1953
- (٥) هدى مرعني: مدخل لدراسة الثقافة السودانية، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية - جامعة أم درمان الأهلية، ١٩٩٨م، ص ١٧.
- (٦) وليام آدمز: التوبة رواق أفريقيا، ترجمة محمد النجاني محمود، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ٢٣٠.
- (٧) خضر آدم عيسى: من موروثات الماضي في السودان اليوم، مجلة مجاور، العدد الثاني فبراير ١٩٩٩م، ص ٢٢-٢٨، ص ٢٢.
- (٨) وليام آدمز: مرجع سابق، ص ١٣٣.
- (٩) محمد إبراهيم بكر: المدخل إلى تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧م، ص ٢٦.
- (١٠) خضر آدم عيسى: مرجع سابق، ص ٢٣.
- (١١) المقريري، الواظظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار، الجزء الأول، مطبعة بولاق، ص ١٤٩، في عصر حاج الزاكي، ٢٠٠٦م.
- (١٢) عمر حاج الزاكي: مملكة مروى التاريخ والحضارة، وحدة تنفيذ السدود، إصدار رقم (٧)، ط ٢، دمشق مطبعة الصلحان، ٢٠٠٦م.
- (١٣) Shimie, P.L. Meroe: A civilization of the Sudan. London, 1967, p122.
- (١٤) خضر آدم عيسى: مرجع سابق، ص ٢٣.
- (١٥) Shimie, P.L OP. Cit, P 167-8
- (١٦) عمر حاج الزاكي: مرجع سابق، ص ١٥٠.
- (١٧) نفس المرجع والصفحة.
- (١٨) خضر آدم عيسى، مرجع سابق، ص ٢٤.

- (١٩) Reisner, G.A: Out line of the Ancient History of the Sudan, SMR Parts. 1, 2, 3 pp. 3, 57, 217.
- (٢٠) مخطوطة آدم عيسى، ص ٢٥.
- (٢١) عباس الحاج الأمين: الكجور عند النوبة وأثره الاجتماعي، مركز البحوث والدراسات السودانية، جامعة الزعيم الأزهري، سلسلة المحاضرات العامة رقم (٤)، ٢٠٠٧م.
- (٢٢) أمل عمر أبو زيد: محاضرات في الفلكور السوداني، جامعة أم درمان الأهلية، مركز محمد عمر يسير للدراسات السودانية، ص ١٤-١٥.
- (٢٣) عباس الحاج الأمين، مرجع سابق.
- (٢٤) أمل عمر أبو زيد: مرجع سابق، ص ١٥.
- (٢٥) نفس المرجع، ص ١٦.
- (٢٦) FHN: Fontes Historiae Nubiorum, University of Bergen, Department of classic. Bergen PP 235-244.
- (٢٧) نفس المرجع
- (٢٨) نفس المرجع

دكتور: الطاهر دراع \*

## "الأنساب ودورها في ترابط المجتمع العربي القديم"

### مقدمة

يعد موضوع البحث في الأنساب وأهميتها الاجتماعية لدى العرب القدامى من أهم الموضوعات الشائكة في تاريخ العرب القدامى لأنه بشكل محورا جوهريا في تماسك المجتمع العربي أو انقسامه وذلك منذ بداية استقرار الإنسان العربي القديم فهو يعالج ظاهرة النسب ومدى تحكمها في الأسرة والمجتمع القبلي وأسباب انقسامه في شبه الجزيرة العربية خاصة.

وقد يلاحظ الباحث أن أسباب انقسام العرب إلى جدين كبيرين قحطان وعدنان، قد تضاربت حولهما آراء ونظريات المؤرخين وعلماء الأنساب، كما يهتم أيضا بالدراسات النقدية التي نصبت حول مسألة النسب عند العرب حتى صدر الإسلام.

يبدو لدى الباحث في تاريخ العرب القديم أنه قد تميز بعض الظواهر الاجتماعية الخاصة التي قد تقل أو تنعدم عند الشعوب القديمة الأخرى مثل: ظاهرة النسب التي لعبت دورا هاما في تجميع القبائل أو تفرقتها على مدى قرون طويلة. ومن هنا أثرت تقديم بحث حول مسألة النسب وتبع جذورها وفروعها وتطورها عقب المراحل التاريخية مبرزين مدى اهتمام العلماء والنسابة العرب والأجانب بهذه المسألة الاجتماعية.

---

\* أستاذ محاضر قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية - الجامعة: الإفريقية العليا أحمد دراية - أدرار - الجزائر .



المبحث الأول: الأنساب وأهميتها عند العرب: لعل العرب من أقدم شعوب العالم الذين اشتهر فيهم علماء الأنساب، وقد اعتمدوا في تحصيل ذلك على قوة الحافظة وبرعوا في الفراسة والعبافة، التي هي فرع من فروع القبايلة وهي نوعان: قبايلة الأثر وقبايلة البشر.

فالأولى (قبايلة الأثر) تتناول تنوع آثار الأقدام أو الخوافر أو الإحفاف والتعرف على أصحابها من أثرها في الرمال أو التراب للاعتناء إلى اغراب عن العدالة أو قصد الإمساك بالحيوان الضال، وقد أجاد العرب ذلك حتى أصبح علما يتطلب نوعا من الممارسة النظرية والعلمية، فقد كانوا يفرقون به بين قدم الشاب والشيخ والرجل والمرأة واليسب والكسر والأزور من الجمال وغير ذلك، بل إن هذا النوع من القبايلة وصل إلى حد استخدامه في الاستخبارات العسكرية.

أما النوع الثاني من القبايلة وهو خاص بالبشر، والمعروف بالعبافة أو الفراسة فهو عدخلنا إلى موضوعنا الرئيس وهو "الأنساب عند العرب"، وهو دليلنا في إبطال دعوى من ادعى الطوطمية<sup>(١)</sup> totem عند العرب.

والقبايلة بهذا المعنى يستبدل بها خبراء هذا العلم على المشاركة بين شخصين في النسب.

ويقوم المجتمع العربي القديم في أساسه على ظاهرة النسب<sup>(٢)</sup> وهي ظاهرة لا توجد إلا عند بعض الشعوب البدائية مثلهم، يقول ابن خلدون<sup>(٣)</sup> في هذا السياق:

" في أن الصريح من النسب، إنما يوجد للمتوحشين في القفر بين العرب ومن في معانهم، فإن خلدون بناء على هذا النص يحصر النسب تقريبا في أهل البداوة ومن ساظرهم من المجتمعات الإنسانية الأخرى.

ولقد اهتم العرب منذ القديم بالأنساب وتفاخروا بها، لأن مجتمعهم القبلي كان يقوم على رابطة الدم وصلة الرحم.

وإذا كانت الأنساب الحديثة تحفظ بتفاصيلها على الورق أو على غيره من الأوعية الأخرى، فإن الأنساب العربية القديمة، كانت ترمم فراغاتها أحيانا بطرق معينة، وكانت عنايتهم بمسألة النسب ليس كونها تحافظ على رابطة الدم وحيث الأنساب فحسب، وإنما لكونها تشكل الدعامة الأساس في النظام السياسي القبلي.

ولا شك أن تعاطف الأرحام كان من أهم عناصر في التقارب والتآلف والتعاقد والتضافر والتناصر على الأعداء<sup>(٤٦)</sup> وأن النسب في القدم كان هو الضامن والكفيل للحصول على حقوق المواطنة في المجتمع القبلي، ويقوم مقام القومية والجنسية في عصرنا الحاضر<sup>(٤٧)</sup>.

ونتيجة لذلك ظهرت جماعة من العرب عرفت باسم "النسابين" وتخصصت في علم الأنساب وتفصي جذور القبائل وأصولها وفروعها وعلاقتها ببعضها البعض على مر الأيام، مما جعل مسألة حفظ الأنساب من المعارف ذات الشأن الهام قبل ظهور الإسلام.

ومن ثمة صارت العصبية القبلية هي الأساس، الذي يتقرب به الناس إلى الحكام وينافحون به عن حياضهم، فازدادت أهمية حفظ الأنساب وأضحى النسب علما قائما بذاته كسائر العلوم العربية الأخرى، وألفت فيه كتب خاصة.

وقد كان الرجل الذي له خبرة في ذلك يطلق عليه لقب "نساب" ولكن قبيلة نساب إن أمكن فإذا كان اليونان قد حفظوا أنساب آفتهم ونسبوا أنفسهم إليها فتصل الأشراف ورجال السلطة بها، وإذا كان الفراعنة يعدون أنفسهم من نسل آفتهم ويحافظون على هذه السلالات الإلهية، فإن العرب كانوا اقرب إلى المسيح العلمي الموضوعي في علم الأنساب، حيث ألهم خطبوا أنسابهم في حلقات طارية في جذورها في أعماق التاريخ، ومن الذين اشتهروا بالاهتمام في هذا المجال " هشام ابن الكلبي" والذي ألف في الأنساب العربية وأنساب الخيل. وأشهر القبائل العربية في قيادة الأثر: "بنو مدج" و"بنو لخب" و"بنو سرة".

وقد أصبح علم الأنساب علما يقوم به مختصون وهو ما يعرف الآن بـ"الانثروبولوجيا" أو "علم الأجناس" بل فإن العرب زادوا من خلال ممارستهم العلمية للفراسة إليه مدخل في علم النفس الاجتماعي، فكانوا يستدلون بمينة الرجل وأشكاله وأقواله وحركاته على أخلاقه ومناقبه<sup>(٤٨)</sup>.

والواقع أن النسب أصبح يشكل عطرا على العصبية القومية عند العرب حتى الآن، فحتى يومنا هذا، مازال العربي يحرص على نسبه ويروي لك شجرة نسبه حتى يرفعها إلى عشرين جدا أو أكثر من ذلك سردا من الذاكرة، ولتجد هذه الظاهرة مكرسة بشكل أعمق عند أهل الوبر " البدو".

أما أهل المدر " الخضراء" فقد كان الاهتمام عندهم بالنسب أقل شأنًا منه عند أهل البادية، ومع ذلك فقد كان فيهم من يحفظ شجرة نسبه.

والنسب عند العرب يبدأ في الغالب بالأب والأم ولا تغلب شجرة الأم على الأب إلا في حالات قليلة فقط.

ومن هذا فإن البيت هو "بيت الأب" وهو صاحب السلطة العليا فيه والمسؤول الأول عرفا وقانونا عن الأسرة كلها، يتساوى في ذلك ككل من أهل الوبر وأهل الخضراء.

وإذا توفي رجل وترك طفلا رضيعا وكان له أعمام، فإنهم يحفظون بزوجة أحييهم حتى يكبر الطفل ثم ترد الأم إلى عشيرتها إذا كانت من عشيرة أخرى، ويحضر الولد بين اليقاء مع أعمامه أو المذهب مع أمه إلى أخواله.

وغالبا ما كان الولد يختار عشيرة الأب، لأنه يخشى أن يعبر باختياره عشيرة أمه، كما حدث على سبيل المثال لعبد المطلب عندما كان طفلا يعيش في حضارة أخواله فعبره أطفال عشيرة أمه بلجونه إلى عشيرتهم، وبالرغم من وجود علاقة قرابة بين عشيرة أبيه وعشيرة أمه، وبسبب ذلك غادر أمه يهرب والتحق بعشيرة أبيه بحكمة.

والعم عند العرب هو بمثابة الأب يرثه ويحميه عند الضرورة من كليات السدح وحفارة الرجال.

أما الخؤولة عندهم فقد تفوق مكانتها مكانة العمومة في رعاية الأولاد وتربيتهم لاسيما مسألة الحنان والدلال.

ومن ثمة فقد فضل القرآن الكريم حضارة الجدة من الأم والحالة عن الجدة من الأب والعمة، فجعل الحضارة في يد الخزولة قبل العمومة.

وكم كان يفتخر العربي في العصر القديم إذا كان له أعمام وأحوال كثيرون لاسيما إذا كانوا من ذوي الجاه والسيادة.

ونسب الأهل يقوم على الدم القريب ونسب القبيلة يقوم على أساس عصبية الدم البعيد، فمثلا دم جد القبيلة يجري في عروق أبنائها المنتسبين إليها.

والعرب القديم من حيث النسب " صرحاء وحلفاء، وجيران وموالي وشركاء يلحقون بالنسب".

ومعنى الصريح عندهم - كما سلف الذكر في نص ابن خلدون - هو الخالص أو المحض النقي من كل شيء، فيقال مثلا: بنو فلان صريحة لا يختلطهم غيرهم<sup>(١٠٧)</sup>، فهم خلص من صلب جد القبيلة.

أما نسب الحلف والجوار: فهو نسب استلحاق، وقد يتحول هذا النسب إلى نسب صريح ويحصل ذلك عندما تطول إقامة الحليف بينهم أو تطول الجيرة معهم، فينسى الدخيل أصله ويأخذ أحفاده نسب من حالفهم أو من جاورهم ويطلق الأحيار يون على القبائل التي كانت تنتقل من قوم إلى قوم اسم " النوافل".

المبحث الثاني: علم الأنساب: يقوم علم الأنساب على معرفة أنساب الناس حتى يظهر الأصيل من الداعي والدخيل.

والبيئة العربية القديمة فرضت على سكانها التكامل والتضامن مما شيا مع الظروف الطيبة والحرب المتميزة، إذ لم يجدوا سوى سبيل النسب لتقوية ودعم صفوفهم في أوقات السلم والحرب على حد سواء و" الرحم إذا تماسكت تعاطفت".

فبالنسب يتناحرون على أعدائهم ويتآزرون في أوقات الشدة، ويتصافحون  
يتزاورون في أوقات السلم والرخاء، لأن تعاطف الأرحام وحمية الأقارب يعلمان على  
التلاحم والألفة ويصونان القبائل من التخاذل والفرقة.

وقد بالغ العرب في ظاهرة النسب، مبالغة كبيرة في التناصر حتى جعلوه في  
مكانة رفيعة، فوصفوه ودققوا فيه، وقسموه إلى ثلاثة أقسام وهي: قسم والدون  
وقسم مولودون، وقسم منسوبون وجعلوا لكل قسم مكانة خاصة من البر والصلة.

القسم الأول: وهم الموالدون أو بمعنى الأبناء والأمهات والأجداد والجذات،  
وهم يتميزون بسلامة أحوالهم خلقين: أحدهما لازم بالطبع والثاني حادث  
بإكتساب.

القسم الثاني: المولودون وهم الأولاد والأحفاد وهم محضون بسلامة  
أحوالهم بخلقين أحدهما لازم والآخر منتقل.

القسم الثالث: وهم ما عدا الآباء من الأبناء ممن يتسبون بعصية أو صلة  
رحم ويقصد بذلك الحمية الباعثة على النصرة وهي أدنى "رتبة الألفة" تدعو إلى  
النصرة على البعداء والأجانب، وهي معرفته للحد الأدنى والأقارب، وقد قيل  
لبعض من قريش: "أما أحب إليك، أموك أو صديقك؟"، قال: أحبي إذا كان  
صديقاً".

وقال بعض الحكماء: "العبد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته".

أما طرفة ابن العبد<sup>١٨</sup> فقال في هذا السياق عندما ظلم من بعض أقاربه:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

أما القرآن الكريم، فقد حث على صلة المرحم وأنتى على من يصل ذوي  
الرحم لكي يمحي الصورة القائمة، التي تشكلت في أذهان بعض القبائل العربية



القديمة أو لدى بعض المثقفين منهم فقال: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾<sup>(١٠)</sup>.

وقد جاء في الحديث القدسي: {أنا الرحمان وهي الرحم اشقت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قاطعها قطعته}.

ويقول الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخ له كساع إلى الهيجاء بغير سلاح.

يقول الكندي في هذا السياق: "الأب رب، والمولد كمد، والأخ فخ، والعم عم والحال وبال والأقارب عقارب".

والحق أن العرب قد اهتموا بعلم الأنساب وأولوه اهتماما كبيرا فنظموا فيه الشعر وألفوا فيه الكتب وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

طبقات الشعراء لابن سلام<sup>(١١)</sup> وطبقات الأنساب "للماوردي"

وقد قال هذا الأخير<sup>(١٢)</sup> في كتابه الأحكام السلطانية في هذا المصنف: "وقد رتب أنساب العرب ست مراتب فجعلت طبقات أنسابهم ... شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة ثم بطن، ثم فخذ ثم فصيلة".

وهذه الطبقات تعني:

أولاً: سمي شعباً لأن القبائل تشعبت منه فسميت قبيلة لتقابل الأنساب.

ثانياً: القبيلة: وهي ما انقسم فيها أنساب الشعب مثل: ربيعة ومضر.

ثالثاً: العمارة: وهي ما انقسمت فيه أنساب القبائل مثل: قريش وكنانة.

رابعاً: البطن: وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة مثل: بني عبد مناف، وبني مخزوم.

خامساً: الفخذ: وهو ما انقسم فيه أنساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية.

سادسا: الفصيحة: وهي ما القسم فيها أنساب الفخذ مثل: بني أبي وبني العباس. ويجمع كل قسم من هذه الأقسام ما تفرع عنه من أنساب.

فالفخذ يجمع الفصائل والبطن يجمع الأفيخاذ، والعمارة تجمع البطون، والقبيلة تجمع العشائر، والشعب يجمع القبائل.

وكما برز شعراء وكتاب اهتموا بتدوين أنساب العرب، فقد اقتصرت كذلك في هذا الميدان علماء متميزون بصفات خاصة وشروط معينة حتى أصبحت لهم مكانة مرموقة بين قومهم لا تقل أهمية عن مكانة الكهنة والعرافين، فكان لكل قبيلة نسابة يلحق الفروع بأصولها، وينفي عنها ما ليس منها ومن أشهر النساب "دغفل بن حنضلة السدودي من بني شيان" الذي ضرب به المثل فقالوا: "فلان أنسب من دغفل".

والحق أنه بقدر ما كان اهتمام العرب بأنسابهم كبيرا، بقدر ما كان النسب سببا خطيرا في صراعاتهم وتشتتهم وضعف الحمية العربية عندهم وعانقوا واضحا في تقدمهم وتطور مجتمعاتهم.

ولا شك أن النسب ما يزال حتى الآن يمثل إسفينا في دوحه الحضارة الحديثة فيمزق لبانها ويضعف ثمرها ويقلل عطاءها وازدهارها.

وقد حاولت الحضارة الإسلامية إضعاف هذه النزعة عند العرب بقوله صلى الله عليه وسلم<sup>(١٢)</sup>: "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" و"كلكم من آدم وآدم من تراب".

وليست العربية منكم من أب وأم وإنما العربي من تكلم العربية، ومع ذلك فإن هذه النزعة لا تزال حية حتى الآن عند العرب.

والشرية اليوم لا يهمها من ساهم في التقدم الحضاري أن يكون من غسان أو غطفان بل فإن ما ييسر الاهتمام به وتقديره عطاؤه المقيّد وعمله الخير في سبيل البشرية قاطبة، وأكبر الحضارات في عصرنا لم تقم على أساس النسب والقرابة وإنما قامت على التعاون والتكامل في شتى مجالات الحياة.

أما النسب الذي يعتز به الناس على مر العصور فهو نسب السلوك الرفيع والأخلاق الحميدة والآداب الكريمة والإبداع المتميز.

وقد صدق الشاعر إذ قال :

كن من شئت واكتسب أديبا      يعنيك محموده عن النسب

إن الفتي من يقول ها أنسدا      وليس الفتي من يقول كان أبي

بعد هذا العرض الموجز للنسب نتبع الآن كيف تم تقسيم العرب؟ وإلى أي مدى اهتموا بمسألة النسب؟

يبدو من آراء جل المؤرخين أن العرب في نسبهم يرجعون إلى جدين السنين هما: قحطان وعدنان وأن مساكن القحطانيين كانت تقع جنوبي شبه الجزيرة العربية، ومساكن العدنانيين تقع في شمالها ومعنى ذلك أن التليم ينقسم إلى شماليين أمر واقع بلا ريب.

وفي هذا السياق ينبغي أن نشير إلى أن قبائل جنوبية قد نزحت إلى الشمال وأقامت بجوار القبائل الضاربة فيه.

والحق أن الأمر الذي يهمنا في الموضوع هو معرفة مواطن أهم هذه القبائل في المرحلة السابقة عن ظهور الإسلام.

ويمكن إيجاز القبائل التي تفرعت عن الجدين المذكورين فيما يأتي:

أولاً: القبائل العدنانية في الشمال: يرجع المؤرخون النسابة العرب القبائل القاطنة في الشمال إلى عدنان، وذكروا أنه كان له ولدان هما "عك" و"معد"، وأن القبائل التي انحدرت من "عك" سميت باسم قبائل "عك".

والقبائل التي انحدرت من "معد" سميت باسم قبائل "معد".

وقد استقرت قبائل "عك" في نواحي زبيد جنوبي شامة.

ويذكر صاحب المذهب الظاهري<sup>(١)</sup>، في كتابه "جهرة أنساب العرب".

" أن من ولد عك غافق بن الشاهد بن علقمة بن عك وأن مجموعة بشرية من عك بقيت حتى ظهور الإسلام".

أما ابن عدنان الثاني " معد" الذي نسب إليه قبائل الشمال، وأنه حسب النسابة هو الآخر كان له ولدان هما: قص و نزار. و القبائل التي تحمل اسم الثاني فقد سكتت " قمامة" و " نجد".

وبناء على الدراسات المتخصصة في أنساب العرب القدامى، فإن القبائل التي تنتمي إلى عدنان تنقسم إلى قسمين كبيرين: فرع ربيعة وفرع مضر<sup>(١٤)</sup>، وكلا من الفرعين تنبثق عنه قبائل أخرى.

وأما فرع مضر فتفرع قبائله إلى فرعين كبيرين هما: قبائل عندي وقبائل قيس عيلان<sup>(١٥)</sup>.

وكانت القبائل التي تنسب إلى الجد الثاني " قحطان" هي كندة التي يتحدر منها حجر من عمرو<sup>(١٦)</sup>، (أكال المرار)، مؤسس إمارة كندة وقبيلة تنوخ<sup>(١٧)</sup>، التي منها قبيلة لحم ومنها ارتقى المناذرة حكام إمارة الحيرة، وقبيلة الأزد التي يتحدر منها الأوس والخزرج وقبائل مذحج وهمدان وطيء و جهينة وكهلان وعبي وديان وجير وقضاعة وأباد وغسان.

والواقع أن تقسيم القبائل العربية ونسبها إلى جدتين كبيرين لم تحدث في أيام العرب القدامى، وإنما كان ذلك أثناء حدوث خلافات حزبية بين القحطانيين والعدنانيين، حيث أراد كل طرف الانتماء إلى جد معين، عاد بمخذوره إلى الجاهلية فوضع له أصولاً ودعمها بروايات وقصائد وأبيات شعرية، وزعم كل فريق أن هذا النسب يرجع إلى عهد بعيد عن ظهور الإسلام، بل وإلى عصر قبائل وهابيل.

وفي خصم ذلك الصراع القحطاني العدناني تم تدوين الأنساب وتثبيتها في قراطيس معينة وتسجيلها.

والجدير بالذكر أن الذين قاموا بوضع مشروع تدوين الأنساب العربية، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العvisية ومن المتأثرين بالأحوال السياسية السائدة في ذلك العهد.

ومن هذا المنطلق يجب على الباحث أن يأخذ الحيطنة والحذر عندما يتصدى لدراسة الأنساب عند العرب القدامى، لأنها أخذت كما رأينا أبعادا عظيمة في بداية التدوين، ولأن هذا الموضوع بالذات له أهميته القصوى عند العرب - كما سلف الذكر -.

وقد أدى تكتل القبائل في هذه المرحلة إلى انقسامها إلى معسكرين كبيرين هما: القيسية واليمانية اللتين وقعت بينهما حروب دامية أفككت القسوى العربية جميعا وعجلت بسقوط دولة بني أمية.

وقد حمل الشعراء مشعل النزاع بين الطرفين باعتبارهم لسان حال قبائلهم فظموا القصائد تلوى القصائد في مدح القيسية وهجاء اليمانية والعكس صحيح، فكان المدح والافتخار والتباهي وكان القدح والهجاء والذم من الفريقين.

والحق أن الصراع القحطاني العدناني، وبالرغم من الآثار السلبية التي أحدثها في الوحدة العربية على عهد الأمويين، قد أنتج قصصا وروايات وأشعار طريفة أثرت التراث العربي الإسلامي بثقافة متميزة.

ومهما يكن من أمر فقد زعم القحطانيون أن نسب جداهم قحطان ينسب بنسب إسماعيل عليه السلام، وأنكروا للعدنانيين عليهم أي فضل حتى أنهم نظموا في الإسلام الكثير من القصائد والأشعار، التي ذكرها الرواة على أنها من نظم السابعة وملوك القحطانيين في الجنوب.

أما العدنانيون فقد تشبوا بجداهم إبراهيم الخليل عليه السلام، واعتبروه جدا خاصا بهم مع أنه جد العرب جميعا وأنكروا على القحطانيين نسبتهم إليه وعولوا على الشعر في الرد على القحطانيين، ومن ثمة فقد تعاطم الشعر وتعددت القصائد والأبيات التي تصف النسب أو تتفخر به وترفع كل جهة نسبها إلى الجسد الأول، الذي انتسب إليه كل فريق.

وجملة القول أن النسابة قد قسموا العرب إلى جدين كبيرين دون أن يعتمدوا على نظريات أو براهين قطعية في هذا المجال.

المبحث الثالث: نقد نظرية الأنساب عند العرب: لقد تعرضت نظرية الأنساب عند العرب إلى تحفظات وانتقادات لاذعة من قبل العلماء المسلمين والمستشرقين على حد سواء.

وقد اعتمد بعضهم على أدلة تاريخية وقرآنية وأحاديث نبوية، حاولوا من خلالها التشكيك في هذه الظاهرة وزعزعة سلسلة النسب العربي عند بعض الأقوام في جنوب شبه الجزيرة العربية وشامها، على أساس أنهم لم يعثروا على أدلة علمية تثبت وتؤكد صحة بعض التقسيمات السالفة الذكر.

فهم يقولون مثلاً: ليس هناك أدلة علمية ما تكفي لإثبات صحة التقسيم التي جاءت به نظرية الأنساب أو ما يدعو إلى الجزم بطلانها<sup>(١٨)</sup>، بل فقد وجدوا بعض الأدلة التي تتعارض مع ما جرى به في التقسيم من بينها على سبيل المثال: أن النسابين العرب قد ذكروا أن سباً هو حفيد قحطان وقحطان هو جد عرب الجنوب، في حين أن العلماء يأتون بأدلة تشير إلى أن السبانيين كانوا في أول عهدهم يسكنون في شمال شبه الجزيرة العربية ثم هاجروا إلى جنوبها واستقروا في بلاد اليمن، حيث شيدوا حضارة لامعة بين حضارات الشعوب القديمة، فهناك إذن تناقض بين نظرية النسب التي تجعل قحطان جدًا للسبانيين وبين المؤرخين الذين يعتقدون أن السبانيين وجدوا أولاً في الشمال ثم انتقلوا إلى الجنوب، وفي المقابل نجد حركة الهجرة العكسية تدفع القبائل العربية من جنوب شبه الجزيرة العربية نحو شامها، حيث وجد العديد منها منتشراً في جهات الحجاز ونجد والبحرين عند ظهور الإسلام.

وعلى العموم فإن مسألة تقسيم العرب إلى جدين كبيرين: قحطان وعبدان، قد وجدت استكاراً شديداً من قبل العلماء والمؤرخين وذلك لعدة أسباب أهمها:



أولاً: أن القرآن الكريم لم يشر في قصصه أو في خطابه العام والخاص إلى هذين الجدين، وإنما خاطب العرب والمسلمين باعتبارهم من نسل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٩)</sup>

ثانياً: أن الخليفة الراشدي الثاني عمرو بن الخطاب عندما نظم جداول العطاء على أساس القبائل ومن أُلحق بها، فإنه لم يشر في ذلك إلى القحطانيين ولا إلى العدنانيين بهذا الاسم.

ثالثاً: أن الحرب التي وقعت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان لا توجد فيها أية إشارة إلى قحطانية وعدنانية.

رابعاً: إن تعبير يمنية وليسية لم يكن له المدلول نفسه، الذي توسع في العصر الأموي.

خامساً: يرى بعض الكتاب أن تقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية سببه أهل الكتاب من العبرانيين، الذين يثر هذا التقسيم بين العرب عبر العصور التاريخية.

سادساً: إن تدوين الأنساب عند العرب، لم يبدأ إلا في أواخر القرن الثاني الهجري وأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للملايين، وذلك بعد أن كانت الإسرائيليات قد انتشرت وذاع صيتها بين الناس خاصة بين أهل اليمن وأهل الشمال، الذين كانت بينهم عداوات قديمة الجذور، وهي العداوات التي سميت باسم "منازعات يثرب ومكة" وكانت بين الأوس والخزرج من جهة، وقريش من جهة أخرى.

سابعاً: إن ظهور الإسلام قد رجح كفة الشماليين على كفة الجنوبيين، وأن هؤلاء الجنوبيين، قد حاولوا أن يحققوا شيئاً من التوازن في المفاضلة بينهم وبين الشماليين فأضقوا على أصلهم روايات رائقة، واستغلوا ما انتشر من قصص وروايات إسرائيلية ليوقعوا نسل اليمنيين إلى قحطان العرب الفصح أصلاً، وجعلوا

العرب الشماليين في الدرجة الثانية، بل فقد صنفوه في المرتبة الثالثة في سلم طبقات العرب بوصفهم دخلاء على العروبة (مستعربين)<sup>(٢٠)</sup>

ويبدو أن العالم فولديكه Foldique هو أول من شك في هذا النسب من بين المستشرقين وأول من نه إلى أثر اليمينين في وضع هذا النسب. ويتهم الدكتور جواد علي<sup>(٢١)</sup> الإسرائيليين بعدم الإخلاص في وضع التقسيمات للنسب العربي.

ومن ثمة وقع الأخباريون العرب في أخطاء كثيرة نتج عنها اضطراب في روايتهم المختلفة حول هذا الموضوع.

ثامنا: لعل هذا التصنيف يعود في الأساس إلى تقسيم العرب إلى طبقتين رئيسيتين (من حيث طبيعة المعاش) أهل البدو الرحل وأهل الحضار المستقرون خاصة وأن السابفة قد أقحموا غالبية العرب المستقرين بالحواضر في النسب القحطاني، وغالبية القبائل البدوية في النسب العدناني.

ومن الواضح أن أغلب أهل الحضار هم سكان الجنوب المعروف بمصوبة أراضيه واعتدال مناخه.

أما أهل البدو فإن مناطقهم معلومة أيضا في إقليم الشمال المعروف بالجفاف وفققر الأرض وصحراويتها وقساوة مناخها، فالتقسيم على هذا الأساس نتج عنه فيه بالطبع خصائص جغرافية وبيئية مختلفة اختلافا بينا عن بعضها البعض، استقرارا وثرورة دائمة ومناخ من جهة، وترحال وقحط وفققر ومناخ حار من جهة ثانية، فهما إذن بيتان مختلفتان تمام الاختلاف.

تاسعا: أما غيوم الشك التي تكتف الجدين الكبيرين عند العرب، فإنها ناتجة عن كونهما لم يعرفا عند العرب القدامى بصورة واضحة، فلا القرآن الكريم ذكرهما ولا الشعر العربي استحضرهما وتغنى باسميهما في مختلف المناسبات، إلا نادرا. فإن أحدهما لم يذكر على الإطلاق في التراث الشعري العربي، وإن كان قحطان فقد

ذكر اسمه في بعض البدائع العربية، أما عدنان فلم تذكره حتى كتابات المؤرخين الكلاسيكيين وهذا ما جعل العلماء يشكون في وجود عدنان إذ قالوا: "لو كان عدنان جدا كبيرا في الجاهلية كما صوره أصحاب الأعيان والأنساب لوجب عقلا أن يتردد اسمه بكثرة في الكتابات الجاهلية أو في المؤلفات الكلاسيكية أو في الشعر الجاهلي".

عاشرا: إن التحالفات والمؤامرات ورابطة الجوار، قد تؤدي في غالب الأحيان إلى نشوء أنساب مشتركة بحكم التقارب السياسي العسكري والاقتصادي والاجتماعي، لا سيما عن طريق المصاهرة وامتزاج دماء القبائل ببعضها البعض.

فهني في الواقع ليست شراكة دائمة لأن بعض هذه القبائل مهما ارتبطت بخلف من هذه الأحلاف فإنها محافظة على نسبها الأول.

ثم أنه بعد انقراط هذا الحلف أو ذاك تنقسم عرى التحالف وتفكك على إثره رابطة النسب الأولى وتتكون رابطة جديدة، وتنضوي تحت لوائها، فيدعي أفراد القبائل المندمجة فيما بعد أنهم ينحدرون من أب واحد أو جد واحد، بينما هم في الواقع منحدرون من آباء وأجداد متعددين ومختلفين<sup>(٢٢)</sup>.

والحق أن الشك في هذه الأنساب العربية في التاريخ القديم لم يقتصر على أسفار المحققين الحديثين فحسب، بل فقد صار محيلة القدماء أيضا.

وقد أنكر الإمام مالك<sup>(٢٣)</sup> على الرجل الذي يرفع نسبه إلى إسماعيل قائلا: "من يحبره بذلك؟".

كما علق الواقدي<sup>(٢٤)</sup> على اختلاف النسابين حول سلسلة الأجداد التي تصل نسب عدنان بإسماعيل بقوله:

"إنما لم تحفظ، لأنها أخذت من أهل الكتاب واختلف فيها، ومن الأفضل الانتهاء إلى معد، والإمساك عما وراء ذلك إسماعيل".

وهكذا فإن الخلق في أسماء الآباء والأجداد الذين تعاقبوا من إسماعيل إلى معد يلاحظ أنها كلها أعجمية، مما يدل على أنها قد أخذت من أسفار أهل الكتاب خاصة "اليهود".

في حين تبدو الأسماء التي انتظمت بعد "معد" كلها أسماء عربية خالصة، لذلك يعتقد بعض الباحثين المحدثين أمثال الدكتور "جواد علي" أن الأنساب العربية في تقسيماتها المتأخرة ابتداء من "معد" قد توحى بالثقة والاطمئنان إلى جدها.

أما المستشرقون الذين عالجوا هذه المسألة فقد شنوا حملة واسعة النطاق على نظرية الأنساب بدعوى أنها قد اصطفت اصطفاً في العهد الأموي عندما انقسمت القبائل العربية إلى يمنية ومضرية - كما سلف الذكر -.

وكان للدوافع السياسية أن حملت السلطة الحاكمة في العهد الأموي على انتهاج هذا السبيل وإن كان على نطاق ضيق اقتصر على بعض قبائل قضاعة هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن بعض هؤلاء المستشرقين يرى أن نظرية الأنساب العربية مخالفة للحقائق الثابتة علمياً، ذلك أن سلاسل الأنساب العربية تعتمد على النظام الأبوي، بينما أثبتت الحقائق العلمية أن هذا النظام لم يعرف في شبه الجزيرة العربية إلا بعد أن مر العرب بدور "النظام الطروطي"<sup>(٢٥)</sup>، الذي جعل النسب في الأممات شأهم في ذلك شأن المجتمعات البشرية القديمة الأخرى، وأن العرب قد مروا بأطوار كان الزواج فيها متعدد الأشكال.

فهناك ما يسمى "بالزواج المؤقت" الذي لا يدوم في بعض الأحيان إلا أسابيع معدودة وهناك الزواج المتعدد بالنسبة للمرأة إذا كانت تتزوج عدة رجال في وقت واحد إلى درجة يصعب معها معرفة من هو الأب الحقيقي للطفل المولود في كلا هذين النوعين من الزواج.

ومن هنا فإن أنساب الولد في كلا الحالتين الطروطمية وطرق الزواج القديمة يكون إلى الأم وليس إلى الأب.

ويبدو من تاريخ العرب القدامى أن هذه الأشكال المتعددة من الزواج قد اندثرت في شبه الجزيرة العربية، بانتهاء عصور ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية ودخول العرب في مرحلة جديدة وهي الانتساب إلى نظام يقوم على نظام "الأبوة" غير أن ما أورده المستشرقون بخصوص هذا الموضوع قد يكون له وجه من الحقيقة على واقع الحياة الاجتماعية عندهم حتى الآن استناداً إلى الأسماء، التي ما تزال أحياناً ترمز إلى الطوطمية بنقنصها أسماء حيوانية مثل قبيلة كليب، وقبيلة أسد، وغر وفهد وليث وتعلب وثور وقنفذ وحنش وحمامة ونعام وذئب.

وفي الوقت نفسه نجد قبائل أخرى ترجع نسبها إلى نساء أو مدن أو قرى أو أرض أو صنم أو حيوان أو نبات.

وكذلك وجود أسماء لآباء وأجداد وقبائل ما هي في الواقع إلا أسماء لمواقع وأمكنة مثل سبأ، غسان، عمان، حضر موت وغير ذلك من الأسماء التي أصبحت بمرور الزمن أسماء رجال جعلهم النسابون مصدر لتسلسل النساب<sup>(٢٦)</sup>.

وأحياناً فإن القبائل المتحدة تسمى أسمائها الأصلية وتخصيتها بمرور الزمن وتعاقب الأجيال.

أما قبائل مرحلة التدين أو عصر البداوة الحثثة فكان الناس يختارون لأبنائهم في الغالب أسماء معينة إما لإعجابهم بها وإما تحفة لخوفهم منها كالأجرام السماوية والمظاهر الطبيعية والحيوانات المفترسة وهم يتوسمون بذلك في المولود صفات مميزة كالقوة والشجاعة والذكاء والخوف وعلى ضوء هذا التصور يختارون للمولود اسم حيوان أو اسم جرم أو اسم مظهر طبيعي مثل: أسد، قمر، حجر، رعد... الخ.

وكانوا يسمون الرجل الشجاع بالأسد والسريع الوثوب بالنمر، والفتاة اللطيفة بالغزال أو الحمامة، وإذا كانت الشعوب القديمة قد سلكت هذا السيل كما يبدو أمثال: اليونان والرومان فإن العرب قد استأنسوا بهذه الأسماء من خلال معاشتهم للحيوانات ومعرفة طبائعها عن كتب معرفة تجريبية واقعية<sup>(٢٧)</sup>.

ولما خرجوا من عالم البداوة إلى عالم الأديان والحضارة عوضوا الألقاب البشرية بأسماء تلك الحيوانات فبدل من قولهم شجاع يقولون أسد وبدل من قولهم صبور يقولون حمار ويستدلون عن المراءوغ بالثعلب.

وإذا أرادوا التعبير عن الغضب قالوا: فلان تضر، وفي الوقت نفسه كانوا يلقبون الحيوانات بأسماء الناس أو كنيهم<sup>(٢٨)</sup>.

ومن الحقائق الواضحة أن العرب القدامى كانوا يلقبون بعض القبائل على أساس أنها أسماء سمي بها آباء تلك القبائل، ولكن كثيرا منها كان في الأصل لقباً أُلحق بالاسم الأصلي ثم سقط الاسم فبقي اللقب، وكان هذا يحدث عندهم لأنهم منطرون على التلقب والكنية.

وكان التلقب متواتراً عند العرب القدامى وحتى صدر الإسلام وما بعده وبقي معهم حسب بقاء بداوتهم، وما تزال بعض أسماء الحيوانات جارية على لسان العرب في التكنية إلى اليوم.

وبمرور الزمن اختفت معانيها الأصلية كالكفرم<sup>(٢٩)</sup> والبرث<sup>(٣٠)</sup>، وكثيرا ما كانوا يلقبون بأعضاء الحيوانات المفترسة مثل: الناب والأنف والقرون، وهي من ألقاب الشجاعة والقوة عندهم<sup>(٣١)</sup>.

ومن عادات العرب أنهم كانوا إذا خافوا أن ينقطع نسلهم أطلقوا أسماء الحيوانات المفترسة على أبنائهم مثل الأسد والذئب والنمر ونحو ذلك من الأسماء التي ما تزال إلى اليوم في الجزائر وسوريا وغيرها من البلاد العربية الأخرى.

ومن الألقاب التي وصلت إلينا من العرب القدماء: المرقش<sup>(٣٢)</sup>، والملمتمس<sup>(٣٣)</sup>، والنابعة<sup>(٣٤)</sup>، ونحو ذلك ممن ذهب أسماءهم وبقيت ألقابهم.

وجملة القول أن شيوع التسمية بأسماء الحيوانات أو التلقب بها وبقائها واختفاء الأسماء الأصلية قد لا يعد في الواقع أمراً غريباً، إذا وجدنا أربعة وعشرين اسماً حيوانياً فقط من بين مئات من أسماء القبائل.



وكما كانت الأسماء والألقاب تطلق عند العرب بصفة المفرد، كانت تطلق بصفة الجمع أيضا مثل: الأعمار والكلاب والأرقام والصاب.

وهكذا فإن تسمية بعض القبائل العربية بأسماء حيوانية أفرادا أو جماعات أصبح أمر عادي وطبيعي في مختلف الأجيال التي جاءت بعد مرحلة الدراسة.

والحقيقة أن نظرية الأنساب عند العرب القدامى مهما وجد إليها من النقد للتعدد المرجعيات، فإنها تبقى الحاصية الثابتة التي تميز المجتمع العربي القديم على امتداد العصور التاريخية، وسواء صح بعضها أو ضعف مصدرها، فإن السلسلة التي أحكمت حلقاتها منذ العصور القديمة حتى الآن، لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، حتى لو كان نسقها في عهود متأخرة عن وقوعها لأن المذاهب التقليدية تبنى أحكامها أحيانا على نظريات افتراضية لا تعتمد على أدلة مادية أو شواهد تاريخية واضحة.

#### خاتمة البحث:

من خلال هذا البحث نرى أن مسألة الأنساب عند العرب ظلت تحتل مكانة مرموقة في المجتمع سواء كان ذلك سلبا أو إيجابا وإن كانت إيجابياتها أكثر من سلباتها في حفظ الأنساب والأنواع البشرية في المجتمع العربي على مر الزمن.

وبطريقة الأنساب استطعنا أن نعرف أسماء القبائل العربية وتنوعها واختلافها أو اتفاقها حول قضايا اجتماعية أو سياسية معينة، بل وبهذه الطريقة المتسلسلة عرفنا أيضا طبقات المجتمع وتقسيمها وترتيبها تبعا للقبيلة أو الجد الذي تنتمي إليه.

وقد رأينا في هذا البحث كيف كان علم الأنساب عند العرب عاملا رئيسا في ازدهار الأدب والطوائف والروايات التاريخية، التي أعطت للثقافة العربية نكهة متميزة ما تزال حتى الآن تشكل ينبوعا متدفقا للإبداع الأدبي والإلهام الفكري، بل وفوق هذا وذاك، فإن الأنساب ظلت تمثل الإسمت المسلح في تماسك العائلة العربية وتضامنها على امتداد العصور التاريخية.

## هوامش البحث:

- ١- الطوطمية : منذهب ديني بدائي ينتشر بين قبائل المنود الحمر في أمريكا الشمالية، يقوم على تأليه غوطم يمثله حيوان أو نبات وهو أصل الحياة في معتقدتهم .
  - ١٠- عبد الباقي علي محمد: "أسباب العرب ودعوى الطوطمية"، مجلة سوريا، العدد الأول، السنة الثانية جمادى الثانية، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٩م، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص ٢٥.
  - ٢- المقدمة، ص ١٢٩.
  - ٣- الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٣، ص ١٨٣.
  - ٤- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ١، ص ٢٢١.
  - ٥- عبد الباقي علي محمد: المرجع السابق، ص ٢٥.
  - ٦- الألويسي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩١، ابن منظور: لسان العرب ج ٢، مادة صريح، ص ٥٤.
  - ٧- طرفة ابن العبد : (مخ ١٣٧-٥٦٤)، ولد في البحرين شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات، ابن أخت المنس، بدد ثروته وهام منتشرًا إلى أن اتصل بعمرو بن قنفذ ملك الحيرة فدحه ثم أغضبه فأمر بقتله، له ديوان ومطلع معلقته:
- خولة أطلال بريقة قعدت      تلوح كافي الوشم في ظاهر اليد
- ٨- سورة الرعد: الآية ٢٥.
  - ٩- ابن سلام الجهمي: (محمد) ت ٨٦٤هـ أديب وثاقف مشهور، ولد في البصرة وعاش في بغداد روى الشعر عن الأصمعي وحلف الأحرار والمفضل السعدي. أشهر كتابه "طبقات الشعراء، من أقدم كتب النقد التاريخي والمقني للشعر العربي.
  - ١٠- الماوردي: أبو الحسن ت سنة ٤٥٠هـ-١٠٥٨م، فقيه شافعي من الكبار، ولد بالبصرة تولى القضاء في أيام القائم العباسي في بغداد، مال إلى المعتزلة من كتبه "أديب السنين والسنين" "الأحكام السلطانية" في السياسة المدنية والشرعية "أعلام النبوة" "أخباري في الفقه".
  - ١١- مسند أحمد: باب رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٢٣٩٢ تحريجه ألفرد به أحمد بن حنبل.
  - ١٢- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، مصر، ١٨٤٨م، ص ٣٢٠.
  - ١٣- المرجع نفسه

١٤- المرجع نفسه.

١٥- عاش في القرن الخامس ميلادي، ملك كندة، لقب بأكل المرار لشدته في وجهه من لسه امرؤ القيس الشاعر المشهور.

١٦- توح قبيلة عربية تمسحت أصلها من الحرة، جاءت إلى مدينة حلب السورية، وقد اعتنقت الإسلام في عهد المهدي ويحذر منها أمراء لسان الصوحن السنين عرفوا بأمراء الغرب أو المحترين.

١٧- جواد علي: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٥-٢٩٥.

١٨- سورة آل عمران: الآية ٦٨.

١٩- أحمد أمين: فجر الإسلام، ط ١٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٦.

٢٠- جواد علي: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢٥.

٢١- أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٤.

٢٢- الإمام مالك: مالك بن أنس، أحد كمة المذاهب الأربعة توفي سنة ١٧٩هـ. له كتاب "نوطا" الذي نشره الأستاذ فؤاد عبد الباقي في جزأين مطبعة عيسى الخليلي، القاهرة، ١٣٧٠هـ، وقد اعتمد عليه الواقدي في كتاباته حول المغازي والفروع.

٢٣- الواقدي: محمد بن عامر (٧٤٧-٨٢٢م)، من أقدم المؤرخين في الإسلام توفي قضاء بغداد، اتصل بمالك البرمكي، من مؤلفاته: المغازي، فتح الرقياء، فتح المعجم، فتح مصر والاسكندرية، فتح الشام، أشهر من روى عنه كتابه ابن سعد، وهو من الحسين، فلا يعتمد على النقل بل يقوم بدور الخلق.

٢٤- جرجي زيدان: طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية، القاهرة، ١٩١٢، ص ٤٩.

٢٥- جواد علي، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٦.

٢٦- فاحتضوا كل حيوان يحصله مثل الروغان للعلب والشجاعة للأسد والنصر للحمار والأمانة للكلب والغضب للشمس، والظل مع الحساسة لظليل ولو ذلك.

٢٧- وتسلل هذه الألقاب في: الفيل كنية "أبو حجاج" والأمد كنية "أبو خازن" والسلب كنية "أبو جعدة" والذب كنية "أبو رباح" والحرير كنية "أبو فساد"، أو "أبو عقبة" والغضب كنية "أبو حصين" والكلب كنية "أبو خالد"، أو "أبو ناصح" والسنور كنية "أبو حوران" أو "أبو حوران" والغزال كنية "أبو الحسن" والجمل كنية "أبو حوران" أو "أبو إسوب" أو "أبو عزراحم" والسنور كنية "أبو حاتم" والنكش كنية "أبو الطرب"، والتمر كنية "أبو وئاب" والفهد كنية "أبو قسرة" والفرس "أبو

طالب والبعل ثم المختار والحمار كعبه أبو زياد والجرادة أم حنين والحمامة أم عوف،  
والدجاجة أم مهدي والفتحة أم حفص والجعالة أبو الهيثم والقملبة أبو الصراة والعشرب أم  
يقتان.

٢٨- يقصد بكلمة القرم، السيد العظيم وهي في الأصل الفحل .

٢٩- تعني كلمة الرث الباسل وهي اسم للخير.

٣٠- ابن حزم، المرجع السابق، ص ٣٢٦.

٣١- المرقش: لقب أطلق على الشاعر عوف بن سعد، فسقط اسمه الأصلي وبقي لقبه.

٣٢- الملتمس: لقب أطلق على الشاعر جرير بن عبد المسيح.

٣٣- النابغة: لقب أطلق على الشاعر زباد بن معاوية.

د. طارق أبو الوفا \*

## المرأة في المدينة المنورة إبان عصر الخلفاء الراشدين

( ١١ - ٥٤٠ / ٦٣٠ - ٦٦٠ م )

نالت المرأة حرية كبيرة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فلقد شاركت في شتى مناحي الحياة المختلفة وبعد وفاته بدأ دورهن يتقلص في بعض مناحي الحياة وحافظن واضفن في مناحي أخرى ومنها:

### دور المرأة السياسي في عصر الخلفاء الراشدين

لعبت المرأة في عصر الخلفاء الراشدين ادوار سياسية برزت في عدة مواقف منها : بيعة الخلفاء ..

البيعة : نظام سياسي اتبع منذ عصر الرسول وهو يقضى بالطاعة للحاكم وتتم البيعة عن طريق الأيدي<sup>(١)</sup> هذا بالنسبة للرجال. ولم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صافح امرأة بيديه مبايعه لها بل كان يأخذ البيعة منهن مشاقفة<sup>(٢)</sup>. أما عن بيعة الخلفاء الراشدين فقد تمت مبايعة الخليفة أبي بكر الصديق يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة ثم تلتها البيعة العامة في المسجد في اليوم التالي لأحداث السقيفة<sup>(٣)</sup> ومن الجدير ذكره أن النساء حضرن هذه البيعة دون أن تشير المصادر إلى ذلك وتم فهم ذلك من خلال صلاتهن في المسجد النبوي<sup>(٤)</sup>. وكذا تمت البيعة لعمر في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر<sup>(٥)</sup> بعهد منه<sup>(٦)</sup>.

بدأ دور المرأة السياسي يبرز حين طعن عمر رضي الله عنه على يد أبو لؤلؤة المجوسي<sup>(٧)</sup> وتعرضت الخلافة الراشدة لأزمة محققة حين أراد عمر ألا يستخلف فلقد قال ابن عمر دخلت

\* عضو اتحاد المؤرخين العرب .

على حفصه فقالت اعلمت أن أباك غير مستخلف قال : ما كان ليفعل قالت : أنه فاعل قال فحلفت أن أكلسه في ذلك... (١٨١). وقد قام عمر بشرطيح ستة يتم اختيار واحد منهم خليفة المسلمين فكانت الشورى تتم في حجرة عائشة باذنها (١٨٢) وأسفرت المشاورة عن اختيار الخليفة عثمان التي تمت له البيعة في المحرم من عام ٢٤ هـ (١٨٣) ثم عادت المصادر فصحت عن ذكر دور المرأة في البيعة على التي تمت بعد مقتل عثمان (١٨٤).

### موقف المرأة من أحداث الفتنة في عهدي عثمان وعلي

شجعت سياسة الخليفة عثمان رضى الله عنه التي تقوم على التسامح واللين، على دخول أحد يهود صنعاء الماكورين في الإسلام ليكيد للإسلام والمسلمين وهو عبدالله ابن سبأ الذي استطاع بدهائه أن يؤولب الناس على عثمان فرحل إلى الحجاز ثم البصرة والكوفة ثم قصد الشام ومنها إلى مصر (١٨٥).

حيث وجد فيها مرتعا خصبا لنشر أفكاره المسمومة ، ودعا الناس إلى عزل عثمان لعدم أحقيته بالخلافة ، كما أمر عيونته بإظهار عيوب ولاء الأمصار (١٨٦) وتمكن اثنان من هؤلاء العيون من دخول المدينة والتفوا بأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم . محاولين فعل ذلك إلا أنهم اكتشفن خطر هؤلاء ، وأمروهم بالرجوع إلى بلدتهم ، وقد وصفتهم السيدة عائشة رضى الله عنها بالكذب والفجرة (١٨٧) . واشتد الحصار على عثمان ومنع عنه الماء فكانت السيدة أم المؤمنين رضى الله عنها أم حبيبته أول من أمده بالماء (١٨٨) وكادت تفقد حياتها ، حيث هجم عليها الثوار إلا أنه تم إنقاذها في اللحظات الأخيرة (١٨٩) وقد تعرضت السيدة صفية إلى مثل ذلك إلا أن ذلك لم يشنها عن الدفاع عن عثمان فوضعت خشبا من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الطعام والماء (١٩٠) .

وتجهزت أسهات المؤمنين إلى الحج هربا من الفتنة (١٩١) وقد عبرت السيدة عائشة عن رأيها في الفتنة بقولها « أما والله لو استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لافعلن » (١٩٢) وكانت رضى الله عنها قد أشارت على أخيها بالحج معها ، فرفض وانخرط مع الثوار الذين قتلوا عثمان (١٩٣) وكانت نائلة زوجة عثمان من الذين رافقوه أثناء تلك الأزمة عندما حاول مروان بن الحكم التشكيك في رجاحة عقلها ونصحها لعثمان قال : رضى الله عنه « هي أتصح لى منك » (١٩٤) . وظلت تقف إلى جواره حتى إنها دافعت عنه وفقدت أصبعين من أصابعها (١٩٥) . وعندما سمعت السيدة عائشة بمقتل عثمان قالت : « مصصموا مصص الإنا - ثم قتلتموه » (١٩٦) .



بينما عبرت الصحابيات عن مقتل عثمان بغضب شديد . ومنهن أم سليم التي عبرت عن ذلك بقولها « أما أنت لم يجلبوا بعده إلا دماً » (٢٤٦) . وهكذا يتضح دور المرأة السياسي ومشاركتها لدر طاقتها في صنع الأحداث إبان تلك الأونة .

أما في عهد الخليفة علي بن أبي طالب فقد لعبت المرأة دوراً سياسياً مهماً فلقد عبرت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عن غضبهن الشديد ، عندما سمعن عن خبر مقتل عثمان أقمن في مكة ريثما يتفقن على رأي واحد (٢٤٥) . وانفقت حسيباً على المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه لذا قررت التحرك إلى المدينة حيث مكمن الشوارب (٢٤٦) إلا أن بعض الصحابة اجتمعوا بالسيدة عائشة وقرروا الخروج إلى البصرة فوافقتهم منفردة عن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم (٢٤٧) . وبدأت التحرك الفعلي تجاه البصرة للمطالبة بدم عثمان حتى وصلت ماء الحوآب (٢٤٨) فسعت بشاح الكلاب قالت « ما أظنني ألا راجعة أن رسول الله صلى الله عليه بك بين الناس » (٢٤٩) وهذا الرد من قبل الزبير يعطينا دليلاً دامغاً على أن السيدة عائشة إنما خرجت من أجل قرار الحق والصلح بين الناس لذا أسرع الخليفة علي بن أبي طالب بإرسال رسل من قبله إليه وعندما عاد إليه الرسل بحقيقة موقفيها وإنها مقرة بخلافته وإنها لا ترجو سوى الأخذ بشار عثمان من قتلته اتفق الطرفان على الصلح (٢٥٠) .

وحيث أدرك أنصار ابن سبأ أن الفريقين قد اتحدوا عليهم لذا سعوا لإشعال نار الفتنة بين الفريقين فأسفرت عن وثعة الجمل (٢٥١) التي دارت رحاها بين الفريقين وفيها تجلّى دور السيدة عائشة من خطبتها التي قالها أثناء المعركة عن السبأين ومشيرى الفتى إنهم كانوا يأتون المدينة بعيوب واقتراعات مجردة أباطيل ليس لها واقع أو سند . (٢٥٢) انتهت المعركة بقتل الجمل وعودة السيدة عائشة إلى المدينة برفقة أربعين امرأة من نساء البصرة (٢٥٣) وخسرج علي ليوذعها (٢٥٤) . وبرز دور المرأة أيضاً في أثناء التحكيم (٢٥٥) حيث حثت أم المؤمنين حفصة أخيها عبدالله بن عمر على الذهاب ليبدل بدلوه في هذا الشأن (٢٥٦) وعندما بلغ السيدة عائشة مقتل أمير المؤمنين علي قالت « لتصنع العرب ما شاءت فليس لها أحد ينهاها » (٢٥٧) هذه العبارة تدل على مدى احترام السيدة عائشة للخليفة علي بن أبي طالب وأنه في رأيها آخر من يقود العرب في ذلك العصر .

**الدور العسكري للمرأة :** لعبت المرأة دوراً هاماً في الجهاد إبان العهد النبوي ، وقد استمر ذلك الدور في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد شاركت في حروب كثيرة ومنها حروب الردة .

ظهرت الردة في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبداية عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي تمكن من تسيير الجيوش التي قضت عليها<sup>(١٣٨)</sup> لقد أرجح المؤرخون أسباب الردة إلى ثلاثة أسباب أولها تنبؤ بعض زعماء المرتدين وثانيها ارتدادهم التيجان ورفضهم لنفوذ حكومة المدينة وثالثها منعهم للزكاة<sup>(١٣٩)</sup>.

وقد شاركت المرأة المدنية في التصدي لهؤلاء المرتدين ألا أن المصادر لم تمدنا بأسماء يعينها قامت بطولات خارقة خلا ما ذكرته عن نسبية بنت كعب<sup>(١٤٠)</sup> ، التي شاركت في حرب مسيلمة الكذاب باليسامة<sup>(١٤١)</sup> وجرحت اثني عشر جرحا<sup>(١٤٢)</sup> وكانت قد تفرقت المشاركة في هذه الحرب الضروس لنافعين الأول - دفاعا عن الإسلام والثاني أنها علمت أن مسيلمة قد قتل ابنها (حبيب) فشاركت في المعركة مع ابنها الآخر عبدالله ، وروى عنها أنها أبلت بلاء حسنا حتى أنها قد فقدت أحد ذراعيها في هذه المعركة<sup>(١٤٣)</sup> . ولم تذكر المصادر روايات عن نساء مدنيات أخريات شاركن في حروب الردة . بينما أشارت إلى نساء أخريات ساهمن في هذه الحروب وتمكنت أحدهن من قتل أحد زعماء المرتدين<sup>(١٤٤)</sup> .

### الفتوحات الإسلامية :

شاركت المرأة المدنية كذلك في الفتوحات الإسلامية ، وأبلت النساء في هذا الميدان بلاء حسنا ، حتى صار يضرب ببعضهن المثل في الشجاعة والإقدام ، وحكيث عنهن الأساطير<sup>(١٤٥)</sup> إلا أننا لن ننساق هنا خلف هذه الأساطير مأتين تتبع الحقائق التاريخية وتحري الصدق ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

صحب الجنود بعضا من زوجاتهم وأطفالهم معهم إلى ساحات القتال ، ومن هذه النماذج التي أشارت إليها المصادر أن (معركة اليربوع) التي وقعت في (رمضان ١٣ هـ / ٦٣٥ م)<sup>(١٤٦)</sup> والتي انتصر فيها المسلمون على الفرس وأشارت المصادر إلى إرسال القواد إلى نساء المسلمين ببعض الغنائم والطعام فظن النساء المدنيات إنها غارة للعدو عليهن فقممن بالتصدي لهذه الغارة<sup>(١٤٧)</sup> . كما اشتركن أيضا في القادسية وكن يحملن المتاع<sup>(١٤٨)</sup> ولمن مع الصبيان بحفر القبور للشهداء في يومى : أغزوات ، وأرمات<sup>(١٤٩)</sup> ولقد استخدمت النساء ذكاهن فلعين دورا مختلفا في معركة ميسان<sup>(١٥٠)</sup> . فعندما استشعرن شدة الخطر المهدق بجيوش المسلمين من الفرس ، قررن القيام بعملية خداع للعدو ، فحملن رايات في خمرهن بعد أن تلتصقن وصرن خلف المسلمين أثناء القتال وهنهم الفرس مددا ، فانشكفوا وانهزموا<sup>(١٥١)</sup> .

ولقد استخدمت النساء هذه الحيلة من خلال استفادتهن من بحرية مشاركتهن في حروب الردة ، حيث قام جماعة باستخدام نساء قومه وألبسهن الدروع ، فظنهم خالد بن الوليد فرسان ، فقام بمصالحتهم (١٥٢) .

أما عن فتوح الشام : فقد أدلت نساء المدينة بدهنهن في هذه الفتوح ألا أن المصادر كعادتها لم تمدنا بأسماء الكثيرات منهن إلا في النثر اليسير . ومن هذه الروايات ما أورده البلاذري (١٥٣) عن قيام أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي (١٥٤) بقتل سبعة من الروم بنسقاط خيستها التي أعمرت بها (١٥٥) وهناك إشارة إلى أن النساء كن موجودات في معركة مرج الصفر (١٥٦) ، كما لعبن دورا بارزا في معركة اليرموك ، إذ كلفهن خالد بن الوليد بمهمة أرجاع الفارين إلى المعركة أو قتلهم قاتلا لهن : « من رأبتموه موليا فأقتلنه » (١٥٧) ، وقامت النساء باستقبال المنهزمين ، فكن يضربهن بالخشب والحجارة ، وكن يحسن الرجال بقول الشعر فيما قالت خولة بنت ثعلبة (١٥٨) قالت :

يا هاربا عن تسوة تفتيات      ركبيت بالسم وبالمنيات  
فمن قليل ما تسرى سيئات      غير حظيات ولا رضيات (١٥٩)

وكانت هند بنت عتبة تقول محمسة الفرسان المسلمين (عضدوا الغلقان بسيفوكم) (١٦٠) .

شاركت النساء في القتال فقاتلن قتالا شديدا (١٦١) . ومن النساء المدنيات اللاتي شاركت في المعركة وقاتلن فيها (أسماء بنت يزيد بن السكن) (١٦٢) وكذا شاركت في المعركة وقاتلت فيها أسماء بنت أبي بكر الصديق زوجة الزبير بن العوام والتي قالت عن ذلك له : « يا أبا عبد الله والله أن كان الرجل من العدو ليمر بسعي فتصيب قدمه عروة أظناب خيائي فيسقط على وجهه ميتا ، ما أصابه سلاح » (١٦٣) . وهكذا سطرت لنا المصادر دورا رائعا لنساء المدينة في هذه المعركة .

ركبت بعض نساء المدينة مع أزواجهن مثلما حدث في فتح قبرس سنة ٢٨هـ / ٦٤٨م (١٦٤) وظفرت أحدهن بالشهادة هناك (١٦٥) هكذا جاهدت نساء المدينة إبان تلك الآونة في البر والبحر راقعين شعار النصر أو الشهادة .

## دور المرأة في الحياة الاقتصادية في المدينة إبان عصر الخلفاء الراشدين :

بعد الاقتصاد عصب الحياة ولم تقف المرأة بعيدة عن هذا الميدان فلقد شاركت الرجل في تحمل عبء هذا الدور في مناحيه المختلفة مثل الزراعة - زرع أهل المدينة التخييل<sup>(٦٦)</sup> بقبا<sup>(٦٧)</sup> وكان تمر المدينة من أجود أنواع التمور<sup>(٦٨)</sup> ويأتي بعد التمر الشعير ، حيث يزرع وسط بساتين التخييل أحيانا ، وفي حقول مستقلة غالبا ، وكان أهل المدينة يحصلون منه على خبزهم ، فلم يك القمح منتشرا ، ويروى أن طلحة بن عبدالله التيمي كان أول من زرع القمح في المدينة<sup>(٦٩)</sup> كما انتشرت أيضا بالمدينة زراعة العنب<sup>(٧٠)</sup> وحب اللبان<sup>(٧١)</sup>.

وكانت المرأة تدلى بذلوها في الزراعة وفي أعمال الحقل منذ العصر النبوي فكانت السيدة أسماء بنت أبي بكر من الزوجات اللاتي يساعدن أزواجهن في هذا الشأن فتقول عن ذلك : « وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعها له رسول الله على رأسى وهي على ثلثي فرسخ »<sup>(٧٢)</sup> أما عن ملكية المرأة للأراضي الزراعية في عهد الخلفاء الراشدين لقد آلت إلى أبي بكر وآل عمر وآل علي أراضي يزرعونها وكلمة (آل) تشمل الرجال والنساء على حد سواء<sup>(٧٣)</sup> أو عن طريق الاقطاع الذي كان في أواخر عهد عمر واستمر في عهد عثمان بن عفان<sup>(٧٤)</sup> ولم تذكر المصادر أسماء صاحبات امتلاك أراضي زراعية بالمدينة سوى النذر اليسير مثال أم مبشر الأنصارية وأروى بنت اويس<sup>(٧٥)</sup>.

أما عن تربية الماشية فقد انتشرت في المدينة تربية الماشية التي امتلكها آل المدينة مثل الغنم والمعز والابل ، أما الأبقار فكانت قليلة ، وقد عنوا بالحليب عناية شديدة وتليها البغال والحمير لكونها وسائل نقل مناسبة للفلاحة<sup>(٧٦)</sup> . ومن النساء التي ذكرت المصادر أنهن يمتلكن أغنام في عهد أبي بكر (أنيسة بنت خبيب بن يساف بن عتبة بن عمرو بن حديج)<sup>(٧٧)</sup> وأخبرت أن جوارى الحى من الأنصار كن ينتهين بغنمهن إلى أبي بكر ، وكان يسر بهن ويلاطفهن<sup>(٧٨)</sup> .

الحرف : غلب رجال الصحابة على ممارسة الصناعات والحرف ، إبان عصر الخلفاء الراشدين إلا أن نساء المدينة أبن إلا مشاركتهم في بعض هذه الحرف ومن الحرف التي شاركن فيها الغزل<sup>(٨٠)</sup> فقد قامت النساء في المدينة منذ العهد النبوي بحياكة النسيج وصباغة بعض المنسوجات وقد أهدت إحدى الأنصاريات لرسول الله صلى الله عليه وسلم بردة نسجتها بيدها فتقبلها منها<sup>(٨١)</sup> . وتعلمت إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وهي أم المؤمنين

زينب بنت جحش من الأنصاريات بعض الصناعات مثل ديع الجلود وتطريز الشياح بالخرز وظلت تقام هذه الصناعات وتتصدق بها حتى وفاتها سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م (٨٢). ومن النساء اللاتي شاركن الرجال في ذلك العصر في ديع الجلود أسماء بنت عميس التي كانت لها خبرة كبيرة منذ العهد النبوي . فلقد دعت في ليلة أربعين أمها من آدم بالإضافة إلى قيسها بالإعفاء المنزلية (٨٣) . ومن الجدير بالذكر أن أسماء ظلت على قيد الحياة نظرا لزوجها من الخليفين أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب (٨٤) .

كما اشتهت نساء المدينة في ذلك العصر مهنة الطب ومداواة الجرحى ، واكتسبن ذلك من العهد النبوي . حيث شاركن في الغزوات . واستمر ذلك الدور في عهد الخلفاء الراشدين ومن هؤلاء النساء (رقيدة الأنصارية) (٨٥) وأم عطية الأنصارية (٨٦) والربيع بنت معوية (٨٧) . كما شاركت نساء المدينة الرجال في سد حاجتهم من احتياجاتهم المنزلية للقرش . فشاركهن في صناعة الخوص وكن يقمن بذلك في المسجد النبوي حتى عهد عمر بن الخطاب . ومن هؤلاء النسوة (خولة بن قيس الجهينة) (٨٨) . أما عن الحيز فقد تميزت به نساء المدينة عن المهاجرات فتروى أسماء بنت أبي بكر لم أك أحسن أخبز فكان يخبز جارات لي من الأنصار وكن نسوة صدق (٨٩) . وكذا أيضا روت بريدة (٩٠) . عن عائشة كانت لا تحسن الخبز (٩١) .

ومن النساء الأنصاريات اللاتي أجدن صناعة الخبز أم أيوب الأنصارية (٩٢) وأم سليم والدة أنس بن مالك (٩٣) قامت نساء المدينة كذلك بممارسة مهنة القبالة (٩٤) وهي التي تستقبل المولود وكانت هناك نساء يحترقن هذه المهنة مما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ منهن واحدة هي سلمى خادم رسول الله ، فكانت تقوم بقبول السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد في ولادتها إذا ولدت من رسول الله . وتعد قبيل ذلك ما تحتاج إليه (٩٥) وأيضاً كانت قبالة لبني لعاظمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩٦) وهي التي قبلت سارية أم إبراهيم (٩٧) وقد ظلت حتى عهد أبي بكر (٩٨) . كما مارس نساء المدينة مهنة الممرضات وكانت معظم من يقمن بهذه المهنة من الجوارى . ومنهن أم سيف مريضة إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم (٩٩) . وأم بريدة بنت المنذر بن زيد الأنصاري زوجة البراء بن أوس (١٠٠) . أما عن المقينات وهن اللاتي يقمن بتزيين العروس ليلة بناتها فقد اشتهر من نساء الأنصار من يقمن بهذا الدور مثل أسماء بنت يزيد الأشهلية (١٠١) وامرأة أبي السقر التي اشتهرت بكونها ماشطة (١٠٢) كما اشتهرت بعض النساء بتزيين الرجال مثل سلمى خادم الرسول (١٠٣) وأم عطية الأنصارية (١٠٤)



أما غسل الموتى فقد اشتهرت من بين نساء المدينة بالقيام بهذا الدور سلسى خادم رسول الله وأسماء بنت عميس اللتان قامتا مع علي بن أبي طالب بتفصيل فاطمة<sup>(١١٠٥)</sup> أما أسماء بنت عميس امرأة أبي بكر الصديق فقد أوصى أن تغسله<sup>(١١٠٦)</sup>. هكذا شاركت نساء المدينة قدر طاقتهن في القيام بما يستطعن من الأعمال والحرف .

**التجارة :** اشتهرت المدينة المشورة منذ القدم بالتجارة نظرا لازدهار الزراعة لوجود الواحات والعيون والآبار<sup>(١١٠٧)</sup> فضلا عن تميزها بالثروة الحصبة الجيدة الصالحة للزراعة.

لذا لعبت التجارة دورا كبيرا في حياة السكان في المدينة المشورة لوقوع المدينة على طريق التجارة بين الشمال والجنوب<sup>(١١٠٨)</sup> بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها انطلقت مسيرة ومرحلة الفتوحات الإسلامية والجهاد ونشر الإسلام إلى جميع أنحاء العالم ، فواكب ذلك حركة تجارية كبيرة وخاصة في صناعة السلاح ونشأ سوق كبير لبيع وشراء السلاح بأنواعه المختلفة في ذلك الوقت من رماح وتبال وثروس وسيوف وخناجر وغيرها من أنواع الأسلحة<sup>(١١٠٩)</sup> وأدى انشغال أهل المدينة المشورة بالجهاد والحروب من أجل نشر الإسلام إلى حالة ركود تجارى مع العالم الخارجى . أما من ناحية التجارة الداخلية فقد كانت محدودة تنتعش تارة ويصيبها الركود تارة أخرى وكانت أكثر أوقات ازدهارها في موسم الحج والعمرة<sup>(١١١٠)</sup> وقد عمل الرجال بالتجارة وأقر الإسلام للنساء نصيب مما اكتسبن<sup>(١١١١)</sup> فأقبلت بعضهن منذ العهد النبوى على التجارة فكان منهن بائعات للتعطر يطقن به على النساء في البيوت<sup>(١١١٢)</sup> أما في عصر الخلفاء الراشدين فقد استمرت النساء في بيع العطور في المنازل قعن الربيع بنت معوذ قالت : « دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت سخرمة أم أبي جهل في خلافة عمر بن الخطاب وكان ابنها عياش بن عبدالله بن أبي ربيعة يبعث إليها من البسن يعطر فكانت تبيعها إلى الأعطية»<sup>(١١١٣)</sup>.

فقالت لي، أنت بنت قاتل سيده قلت، لا ولكنى بنت قاتل عبده قالت، حرام على أن أبيعك من عطري شيء قلت : وحرام على أن اشتري منه شيئا فسا وجدت لعطر نثنا غير عطرك<sup>(١١١٤)</sup> . كما تاجرت بعض النساء بتجارة الأهل مثل أم زيد بن عمرو بن حرام التي باعت الجميل للسيدة عائشة<sup>(١١١٥)</sup>.

**الحسبية :** اقتضت طبيعة الحال وإقبال النساء بالمدينة على البيع بالسوق أن تكون منهن واحدة تهتم بالنظر في أمورهن فيذكر ابن عبد البر<sup>(١١١٦)</sup> في ترجمة سمراء بنت نهيك أنها



أدركت النبي صلى الله عليه وسلم وعصرت وكانت تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها .

وكذا أيضا قام عمر بن الخطاب بتقليد الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس العدوية أمر من أمور السوق ، لأنه يقدمها في الرأي ويرعاها ويفضلها (١١٧٧) . وكانت المرأة تقوم بالأعمال التجارية في السوق عن طريقين أما أن تشتريها بنفسها ثم تذهب لبيعها إلى النساء في منزلهن (١١٨) أو تدير تجارتها وهي في بيتها بواسطة العبيد والموالي (١١٩) .

**العطاء المستوي :** في عام ١٥ هـ دون عمر الدواوين (١٢٠) ومنها ديوان العطاء فرأى عمر بن الخطاب أن يفرض عطاء سنويا من المال ، وقسم على أهل المدينة والأصهار نظرا لما أتت به ثمار الفتوحات الإسلامية (١٢١) فأعطى عمر رجال المدينة هذه المرتبات (الأرزاق) مبتدأ بال بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ابتدأهم بالعباس بن عبد المطلب عم رسول الله (١٢٢) .

أما فيما يخص النساء في المدينة فقد أتت السيدة عائشة على قمة التوزيع المالي ، فحصلت على اثنتي عشرة ألفا ثم باقى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف ثم فرض لصفية وجويرة في ستة آلاف ستة آلاف . وفرض لنساء من المهاجرات في ألف ألف : منهم أم عبدالله وهي أم عبدالله بن مسعود ، وأسما بنت أبي بكر وأسما بنت عميس (١٢٣) ، وجعل نساء أهل بدر خمسمائة خمسمائة ، ونساء من بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة ونساء من بعد ذلك إلى الأيام ثلثمائة ثلثمائة ، ونساء أهل القادسية مائتين مائتين ثم سوى بين النساء بعد ذلك (١٢٤) ولم ينس عمر الصبيان وجعل لهم مائة مائة (١٢٥) وقامت بعض النساء بالنعجيل بقطام أطفالهن مما حدى بعمر أن يفرض لكل طفل رضيع عشرة (١٢٦) وهكذا نعمت نساء المدينة وأطفالهن من أجل أن ينالهم العطاء بحياة مليئة الرغد والرخاء ورغد العيش .

### دور المرأة في الحياة الاجتماعية :

لعبت المرأة في مجتمع المدينة المنورة إبان عصر الخلفاء الراشدين دورا متميزا ، يتضح ذلك من خلال مشاركتها في منظومة العمل ودورها في هذا المجتمع خاصة وأن المدينة إبان ذلك العصر كانت تعج بعناصر مختلفة من عرب وموالي وكانت نساء المدينة تنقسم إلى : فئات ومرتبات اجتماعية ، ترتفع مكانة المرأة على حسب قدر وشرف زوجها ويأتي على رأس هذه الفئات والمرتبات أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد توفى صلى الله عليه وسلم : وترك

زوجاته أسهات المؤمنین يعيشن بالمدينة المنورة في منازل تقع في الشق الأيسر إذا قصت إلى الصلاة إلى وجه الإمام في وجه المنبر كما ذكر ابن سعد (١٢٧). يروى شاهد عيان حين تم هدم هذه المنازل وإضافتها إلى المسجد في زمن الوليد بن عبد الملك إنها كانت بيوتاً بالذبح وفيها حجر من جريد مطرودة بالطين ، عدت تسعة أبيات بحجرها وهي ما بين عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي إلى منزل أسماء بنت حسن بن عبدالله بن عبيد الله (١٢٨) أما عن زوجته مارية أم ولده إبراهيم فكانت تقيم بالعالية (١٢٩) وقد حظيت نساء النبي صلى الله عليه وسلم في عهد الخلفاء الراشدين بالمكانة العالية والهيبة والوقار ، ولاخرو في ذلك إذا أنهن زوجات الرسول وأسهات المؤمنین . أما زوجات الخلفاء وبناتهم : فكان يقمن مع أزواجهن الخلفاء في بيوت متواضعة فـ ، كان أبو بكر يقيم بالسج (١٣٠) وكانت زوجته أسماء بنت عميس ، قد نالت عنده مكانة سامية إذا أنه أوصى بأن تغسله بعد وفاته (١٣١) وكانت من زوجاته أيضا حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرئ قيس التي أحبها وتالت عنده مكانة رابعة حتى أنه في مرضه الأخير الذي توفي على أثره تركها قد خشى عليها فقتل عن ذلك : إن ذا بطن بنت خارجة قد ألقى في خلدني أنها جارية فكانت كذلك جارية ولدت بعد موته (١٣٢) . وكان من زوجات الخلفاء ، من تتمتع بالجمال الأخاذ مثل زوجة عمر بن الخطاب عائكة بنت زيد (١٣٣) وهي ابنة عمه كانت قد تزوجت قبله عبدالله بن أبي بكر وكان جمالها سببا في عراضه عن بعض الغزو ، فأمره أبوه بتطليقها ، ثم وجد عليها فرق له أباه فأمره بمراجعتها وبعد وفاة عبدالله تزوجها عمر بن الخطاب سنة ١٢ هـ فأولم عليها ودعى صحابة رسول الله (١٣٤) . وعلى الرغم من كونه غير علي نساءه ألا أنه من قرط ولعه بجمالها ووجه السيد لها لم يمنعها أن تصلى في المسجد وكانت حاضرة حين طعن عمر (١٣٥) .

واتسمت بعض نساء الخلفاء بالحدق في أمور السياسة والتصح في الرأي السيد مثل نائلة بنت الفريقتين زوجة عثمان بن عفان التي ظلت إلى جواره وكانت حظية عنده حتى أنه قال لمروان بن الحكم أثناء الفتنة هي أنصح لي منك (١٣٦) وكانت أماعة بنت أبي العاص زوجة الخليفة علي بن أبي طالب ، والتي تزوجها بعد وفاة السيدة فاطمة ظلت معه ولازمته في أيامه الأخيرة وخرجت معه إلى العراق وخشى عليها أن يتزوجها معاوية فقال لها حينما حضرته الوفاة : « أتى لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية بعد موتي (يعني معاوية) فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيرا . قلنا أنقضت عذتها كتب معاوية إلى مروان بأمره أن يخطبها عليها ويبدل لها مائة ألف دينار ، قلنا خطبها أرسلت إلى المغيرة

ابن توفل أن هذا قد أرسل بخطبتي ، فإن كان لك بنا حاجة فأقبل ، فخطبها من الحسن بن علي فتزوجها سنة (١٢٨) .

أما عن بنات الخلفاء ، فعرف عنهن العقل مثل أسماء وعائشة ابنتي أبي بكر وحفصة ابنة عمر بن الخطاب ، وقد عشن في كنف أبائهن ، وسمح لهن بالحرية ألا أنه حينما تتعارض الحرية مع سياسة الدولة يتدخل الخليفة في ذلك ، مثل ما قامت به أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من استخدام سلطتها واعطائها لعسال البريد هدية لزوجة هرقل ، فردت لها الهدية إذ يذكر الطبري (١٢٩) : «ويعتت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى سليكة الروم بطيب ومشارب وأخفاش من أخافش النساء ، ودسته إلى البريد ، فأبلغه لها ، وأخذ منه . وجاءت امرأة هرقل وجسعت نساءها . وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وابنة نبيهم ، وكاتبها وكافتها ، وأهدت لها قيسا أهدت عقد فاخر فلما انتهى به البريد إليه أمره بإسماكة ، ودعى الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصلى بهم ركعتين وقال : أنه لأخير في أمر أبرم عن غير شوري من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم ، لا امرأة ملك الروم . فأهدت لها امرأة ملك الروم ، فقال قائلون : هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانح به . ولاحت يدك فتستفيك وقال آخرون : قد كنا نهدى الشاب نستشيب ، ونبعث بها ، لتباج ، ولنصيب ثمننا فقال ولكن رسول المسلمين ، والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . . هكذا كانت نساء بنات الخلفاء في هذا العصر .

أما عن زوجات الولاة الذين تولوا المدينة المنورة في الفسترة من ٣٦هـ - ٤٠هـ / ٦٥٦-٦٦٠م فلم تذكر المصادر منهن سوى أم أيوب الأنصارية (١٤٠) زوجة أبي أيوب الأنصاري (خالد بن يزيد بن كليب بن ثعلبة) (١٤١) وهو الذي استضاف الرسول في منزله ، الذي كان يتكون من طابقين ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقيم في الطابق الأسفل ، بينما أقام أبر أيوب في الطابق الأعلى ثم ظل حتى جعله بالطابق الأعلى ونزل أبا أيوب إلى الطابق الأسفل ، وهل الرسول مقيم عنده إلى أن بنى مسجده (١٤٢) ولم تذكر المصادر عن أم أيوب سوى روايتها للحديث (١٤٣) . أما سائر نساء الأنصار فكان يقطن بمنازل عادية في أرجاء المدينة المنورة .

كما حوت المدينة بين جنباتها نساء من البصرة قدمن مع السيدة عائشة بعد وقعة الجمل (١٤٤) منهن عمرة بنت قيسر : العدوية (١٤٥) وأخريات من الكوفة (١٤٦) بالإضافة إلى

**العادات والتقاليد :** قامت نساء المدينة بأعمال عديدة من العادات والتقاليد التي كانت موجودة في ذلك العصر ومنها إعداد الطعام.

كانت الحياة بالمدينة سهلة وبسيطة ولم تعرف الرغد إلا بعد الفتوحات الإسلامية لما قامت نساء المدينة بإعداد الأطعمة والأكلات المزلفة مثل الشريد (١١٤٨). واللحم المطبوخ والمشوى (١١٤٩) والدباء (١١٥٠) والأقط (١١٥١) والجراد المقلّى بالزيت (١١٥٢) أما عن الأشرية فكان أحبها اللبن والعسل ومنقوع الشمر (١١٤٣) كما كانت المرأة تقوم بغسل الثياب وغزلها لزوجها (١١٤٤) وطحن الشعير. وطحن نوى البلح لفرسه (١١٥٥).

أما عن ملابس النساء في ذلك العصر فكانت تميل إلى البساطة فكانت عائشة رضي الله عنها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يؤثر عنها ارتداء درعا أحمر وخمارا أسودا وأذرا (١١٥٦) كما ارتدت نساء هذا العصر السراويل (١١٥٧) بالإضافة إلى ارتدائهم القفازين (١١٥٨) اتقاء للبرد. كما تزين بوضع الخضاب بالحناء (١١٥٩) وارتدين خواتم الذهب (١١٦٠).

**الزواج:** اتسمت مظاهر الزواج في ذلك العصر بمراسم منها الخطبة (١١٦١) وعندما أراد عمر بن الخطاب أن يخطب أم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب وهي ابنة فاطمة الزهراء، أرسلها على له ليراها (١١٦٢) وكان من حق المرأة قبول الخطوبه من رفضها (١١٦٣). ذكرت المصادر أن عقد الشكاح : ويتم فيه الاتفاق على المهر وقد تفاوتت مهر البنات في ذلك العصر الذي نحن بصدده لبيئنا يصدق عمر بن الخطاب مهر أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب أربعين ألف درهم (١١٦٤). صدق عمر صفية بنت أبي عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفيه أربعمئة درهم لانيه عبدالله (١١٦٥) إلا أن عبدالله يزيد العروس بمائتي درهم سرا (١١٦٦) وعلى الأرجح أن عبدالله لم يفعل ذلك إلا لفرط ولعه بها ولجمالها الأخاذ . يعقب المهر ليلة البناء، التي عادة ما تكون مصحوبة بوليصة ومن أمثلة الولائم ، التي عقدت في هذا العصر الوليمة التي أولها عمر بن الخطاب ( ١١٦٢ هـ ) على عاتكة بنت زيد وحضرها صحابة رسول الل صلى الله عليه وسلم (١١٦٧) أولم خالد بن سعيد على أم حكيم بنت الحارث بمرج الصفر (١١٦٨) وأصدقها الزواج أربعمئة دينار (١١٦٩) .

**العلاقة الزوجية :** قامت العلاقة الزوجية في المدينة المنورة على المودة والرحمة، كما أحبر القرآن الكريم (١١٧٠)، وحرص نساء المدينة على ذلك وعلى التخلّي ببعض الأخلاقيات التي

يرغب زوجها فيها مثل الإصغاء للزوج فقد روت العالية بنت أبيق بن أحيل أمراء أبي إسحاق السبيعي عن دخولها على عائشة رضی الله عنها عندما أرادت أن تنصرف، قالت عائشة: «حرام على امرأة منكن إن لاتصغى لزوجها» (١٧١) والتصخطيب بالحناء مثل بكرة بنت عقبة (١٧٢). والتعطر بمس الطيب الحولا- بنت تويت (١٧٣). كما اشتهرت بعض نساء هذا العصر بالحنان مثل جمانة بنت المسيب بن نخبة الفزاري التي تزوجها جذبة بن السمان (١٧٤) كما عرف النساء المديونات شدة الاشتياق إلى أزواجهن خاصة الذين خرجوا للجهااد والفتح (١٧٤). كما عرف النساء المديونات شدة الاشتياق إلى أزواجهن خاصة الذين خرجوا للجهااد والفتح (١٧٤). الولادة: صحبت الولادة عادة التحنيك (١٧٦) بالإضافة إلى إقامة وليمة تعرف بالعقيقة (١٧٧).

**الطلاق والخلع:** وبطبيعة الحال فإن بعض العلاقات الزوجية نتيجة لبعض المشاكل قد تصل إلى النهاية وكانت النهاية بالانفصال عن طريقين أما عن طريق الطلاق أو الخلع فالطلاق شرعه الله في كتابه حتى إن هناك سورة سميت باسمه (١٧٨) ومن بين الحالات التي وقعت في عصر الخلفاء الراشدين بالمدينة، طلاق كمشة بنت الحارث من زوجها وحصلت على نفقة قدرها خمس مائة درهم (١٧٩). ولم تكن حالات الطلاق تتسم بالهدوء فهناك حالة طلاق خللت ورائها مشكلة عرضت على أبي بكر الصديق رضی الله عنه، وذلك أن عمر بن الخطاب كان قد تزوج جميلة بن ثابت بن أبي الأثلج الأنصارية سنة سبع هجرية، ثم ولدت له ابنة عاصم، ثم طلقها عمر وتزوجت بآخر، وفي عهد أبي بكر ركب عمر إلى قباء فوجد ابنة يلعب مع الصبية فتزعه فأثت جدته الشموس بنت أبي عامر فتازعته آياه عند أبي بكر ففوضى أبي بكر لها بالولد وسلمه لها من عمر (١٨٠).

**الخلع:** كانت قضايا الخلع نادرة إلا أننا حصلنا على حالتين قد وقعت في عهد عثمان بن عفان وقضى فيها بنفسه ففي الأولى ذكرت المصادر اسم الزوجة وهي الربيع بنت معروة (١٨١) بينما لم تذكر المصادر اسم الزوج، أما الحالة الثانية فإن ابن سعد (١٨٢) ذكر اسم الزوجين وأنهما تديما، لماعتير عثمان الخلع تطليقة واحدة وهي الحالة التي وقعت بين أم بكرة الأسلمية وزوجها عبدالله أسيد، وقضى عثمان بمراجعتها (١٨٣). كما كانت بعض المشاكل الزوجية تنشأ بسبب الميراث وذلك لفرط ولع الرجل بزوجه وتغيرته الشديدة عليها حتى بعد وفاته فقد ذكرت المصادر أن عبدالله بن أبي بكر أقطع زوجته عاتكة بنت زيد أرضا حتى لاتتزوج بعده وتوفى



عبدالله سنة ١٠هـ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولما عنت عاتكة بالزواج في عهد أبي بكر بعثت إليها عائشة رضى الله عنها رسولا بأمرها برد تلك الأرض إليهم<sup>(١١٨٤)</sup> . ومن أشهر قضايا الإرث التي وقعت بالمدينة إبان عصر الخلفاء الراشدين قضية إرث السيدة فاطمة الزهراء من الرسول صلى الله عليه وسلم في عهد أبي بكر الصديق فأرسلت إليه تطلب صدقة النبي صلى الله عليه وسلم التي بالمدينة فذلك<sup>(١١٨٥)</sup> وما بقي من خمس خيبر . فقال لها أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تورث ما تركنا فهو صدقة<sup>(١١٨٦)</sup> .

**جنازات النساء ودفن الموتى :** كان عادة نساء المدينة في الجنائز حينما تتوفى أحدهن تبدأ بالمراسم الآتية : الغسل ، وكان لا يقف على غسل المرأة إلا امرأة لها وأقرب محارمها . ومن أشهر النساء اللاتي توفين في عهد الخلفاء الراشدين وحفظت المصادر أسماء الذين قاموا على عملية الغسل ومنهن سلس خادم رسول الله وأسماء بنت عميس فقد قامت بتفصيل فاطمة الزهراء مع زوجها علي ابن أبي طالب<sup>(١١٨٧)</sup> . كما كان يجري اتخاذ النعش (السري) ومن المعروف أن أول من وضع لها نعش في الإسلام من النساء هي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت وفاتها في عهد الخليفة أبي بكر وقد أشارت به أسماء بنت عميس التي رأتها في أرض الحيشة حينما كانت مهاجرة هناك<sup>(١١٨٨)</sup> كما كانت السيدة زينب بنت جحش من اللاتي حملن علي هذا السري وأوصت زينب بنت جحش أن تحمل علي سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعل عليه نعش . وقبل ذلك حمل عليه أبو بكر . وكانت المرأة إذا ماتت حملت عليه حتى كان ولاية مروان بن الحكم على المدينة فسمع أن يحمل عليه إلا الرجل الشريف . وخرق في المدينة أسرة تحمل عليها الموتى<sup>(١١٨٩)</sup> . ومن النساء اللاتي توفيت في عهد عثمان وصلى عليها أمه أروى بنت كرز بن ربيعة ، حمل عثمان بن عفان سرير أمه بين العمودين من دار غطيش فلم يزل يحملها كذلك حتى وضعها بمرضع الجنائز . وبعد دفنها قام على قبرها يدعوا لها<sup>(١١٩٠)</sup> كما كان من عادتهم أيضا أعداد الطعام لأهل الميت<sup>(١١٩١)</sup> ومن أشهر الأطعمة التي تقدم في ذلك اليوم وتضعها النساء التبنينة<sup>(١١٩٢)</sup> .

**أعمال البر :** حرصت المرأة في المدينة المنورة إبان عصر الخلفاء الراشدين على التقرب إلى الله بشئ أعمال البر ومن هذه أعمال الصلاة في المسجد فقد حرصت المرأة المسلمة على حضور صلاة الجماعة في المسجد حرصاً شديداً رغم غيرة أزواجهم ، ومنهن علي سبيل المثال عاتكة بنت زيد زوجة الخليفة عمر بن الخطاب التي كانت معه إبان صلاة التجر حين طعنه



أبولؤلؤ المجوسى<sup>(١١٩٣)</sup> وبلغ من حرصها على حضور صلاة الجماعة إنه حينما تقدم للزواج منها الزبير بن العوام اشترط عليه ألا يمنعها من ذلك<sup>(١١٩٤)</sup>. أيضا كانت عائشة بنت سعد بن أبي وقاص تسير في جماعة من النساء يصحبن معهن الشموع في صلاة العشاء<sup>(١١٩٥)</sup>.

أما عن جمع القرآن : فكان للسيدة أم المؤمنين حفصه دور في ذلك حتى إنها كانت لديها نسخة من المصحف قبل أن يقره عثمان<sup>(١١٩٦)</sup> ولم يقف دورها عن ذلك فكانت من المتصدقات كما أوصت بعد وفاتها بصدقه ووقف<sup>(١١٩٧)</sup> وكذا ربطه بنت عبدالله امرأة عبدالله بن مسعود التي كانت امرأة صناعا تنفق على زوجها وعيالها<sup>(١١٩٨)</sup> وكان لأمهات الشهداء مكانة لدى عمر بن الخطاب الذي كان يجلسهم ويعطيهم عطاء أبناءهم الشهداء. مثلما فعل عمر بن الخطاب للخنساء التي استشهد أبناؤها الأربعة بالقادسية ، فلم يقطع عطاؤهم عنها<sup>(١١٩٩)</sup> كما كان شائعاً في ذلك العصر في المدينة عشق الرقيق ولاسيما الجوارى وكان من بينهن أم قيس جدة عمر بن ميمون بن مهران التي كتبت على ستين ثورا تحمل الجبن والجوز<sup>(١٢٠٠)</sup> ومن أشهر أعمال البر والتقرب إلى الله حج بيته الحرام فكانت النساء تخرجن إرسالا يحججن إلى بيت الله الحرام وكان عن اللاتي حججن في هذا العصر زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم في عهد عمر بن الخطاب، لما كانت حجة حجة عمر، أرسل إليه أزواج النبي سيئاته في الخروج، فأذن لهن وأمر بجهازهن، فحملن في الهراذج، عليهن الأكيسة الخضراء، وبعث معهن عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، فكان عثمان يسير على راحلته إمامهن فلا بدع أحد بدنو منهن ، وكان عبد الرحمن يسير على راحلته من ورائهن فلا بدع أحد بدنو منهن ، ينزلن مع عمر كل منزل<sup>(١٢٠١)</sup>. وكذا كن أيضا يحججن في عهد عثمان، ويدل على ذلك قول السيدة عائشة (كنا نحج زمن عثمان وكن نستتره)<sup>(١٢٠٢)</sup>.

**(وسائل التسلية) :** لم تكن حياة المرأة في المدينة المثورة في ذلك العصر حياة ملثتها الرنابة والجند فقط ولكن اتجهت إلى الترويح عن النفس فأقبلت النساء على بعض الألعاب التي أتاحت لهن ممارستها ولعبها . وهذه الألعاب اشتقت لها من طبيعة بيئتهن وظروف نشأتهن في ذلك العصر، ومن بين هذه الألعاب اللعب بالدمى (وهي العرائس في زماننا<sup>(١٢٠٣)</sup>) وعرفت هذه اللعبة في المدينة منذ العهد النبوي وعن عائشة قالت: قدم رسول الله من غزوة تبوك أو خيبر فهبت ريح فكشفت ناحية الشر عن بنات لي ، فقال ما هذا يا عائشة ؟ فقالت : بناتى - ورأى بيتهن فرسا له جناحان فقال : ما هذا ؟ قلت فرس - قال - وما هذا الذي

عليه، قلت جناحان قال فرس له جناحان؟ قلت أما سمعت أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه<sup>(١٢٠٤)</sup> وكانت بنات المدينة اللاتي يلعبن بهذه الدوص دون البلوغ<sup>(١٢٠٥)</sup> ويبدو أن هذه الدوص (العرائس) لم تكن قاصرة على هذا النوع فقط بل شملت منها أنواع أخرى مصنوعة من الجلد أطلق عليها (بنات قضامة)<sup>(١٢٠٦)</sup> وعرفت أيضا بنت مقضة وهي بيضاء اللون<sup>(١٢٠٧)</sup> كما عرفت بنات مدينة أيضا الأروحة<sup>(١٢٠٨)</sup> من العهد النبوي فتروي عائشة تقول (لما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة، أتتني نسوة، على أروحة)<sup>(١٢٠٩)</sup> ويستفاد من ذلك أن بعض البنات كن يلعب هذه اللعبة إلا أنها لعبة في الأصل اختص بها الصبيان. ولم تكن وسائل التسلية قاصرة على هذه الألعاب للبنات دون البلوغ فقط بل كان الكبار منهم يلعبن حتى في أيام صوم رمضان فيذكر ابن سعد<sup>(١٢١٠)</sup> لعب النساء بلعبة تسمى الأربعة عشر<sup>(١٢١١)</sup> فتذكر أحدها عن قاتلة (دخل علينا علي بن أبي طالب ونحن نلعب بأربع عشرة قال (ما هذه اللعبة؟) فقالت كن صياما فأحبينا أن نلهي بهذه قال أفلا بعث من يشتري لكم جوزاً فتلعبون به وتشركون هذه قالت: بلى : قالت فبعث من يشتري لهم جوزاً قال: وتركسوها)<sup>(١٢١٢)</sup> يبدو أن علي بن أبي طالب أراد أن يصرفهن إلى اللعب بالجوز كوسيلة من وسائل التسلية الموجودة في ذلك العصر .

كما انتشر بين نساء المدينة معرفتهن بالغناء<sup>(١٢١٣)</sup> وأصبح لهن فيه خاصة الأنصار مذهب خاص<sup>(١٢١٤)</sup> وكن يقيننا عادة في حفلات الزواج ومن أشهر النساء اللاتي كن يعرفن بكونهن مغنيات في ذلك العصر أربب الأنصارية<sup>(١٢١٥)</sup> . هكذا كانت نساء المدينة في ذلك العصر تمارس الأدوار الاجتماعية المتعددة والعادات والتقاليد المتعارف عليها والتي حث عليها الإسلام بل ولإمتاع لدهن من الزينة والتطيب والترفيه والتسرية عن أنفسهن بوسائل التسلية المتاحة لهن في تلك الأونة.

### دور المرأة الثقافي في المدينة المنورة إبان عصر الخلفاء الراشدين:

لاغرو أن تلعب المرأة دوراً في هذا المجال لمعظمهن كن صاحبات أو زوجات صحابة فحاولن أن يساهمن بقسط وافر في هذا المجال . ولما كانت العلوم الإسلامية آخذة في النشر فقد أخذت نساء هذا العصر على عاتقها مهمة تأسيس هذه العلوم جانباً إلى جنب مع الرجال فقد حث الإسلام على العلم منذ أول آية في كتاب الله<sup>(١٢١٦)</sup> وحرصت النساء على حضور مجالس العلم<sup>(١٢١٧)</sup> فكان علم القراءات<sup>(١٢١٨)</sup>، الذي لم يكن قد بدأ بعد فكان القراء الأوائل

هم الرجال الذين تلقوا القراءة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم لازالوا على قيد الحياة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصص يوماً للنساء<sup>(٢٢١٩)</sup> كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المحارم بتعليصهن في السيوت<sup>(٢٢٢٠)</sup>. ومن اللائي تعلمن القراءة وجمعتن وانتمتھن المسلمون على ذلك السيدة حفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب التي وضعت لديها نسخة كاملة من القراءات منذ عهد أبي بكر، وظلت معها، طول عهد عمر إلى أن أخذها عثمان<sup>(٢٢٢١)</sup> خلفته وكانت مرجعاً لسائر النسخ ليقارنوه بها ويتخذ مصحفاً رئيساً فأرسلته إليهم وبعد أن تمت هذه المقارنة أعادوا نسختها إليها<sup>(٢٢٢٢)</sup>. وهكذا أسدت السيدة حفصة خدمة جليلة إلى الأمة الإسلامية وإلى الدين. كما كانت (أم ورقة بنت عبدالله بن الحارث) من اللائي جمعن القرآن<sup>(٢٢٢٣)</sup> وكانت تزوم أهل بيتها بأذن من الرسول صلى الله عليه وسلم وكان لها مؤذن وظلت هكذا حتى قتلها غلامها وجارتها في عهد عمر بن الخطاب وكانت تلقب بالشهيدة<sup>(٢٢٢٤)</sup>.

أما علم الحديث<sup>(٢٢٢٥)</sup> فقد كثرت المحدثات في هذا العصر عن الرسول، فيخلاف زوجاته نجد أسماء كثيرة من الصحابيات في هذا العصر مثل أم عمارة وهي نسيبة بنت كعب وقد سمعت من الرسول «صلى الله عليه وسلم» أحاديث كثيرة وروت عنه وما روته «الصائم إذا أكل عنده صلت عليه الملائكة»<sup>(٢٢٢٦)</sup> ومن المحدثات في هذا العصر أيضاً فاطمة بنت السمان أخت حذيفة بن السمان. روت عن النبي صلى الله عليه وسلم «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم»<sup>(٢٢٢٧)</sup> ولها أحاديث، روى عنها ابن أخيها أبو عبيدة بن حذيفة، وروى عنها حديث في كراهية تحلى النساء بالذهب<sup>(٢٢٢٨)</sup>.

أما الفقه<sup>(٢٢٢٩)</sup> فقد ذكر هذا العصر بفتيات كثيرات تقف في مقدمتهن السيدة عائشة التي بلغت منزلتها في علوم شتى، كان الشعبي يذكرها لتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول وما ظنكم بأدب النبوة وكان عطاء يقول: «كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة» وكان الأحنف بن قيس سيد بني تميم، وأحد بلغاء العرب يقول سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحلفاء، ويعددهم. فلم اسمع الكلام من في مخلوق أفهم، ولا أحسن منه من في عائشة وكان معاوية رضي الله عنه يقول هذا<sup>(٢٢٣٠)</sup>. ومن النساء اللائي لعبن أيضاً دوراً في الفقه الربيع من معوزة التي كانت مستنبطة للأحكام الفقهية وحافظة لها ومن أسئلة استشهادها للأحكام الفقهية حينما مثلت عن قضاء عثمان عن قضيه الخلع التي كانت بين الربيع من زوجها قالت إنما قضى ذلك بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم لمريم المغالبة امرأة ثابت بن قيس بن شماس<sup>(٢٢٣١)</sup>.

أما عن العلوم اللغوية : بالمدينة في ذلك العصر فكان للنساء أيضا نصيب منها فعرف  
عنهن اهتمامهن بالخط والقراءة والكتابة وكان من أوائل من عرفن الكتابة في ذلك العصر  
ويرعن فيها إلى حد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم بأمرها أن تعلم الكتابة لزوجته حفصة  
هي أم سليمان وهي الشفاء بنت عبدالله بن شمس العدوية<sup>(٢٣٢)</sup>.

الشعر: بلغت المرأة المدنية في ذلك العصر حدا في الشعر كثيرا وكان يحث النساء الشعراء  
في ذلك العصر عاتكه بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب والتي رثته حين قتل ومما قالت:

منع الرقباد فعناد عيني عائد      مما تضمن قلبي المعسود

قد كان يهزني حذارك مرة      فاليسوم حن لعيني التنهيد

أيكسى أمير المؤمنين ودونسه      للزائرين صفائح وصعيد<sup>(٢٣٣)</sup>

ومما قالته أيضا تربيته (عمر بن الخطاب)

عين جودي بعبرة وتحبيب      لا تملئ على الإمام النجيب

قل لأهل الضراء والبؤس : موتوا      قد سقته المنون كاس شعوب<sup>(٢٣٤)</sup>

ومن شاعرات ذلك العصر زينب بنت العوام أخت الزبير وهي أم عبدالله بن حكيم بن حرام  
، أسلمت وبقيت إلى أن تقتل ابنها يوم الجمل. فقالت تربيته ، وترثي أخاها وأيضا عثمان بن  
عقان<sup>(٢٣٤)</sup>:

أعيني جورا بالدموع فأسرعا      على رجل طلق البدين كريم

زبير ، وعبدالله تدعو لحادث      وذى خلة منا وحمل بتيم

وقد هدني قتل ابن عقان قبلسه      وجادت عليه عبرتي بسجون

وأيقنت أن الدين أصبح مذبر      (فكيف) نصلى بعده وتصوم

وكيف بنا ؟ أم كيف بالدين بعدم      أصيب ابن أروى وابن أم حكيم

الطب والصيدلة : لم تكن العلوم الطبية في ذلك الوقت قد وصلت إلى حد كبير إلا أن  
النساء في المدينة قد عملت بعض من بدايات الطب مثل أسعاف المرضى ومدلومة الجرحى في  
المعارك الحربية وقد برعت من بينهن الربيع بنت معزة التي عمرت حتى عهد الخليفة عثمان بن  
عقان وكانت من اللاتي عرف عنهن مشاركتها الفعالة في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم  
وكانت تداوى الجرحى وترد القتلى إلى المدينة<sup>(٢٣٥)</sup>.

هكذا كان للمرأة المسلمة في المدينة المنورة أثر كبير في الناحية الثقافية قدر طاقاتها وبذلك تكون المرأة في المدينة في عصر الخلفاء الراشدين قد شاركت في مناحي الحياة المختلفة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مؤكدة أن المرأة العربية لها جذور ضاربة في القدم تستمد منها مكانتها ودورها تحت لواء الإسلام.

## الخاتمة

صفوة القول : لعبت المرأة إبان هذا العصر أدوارا متميزة في شتى مناحي الحياة. فبرز دورها السياسي في بيعة بعض الخلفاء، كما كان لها دور لا ينسى في أحداث فتنة عثمان وفي عهد علي.

وكانت تؤثر الدين على الدنيا، فساهمت في حركة الجهاد ضد المرتدين، وفي الفتح الإسلامية بل وركبت في سهيل ذلك البحر، ولم تقف مكتوفة الأيدي أمام تحمل أعباء المسؤوليات الحياتية المختلفة، فشاركت الرجال في الناحية الاقتصادية، فزرعت وصنعت وتاجرت، وتولت أمور الحسبة بل كان لها ذمة مالية في ما يعرف بالعطاء السنوي.

وثبت من خلال البحث أن تلك المرأة كانت عصب المجتمع فهي الأم التي تعد الطعام، وترعى النشأ، وهي الزوجة التي يهفو إليها الفؤاد، وهي الابنة التي تلعب وتتزين. وقامت المرأة بالعديد من أعمال البر، وأخيرا كان لذكاء نساء هذا العصر الأثر الذي دفعهن إلى الإقبال على الإنغماس في الحياة الثقافية من علوم دينية مثل القراءات والحديث والفقه ونظم الشعر، وتعلم الكتابة، بل وكان لها عينا بصيرة بأمر الطب ومداداة الجرحى.

وهكذا كانت المرأة في ذلك العصر صورة مشرفة ومشرقة في جبين الحضارة الإسلامية.



## الهوامش

- ١- البيعة هي المبايعة والطاعة والعهد على الطاعة وكانوا إذا باعوا الأسر وعقدوا عهد، جعلوا أبعدهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، انظر: ابن خلدون: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد والفر، دار الشعب، د.ت، ص ٣٨٤؛ ابن منظور: لسان العرب المحيط، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ج ١، مادة بيع.
- ٢- ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يصفح النساء عن ذلك انظر ابن حجر: الإحياء في تمييز الصحابة، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج ٤، ص ٤١٨.
- ٣- عن بيعة أبي بكر: انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٣، ص ١٩٤. ابن كثير: البداية والنهاية، دار الرشيد حلب، د.ت، ج ٦، ص ٢٦٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق طه عبد الرؤف سعد، ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية القاهرة، د.ت، ص ٦٥-٦٦؛ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١، ص ٢١٧.
- ٤- عن ذلك انظر: أسماء محمد أحمد زيادة: دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين، وبها تحقيق تاريخي وفقهي وتشريعي لفهم دور السيدة عائشة في أحداث الفتنة، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ص ٢٥٨، حاشية ٣.
- ٥- أبو الحسن الرواحي: بلفية الظرفاء، في تاريخ الخلفاء، تحقيق عماد أحمد هلال ومحمد حسني عبد الرحمن وسعاد محمد عبد الستار، أشرف ومراجعة: أمين نواز سيد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١١٥.
- ٦- السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١١٩.
- ٧- ضربه أبو لؤلؤة ثلاث ضربات مات منها عمر بعد مضي ثلاثة أيام من شهر ذي الحجة سنة ٤٢٣هـ / ٦٤٣م، الرواحي، بلفية الظرفاء، في تاريخ الخلفاء، ص ١١٥؛ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، ص ٢٤٢. . Philip Hitti: History of the Arabs, London, 1964, p. 176.
- ٨- مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة، كتاب الشعب، ١٩٧٣م، كتاب الإجماع باب الاستحلال وتركه، ٤ / ٤٨٥؛ أسماء محمد زيادة: دور المرأة، ص ٩-٢.
- ٩- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٦٠-٤٦٢.
- ١٠- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت، د.ت، ج ٢، ١٣٩؛ الرواحي: بلفية الظرفاء، ص ١٢٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٣٨.



- ١١- السيوطي : المصدر نفسه، ص ١٥٥ ؛ أسماء محمد أحمد ، دور المرأة السياسي في عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٣-٢ .
- ١٢- الطبري : تاريخ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ج ٤ ، ص ٣٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ، ١٩٨٨م ، ص ١-٣ ، طارق أبو الوفاء محمد : صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بني يعفر ، ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م رسالة دكتوراه غير منشورة آداب بنها ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م ، ص ٣١ .
- ١٣- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، ص ٣٤ / ٣٤١ ، عصام عبد الرؤوف ، اليمن في ظل الإسلام ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٥٥ / ٥٦ ، صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بني يعفر ، ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م ، ص ٣١ .
- ١٤- الطبري : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦٤ .
- ١٥- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٣٨٥ .
- ١٦- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٨٦ ، أسماء محمد أحمد زيادة ، دور المرأة السياسي في عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٣٤ .
- ١٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، تحقيق وتعليق حمزة النشروش ، والشيخ عبد الحفيظ قرغلي ، عبد الحميد مصطفى ، المكتبة القيمة ، القاهرة ، د.ت ، ج ٨ ، ص ١٤٨ ، السهودي- وفاة الوفاء بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ ، أسماء محمد أحمد زيادة ، دور المرأة السياسي في عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٣٤١ .
- ١٨- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، ص ٣٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦٧ .
- ١٩- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .
- ٢٠- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦٧ .
- ٢١- ابن كثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٥٤ .
- ٢٢- ابن كثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٦٤ .
- ٢٣- ابن كثير : البداية والنهاية ، الجزء ٧ ، ص ١٧٣ .
- ٢٤- ابن كثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٧٤ .

- ٢٤- الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٥٤ . أحمد شلبي : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط ٥ ، مكتبة النهضة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٣٧ .
- ٢٦- الطبري: المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة.
- ٢٧- الطبري: المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة.
- ٢٨- الخراب : بالفتح ثم بالسكون ، وهنذا مفتوحة وباء - موحده وهي من مياه العرب على طريق البصرة انظر بالوث : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢ ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .
- ٢٩- آيبيكر ابن العربي المالكي ، العواصم من القواصم ، حققه وعلق على حواشيه محب الدين الخطيب، دار الكتب العلمية ، القاهرة ، ط ١ ( ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ) ، ص ٦٥٢ ، أسماء محمد أحمد زيادة : دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، ص ٤٠٤ .
- ٣٠- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، أسماء محمد أحمد زيادة ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .
- ٣١- عن وثيقة الحمل انظر: الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ، ص ٥٠٦ إلى ٥٣٩ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٩٩ إلى ١٥٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢١٩ - ٢٤٧ .  
AmeerAill Syed , Short history of the Saracens , London, 1921, p. 50 .
- ٣٢- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٤٦٤ ، محمد سعيد رمضان الموطى : فقه السيرة مع مرجع للخلافة الراشدة، دار السلام ، ط - ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
- ٣٣- الطبري ، المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٥٤٤ ، أبو بكر ابن العربي المالكي : العواصم من القواصم ، ص ١٦٣ ، أسماء محمد أحمد زيادة : دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، ص ٤٤٦ .
- ٣٤- الطبري: المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة ، الموطى : فقه السيرة مع مرجع للخلافة الراشدة ، ص ٣٧٢ ، Ameer Aill Syed , Short history of the Saracens, p. 50 .
- ٣٥- عن اجتماع الحكيمين انظر : الطبري : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦٧ - ٧١ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ إلى ٢١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٨ .
- ٣٦- ابن حجر ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، مصطفى محمد الهوارى ، السيد محمد عبد المعطى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ج ١٢ ، ص ٣٠ ، أسماء محمد أحمد زيادة : دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

- ٣٧- المحب الطبري : الرياض النضرة في مناقب العشرة . تحقيق حمزة النشروني . والشيخ عبد الحفيظ فرغلي ودكتور عبد الحميد مصطفى ، المكتبة القيمة بالقاهرة ، د.ت ص ٤-٧ .
- ٣٨- سير أبي بكر أحد عشر لواء للقطا . على المرتدين . عن هذه الأتوية النظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوكة ج ٣ ، ص ٢٤٩ ، أسماء محمد أحمد زيادة : دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، ص ٢٩٠ .
- ٣٩- عن أسباب الردة النظر : الواقدي : كتاب الردة ، ونيفة عن فتوح العراق ، تهذيب محمد حسدالله ، المطبعة العالمية باريس ، ١٩٨٩م ، ص ١٩ ، ١٢٥ ، العقوبين : تاريخ العقوبين ، ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٣٢ ، الطبري المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٤٩ / ٣٤٢ .
- ٤٠- نسيبة بنت كعب بن عمر بن عوف وهي أم حبيب وعبدالله ابني زيد ابن عاصم وكنيتها أم حمار وكانت قد شهدت بيعة العقبة وشهدت أحداً مع زوجها زيد بن عاصم ومع ابنها حبيب وعبدالله ثم شهدت بيعة الرضوان . ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد الجاوي ، مكتبة تهضة مصر ، القاهرة ، د.ت ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، - ١٩٧٠ ، ج ٧ ، ص ٢٨ .
- ٤١- سببت باليمامة بنت مهم بن قيس ، وكان فتحها وقتل مسلمة الكتاب على يد خالد بن الوليد في أيام أبي بكر الصديق ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٤١ / ٤٤٧ .
- ٤٢- ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ج ٤ ، ص ٤٧١ .
- ٤٣- ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، دار الفكر ، القاهرة ، د.ت ، ج ٤ ، ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ .
- ٤٤- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- ٤٥- وقد أشار الواقدي في كتابه فتوح الشام إلى أسماء ، نساء صنفن الكثير من دروب البطولة والجهاد مثل خولة بنت الأزور وعقرة بنت غفار الحميرية ولبنى بنت حازم ولبنى بنت جرير الحميرية ، عن ذلك انظر : الواقدي : فتوح الشام ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت ، ص ٥٢ - ٢٠٦ ، كما أنني لم أقف لهؤلاء النساء على تراجم عند كل من ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ابن عبد البر : في الاستيعاب ، ج ٤ ، ابن الأثير في أسد الغابة ، ج ٧ وابن حجر في الإصابة ، في تمييز الصحابة ، ج ٧ .
- ٤٦- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .
- ٤٧- عن تفاصيل اشراك النساء المشيات في هذه المعركة انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٤٦٩ ، ابن الأثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٩١ .

- ٤٨- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٥٤٢ .
- ٤٩- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٥٥ .
- ٥٠- ميسان بالفتح ثم السكون ، وسين مهملة وآخره نون اسم كورة واسعة كثيرة القرى والتخيل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان لتحت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بالموت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
- ٥١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٥٩٦ .
- ٥٢- انظر الخبر عند ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .
- ٥٣- فتح البلدان ، ص ١٤٣ .
- ٥٤- ابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ابن حجر ، الاصابة ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .
- ٥٥- البلاذري : فتح البلدان ، ص ١٤٣ .
- ٥٦- اسما ، محمد أحمد زيادة : دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، ص ٣١٢ / ٣١٣ .
- ٥٧- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٨ .
- ٥٨- خولة بنت مالك بن ثعلبة ويقال خولة بنت حكيم وهي التي ظاهرها منها ونزلت عليها سورة المجادلة انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ابن حجر ، الاصابة ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .
- ٥٩- الأزدى : فشرح الشام ، تحقيق عصام مصطفى عقلة ، د . يوسف أحمد بن بين ، تقديم أ . عبد العزيز الدوري ، مؤسسة معاداة للدراسات الجامعية ، أريد ، الأردن ، ٢٠٠٥ م ، ص ٢٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١١ .
- ٦٠- البلاذري : فتح البلدان ، ص ١٥٩ .
- ٦١- البلاذري : المصدر نفسه ، نفس الصفحة .
- ٦٢- ابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٨-١٩ ، ابن حجر ، الاصابة ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ ، ٢٣٥ .
- ٦٣- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٩٣ . ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ( ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ) ، ج ٥ ، ص ١٣٨ .
- ٦٤- البلاذري : فتح البلدان ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

- ٦٥- هي أم حرام بنت ملحان زوجة عيادة بن الصامت . عن ذلك انظر : ابن كثير : الشاية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٨ ، ابن حجر : فتح الباري ، ج ١٢ ، ص ٣٠ .
- ٦٦- الأضرحة ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد حابر عبد العال الحسيني ، محمد شفيق غربال ، وزارة الثقافة والإرشاد ، القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٢٣ ، باقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٨٢ .
- ٦٧- قبا ، هي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة باقوت : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ، ج ٥ ، ص ٨٢ .
- ٦٨- الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكعبة ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، ج ١ ، ص ١٤٣ .
- ٦٩- زمره بنتا أحد أودية المدينة انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .
- ٧٠- عبد الباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .
- ٧١- اللزوي : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ص ١٠٧ .
- ٧٢- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ .
- ٧٣- فتح الباري ، ج ٥ ، ص ١١ .
- ٧٤- محمد محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي الرواية الصحيحة للتاريخ الحضاري والسياس والاقتصادي والإداري والاجتماعي والعلمي للمدينة المنورة . دار القلم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .
- ٧٥- محمد محمد حسن شراب : المرجع نفسه ، نفس الجزء ، ص ٣١٦ ، عبد الباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .
- ٧٦- ابن حجر : فتح الباري ، ج ٥ ، ص ٤١ ، وقد قامت أروى بنت أويس بالدفاع عن أرضها مما جعلها تدخل في خصومة مع سعيد بن زيد انظر : فتح الباري نفس الجزء ، ص ١٠٤ .
- ٧٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٩ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ١٧٣ / ١٧٦ .
- ٧٨- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٤٠٥ .
- ٧٩- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .
- ٨٠- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٩ / ٢٠ .

- ٨١- ابن حجر ، فتح الباري - ج ٤ ، ص ١٤٣ ، عبد الباقى بدر ، التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ج ١ ، ص ٢٣٤ . محمد محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .
- ٨٢- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ .
- ٨٣- محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .
- ٨٤- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٥ ، ١٤ .
- ٨٥- ابن الأثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١١٠ ، ١١١ ، عبد العزيز بن أبيس : مجتمع المدينة لى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جامعة الملك سعود ، ط ٢ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٢٢٢ .
- ٨٦- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٤٩٧ .
- ٨٧- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٠٧ ، السيد سابق ، فقه السنة ، طبعة خاصة بالمؤلف ، ١٤٠٩ هـ / ديسمبر ١٩٨٨ م ، ج ١ ، ص ٤١٢ .
- ٨٨- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .
- ٨٩- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٩٠ .
- ٩٠- بريدة : مولاة عائشة بنت أبي بكر عسرت حتى أنه جالسها عبد الملك بن مروان انظر : ابن الأثير : أسد الغابة - ج ٧ ، ص ٣٩ .
- ٩١- محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .
- ٩٢- البخاري : الصحيح ، كتاب الأطعمة ، باب ٦ ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ .
- ٩٣- البخاري : المصدر نفسه ، كتاب الأطعمة ، باب ٦ ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ، رقم الحديث ٥٣٨١ ، باب علامات النبوة .
- ٩٤- القابلة ، هي التي تساعد الحامل على وضع جنينها وتستقبله وتحنكه ، ابن خلدون ، ص ٣٧ ، ٣٧١ .
- ٩٥- هي سلة امرأة أبي رافع وهي خادم النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ابن سعد أنها مولاة سلمية بنت عبد المطلب انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٨ ، ص ٢٦٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .
- ٩٦- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .
- ٩٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٦٣ ، ابن الأثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .



- ٩٨- ابن الأثير: المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة.
- ٩٩- ابن عبد البر: الاستيعاب ج ٤ ، ص ٥٤ ، محمد حسن شراب : المدينة المنورة فجر الإسلام والعصر الراشدي، ج ١ ، ص ٤ .
- ١٠٠- ابن عبد البر : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٥٥ .
- ١٠١- ابن الأثير: أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٩ - ٢٠ .
- ١٠٢- ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٨ ، ص ٥٣ .
- ١٠٣- ابن سعد : المصدر نفسه، ج ٨ ، ص ٢٦٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة، ج ٧ ، ص ١٤٧ .
- ١٠٤- ابن سعد : المصدر نفسه، ج ٨ ، ص ٤٩٧ .
- ١٠٥- ابن الأثير : أسد الغابة، ج ٧ ، ص ٤١٧ .
- ١٠٦- البهقي: تاريخ البهقي، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .
- ١٠٧- المدني : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق م. ج. دي غويه ، ط ٢ ، لندن ، ١٩٠٦ م ، ص ٨ .
- Britannic, Encyclopaedia . vol 15 . London , 1957 , p. 206 .
- ١٠٨- فليب حسي ، إدوارد جرجي جبرائيل حبور: تاريخ العرب المطول ، ط ٤ ، بيروت ١٩٦٥ م ، ج ١ ، ص ٩ .
- ١٠٩- مختار محمد بلوك : المدينة المنورة ذرة المدائن ، دار بلوك ، الرياض ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ١٧٢ .
- ١١٠- مختار محمد بلوك : المرجع نفسه ، نفس الصفحة .
- ١١١- القرآن الكريم، سورة النساء ، آية ٣٢ .
- ١١٢- عبد الله عبد العزيز بن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص ٢١٢ ، ومنهن على سبيل المثال الحولا ، بنت تريت التي دخلت على عائشة وسألته عن حاجتها في عهد الرسول فقدم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : «أني لأجد ريح الحولا ، فهل اتكمم ، وهل ابتعنم منها شيء انظر ، ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٨ ، ص ٢٨٣ ، ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٧ ، ص ٧٥ .
- ١١٣- الأعلية : أي تبعه بالدين إلى حين وقت العطاء ، الذي يأخونه من بيت المال انظر : محمد محمد حسن : المدينة المنورة ، ج ١ ، ص ٤٦٩ .

- ١١٤- الواقدي : المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : (٤-١٤هـ / ١٩٨٤م) ، ج ١ ، ص ٨٩ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ابن الأثير : أسد القابة ، ج ٧ ، ص ١٠٧ .
- ١١٥- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٤٩٧ .
- ١١٦- الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١٨٦٣ .
- ١١٧- ابن عبد البر : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي ، ج ١ ، ص ٤٦٩ .
- ١١٨- عبدالله عبد العزيز بن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص ٢١٢ .
- ١١٩- محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام ، والعصر الراشدي ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .
- ١٢٠- Krik George : A Short History of the Middle East , from the Rise of Islam To Modern Times , London , 1964 , p. 37 .
- ١٢١- عبد الياسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ج ١ ، ص ٢٧١ .
- ١٢٢- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٦٦٤ .
- ١٢٣- البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .
- ١٢٤- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٦١١ ، ٦١٥ .
- ١٢٥- الطبري : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٦١٥ .
- ١٢٦- البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٤٨ .
- ١٢٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ١٨٩ .
- ١٢٨- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .
- ١٢٩- ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ١ ، ص ٥٤ .
- ١٣٠- السنج : يضم أوله ، وسكون ثانيه ، وآخره حاء مهملة ، وهي إحدى محال المدينة كان بها منزل أبي بكر الصديق وبينها وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ .
- ١٣١- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

- ١٣٢- لمستها عائشة أم كلثوم وتزوجها طلحة بن عبد الله الطبري، ابن عبد البر الاستيعاب، ج ٤، ص ١٨٠-٧، ابن الأثير، أمد الغاية، ج ٧، ص ٦٠.
- ١٣٣- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٦-٣، ابن عبد البر، المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٨٧٨.
- ١٣٤- ابن عبد البر، المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٨٧٨، ابن الأثير، أمد الغاية، ج ٧، ص ١٨٤.
- ١٣٥- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٩-٣.
- ١٣٦- الإصهاني، الأغاني، تحقيق وإشراف إبراهيم الأبياري، دار الشعب القاهرة، ١٣٨٨م/ ١٩٦٩م، ج ١١، ص ٦١٥٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٥٤، ١٦٤، ١٦٥.
- ١٣٧- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٤٣، ٢٦٩، ابن الأثير، أمد الغاية، ج ٧، ص ٢٢.
- ١٣٨- ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٤، ص ١٧٨٩، ١٧٩٠.
- ١٣٩- تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٦.
- ١٤٠- ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٤، ص ١٩٢٦.
- ١٤١- ابن عبد البر، المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٦٠٦، ١٦٠٧.
- ١٤٢- ابن عبد البر، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢٥.
- ١٤٣- ابن عبد البر، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٢٦.
- ١٤٤- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٤٤، أبو بكر ابن العريش، العواصم، ص ١٦٣، أساء أحمد زيادة، دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء والرؤساء، ص ٤٤٩.
- ١٤٥- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٥٣٣.
- ١٤٦- ابن سعد، المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٥٣٢.
- ١٤٧- ابن الأثير، أمد الغاية، ج ٧، ص ٣٩.
- ١٤٨- الشريد من أحلم طعام أهل المدينة وهو من الخبز واللحم ومن الممكن أن يفت الخبز في لبن، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٠٢.
- ١٤٩- البخاري، الصحيح، كتاب الإطعمة، باب ٧، ج ٣، ص ٢٩٤، رقم الحديث ٥٣٨٢، محمد حسن شراب، المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي، ج ١، ص ٥١٦.

- ١٥٠- الدباء، وهر القرع، البخارى، الصحيح، كتاب الأطفة، باب ٤، ج ٣، ص ٣٣٦، ٢٩٣ - محمد حسن شراب: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى، ج ١، ص ٣٣٦ .
- ١٥١- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ١٤٥، الأقط، هو جبن اللبن المستخرج زبد، محمد حسن شراب: المرجع نفسه، ج ١، ص ٥١٢ .
- ١٥٢- ابن سعد، المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٥٣٧ .
- ١٥٣- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٧٨٧، ١٧٨٨، ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٧، ص ١٩، ٢٠ .
- ١٥٤- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٢٩، محمد حسن شراب: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى، ص ٤٦٤ .
- ١٥٥- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٤٥، عبدالله عبد العزيز بن إدريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٢٤٤ .
- ١٥٦- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٧٩ .
- ١٥٧- ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٦٩٢٩ .
- Ameer Aill, Short History of the Saracens, p. 68 .
- ١٥٨- مالك بن انس: الموطأ (جزان)، صححه وعلق عليه محمد فؤاد الباقى، القاهرة - ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، ج ٢، ص ٣٢٨ .
- ١٥٩- ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٥٣٠ .
- ١٦٠- ابن سعد: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٠٦ .
- ١٦١- الخطبة، شرعها الله قبل الارتباط بعقد الزوجية ليشعر كل من الزوجين على صاحبه، ويكون الاقدام على الزواج على هدى وبصيرة، السيد سابق، فقه السنة، ج ٢، ص ٢٠ .
- ١٦٢- ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ٥٠٦، ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٩٥٥ .
- ١٦٣- مثلما فعلت خنساء بنت خزام ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٧، ص ٨٨ .
- ١٦٤- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٩٥٥ .
- ١٦٥- ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ٥١٥ .
- ١٦٦- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، نفس الصفحة.

- ١٦٧- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٨٧٨، ابن الأثير: أسد الغابة، ص ١٨٤.
- ١٦٨- البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٢، ابن عبد البر: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٩٣٢.
- ١٦٩- ابن عبد البر: مصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٩٣٢.
- ١٧٠- وجعل بينكم مودة ورحمة (الروم آية: ٢١).
- ١٧١- ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ٥٣.
- ١٧٢- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٧٨.
- ١٧٣- الحرابي: بنت تريت ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٢٨٣، ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٧، ص ٧٥.
- ١٧٤- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٥٢٦.
- ١٧٥- عن ذلك انظر: ما ذكره محمد محمد حسن شراب: المدينة المنورة، ج ٢، ص ١٢٧، ١٢٨.
- ١٧٦- الضحك: هو مضغ التمر ثم وضعها في المولد وهي عادة موجودة منذ العهد النبوي انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٥٨، ٦٩، ٧٤، عبدالله عبد العزيز بن إدريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٢٤٢.
- ١٧٧- إنهم كانوا يذبحون شاه عن الذكور والإناث عند ولادتهم والعقيقة أصلها: الشعر الذي يكون على رأس المولود حين يولد، وسُميت عقيقة، لأنه يخلق عنه ذلك الشعر، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٨٤٣.
- ١٧٨- القرآن الكريم: سورة الطلاق آيات (١١-١٢).
- ١٧٩- ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ٥٣٩.
- ١٨٠- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٨٠٣، ١٨٠٢، ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٧، ص ٥٢.
- ١٨١- ابن عبد البر: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ١٨٣٧، ابن الأثير: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٢٦٤.
- ١٨٢- الطبقات، ج ٨، ص ٥٢٩.
- ١٨٣- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، نفس الصفحة.
- ١٨٤- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٣٠٧.



- ١٨٥- فذك ، بالتحريك وأخره كان ، وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وتبيل ثلاثة أفا ، الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في سنة سبع صلحاً ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .
- ١٨٦- ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٣٩ ، ٣٢ انظر التفاصيل عند أبو بكر ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٦٥ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
- ١٨٧- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .
- ١٨٨- ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٣٩ ، ٣٢ ، ابن الأثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٢٦ .
- ١٨٩- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٢٤ .
- ١٩٠- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٦٦ ، ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ٨ .
- ١٩١- السيد سابق : فقه السنة ، ج ١ ، ص ٤٢٧ .
- ١٩٢- التلبية : روى عن عائشة ، إنها كانت إذا مات الميت من أهلها وعاشتها ، أمرت بمرمة من تلبية تظخت ، ثم صنع لريد فصوت التلبية عليها ثم قالت كلن منها ، فإني سمعت رسول الله يقول ، التلبية مجسة لغزاه المريض تذهب ببعض الحزن ، والتلبية : حساء يعمل من دقيق أر لحامه ، ويجعل فيه صل أو لبن وسيت تلبية تشبها لها باللبن في يابسها ووزنها ، انظر : محمد بن عبد حسن شراب : المدينة المنورة ، ج ١ ، ص ٥١٣ .
- ١٩٣- ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٣٠٩ .
- ١٩٤- ابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١٨٧٩ .
- ١٩٥- ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٥١١ .
- ١٩٦- البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب ٣ ، جمع القرآن ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ، رقم الحديث ، ٤٩٨٦ .
- محمد بن عبد حسن شراب : المدينة المنورة ، ج ١ ، ص ٢٤١ .
- ١٩٧- ابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١٨١٢ .
- ١٩٨- ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٣٣٥ .
- ١٩٩- ابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ٤ ، ص ١٨٢٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ٩٠ .
- ٢٠٠- ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٥٣٨ .
- ٢٠١- ابن سعد : المصدر نفسه ، الجزء ، ص ٢٤١ .
- ٢٠٢- ابن سعد : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .

- ٢٠٣- أحمد تيمور باشا: لعب العرب وبعض لعب المولدين ، دار نهضة مصر، اللجالة ، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢١ .
- ٢٠٤- ابن حجر : فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٢٧ .
- ٢٠٥- محمد محمد حسن شراب : المدينة المنورة، ج ١، ص ٤٧٥ .
- ٢٠٦- أحمد تيمور باشا: لعب العرب وبعض لعب المولدين، ص ٦٥ .
- ٢٠٧- أحمد تيمور باشا : نفس المرجع ، نفس الصفحة.
- ٢٠٨- الأروحة : خشية يوضع وسطها على تل، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها ويجلس الآخر على الطرف الآخر . فتترجع بهما ويتحركان، فيسبل أحدهما بالآخر، أحمد تيمور: نفس المرجع ، ص ١١ .
- ٢٠٩- أبو داود : السنن (٢١٢١) .
- ٢١٠- الطبقات الكبرى ، ج ٨، ص ٥٠٩ .
- ٢١١- هي قطعة من خشب يحفر فيها ثلاثة أسطر لجعل في تلك الحفر حصى صغار يلعبون بها النظر، أحمد تيمور : لعب العرب وبعض لعب المولدين، ص ١٧ .
- ٢١٢- ابن سعد : الطبقات، ج ٨، ص ٥٠٩ .
- ٢١٣- ابن حجر : الإصابة ، ج ٤، ص ٢٢٦ .
- Ameer Ail : Short History of the Saracens, p. 67 .
- ٢١٤- مذهب خاص للمدينة كما كان مذهب خاص لمكة في الغناء، انظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٩٦٥ ، ص ١٠ ، ص ١٧٧ .
- ٢١٥- كانت تعنى في المدينة نظر : ابن حجر : الإصابة ، ج ٤، ص ٢٢٦ .
- ٢١٦- سورة العلق ، آية ١ .
- ٢١٧- Ameer Ail : Short History of the Saracens p. 67 .
- ٢١٨- هو علم يتصل بالقرآن نفسه وتصومه وكيفية قراءته ويرجع السبب في ظهور القراءات إلى خاصية الخط العربي إذا أن رسم الكلمة الواحدة تقرأ بطرق مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتيها ، وقد وجدت على مر الزمن سبع طرق من القراءات تشمل كل طريقة منها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام ترتبط باسمه، وتستند إلى أحاديث موثوق بها ابن خلدون : المقدمة، ص ٢٠٤ . حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢، ص ٣٤٢ .

- ٢١٩- محمد محمد حسن شراب: المدينة المنورة، ج ١، ص ٢١.
- ٢٢٠- ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٢٩٩، عبدالله بن عبد العزيز: مجتمع المدينة، ص ٢٣٠.
- ٢٢١- Hitti: History of the Arabs from the earliest Times to the Present p. 176.
- Hassan, Hassan Ibrahim ' History and Culture , Saudi, 1968, p. 60, 61.
- ٢٢٢- ابن شيه: تاريخ المدينة المنورة، ج ٢، ص ٩٩٢، ٤٠-١٠٠، عبد الباسط: التاريخ الشامل للمدينة، ج ١، ص ٢٩٢، ٢٩٣.
- ٢٢٣- ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ٤٩٩-٥٠٠.
- ٢٢٤- ابن سعد: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٥٠٠، ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٩٤٨، ١٩٤٩.
- ٢٢٥- علم الحديث، الحديث هو ثلثي مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقه أو خلقه، ولكون الحديث اختص بتفاصيل أمور الدين وأصوبه التعبدية من صلاة وزكاة وغير ذلك فقد أميل المحدثون وطلاب الحديث على معرفة ناسخه ومنسوخه.
- رجال السنن وصحة المائ - انظر ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠٥ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢، ص ٣٢٩، السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب تاريخ الدولة العربية، ص ٤٢٢، شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ص ٣٥ محمد محمد أبو شهبة: الكتب الصحاح الستة، الأزهر، القاهرة (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)، ص ٨.
- ٢٢٦- أحمد بن حنبل: المسند، ج ٦، ص ٣٤٩، ٣٦٥.
- ٢٢٧- أحمد بن حنبل: المسند، ج ٦، ص ٣٦٩.
- ٢٢٨- ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ٣٧١، ٣٧٢، ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٩٠-٢.
- ٢٢٩- الفقه: هو علم يعتنى بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالرجوع والحذر والتدب والكراهة والإباحة، وهي مستقاة من الكتاب والسنة وما نصه الشارع لمعرفة من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه نظراً ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٦٠.
- ٢٣٠- الذهبي: سير إمام النبلاء، تحقيق إبراهيم الأبياري، نشره معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب، ١٩٥٦، ج ٢، ص ١٣٥، محمد الغزالي: محمد سيد طنطاوي، وأحمد عمر هاشم: المرأة في الإسلام، مطبوعات أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١١٧، ١١٨.

- ٢٣١- ابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ٤ ، ١٨٣٧ ، ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ٢٦٤ .
- ٢٣٢- ابن عبد البر : المصدر ، نفسه نفس الجزء ، ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، ابن حجر : الإصابة ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ .
- ٢٣٣- ابن عبد البر : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ .
- ٢٣٤- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .
- ٢٣٥- ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٧ ، ص ١٣٣ .
- ٢٣٦- ابن الأثير : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٧-١ .

## المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة :

- ١- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أحمد (ت ٦٦٠هـ / ١٢٣٢م) .
- ٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، (٧ أجزاء) ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم النيا ومحمد أحمد عاشور ومحسود عبد الوهاب فايد ، دار الشعب القاهرة (١٣٩٣هـ / ١٩٨٢م) .
- ٣- الكامل في التاريخ ١١ جزءاً ، دار الكتب العلمية بيروت ، ص ١٤٠-٧١٤هـ / ١٩٨٧م .
- الإدريسي - أبو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحسوي الحسيني ، عاش بالقرن السادس الهجري .
- ٤- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق جزءان ، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ( ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) .
- الأصبهاني : الأصبهاني : أبو الفرج الأصبهاني (٣٥٦هـ / ٩٦٧م) .
- ٥- الألساني ، تحقيق وإشراف إبراهيم الأبياري ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ج ١١ .
- الاصطخرى : ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى المعروف بالكرخي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) .
- ٦- المسالك والممالك ، تحقيق دكتور محمد جابر عبد العالاحسيتي ، ومراجعة محمد شفيق غريال ، وزارة الثقافة والإرشاد ، القاهرة (١٣٨١هـ / ١٩٦١م) .
- اليخاري : أبو عبدالله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) .
- ٧- صحيح اليخاري بحاشية السندي ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوثيقية ، القاهرة - د . ت .
- أبو بكر العربي المالكي ت (٥٤٣هـ / ١١٤٨م) .
- ٨- «العراصم من القراصم» ، حققه وعلق على حواشيه محب الدين الخطيب ، دار الكتب السلفية ، القاهرة ، ط ١ (٥-١٤هـ / ١٩٨٤م) .

- البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) .
- ٩- «فتوح البلدان» تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وعسرو أحمد عطوة، دار ابن خلدون، إسكندرية، د.ت.
- ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) .
- ١٠- الإصابة في تمييز الصحابة (٤ أجزاء) ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- ١١- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، طه عبد الرؤوف سعد، مصطفى الهاروي ، السيد محمد عبد المعطي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ابن حنبل : أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م)
- ١٢- المسند «وبهاشيه منتخب كنز العمال في سنن الأقبوال والأفعال للمتقى الهندي، وفيه أول فهرس رواية المسند من الصحابة ، وضعه محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٥ (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)
- ١٣- «المقدمة» تحقيق علي عبد الواحد والفي ، دار الشعب، د.ت .
- أبو داود : ت (٢٧٥هـ ٨٨٨م) .
- ١٤- السنن «المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت
- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .
- ١٥- الذهبي : سير إعلام النبلاء ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، نشره معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب، ١٩٥٦ .
- أبو الحسن الروحى (ت بعد ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) .
- ١٦- بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق عماد أحمد هلال ومحمد حسنى عبد الرحمن وسعاد محمد عبد الستار ، إشراف ومراجعة د. أمين فؤاد سيد ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الهاشمي ، ت (٢٣٠هـ / ٨٤٤م) .
- ١٧- «الطبقات الكبرى» (٨ أجزاء) ، تحقيق وتعليق حمزة الشيرازي ، الشيخ عبد الحفيظ فرغلي، د. عبد الحميد مصطفى، المكتبة القيمة، د.ت.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي، ت (٩١١هـ / ١٥٠٥م) .



- ١٨- «تاريخ الخلفاء» تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ويأسر صلاح عزب . المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.
- ١٩- ابن شيبه : عمر بن شبة ، ت (٢٦٢هـ / ٨٧٥م) .
- تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، دار الأصفهاني، جدة (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) .
- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .
- ٢٠- «تاريخ الرسل والملوك» ، ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) .
- ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر ت (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) .
- ٢١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤ أجزاء) دار صادر ، بيروت د.ت ، تحقيق علي محمد الجاروي، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة.
- أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن شاهره بن أيوب صاحب حماة، (٧٣٢هـ / ١٣٣١م) .
- ٢٢- «تقويم البلدان» اعتنى بتصحيحه رفود والبارون ماك كوكين ديسلان، المطبعة السلطانية، باريس ١٨٥٠ .
- ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل بن كثير ، ت (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
- ٢٣- «البداية والنهاية» ، ١٦ جزءاً دار الرشيد، حلب، د.ت .
- مالك بن أنس : مالك بن أنس ت (١٧٩هـ / ٧٩٥م) .
- ٢٤- «الموطأ» (جزءان) صححه وعلق عليه محمد فؤاد الباقي، القاهرة ١٣٧٠ / ١٩٥١م.
- المحب الطبري : محب الدين أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد الطبري ت (٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) .
- ٢٥- «الرياض النضرة في مناقب العشرة» ، تحقيق حمزة النشوتى، والشيخ عبد الحفيظ فرغلي، دكتور عبد الحميد مصطفى، المكتبة القيمة القاهرة، د.ت .
- مسلم : مسلم بن الحجاج ، ت (٣٥٦هـ / ٨٦٩م) .

- ٢٦- صحيح مسلم بشرح النووي تحقيق عبد الله أحمد أوزينة ، كتاب الشعب، ١٩٧٣م.  
كتاب الامارة باب الاستخلاف وتركه ، ٤ / ٤٨٥ .
- ابن منظور : محمد بن مكرم المعروف بابن منظور ، ت (٧١١هـ / ١٣١١م) .
- ٢٧- « لسان العرب المحيط » ، ٦ أجزاء ، دار المعارف القاهرة، ١٩٨١م .
- الواقدي : محمد بن عمر بن واقد ، ت (٢٠٧هـ / ٨٢٢م) .
- ٢٨- «كتاب الردة ونسلة من فتوح العراق» ، تهذيب محمد حميد الله، المطبعة العالمية، باريس ، ١٩٨٩م .
- ٢٩- فتوح الشام ، دار الجيل ، بيروت، د.ت .
- ٣٠- «المغازي» ، ثلاثة أجزاء ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة، (٦٤٠هـ / ١٩٨٤م) .
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحسوي ، ت (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .
- ٣١- «معجم البلدان» ، خمسة أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- اليقوس : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، ت (٢٩٢هـ / ٩٠٤م) .
- ٣٢- «تاريخ اليقوس» جزآن ، دار صادر، بيروت ، د.ت .
- ثالثا : المرجع العربية :
- أحمد أمين (دكتور) :
- ٣٣- فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م .
- أحمد تيمور باشا :
- ٣٤- لعب العرب وبعض لعب المولدين ، قدم أ.د. إبراهيم سلامة، دار النهضة مصر، الفجالة ، القاهرة ١٩٨١م .
- أحمد شلبي (الدكتور)
- ٣٥- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط ٥ ، مكتبة النهضة ، ١٩٧٠ .
- أساء محمد أحمد زيادة (الدكتور)
- ٣٦- دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، وبها تحقيق تاريخي ونقهي وتشريعي لفهم دور السيدة عائشة في أحداث الفتنة، دار السلام ، القاهرة ، ط ١ .

أيمن فؤاد السيد (الدكتور) :

٣٧- تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، دار المصرية اللبنانية، (٨-١٤٤ هـ / ١٩٨٨م).

حسن إبراهيم حسن: (دكتور)

٣٨- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ أجزاء، ط١٠، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٨٥م.

السيد سابق :

٣٩- فقه السنة، طبعة خاصة بالمؤلف (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨م).

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) :

٤٠- دراسات في تاريخ العرب- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، د.ت.

شوقي ضيف (الدكتور) :

٤١- تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، الطبعة العاشرة، دار المعارف، ١٩٨٦م.

طارق أبو الوفا محمد (الدكتور) .

٤٢- «صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بني يعفر»، ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة آداب بها ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤م، ص ٣١.

عبد الباسط بدر : (الدكتور)

٤٣- التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م ثلاثة أجزاء.

عبدالله عبد العزيز بن أبريس (الدكتور) :

٤٤- مجتمع المدينة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، جامعة الملك سعود، ط٢، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي (الدكتور) :

٤٥- اليمن في ظل الإسلام منذ تجرته حتى قيام دولة بني رسول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٢م.

على إبراهيم حسن : (الدكتور) .

- ٤٦- التاريخ الإسلامى العام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١م.  
 الغزالي: محمد الغزالي، محمد سيد طنطاوى، وأحمد عمر هاشم :  
 ٤٧- المرأة فى الإسلام مطبوعات أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩١م .  
 د. قليب حتى ، د. أدور جرجى، د. جبرائيل جيور:  
 ٤٨- تاريخ العرب مطول ، ٣ أجزاء، ط ٤، ج ١، بيروت ١٩٦٥م .  
 محمد محمد حسن شراب (الدكتور) .  
 ٤٩- المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (الرواية الصحيحة للتاريخ الحضارى  
 والسياسى ، والاقتصادى، والإدارى، والاجتماعى، والعلمى للمدينة المنورة) . دار  
 القلم، بيروت ، ط ١، ج ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .  
 محمد محمد أبو شهبة : (الدكتور)  
 ٥٠- الكتب الصحيح الستة، الأزهر ، القاهرة (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)  
 مختار محمد بلوك :  
 ٥١- المدينة المنورة ذرة المدائن، دار بلوك ، الرياض ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ١٧٢ .  
 رابعاً: المراجع الأجنبية :

Ameer Aill Syed,

52- Short History of the Saracens , London , 1921 .

Britannic

53- Encyclopaedia . vol 15 London , 1957 .

Hassan , Hassan Ibrahim

54- History and Culture (from 632 to 1968), Sandi Hitti .

55- History of the Arabs from the earliest Times to the Present, London ,  
 1964.

Krik George

56- A Short History of the Middle East , from the Rise of Islam to Modern  
 Times, London 1964 .

دكتور سعيد مغاوري محمد \*

## الخلع و الطلاق في نصوص بعض أوراق البردي و الكاغد خلال القرون الأولى للهجرة

تمهيد :-

تحتل العلاقات الاجتماعية وخاصة المتعلقة بالأسرة و الأحوال الشخصية مكانة متميزة في نصوص البرديات العربية و بعض أوراق الكاغد خلال القرون الأولى للهجرة ، و ذلك لأن أوراق البردي كانت من أبرز المواد التي كانت تستخدم في الكتابة و التدوين خلال هذه الفترة المتقدمة في العهد الإسلامي ، فهناك العديد من عقود الزواج و أوراق الخلع و الطلاق ، وكذلك تلك المراسلات و المكاتبات الشخصية كطلب الخواتج و صلة الرحم و عيادة المرضى و الإطمئنان على أفراد الأسرة ..و غيرها كثير يتعلق بالنواحي الاجتماعية و الأحوال الشخصية و منها الخلع و الطلاق ، و تزخر العديد من المكتبات و المتاحف و الجامعات في أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية ببعض هذه النصوص التاريخية الهامة ، أغلبها غير منشور، و المتأمل في هذه النصوص الوثائقية الهامة يلاحظ أنها تحتوي على العديد من المعلومات المتعلقة بالأحوال الشخصية و العلاقات الاجتماعية في هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي ، فهي تكشف عن مكانة المرأة و توضح مدى حريتها في التعبير عن شعورها و رغبتها في الاستقلال و الانفصال عن الزوج بالخلع إذا كرهت صحته، و أظهرت

---

\* أستاذ الآثار و الحضارة الإسلامية المساعد - وكلية كلية السياحة والفنادق للدراسات العليا و البحوث -  
جامعة المنوفية .

كذلك العديد من أسماء القضاة و الشهود و مقادير الصداق و المأخر و النفقات و أسماء الأبناء و البنات و كفالتهن بعد الإنفصال - وغيرها . أيضا هناك نصوص أخرى تتعلق بالطلاق أظهرت معلومات هامة عن الأضرار التي دفعت الزوج للإقدام على الطلاق في بعض النصوص ، هذا بالإضافة لذكر مؤخر الصداق و أسماء القضاة و الشهود الذين تم تنفيذ هذا الطلاق في حضورهم و كذلك ذكر موقف الأبناء و البنات بعد إتمام هذا الأمر ، هذا بالإضافة لبعض حالات طلاق أهل الذمة وفق شريعة الإسلام ، ومن ناحية أخرى كشفت بعض أوراق مجالس الحكم و الصلح في دواوين القضاة ، قبل الإقدام على الخلع أو الطلاق ، وهي في حقيقتها الأمر تحتوي على معلومات هامة عن معي العقلاء للجمع بين المتخاصمين للصلح بينهما و جمع الشمل صيانة و حماية للمرأة من التفكك و تشريد الأبناء ، جميع هذه النصوص هامة بل و بالغة الأهمية لإبراز العديد من الجوانب الغامضة في التاريخ و الحضارة الإسلامية .

### أولاً :- الخلع

١- سنده من كتاب الله تعالى :-

هو فرقة بين الزوجين ، وهو جائز عند جمهور الفقهاء للحاجة إليه عند وقوع نزاع بين الزوجين و عدم الوفاق بينهما لأسباب متعددة منها أسباب ( خَلْفَةٍ أو خِنْفَةٍ أو دَيْبَسَةٍ أو لَقْسِيَةٍ ) وتخشي الروحة ألا تؤدي حتى الله تعالى في طاعة زوجها فُشْرَع لها الخلع ، وقد أشار العلماء بأخذ القدية من الروحة لزوجها عملاً بقوله تعالى في سورة البقرة : "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان و لا يجل لكم أن تأخذوا مما آتيتوهن شيئاً إلا أن يوافقا أولاً فيما حدود الله فإن ختم أولاً فيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما ابتدأت به تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون " <sup>(١)</sup> أو لقد أشارت الآية الكريمة و خاصة في قوله تعالى : " فإن ختم أولاً فيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما ابتدأت به " بمشروعية الخلع إذا تشاقق الزوجان و لم تقم المرأة بحقوق الرجل و أبغضته واستحالت العشرة بينهما ، فلها أن تقتدي منه بما أعطاهها و لا حرج عليها في بذلها له و لا حرج عليه في قبول ذلك منها " <sup>(٢)</sup>



## ٢- سنده من السنة النبوية الشريفة :-

حث رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم على ثماسك الأسرة و عدم تفككها و توحى المدقة و الحذر عند الإقدام على الخُلَع أو الطَّلَاق ، وفي هذا الخصوص روي ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فيجد ربح الجنة ، و إن ربحها ليجد من مسرة أربعين عاماً " . و قوله أيضاً صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي " المختلعات هن المناققات " و حديث آخر رواه الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " المختلعات و المترعات هن المناققات " .<sup>(٣١)</sup>

و لقد أورد الكثير من علماء السلف و أئمة الخلف أنه لا يجوز الخُلَع إلا أن يكون الشقاق و النشوز من جانب المرأة ، فيجوز للرجل حينئذ قبول القدية ، و احتجوا بقول تعالى : " و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتمموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله .. " قالوا : فلم يشرع الخُلَع إلا في هذه الحالة ، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل ، و الأصل عدمه ، و ممن ذهب إلى هذا : " ابن عباس و عطاء و الحسن و الجمهور " ، و ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخُلَع في حال الشقاق<sup>(٣٢)</sup> .. و هو قول جميع أصحابه و استدلوا في ذلك : " لواقعة ثابت بن قيس و زوجته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول " .

هذه الواقعة الشهيرة و للزبدة لحالات الخُلَع في شريعة الإسلام ما أوردته البخاري في صحيحه : " عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن ثماس أمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله : ما أعيبُ عليه في خُلُقٍ و لا دينٍ و لكن أكرههُ الكُفْرَ في الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتردئين عليه حديثه ؟ " قالت : نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إقبل الحديثه و طلقها تطليقة " .

أما رواية ابن عباس فهي أن : جميلة بنت سلول أمت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : و الله ما أعيبُ علي ( ثابت بن قيس ) في دينٍ و لا خُلُقٍ ، ولكنني أكره الكُفْرَ في الإسلام لا أطيعه بغيراً ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " تردئين عليه حديثه ؟ " قالت : نعم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ ما ساقى و لا يردأه<sup>(٣٣)</sup> .

أيضا هناك رواية ابن جرير : عن عبدالله بن رباح عن جميلة بنت عبدالله بن أبي اسن سلول أنها كانت تحت ثابت بن قيس فنشرت عليه فأرسل إليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا جميلة ما كرهت من ثابت ؟ " قالت : و الله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً إلا أني كرهت دماسته ، فقال لها : " أتؤذنين عليه الحديقة ؟ " قالت : نعم فردت عليه الحديقة و فرقت بينهما .

و تعبير هذه الحالة أول خُلَع في الإسلام ، ذلك أن بعض كتب السير أوردت أنها أي : " جميلة بنت عبدالله بن أبي بن سلول أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، لا يجمع رأسي و رأسه شيء أبداً ، إنني رفعت جانب اخبأء قرأيتُه قد أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سواداً و أقصرهم قامة و أقبحهم رجهاً ، فقال زوجها : يا رسول الله إنني قد أعطيتها أفضل ما لي حديقة لي فإن ردت علي حديقتي ، قال : " ماذا تقولين ؟ " قالت : نعم و إن شاء ردتها ، قال : ففرقت بينهما .<sup>(١٥)</sup>

### ٣- الخُلَع في اللغة :-

أوردت العديد من قواميس و معاجم اللغة العربية معلومات هامة عن معنى و حقيقة الخلع لغة ، منها خالعت المرأة زوجها مخالفة إذا التقت منه و طلقها على القدية ، فخلعتا هو خلعتاً ، و الاسم الخُلَع بالضم ، و هو استعارة من خلع اللباس ، لأن كل واحد منهما لباس للأخر ، فإذا فعلا ذلك فكان كل واحد نزع لباسه عنه ، و في الدعاء ( و نخلع و لهجر من كُفرك ) أي يُغض و نترأ منه ، و منها خلعت الوالي عن عمله بمعنى عزلته ، و الخُلعة ما يعطيه الإنسان و غيره من الصاب منحة و الجمع خلع<sup>(١٦)</sup> أيضا أورد صاحب (مختار الصحاح ) تعريفاً للخُلَع بقوله خالعت المرأة بعلها أراده على طلاقها بدل منها له فهي ( خالعت ) و الاسم ( الخُلعة ) بالضم و قد ( تخالعتا ) و اختلعت فهي ( مُختلعة )<sup>(١٧)</sup>.

### ٤- الخُلَع في نصوص البرديات و أوراق الكاغد العربية

تضمنت العديد من نصوص البرديات و أوراق الكاغد العربية معلومات هامة عن حالات الخلع خلال القرون الأولى من الهجرة النبوية الشريفة بعض هذه النصوص محفوظة في

عدد من المكتبات و المتاحف و الجامعات الأوروبية و الأمريكية كما سبق أن أشرت ، نعل  
أبرز هذه المجموعات مجموعة الأرشيدوق راينر المحفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا منها :  
وثية خُلج سارة بنت عبود الناهض من زوجها عبدالغني بن برلانس\* تحمل رقم  
سجل (PER.inv.chart.Ar.28011)<sup>(٨)</sup> عثر عليها في مدينة الأشمونين بالصعيد الأوسط في  
مصر ، وهي مدينة عريقة ورد ذكرها في العديد من كتب الرحالة و الجغرافيين، فقد  
أوردها كل من الرحالة الإصطخري "أبواسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي" الذي توفي في  
القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، و كذلك الرحالة (المسحي) و هو محمد بن عبيد  
الله بن أحمد\* ، الذي عاش بين أعوام ٣٦٦-٤٢٠ هـ / ٩٧٧-١٠٢٩ م . فقال عنها  
الإصطخري : " .. و أما الأشمونين فإنها مدينة صغيرة عامرة ذات نخيل و زروع .."<sup>(٩)</sup> ، أما  
المسحي فقال عنها : إنها من المدن المصرية القديمة و هي إحدى بلاد مركز ملوي بمحافظة  
أسيوط غربي النيل "<sup>(١٠)</sup> . أيضا ذكرها الرحالة الإدريسي في القرنين ٥-٦ هـ / ١١-١٢ م  
بقوله : " وهي مدينة صغيرة حسنة عامرة بها جنات و بساتين و نخيل و زروع .. و أمامها  
من شمال النيل بوضير .."<sup>(١١)</sup> و الوثيقة التي نحن بصددنا مؤرخة في يوم ٢٧ من شهر جمادي  
الأولى سنة ٤٦١ هـ الموافق ٢٤ مارس سنة ١٠٦٩ م مكتوبة على قطعة من ورق الكاغد  
أطولها ١٦×٢١,٥ سم - حالتها جيدة - تضمنت نصاً كتابياً قوامه ٢٣ سطر - كتبت  
بأسلوب خط التحرير المخفف أو ما يطلق عليه أحيانا "بالخط الحجازي اللين".

#### نص الوثيقة<sup>(١٢)</sup>

- ١- بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢- سألت سارة ابنة عبود الناهض زوجها عبدالغني بن برلانس
- ٣- من جملة العبيد الرحمانية المستخدم بمركز الأشمونين أن يملكها
- ٤- نفسها عليه بطلقة واحدة خلج و هي أول طلقة بعد دخوله
- ٥- بها و إصابته إياها و أولدها ولد غلام مبلغ عمره بعد تاريخ
- ٦- هذا الكتاب خمسة سنين يدعا الجند عندما كرهت صحته
- ٧- و اختارت فراقه من غير إضرار كان منه إليها و عندما خافا ألا

- ٨- يقيما حدود الله عز وجل بعد أن وضعت عنه جميع مؤخر  
 ٩- صداقتها و مبلغه ثلاثة دنانير و جميع ما يجب لها عليه  
 ١٠- من النفقة القمح و الدراهم و الكسوة و العطا و الوطا و أجرة  
 ١١- المسكن و الماء و الزيت لعندما ما تناهت بما العدة و عرفا  
 ١٢- مبلغ ذلك كله و توافقا عليه فأجابها الى ما سألت  
 ١٣- وطلقها هذه الطلقة العدية الأولى و هي يومئذ في طهر  
 ١٤- لم يمسيها فيه برة من حيض و جاع فلا سبيل له إليها و لا  
 ١٥- رجعة له عليها إلا برضاها و مهر جديد وولي و شاهد  
 ١٦- شهد على إقرار المطلق و المطلقة المعتدية بجميع ما فيه  
 ١٧- بعد أن قرئ عليهما فأقرا بفهمه و معرفة جميعه و كتب  
 ١٨- لسبع و عشرين يوماً خلون من جمادى الأولى سنة أحد و ستين  
 ١٩- و أربعمائة

- ٢٠- شهد رجاء بن طاهر بن علي  
 ٢١- شهد الديال بن هبة علي ما إقرار المطلق  
 ٢٢- الله بن الدرري و المينة بما فيه في تاريخه  
 ٢٣- علي إقرار المطلق و المينة بجميع ما فيه بتاريخه

#### التعليق على نص الوثيقة :-

تضمن نص هذه الوثيقة النادرة معلومات بالغة الأهمية عن "نظام الخلع" في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . فالوثيقة بُدِئَتْ بالسَّئِلَةِ في السطر (١) كعادة كل النصوص التي دونت في البرديات و أوراق الكاغد العربية .

ثم في السطر (٢) نقرأ عبارة ( سألت سارة ابنة عبود الناهض ) ، وهي توضح أن السيدة (سارة) هي التي طلبت من زوجها هذا الخَلْع ، و الزوج يدعى (عبدالمعنى بن برلانس) وعمله ومكانه كما ورد في السطر (٣) كُتِبَ بهذه الصيغة : ( من جملة العيد الریحانية المستخدم بمركز الأشمونين ) و هذه العبارة تكشف لنا أن الزوج كان عبداً مُستخدماً بمركز الأشمونين ، و نسب إلى " العید الریحانية " - وربما كان أحد العبيد المستخدم و المنسب لأحد كبار القوم و ذوی النفوذ ربما يدعى (ریحان) في مدينة الأشمونين في الصعيد الأوسط بمصر ، و سبل أن ذكرت أهمية موقع مدينة الأشمونين ، و التي زارها عدد من الرحالة و الجغرافيين العرب أمثال الإصطخري و المسبحي و الإدريسي وغيرهم ، و التي اشتهر عنها عدد من الحرف و الصناعات كالنسيج - فهذا المؤرخ ابن ظهير<sup>١٤</sup> ( أبو إسحاق برهان الدين) في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي يذكر هذه العبارة عن صناعة الثياب بالأشمونين فذكر: " و ما يعمل فيها من الأزرق و الكتان يُحْمَل إلى سائر الأقاليم " (١٣).

و بالإضافة لصناعة النسيج اشتهرت الأشمونين كذلك بصناعة الزجاج - أشارت الى ذلك بعض مراجع الفنون و الحرف الإسلامية<sup>١٥</sup> أيضا اشتهر عن الأشمونين صناعات أخرى مثل الحرف و أوراق البردي و سلك العملة<sup>١٥</sup> .و غيرها .

و لعل الدليل على أهمية موقع مدينة و مركز الأشمونين أنها كانت مقسمة إلى مقاطعتين (أشمون العليا و أشمون السفلى) ، و لهذا أُطْلِقَ عليها اسم ( الأشمونين ) و هي مدينة قديمة تتبع حاليا مركز ملوي بمحافظة النيا - تقع على بعد حوالي ٣٠٠ كيلو متر جنوب القاهرة و سميت باسم ( حنو ) أي "الثانية" ثم حرف الاسم فيما بعد إلى (شمت) في اللغة القبطية - ثم أصبح الأشمونين في اللغة العربية ، و كانت الأشمونين مركزاً لعبادة الإله جحوتي (إله الحكمة) و لهذا سميت في العصرين اليوناني و الروماني باسم ( هرموبوليس ماجنا ) أي مدينة "الإله هرمس الكبيرة" و كانت هذه المدينة عاصمة للإقليم الخامس عشر من أقاليم مصر العليا. (١٦)



و لقد ورد ذكر تقسيمات هذه المدينة العريقة ضمن نصوص العديد من البرديات العربية المبكرة ، فقد ورد ذكر ( أشمون العليا ) ضمن نصوص إحدى برديات الوالي الأموي قرّة بن شريك العبسي ٩٠-٩٦هـ / ٧٩-٧١٥م ، وهي بردية محفوظة في مجموعة ( شوت - راينهارت ) بمعهد البرديات - جامعة هايدلبرج بألمانيا - برقم سجل (PSR-inv-16) . مؤرخة بشهر جمادى الأولى سنة ٩١هـ <sup>(١٧)</sup> و هي بردية تتعلق بنقض منازعة بين قبطين يعيشان في هذه المدينة و الرسالة موجهة إلى " زكريا صاحب أشمون العليا " . و البردية تكشف عن النشاط التجاري و الزراعي في هذه المدينة .

مما سبق ذكره من معلومات عن مدينة الأشمونين ، يكشف لنا أن ( عبدالغنى بن برلاس ) و هو الزوج الذى طلبت زوجته السيدة ( سارة بنت عبود الناهض ) كان يعمل كعبد أجير مستخدم بالأشمونين ضمن جملة العبيد الريحانية المستخدمين بها - نظراً لنشاطها التجاري ومركزها المالى المتميز في هذه الفترة من التاريخ الإسلامى كما سبق و أشرت .

و في السطور (٣-٥) من نص الوثيقة نقرأ عبارة ( الخُلع ) واضحة هكذا : " أن يملكها نفسها عليه بطلقة واحدة خُلع و هي أول طلقة بعد دخوله بها و إصابتها إياها " . و يلاحظ أن مطلع هذه السطور يكشف حقيقة السؤال الذى بُدئت به الوثيقة و هو سؤال الزوجة ( سارة بنت عبود الناهض ) لزوجها ( عبدالغنى بن برلاس ) أن يملكها نفسها و تحرر من الارتباط به بعقد الزواج الذى أبرم بينهم خاصة و أن باقى السطور (٤-٥) يكشف عن حدوث علاقة زوجية كاملة بين الزوجين - يفهم ذلك من خلال عبارة : ( و هي أول طلقة بعد دخوله بها و إصابتها إياها و أولدها ولد غلام ) . و السطر (٦) يكشف عن إسم هذا الغلام و عمره - و النص مدون بهذه العبارة : " ولد غلام مبلغ عمره بعد تاريخ هذا الكتاب خمسة سنين يدعى الجند " .

أما السطور (٧-٨) فقد أوضحت سبب طلب الخلع من قبل الزوجة ( سارة ) دون التعرض للتقليل من شأن الزوج و ذكر غيره أو صفاته الخُلقيّة أو الخُلقيّة ، ولكن كشفت الوثيقة عن سمو خُلقيّ من الزوجة السيدة ( سارة ) كما ورد في نهاية السطر (٦) في كلمتين فقط بهذه الصيغة ( كَرِهَتْ صُحْبَهُ ) . و في هذا الخصوص يطلق القرآن



الكرام على الزوجة اسم (الصاحبة) - كما ورد في قوله تعالى في سورة (عَبَسَ): " يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنه " (١٨)

ثم ورد في السطرين (٧-٨) رغبة الزوجة السيدة (سارة) في بيان طلب هذا الخلع ودوافعه وأسبابه - وذلك بأسلوب مهذب يُلحِق بالزوج على الرغم من كونه من (جنّة العبيد المستخدم بمركز الأثمنين) .

كما ورد في السطر الثاني من نص الوثيقة . فلم ترد عبارة أو كلمات تسمى إلى الزوج أو الخوض من كرامته ورجولته خاصة ، و أن علاقتهم الزوجية قد أثرت عن إتحاب ولد غلام يدعى (الجند) فكان لا بد من إحترام هذه العلاقة وعدم التعرض بالأذى للزوج يذكر عيوبه و الدوافع التي جعلت (سارة) تطلب هذا الانفصال بالخلع ، و ذلك على الرغم من صغر سن هذا الصبي الذي لم يتعدى عمره خمسة سنوات .

و لقد ورد في السطرين (٧-٨) عبارات تشير إلى أسباب طلب الخلع و دوافعه هذه الصيغة : " و اختارت فراقه من غير إضرار كان منه إليها و عندما خافا ألا يقيما حدود الله عز وجل بعد أن وضعت عنه جميع مؤخر صداقها .." يستشف من هذه العبارة أن الزوج (عبدالعنى بن برلاس) لم يكن منه أذى أو ضرر للزوجة السيدة (سارة) ، و لكن الزوجة (كرهت صحبة هذا الزوج و اختارت فراقه) لأسباب لم يرد ذكرها في الوثيقة - ربما تادماً و حماية لسر العورات ، خاصة و أن العلاقة بينهم استمرت لأكثر من خمسة سنوات ، أيضا يلاحظ أن الوثيقة أشارت إلى تقوى الزوجين (سارة و زوجها عبدالعنى) ومراقبتهم الله تعالى في تعاملهم و خشيتهم من عقابه إذا خالفا حدوده تعالى - ورد ذلك في نهاية السطر (٧) و مطلع السطر (٨) بهذه العبارة : ( و عندما خافا ألا يقيما حدود الله عز وجل ) .

أما السطور (٩-١١) فقد كشفت عن معلومات هامة عن مؤخر الصداق و جميع النفقات التي كان الزوج مكلف بها تجاه بيته و زوجته ، و هي في واقع الأمر معلومات هامة تكشف عن جوانب اجتماعية خلال القرون الأولى للهجرة - فنقرأ هذه العبارة : " بعد أن وضعت عنه جميع مؤخر صداقها و مبلغه ثلاثة دنانير و جميع ما يجب لها عليه من النفقة

القمح و الدراهم و الكسوة و العطا و الوطأ و أجرة المسكن و الماء و الزيت لعدتها ما  
تناهت بها العدة ...".

أي أن السيدة (سارة) تنازلت عن مؤخر الصداق و مقداره (ثلاثة دنانير) فاطمية  
تنسب للمعهد الفاطمي وهو زمن تحرير هذه الوثيقة و هو شهر جمادى الأولى سنة ٤٦١هـ -  
وهذا التاريخ يعاصر زمن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (معد بن الخليفة الظاهر) ثامن  
خلفاء الفاطميين في مصر حكم مصر بين سنوات ٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٦-١٠٩٤ م  
من أبرز وزرائه "بلر الجمالي"<sup>(٢٩)</sup>. و تجدر الإشارة الى أن عهد هذا الخليفة شهد العديد من  
الأحداث الدامية - أورد بعضها ابن كثير في كتابه (البداية و النهاية) <sup>(٣٠)</sup> منها حريق جامع  
دمشق الذي كان يزخر بالعديد من التحف و الزخارف الفنية في الأسقف و الجدران ، أيضا  
أشار المؤرخ المقرئ <sup>(٣١)</sup> الى العديد من الفتن و الصراعات في عهد هذا الخليفة الفاطمي ،  
منها إستقلال المعز بن باديس الزيري ( أمير أفريقية ) عن سلطة الخليفة المستنصر بالله ،  
الذي وجه الى المعز بن باديس أعراب بني هلال و بني سليم اللذين غزوا أفريقية .<sup>(٣٢)</sup>

جدير بالذكر أيضا أن الوثيقة لم يرد بها ذكر المبلغ "المعخل" أو "الصداق" الذي سلمه  
الزوج (عبدالقى بن برلانس) ، و لم يرد بالوثيقة أيضا أن هذا المهر (الصداق) لم تسلمه  
الزوجة السيدة (سارة) لزوجها عند الخَلْع . و لكنها تنازلت فقط عن (المؤخر) و هو  
ثلاثة دنانير فاطمية. و بالإضافة الى هذا المبلغ تنازلت الزوجة عن أمور أخرى هامة و  
ضرورية في الحياة و المعيشة في هذه الفترة المتقدمة من التاريخ الإسلامي . وهي كما وردت  
في نص الوثيقة على النحو التالي- ١- النفقة القمح ، ٢- الدراهم ، ٣- الكسوة ، ٤-  
العطا ، ٥- الوطأ ، ٦- أجرة المسكن ، ٧- الماء ، ٨- الزيت .

والتأمل في هذه المتطلبات المتعلقة ببيت الزوجية ، يلاحظ أنها تشمل تقريبا جميع  
احتياجات المنزل الضرورية ، و خاصة خلال القرون الأولى للهجرة ، فعبارة (النفقة القمح)  
ربما كان المقصود منها تكاليف شراء القمح اللازم لإعداد الخبز للمزول بما يكفى الزوج  
وزوجته و مجلهم (الجندي) ، (و الدراهم) تعنى الأموال اللازمة لشراء الأطعمة المختلفة  
والتنوعة اللازمة لأموال المعيشة ، و الدرهم : جمع دراهم ، و هى كلمة فارسية معربة ،

والدرهم الإسلامي إسم للمضروب من الفضة و هو ستة دوايق ( و الدائق كلمة من الفارسية - دالة - بمعنى حبة )<sup>(٢٢)</sup>، وقيل أيضا أن الدرهم كلمة أعجمية معربة عن اليونانية ( دراخما Drachma ) و يقابلها بالفارسية " دراخم و ديرام " و هي عملة فضية استخدمها العرب عن الفرس حيث كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي تتعامل بالدرهم<sup>(٢٣)</sup>، ولقد ورد ذكر هذه العملة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ( و شرهه بثمان بحس دراهم معدودة و كانوا فيه من الزاهدين )<sup>(٢٤)</sup> جدير بالذكر أيضا أن الدراهم قد ورد ذكرها كثيراً ضمن العديد من نصوص البرديات العربية و خاصة في عقود البيع و الشراء و الإيجار و العمل و كشوف العمال و الصناع و الحرفيين .. و غيرها ) كما ورد ذكر نصف الدراهم Semis و لث درهم Tremis<sup>(٢٥)</sup>.

أيضا يلاحظ أن كلمة ( الدينار ) وردت كذلك في نص هذه الوثيقة و خاصة في منتصف السطر (٩) و هو ( ثلاثة دنانير ) كمؤخر صدائق للزوجة (سارة) . و الدينار إسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب ، الذين اشتقوه من اللفظ اليوناني اللاتيني (Aureus - Denarius) و المشتق بدوره من الكلمة (Deni) عند الرومان - بمعنى (عشرة)<sup>(٢٦)</sup> ، و لقد تعامل العرب و المسلمون بهذه العملة أيضا ، و ورد ذكرها في كتاب الله تعالى في قوله: " و من أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك و منهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمين سيل و يقولون على الله الكذب و هم يعلمون " (٢٨).

أما كلمة ( الكسوة ) و التي وردت ضمن مستحقات و حقوق الزوجة ( سارة ) على زوجها ( عبدالغنى بن برلانس ) ، فعنى الملابس و الثياب و منها ( تكسي بالكساء ) بمعنى ليسة<sup>(٢٩)</sup> . و كلمة ( الغطاء ) ربما تعنى الفرش و منها الأغطية و السُر و هو ما يُعطى به و جمعه أغطية<sup>(٣٠)</sup> أما كلمة ( الوطاء ) فربما كان المقصود بها ( النعال ) و الأحذية أو الخفاف أو ما يلبس في الرجل ، و ربما كان المقصود منها أيضا الدابة<sup>(٣١)</sup> التي تُوطأ و هي وسيلة التنقل في هذه الفترة المتقدمة .

أما ( أجرة السكن ) فتكشف لنا معلومة جديدة - ذلك أن الزوج (عبدالغني بن برلاس) لم يكن يمتلك منزلاً ربما لكونه عبداً مستخدماً بمركز الأثمنين - أي لم يكن من أهالي هذه المنطقة - في صعيد مصر الأوسط - فكان مُتَقَلِّباً، الأمر الذي دفعه عند الزواج لإستئجار هذا البيت الذي وضعت عنه زوجته السيدة ( سارة ) أجرته ، ولم يرد بالنص قيمة هذا الإيجار . أيضا تكشف هذه العبارة ( أجرة المسكن ) أن الزوج قد ترك لها البيت لكي تقسم فيه هي و ابنها ( الجند ) حيث ستتقبل هي بمهنة النفقة و سداد الإيجار . ( والماء ) تعني شراء المياه للشرب و الغسيل و سائر أمور الحياة الضرورية للمعيشة عملاً بقوله تعالى : " وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون " (٣٢) . فكانت المياه تُشترى عن طريق ( السقا ) في قِربٍ للمياه كانت معدة و مخصصة لذلك ، و عازالت العديد من القرى و التجوع في وطننا العربي الكبير تشتري الأسر و العائلات المياه للشرب و سائر المنافع الأخرى و خاصة في المناطق الصحراوية القاحلة. و كلمة ( الزيت ) ربما كان المقصود منها الزيوت المخصصة للطعام مثل ( زيت الزيتون ... و غيره ) حيث كان يستخدم في إعداد الأطعمة المختلفة و كذلك كان كمادة للعلاج و التداوي عملاً بقوله تعالى : " و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن و صيغ للأكلين " (٣٣) .

أما عبارة : " لعنتم ما تنهت بها العدة " في نهاية السطر (١١) فربما تعني المدة الشرعية التي تعتد بها المرأة للطهر بعد طلاقها ، للزوج بعد ذلك عند إنتهاء مدة العدة و هي " أربعة أشهر و عشرة أيام " . و ذلك عملاً بقوله تعالى : " و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر و عشرة ... " (٣٤) . و ربما كانت تعني أيضا أن النفقات السابق ذكرها من ( النفقة القمح و الدراهم و الكسوة و العطا و الوطأ و أجرة المسكن و الماء و الزيت ) تنازلت عنها الزوجة ( سارة ) للزوج الذي ربما كان مكلفاً بها أثناء العدة .

أما عبارة السطور ( ١٢-١٤ ) و نصها : " و عرفنا مبلغ ذلك كله و توافقنا عليه فأجابنا إلى ما سألت ، و طلقها هذه الطلقة العدية الأولى و هي يومئذ في طهر ، لم يمسه فيها برية من حيض و جماع ... " فهذه السطور الثلاثة تعبر إقراراً من الطرفين (الزوج و الزوجة) على إلغاء العلاقة الزوجية وفق الأمور التي تخلت عنها الزوجة من مؤخر الصداق و سائر النفقات السابق ذكرها ، و تم إنفاذ الحُلْع و هي يومئذ في طهر ، ولم يمسه رجل آخر من زواج أو

حدوث حيض . و إذا رغب الزوج في العودة مرة أخرى لزوجته (سارة) - لا يكون ذلك إلا برضاها و صداق جديد و إنفاذ عقد جديد بولي و شاهد - ورد ما يفيد ذلك في نصوص السطرين (١٤-١٥) بهذه الصيغة : " فلا سبيل له إليها و لا ، رجعة له عليها إلا برضاها و مهر جديد وولي و شاهد " . و هذه العبارة الهامة في نص الوثيقة ربما تكشف عن الرغبة في إصلاح الخلل من قبل الزوج الذي ربما دفع زوجته سارة لطلب الخلع من زوجها فإذا إنصلح هذا الخلل - و رغب في العودة إليها مرة أخرى فلا يكون ذلك إلا برضاها ، ثم كتابة عقد و مهر و ولي و شاهد لتوثيق هذا العقد . و في هذه الحالة تكون العلاقة جديدة بعد مُعالِجَةِ الأمور المختلة التي دفعت الزوجة لطلب الخلع ، و على ذلك تسير الحياة وفق شرع الله و سنته . أما السطور ( ١٦-٢٣ ) فقد تضمنت معلومات هامة عن شهود هذا الخلع ، مع ذكر تاريخ هذا الأمر و هو ( ٢٧ جمادى الأولى سنة ٤٦١ هـ الموافق ٢٤ مارس ١٠٦٩ م) . و يلاحظ أن الشاهدين الوارد ذكرهم في نص الوثيقة و هما ( رجاء بن ظاهر بن علي ، الذبيل بن هبة الله بن الدرعي ) قد تمحروا بدقة و أقرأ بفهم و معرفة دوافع الخلع من قبل الزوجة و إقرار المطلق و المطلقة - و ذلك زيادة في الحرص و توخي الدقة و الحذر عملاً بقوله تعالى : " و لا تكتموا الشهادة و من يكتمها فإنه آثم قلبه " (٣٥) - و على العموم فإن هذه الوثيقة النادرة تُعدّ من الوثائق الهامة التي تكشف عن جوانب غامضة عن العلاقات الإجتماعية و الأحوال الشخصية في الدولة الإسلامية خلال القرون الأولى للهجرة .

#### ما يستفاد من هذه الوثيقة

- ١- مكانة المرأة و مدى حريتها في طلب الانفصال عن زوجها إذا ما كرهت صحته .
- ٢- ضمان حقوق الزوج و أمواله و أمواله إذا كان طلب الانفصال من قبل الزوجة .
- ٣- طلب الخلع من الزوجة و رضاه الزوج بذلك - خشية الله تعالى - عندما خاف ألا يقيما حدود الله عز وجل ، و قبل أن تتفاقم الأمور بينهما و يحدث ما لا يحمد عقباه بعد ذلك .
- ٤- تنازل الزوجة عن طيب خاطر عن جميع لفتاتها و جميع مؤخر صداقها .



٥- في حال رغبة الزوج العودة لزوجته مرة أخرى ، فلا يكون ذلك إلا حسب رغبة الزوجة و برضاها و بمهر جديد وولي و شاهد.

٦- يلاحظ وجود عدد من الشهود الحاضرين على هذا الخلع و إتمامه مع توقيعهم مع الحرص على كتابة عبارة ( على إقرار المطلق و المينة بجميع ما فيه ) زيادة في التأكيد على تنفيذ هذا الخلع و عدم الطعن من قبل الزوج فيما بعد .

### ثانياً : الطلاق

هناك العديد من نصوص البرديات و أوراق الكاغد العربية تتعلق بالطلاق كأحد مظاهر العلاقات الأسرية و الإجتماعية خلال القرون الأولى للهجرة ، فكان يتم تدوين هذا الطلاق على وثائق البردي و الكاغد - في حال حدوث شقاق و خلاف بين الزوجين فشرع هذا الأمر - حماية للأسرة و الأبناء و خشية تفاقم الأمور و حدوث ما لا يحمد عقباه ، بل إن ديننا الإسلامي الخفيف خصص سورة من القرآن الكريم أطلق عليها ( سورة الطلاق ) و هي من السور المدنية - عدد آياتها ( ١٢ آية ) تكشف عن حرص الإسلام على سلامة الأسرة و الحفاظ على بنائها و كيانها كلبنة من لبنات المجتمع ، و يلاحظ أن السورة الكريمة تحذر الرجال من الإقدام على هذا الأمر، و عُلِّم الزوجة و البطش بها و أذيتها و إلحاق الضرر بها - فقرأ ذلك في قوله تعالى : " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدنهن و أحصوا العدة و اتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن و لا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة و تلك حدود الله و من يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً " (٣٦)

أيضا يلاحظ أن هذه السورة الكريمة قد تكررت فيها عبارات تقوى الله عز وجل " و من يتق الله يجعل له مخرجا " (٣٧)، و قوله تعالى " و من يتق الله يجعل له من أمره يسرا " (٣٨) ، و قوله تعالى " و من يتق الله يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا " (٣٩) ، و المتأمل في هذه الآيات الكريمة يلاحظ تكرار ( تقوى الله عز وجل ) في ثلاثة مواضع من السورة - حتمت جميعها بالجزء الحسن مثل ( يجعل له مخرجا ، يجعل له من أمره يسرا ، يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا ) و جميعها تحت الرجل على توخي الدقة و الحذر و الحرص على الأسرة و البيت



إذا ما أمر أقدم على الطلاق و الانفصال عن الزوجة و على العموم فإن أمر الطلاق يتعلق بالرجل ، كما تعلق الخُلع بالزوجة كما سبق و أشرت .

#### ١-الطلاق في اللغة :

يقال طَلَّقَ الرجل امرأته تَطْلِيقًا فهو مُطَلِّقٌ فَإِنْ كَثُرَ تَطْلِيقُهُ لِلنِّسَاءِ قِيلَ مُطَلِّقٌ وَ مُطَلَّقٌ وَ الإِسْمُ ( الطَّلَاقُ ) وَ طُلِّقَتْ هِيَ طَلْقَةً مِنْ بَابِ قَتَلَ وَ فِي لُغَةٍ مِنْ بَابِ قَرَّبَ لَهَا طَائِقٌ بَعِيرٌ هَاءٌ ، وَ قَالَ الْفَارَابِيُّ : لَعَجَةٌ طَالِقٌ بَعِيرٌ (هاء) إِذَا كَانَتْ مُخَلَّاةً تَرَعَى وَحِدَهَا فَالْتَرَكِيبُ يَدُلُّ عَلَى الْجَلِّ وَ الْإِنْجِلَالِ ، يُقَالُ أَيْضًا أُطْلِقْتُ الْأَسِيرَ إِذَا خَلَلْتُ إِسْبَارَهُ وَ خَلَيْتُ عَنْهُ فَيُتَطَلَّقُ أَي ذَهَبَ فِي سَبِيلِهِ ، وَ مِنْ هُنَا قِيلَ أُطْلِقْتُ الْقَوْلَ إِذَا أَرْسَلْتَهُ مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ وَ لَا شَرْطٍ ، وَ أُطْلِقْتُ الْبَيْتَةَ إِذَا شَهِدْتُ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِتَارِيخٍ وَ أُطْلِقْتُ النَّاقَةَ مِنْ عِقَالِهَا ، وَ مِنْهَا - نَاقَةٌ طَلَّقٌ - بَضْمَتَيْنِ بِلَا قَيْدٍ - وَ نَاقَةٌ طَالِقِي - أَي مَرْسَلَةٌ تَرَعَى حَيْثُ شَاءَتْ ، وَ مِنْهَا أَيْضًا فَرَسٌ مُطَلَّقٌ الْبَيْدَيْنِ إِذَا خَلَا مِنَ التَّحْجِيلِ ... وَ غَيْرَهَا .<sup>(٤١)</sup>

#### ٢- الطلاق في نصوص البرديات العربية

عثر على العديد من نصوص البرديات و أوراق الكاغد العربية تحمل في طياتها معلومات عن الطلاق و كيفية حلوله و إنشائه ، حيث ورد بهذه النصوص الوثائقية معلومات عن أسماء الزوج و الزوجة و الأبناء و مقادير مؤخر الصداق و أسماء الشهود و تاريخ تحرير هذه النصوص . و غيرها من المعلومات الهامة التي قلما نجدها في نصوص أخرى غير أوراق البردي و الكاغد في هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي .

#### ١- ورقة طلاق مؤرخة في مستهل شهر ربيع الآخر سنة ٣٧٢هـ

هذه الورقة النادرة ( تنشر لأول مرة ) و هي محفوظة في مجموعة ( شوت - رابنهارت ) بمعهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل (P.Heid.Arab.inv.2152) غير معلوم مكان العثور عليها ، تضمنت نصاً كتابياً قوامه ( ١٣ سطراً ) كتب بأسلوب خط التحرير المخفف أو ما يطلق عليه أحياناً إسم " الخط الحجازي اللين " و هو خط سريع الإنجاز - كان يستخدم كثيراً في تحرير العقود و المكاتبات السريعة التي يراد بها تدوين حدث مهم و تسجيله .

## نص الوثيقة :

- ١- ...ع... شئ من ذلك و طلقها هذه الطلقة و هي في طهر من حيض
- ٢- و الجماع و أقرت بأنما قبضت جميع نفقتها الى خروجها من
- ٣- عدتها
- ٤- شهد علي بن الحسين بن نزيه بمثل ما
- ٥- في صدر هذا الكتاب و أبصر فيه
- ٦- و ذلك في ربيع الآخر من سنة اثنين
- ٧- و سبعين و ثلثمائة
- ٨- شهد محمد بن عبدالله بن عمير علي إقرار المطلق
- ٩- و المطلقة جميعا بما في هذا الكتاب بما فيه
- ١٠- أمامهما و كتب بخطه في مستهل ربيع الآخر سنة اثنين و سبعين و ثلثمائة
- ١١- شهد نصر بن عمر بن عبدالله علي إقرار المطلق و المطلقة
- ١٢- جميعا المذكورين في هذا الكتاب بما فيه و كتب شهادته بخطه
- ١٣- في مستهل ربيع الآخر من سنة اثنين و سبعين و ثلثمائة.

## التعليق على نص الوثيقة

النص كما هو واضح - غير مكتمل - و خاصة في جزئه العلوي ، فقد إختفى مطلع نص الوثيقة و المتضمن البسلة و اسم الزوج ( المطلق ) و الروجة ( المطلقة ) ، كما لم يرد أيضا ذكر لمؤخر الصداق كما هو معناد في مثل هذه النصوص النادرة ، ربما لإختفاء هذا القسم الهام من نص الوثيقة . و عموما فإن هذا القسم الهام من نص الوثيقة يتضمن معلومات هامة عن إنفاذ هذا الطلاق و خاصة في السطرين (١-٣) حيث وردت هذه العبارة :

وظلقتها هذه الطلقة و هي في طهر من حيض و الجماع و أقرت بأنها قبضت جميع نفقتها الى خروجها من عنقها ..\* .

و يلاحظ أن الزوجة قد أقرت بأنها إستلمت جميع حقوقها و نفقتها و ربما شمل ذلك مؤخر صداقتها و كذلك جميع النفقات الأخرى حتى إنتهاء مدة عدتها و هي ( أربعة أشهر وعشراً ) كما سبق و أشرت عند الحديث عن الخلع ، أيضاً لم يرد بالوثيقة أي ذكر لوجود أبناء لهم حقوق على الزوج المطلق ، و هي ربما تشير الى إقدام الزوج على طلاق زوجته ربما لعدم إنجابها الأبناء .

أما السطور ( ٤-١٣ ) فجميعها تكشف عن الجانب الشرعي في إنفاذ هذه الوثيقة من حيث ذكر الشهود و تسجيلهم شهادتهم بخطهم - كما يلاحظ وجود عبارة لأحد الشهود و هو ( علي بن الحسين بن تزيه ) و هو الشاهد الأول في هذه الوثيقة حيث نقرأ عبارة في السطر الخامس و نصها : ( في صدر هذا الكتاب و أبصر فيه ) - و هي ربما تعني أن الشاهد علي بن الحسين - قد تحرى الدقة في تدوين هذه الورقة و راجعها بنفسه حيث أبصر فيها و في سطورها للتأكد من صحة البيانات المدونة فيها - زيادة في الدقة و الخلد .

و يلاحظ أن هذه العبارة غير مكررة مع باقي الشهود الوارد ذكرهم في الوثيقة - كما يلاحظ أن عدد الشهود الوارد ذكرهم في الوثيقة ( ٣ شهود ) - الشاهد الأول ( علي بن الحسين ) أبصر في نص الوثيقة فقط ، أما الشاهدين الآخرين و هما ( محمد بن عبدالله ) ، ( نصر بن عمر بن عبدالله ) قد شهدا على الفرار المطلق و المطلقة أمامهما و كتباً شهادتيهما بخطهما مع تسجيل تاريخ هذه الشهادة كل على حدة - زيادة في توعى الدقة و الخيطة و الخلد .

٢- ورقة طلاق تنسب للقرن ٣ هـ / ٩ م محفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا

هذه الورقة النادرة تحمل رقم سجل (Per.inv.Ar.Pap.832.R)<sup>(٤١)</sup> كتبت على قطعة من الورق أطوالها ١٦,٥×٢١ سم - غير مؤرخة و غير معلوم مكان العثور عليها ، تكمن أهمية هذه الوثيقة أنها تتضمن بين سطورها الاستشهاد بأية قرآنية كريمة وردت في سورة النساء تتعلق بالطلاق و هي قوله تعالى : " وَ إِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً " .<sup>(٤٢)</sup>

أيضا يلاحظ أن أسماء الشهود الوارد ذكرهم في هذه الوثيقة هم من أقارب الزوجة المطلقة - فمنهم الوالد و ابنه، فالوالد يدعى "أبي بكر محمد بن بكر" و نجله و يدعى "الحسين بن أبي بكر"، و ربما كان ذلك راجعاً لرغبة الوالد و نجله في ستر الزوجة، خاصة وأن أمر الطلاق يعتبر من الأمور الغير مرغوب فيها في المجتمعات العربية، لتفكك الأسر و زوال الروابط، و ما ينتج عن ذلك من خلل في المجتمعات - و لقد ورد في الأثر "أبغض الحلال عند الله الطلاق" و من أجل ذلك - يلاحظ أن أسماء الشهود الموقعين في هذه الوثيقة لم يكونوا من الغرباء، و لكنهم والد الزوجة و نجله كما سبق و أشرت، و في هذا دلالة واضحة على كتمان خبر الطلاق و عدم نشره و إذاعته بين الناس، على العكس من الزواج الذي يتطلب إشهار و إعلان .. و خلافه .

و على العموم فإن الوثيقة غير كاملة - ونظراً لإفتقاد الجزء العلوي من النص فإن جزء البسملة و مطلع الوثيقة و المتضمن عادة عبارات ورود إسم "الزوجة و الزوج المطلق و مؤخر الصداق" و غيرها من الأمور المتعلقة بهذا الطلاق غير موجودة . أيضا يلاحظ أن خط البردية متقد بأسلوب خط التحرير المخفف أو ما يطلق عليه "بالخط الحجازي اللين" .

#### نص الوثيقة

- ١- الأولى
- على ذلك
- ٢- ما قال الله في كتابه و إن يفرقا يعن
- ٣- الله كلا من سعته و كان الله واسعاً حكيماً
- ٤- و ليس محمد بن أبي حنيفة قبل عيشه ابنت
- ٥- أبي بكر دعوى و لا طلبة و لا حق من سبب
- ٦- من الأسباب دين و لا عرض و لا عين و لا متاع
- ٧- و قد سلم محمد ما في بيتها من شوار
- ٨- كان لها إليها شهد على عيشه ابنت
- ٩- أبي بكر محمد بن بكر و رضاها بجميع ما في هذا
- ١٠- لكتاب أبوها محمد بن بكر و كتب شهادته

١١- و الحسين بن أبي بكر على مثل شهادة محمد بن بكر حرف ... (بحرف)

التعليق على نص الوثيقة :-

كما أشرت من قبل فإن هذه الوثيقة غير كاملة بسبب فقدان الجزء العلوي منها والمتضمن البسمة و الافتتاحية التي عادة ما يدون بها اسم الزوج و مكان عمله ( حيث تذكر هذه الأمور عادة في بعض الوثائق ) ، و أحياناً يذكر أسماء الأبناء أو البنات في ورقة الطلاق و أحياناً تحدد أعمارهم و موقفهم بعد إتمام الطلاق ، و أحياناً أخرى يذكر مؤخر الصداق و التفقات الواجبة على الزوج ( المطلق ) لإنهاء عدة الزوجة ( المطلقة ) .

ولكن النص الذي بين أيدينا - وردت به كلمة ( الأولى ) في السطر (١) - و ربما كان المقصود منها ( المطلقة ) الأولى، ثم استند كاتب الوثيقة لآية قرآنية كريمة وردت في سورة النساء ( آية رقم ١٣٠ ) تتعلق بفصل الله تعالى على خلقه و بأن رحمته تعالى تشمل جميع مخلوقاته و تفتح باب الأمل ، حيث أن أمر الطلاق يوحى باستقبال أزمات و أوقات عصيبة - خاصة للزوجة المطلقة فأراد الله تعالى أن يفتح باب الأمل و الرجاء و بأن رحمته وسعت كل شيء - و نقرأ في ذلك قوله تعالى : " و إن يتفرقا يغن الله كلا من سعته و كان الله واسعاً حكيماً " .

أما السطر (٤) من نص الوثيقة فقد تضمن إسم الزوج ( المطلق ) و يدعى ( محمد بن أبي حنيفة ) أما الزوجة ( المطلقة ) فتدعى ( عيشة بنت أبي بكر ) ، و السطر (٥) يعبر إقرار من الزوج بعدم أحقيته في آية دعوى أو طلب أو حق أو دين أو عين أو متاع له من قبل الزوجة ، و هو ما يطلق عليه في العصر الحديث ( إخلاء طرف ) للزوجة من مستحقات أو آية متعلقات للزوج قبل زواجه المطلقة .

أما السطرين (٧-٨) من نص الوثيقة فيشير الى تنازل الزوج لزوجته عن (أثاث المنزل) و هو ما يطلق عليه في العصر الحديث ( الشوار ) و هو عبارة عن الفرش و الأدوات المنزلية الضرورية للحياة الزوجية فقد أشار إلى ذلك صاحب ( مختار الصحاح ) (٤٣) . و قد ورد النص بهذه الصيغة : " و قد سلم محمد ما في بيتها من شوار كان لها إليها " . و يلاحظ أن إسم الزوج في هذا السطر لم يرد كاملاً ، و هو ربما يستشف منه رغبة الوالد و هو ولي أمر الزوجة و الشاهد على هذه الوثيقة لم يرغب في إكمال إسم الزوج و اكتفى فقط بتدوينه في



مطلع الوثيقة في السطر (٤) " محمد بن أبي حنيفة " و ذلك لأن أمر الطلاق أمر جليل لا ترغب فيه النفس البشرية لتأثيره السيئ على الأسرة .

أما السطور (٨-١١) فتكشف لنا عن معلومات هامة عن بعض الجوانب الاجتماعية في الدولة خلال القرون الأولى للهجرة ، وهذه السطور تضمنت أسماء الشهود اللذين حضروا تنفيذ هذه الوثيقة ، و يلاحظ أن الشاهدين الموقعين هما من طرفي الزوجة ( الوالد ونجله ) و هما " أبي بكر محمد بن بكر و نجله الحسين بن بكر " . وفي هذا إشارة و دلالة واضحة على كتم هذا الخبر الجليل و عدم نشره و إذاعته ، ربما خشية الفضيحة و التأثير على مكانة الأسرة ، و مثل هذا الأمر مازال قائماً حتى اليوم في المجتمعات العربية .

و على العموم فإن هذه الوثيقة النادرة تعتبر من الوثائق التي تكشف بعض الجوانب الغامضة في العلاقات الاجتماعية و الإنسانية في الدولة الإسلامية خلال القرون الأولى للهجرة ، و خاصة فيما يتعلق بمكانة الأسرة و مهاتها و عدم اهتزاز صورتها في المجتمع . و ما زال المجتمع العربي و للأسف الشديد ينظر لأمر الطلاق و للسيدة المطلقة بنظرة تشاؤمية - تحطم السيدة و تقلل من شأنها في الوسط الذي تعيش فيه ، و أحياناً يجد الأبناء صعوبات و مشاكل نفسية و مالية و اجتماعية نتيجة هذا الطلاق ، على الرغم من كونه أمراً طبيعياً سمح به الشرع الخفيف درءاً للفتن و المشكلات و الحد من تفاقمها .

### ٣- ورقة طلاق بين زوجين من أهل الذمة

مؤرخة بشهر المحرم سنة ٢٩٧ هـ / أكتوبر سنة ٩٠٩ م

هذه الورقة النادرة كتبت على قطعة من ورق البردي مؤرخة بشهر المحرم سنة ٢٩٧ هـ / أكتوبر سنة ٩٠٩ م ، و أطوالها ٢٣,٥×٣٢ سم و الورقة حالتها جيدة ، عثر عليها في مدينة الفيوم ، كتبت أيضاً بأسلوب خط التحرير المخفف أو ما يطلق عليه " بالخط الحجازي اللين" الخالي من الإعجام (النقط) ، و هذه البردية محفوظة في المكتبة الوطنية بالتمسا (مجموعة الأرشيدوق رابنر) برقم سجل ( PER.inv.Ar.pap.3165 )<sup>(٤٤)</sup> عثر عليها في مدينة الفيوم و ترجع أهميتها لأنها تضمنت معلومات عن حدوث حالات طلاق بين أهل الذمة فالزوج وبدعي (سورة بن اشادة) والزوجة (المطلقة) تدعى



"فَسِيدِقْ إِبْنَتَ جَرِيحَةَ الرَّاهِبِ" و تم إنفاذ هذا الطلاق وفق شريعة الإسلام ، و بأسماء شهود مسلمين ، و يلاحظ أن عدد الشهود الموقعين في نهاية هذه الوثيقة كبير نسبياً فوصل عددهم ( ستة ) شهود جميعهم من المسلمين . مع توقيع كل منهم أسفل شهادته و ذلك زيادة في التأكيد على حضورهم مجلس الحكم و القضاء ، مع التأكيد على ذكر التاريخ اخذد لهذا الانفصال باليوم و الشهر و السنة ، كما يلاحظ ورود عبارة ( ثلاثة البتة ) ، ( لا رجعة له عليها ) ، ( طلاق البتات ) ، ( لا رجعة له عليها و لا متنوية ) ، جميع هذه العبارات المؤكدة لحدوث الطلاق بين الزوجين - تعتبر نادرة في مثل هذه النصوص الوثائقية الهامة .

### نص البردية

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- شهد الشهود المسمون في هذا الكتاب على إقرار سويرة بن إبشادة أنه طلق

٣- امراته فسيدق إبنة جريجة الراهب ثلاثة البتة لا رجعة له عليها و لا متنوية حتى تنكح زوجاً

٤- غيره شهد على معرفة سويرة بن إبشادة و ذلك في الحرم من سنة سبع و تسعين ومائتين

٥- شهد أحمد بن الحسن القطان بجميع ما في هذا الكتاب و كتب

٦- شهادته بخطه // محمد بن عبدالله بن حمدون على إقرار سويرة بن إبشادة

٧- و كتب بخطه لا إله إلا الله // شهد حمدان بن محمد على إقرار سويرة < بن > إبشادة المشار إليه

٨- أنه طلق امراته فسيدق إبنة جريجة الراهب ثلاثة البتة لا رجعة له

٩- عليها و لا متنوية و ذلك يوم الإثنين و هو الحرم ثلاثة عشر يوماً و كتب

١٠- شهدته بخطه شهد محمد بن علي بن عمر بن غيلان على إقرار سويرة بن إبشادة بما

- ١١- صدر هذا الكتاب وكتب بخطه في الحرم سنة سبع و تسعين و مائتين
- ١٢- شهد عيسى بن عمر بن غيلان على إقرار سويرة بن إيشادة بما في هذا الكتاب  
وكتب
- ١٣- شهادته بخطه و ذلك في الحرم سنة سبع و تسعين و مائتين
- ١٤- شهد عيسى بن عبدالمملك على إقرار سويرة بن إيشادة أنه طلق امراته طلاق  
البتات
- ١٥- لا رجعة له عليها و لا منوية و كتب شهادته بخطه في الحرم سنة سبع و تسعين  
و مائتين .

## التعليق على النص

المحفوظة الأولى على نص هذه الوثيقة الهامة و النادرة ، أما حالة (طلاق بين زوجين من أهل الذمة) إرتضيا إنفاذ طلاقهم وفق شريعة الإسلام ، و بحضور (سنة شهود مسلمين) موقعين في الوثيقة ، و لقد بُدِئَت البردية بالبسملة في السطر الأول ، و السطر الثاني تضمن شهادة الشهود على إقرار الزوج و يُدعى ( سُوَيْرَة بن إبشادة ) أنه طَلَّقَ زوجته، التي ورد إسمها في مطلع السطر الثالث و تدعى ( قُسَيْدِق بنت حِرْجَة الوَاهِب ) ، و لقد تضمن هذا السطر أيضا إصرار الزوج على الطلاق بهذه العبارة الواضحة ( ثلاثة البتة لا رجعة له عليها و لا مشوية حتى تنكح زوجاً غيره .. ) .

و هذه العبارة مستمدة من شريعة الإسلام ، عملاً بقوله تعالى في سورة البقرة : \* فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله و تلك حدود الله بينها ليقوم يعلمون \* <sup>(١٤٥)</sup> أو يلاحظ أن كلمة (البتة) مكررة في البردية عدة مرات ، فقد وردت أيضا في نهاية السطر الثامن بنفس العبارة التي وردت في نهاية السطر الثالث بهذه الصيغة : " ثلاثة البتة لا رجعة له عليها و لا مشوية " . و زادت في الأولى بعبارة " حتى تنكح زوجاً غيره " ، كما وردت للمرة الثالثة في نهاية السطر (١٤) و لكن بصيغة مختلفة عن الصيغتين السابقتين - فقد وردت هكذا : \* أنه طلق امرته طلاق البتات لا رجعة له عليها و لا مشوية \* فقد جاءت كلمة ( امرته ) بصيغة اللهجة المصرية ( امرته ) و ليس ( امراته ) التي وردت في السطر ( ٨ ) ، و هي من الصيغ الشائعة عادة في نصوص الكتابة على أوراق البردي ، فقد وردت مثل هذه الحالة في العديد من النصوص ، من بينها بردية عربية محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة - تحمل رقم سجل (٢١٧) تنسب للقرن ٣ هـ / ٩ م - حيث وردت فيها العديد من الكلمات العامية المصرية مثل عبارة ( مرقوره دا عن نفسه ) حيث إختفى حرف ( اهاء ) من إسم الإشارة ( هذا ) فجاء حرفي ( دا ) عوضاً عن إسم الإشارة ( هذا ) <sup>(١٤٦)</sup> .

أما بالنسبة للشهود الوارد ذكرهم في نهاية نص هذه الوثيقة ، فقد وصل عددهم ستة شهود ، جميعهم من المسلمين و هم : ١- أحمد بن الحسن القطان ٢- محمد بن عبدالله بن حمدون ٣- حمدان بن محمد ٤- محمد بن علي بن عمر بن غيلان ٥- عيسى بن عمر بن غيلان ٦- عيسى بن عبدالملك .

و كما هو معلوم فإن المعتاد في شهود العقد أو فسخه عند المسلمين كانت شاهدي عدل (رجلين) و لكن في هذه الحالة ورد عدد مضاعف ثلاث مرات فوصل لسطة شهود عدول النان منهم ذوى قربي و هم من عائلة ( بن غيلان ) ربما كانوا أبناء عمومة .

و يلاحظ أن كاتب الوثيقة ربما أخطأ في كتابة إسم الزوج - فقد ورد في مطلع النص بإسم (سورة بن إيشادة) في السطور ( ٢٤،٤٦،١٤ ) ، بينما في السطر (١٠) فقد ورد بإسم ( سويس ) ، و في السطر (١٢) ورد بإسم ( سورس ) - و جميعها تختلف في النطق والكتابة عن الإسم الصحيح الذي ورد في السطور الأربعة السابق ذكرها .

#### ما يستفاد من الوثيقة

١- تعتبر هذه الوثيقة من الوثائق النادرة المتعلقة بالطلاق عند المسيحيين من أهل الذمة فقد إرتضيا ( الزوج ، الزوجة ) أن يتفادا هذا الأمر وفق شريعة الإسلام و بحضور ستة شهود مسلمين.

٢- لم يذكر في الوثيقة مقدم أو مؤخر الصداق للزوجة السيدة ( فسيدق إبت جرجة الراهب ) .

٣- ظهور التأثير الشرعي و الإسلامي في هذه الوثيقة حسب ما ورد من عبارة في السطر الثالث و التي تنص على عدم رجوع الزوجة الى زوجها مرة أخرى حتى تكح زوجاً غيره عملاً بقوله تعالى في سورة البقرة : \* فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يَكْحِكَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* (١٧)

٤- ورقة طلاق نادرة مؤرخة بشهر ربيع الآخر سنة ٢٥٧هـ -

هذه الورقة النادرة كُتبت على قطعة من ورق البردي تضمنت نصاً كتابياً منفصلاً بأسلوب عبط التحرير المخفف أو ما يطلق عليه ( بالخط الحجازي اللين ) - محفوظة حالياً في متحف جامعة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية برقم سجل (Arab.Pap.Filaddilfia.uni:No,16418)<sup>(٤٨)</sup> و اليدوية مؤرخة بيوم الجمعة من شهر ربيع الآخر سنة ٢٥٧هـ الموافق يوليو ٨٦١م .

## نص الوثيقة

- ١- بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢- شهد محمد بن سهل بن عبدالله بن عمرو أن ..... (من سكان مدينة...)
- ٣- أشمون أشهدني علي نفسه أنه طلق امراته
- ٤- علي و نطق به بلسانه بين أيدينا ثلاث مرات {.....} وذلك في شهر ...
- ٥- ربيع الآخر سنة سبع و خمسين و مائتين ... و كتب شهادته بخطه
- ٦- شهد به محمد بن سهل و ذلك يوم جمعة برمهاة سنة
- ٧- و شهد
- ٨- حمدان

## التعليق على نص الوثيقة

المأمل في هذا النص الموجز يلاحظ أنه تضمن معلومات هامة تختلف عن سائر أوراق الطلاق السابق ذكرها ، فبعد البسملة ، بدت الوثيقة بشهادة رجل يدعى ( محمد بن سهل بن عبدالله بن عمرو ) - و لقد دون اسمه و شهادته كاملة ، أما الزوج ( المطلق ) فلا نعرف اسمه نظراً لإختفاء جزء كبير من السطر الثاني في البردية ، و كلمة ( أشمون ) إسم مدينة عصر تقع في وسط الدلتا - ذكرها الرحالة الإدريسي في القرنين ٥-٦هـ م / ١١-١٢م باسم ( أشمن جريش ) و قال عنها :- " مدينة صغيرة كثيرة العمارات والبساتين والجنات " <sup>(٢٩)</sup>. أيضا ذكرها علي باشا مبارك في القرن ١٣هـ / ١٩م - بقوله : " قرية من أعمال المنوفية و هي رأس مركز واقعة على الشاطئ الشرقي لبحر رشيد بقرب أم دينار و حوضها سور من الأجر " <sup>(٣٠)</sup>.

و لقد ورد في نهاية السطر الثالث عبارة تفيد إقدام الزوج علي طلاق زوجته التي لم يعلم اسمها أيضا ربما نظراً لحدوث عرق في البردية ( أنه طلق امراته ) ، و السطر الرابع

يكشف حدوث الطلاق بالفعل ( و ذلك بالنطق باللسان بين أيدي الشاهد ثلاث مرات ) ،  
 وربما كان الشاهد هو القاضي المشد لوثيقة الطلاق خاصة ، و أن العبارة وردت بها كلمة  
 ( بين أيدينا ) بمعنى مجلس حكم القاضي و في ديوانه . و لكن الملفت للنظر أن هذا الشخص  
 ورد ذكره أيضا كشاهد في السطر (٦) ثم ورد ذكر اسم شاهد آخر يدعى ( حمدان ) في  
 السطر (٧) و هو السطر الأخير من نص الوثيقة .

و ما يلفت النظر في هذه الوثيقة ورود عبارة ( أنه طلق إمراته على و نطق به بلسانه بين  
 أيدينا ثلاث مرات ) ، و في نصوص سابقة وردت عبارة ( البتة ، البتات ) ، أما هنا فقد  
 حدث الطلاق باللسان ثلاث مرات في حضور القاضي و أحد الشهود .

### ٣- أوامر بالحضور مجالس الحكم و إصلاح ذات البين

بالإضافة لأوراق الخلع و الطلاق ، وردت أيضا نصوص متنوعة تتعلق بالأحوال  
 الشخصية و العلاقات الزوجية كتبت على ورق البردي و الكاغد تنسب للقرون الأولى  
 للهجرة ، من بينها أوراق عبارة عن أوامر قضائية من مجالس الحكم و القضاء بضرورة  
 حضور سواء الزوجة أو الزوج للفصل في بعض قضايا الأسرة ورد الحقوق... و غيرها ،  
 وأحيانا نجد نصوص تتعلق بإجراءات صلح بين الزوجين .. و غيرها من النصوص الخاصة  
 بالفصل في قضايا الأسرة ، و هي هامة لأنها تكشف عن جوانب حضارية متميزة ، توضح  
 مدى عناية الدولة ممثلة في مجالس الحكم و القضاء للحد من المشاكل الزوجية و عدم تفاقمها  
 صيانة لكيان الأسرة و حماية للأبناء من التفكك و التشرذم و الضياع ، حيث أن الأسرة هي  
 اللبنة الأولى للمجتمع إذا صلحت صنع المجتمع و إذا فسدت فسدت . و ترتب على ذلك  
 العديد من المشاكل الاجتماعية و الاقتصادية ... و غيرها .

أ- أمر بحضور زوجة مجلس الحكم بمدينة الأشمونين

مؤرخ بشهر الحرم سنة ٣٩٠هـ / ديسمبر ٩٩٩م

هذا الوثيقة النادرة محفوظة في مجموعة الأرشيدوق رابنر بالمكتبة الوطنية بالنمسا برقم  
 سجل ( PER.inv.Chart.Ar.12317 ) مؤرخة بشهر الحرم سنة ٣٩٠هـ الموافق



ديسمبر ، و الورقة منقذة على قطعة من ورق الكاغد أطوالها ١٥,٥ × ٦,١ سم - عثر عليها في مدينة الأشمونين بصعيد مصر الأوسط ، وهي بحالة جيدة ، تضمنت كتابة عربية منقذة بأسلوب عطف التحرير المخفف ( اخط الحجازي اللين ) من ٤ سطور .

#### نص الوثيقة

- ١- بسم الله الرحمن الرحيم تحضر حسنة بنت دجاشة
- ٢- بسقط الحمارة مجلس الحكم بالأشمونين إن شاء الله
- ٣- و كتب لثلاثة عشر ليلة حلت من شهر المحرم سنة تسعين
- ٤- و حسنا الله وحده ( و الحمد لله ) شكر و الحمد ( لله ) رب العالمين

#### التعليق على نص الوثيقة

بدت الوثيقة بالسلسلة - و في نفس السطر ورد أمر الحضور بصيغة الأمر ( تحضر ) ، ويلاحظ أن المرأة ( حُسنة ) لم تنسب لأبيها بل نُسبت لأمها ( دجاشة ) - و محل إقامتهم ورد في مطلع السطر الثاني و هي منطقة ( سقط الحمارة ) بالأشمونين فكلمة سقط مشتقة من اسم الإله المصري القديم (صد)<sup>(٥١)</sup> وتجدد الإشارة إلى أن اسم قرية (سقط)<sup>(٥٢)</sup> و سقط الحمارة الوارد ذكرها في هذه الوثيقة كان يطلق عليها أيضا ( سقط المهلبى ) وهي قرية إسقر بها بنو عبدالدار و بنو شيبه و هما بطون قبائل بنو طلحة الذين هاجروا إلى مصر بعد الفتح<sup>(٥٣)</sup> و استقرار العديد من القبائل العربية بها في مدن القسطنطين و العسكر و القطنان .. و غيرها خلال القرون الأولى للهجرة . ، جدير بالذكر أيضا أن اسم هذه المنطقة قد أوردها الوزير ابن عماتي ( الذي عاش في القرن ٧هـ / ١٣ م ) و أوردها باسم سقط المهلبى و سقط الحمارة و قال إنها من أعمال الأشمونين<sup>(٥٤)</sup>. أيضا يلاحظ ورود عبارة (مجلس الحكم بالأشمونين ) الأمر الذي ربما يشير الى وجود مجالس أخرى للحكم في مناطق أخرى في الدولة للفصل في قضايا الأحوال الشخصية و سرعة البت فيها ، أيضا يلاحظ تحديد تحرير هذا الأمر بدقة ، كما ورد نص السطر (٣) ( و كتب لثلاثة عشر ليلة حلت من شهر المحرم ) - ثم حتمت الوثيقة بالاستعانة بالله تعالى و الثناء عليه ، خاصة و أنه تعالى هو المؤلف بين قلوب عباده .

ب: - وثيقة تتعلق بالحكم في مجلس قضاء

هذه الوثيقة ايامة محفوظة في مجموعة الأرشيدوق رايسر ( المكتبة الوطنية بالنمسا برقم سجل ( PER.inv.Ar.pap.519 )<sup>(٥٦)</sup> و هي غير مؤرخة ، و لكن أسلوب كتابتها ربما ينسبها للقرن ١ هـ / ٧م أطوالها ١٩,٧ × ١٠,٩ سم ، بها العديد من التمزقات و الثقوب ، الأمر الذي أدى الى اختفاء عدد من سطور الوثيقة ، و يلاحظ وجود كتابة قبطية في السطر قبل البسملة - و الكتابة منقذة بأسلوب ( خط التحرير المخفف ) أو ما يطلق عليه ( بالخط الحجازي اللين ) ، و النص يتكون من أجزاء من ٥ سطور باللغة العربية ، و سطر واحد باللغة القبطية ( يسبق البسملة )

### نص الوثيقة

#### كتابة قبطية

- ١- بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢- هذا ما قضا عبدالله بن عميس لأسدره
- ٣- و إمراته من أهل أبومعروف من كورة قهقوة
- ٤- و ذلك في .....عشرين سنة (
- ٥- ستة دنبر

#### التعليق على نص الوثيقة

التأمل في نص هذه الوثيقة النادرة ، يلاحظ أنها ربما كانت حكم قضائي نهائي من أحد القضاة و يدعى ( عبدالله بن عميس ) حيث قضي و حكم في قضية أحوال شخصية لبعض أهل الذمة ، و الزوج يدعى ( أسدره ) و المروجة لم يرد ذكرها بالصفة الزوجية بالإسم ولكن ورد فقط بهذه الصيغة ( و إمراته ) ، - حيث لم يرد بالنص أى ذكر أو بيانات توضح إسمها أو إسم عائلتها ، بينما ورد بالنص في السطر (٤) مكان إقامة هذان الزوجان و هي منطقة ( أبومعروف ) من مدينة ( قهقوة ) في صعيد مصر . و هي مدينة تقع في صعيد مصر ، و هي

مدينة مندثرة ولم يبق لها أى أثر اليوم أقيمت على أطلالها حالياً قرية (الدوير) التابعة لمركز أبو تيج بمحافظة أسيوط<sup>(٥٧)</sup>. ولقد ورد ذكر هذه المدينة في العديد من نصوص البرديات العربية - إحداها محفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا برقم سجل (PERF inv.Ar.pap.4911)<sup>(٥٨)</sup>.

و نظراً لإختفاء أجزاء كثيرة من نص الوثيقة فإن العبارات والكلمات المتبقية ربما تشير إلى تاريخ تحرير هذه الوثيقة و هى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، جدير بالذكر أيضاً ورود عبارة فى السطر الأخير تتعلق بالأمور المالية ستة دنانير ربما كان مبلغاً مستحقاً للزوجة كمؤخر صداق - واجب على الزوج . و مثل هذه الحالة ربما تشير أيضاً إلى ارتضاء أهل الذمة أن تنظر قضاياهم وفق شريعة الإسلام .

#### ج- وثيقة تتعلق بمجلس صلح بين زوجين

هذه الوثيقة النادرة محفوظة حالياً فى المكتبة الوطنية بالنمسا ( مجموعة الأرشيدوق راينر ) برقم سجل (PER inv.Ar.Pap.659)<sup>(٥٩)</sup> غير عليها فى مدينة الفيوم ، كتبت على قطعة من ورق البردي أطوالها ٨,٢٠ × ١٠ سم - غير مؤرخة ، ولكن أسلوب كتابتها ربما يشير إلى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، بها بعض التصرفات وخاصة من الناحية السفلية ، كتبت أيضاً بأسلوب "خط التحرير المخفف" الخائى من الإصعاج ، و يلاحظ أن الكتابة منفذة بشكل جميل على مستوى السطر و بقلم دقيق السن ، شبيهه بعض كتابات الدواوين فى القرن الهجرى الأول و خاصة رسائل الوالى الأموى قررة بن شريك العيسى ٩٠-٩٦هـ - ٧٠٩-٧١٥ م . و لقد تضمن النص كتابة من ( ٧ سطور ) .

#### نص الوثيقة

- ١- بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢- هذا ما اصطلىح عليه أبوسليمن و إمرانه سكينه
- ٣- اصطلىحا على أن لسكينه ما فى بيتها و لأبوسليمن
- ٤- ما عليه من الصداق و أرضاها بثلثين دينراً

- ٥- و الحميل بذلك عثمان بن عبدالله مولا عكاشة  
 ٦- بن يوسف و عبيدة مولى عبدالملك بن أبي زياد  
 ٧- المازجي و علي و كتب عنه شهادته

#### التعليق على نص الوثيقة

بُدِئَت الوثيقة بالبسملة ، ثم أعقبها عبارة الصَّلْح بهذه الصيغة ( هذا ما أصطَلَح عليه أبوسليمن و إمراته سَكِينَة ) ، و يلاحظ أن الزوج لم يرد اسمه كاملاً بل وردت كنيته ( أبوسليمن ) و كذلك زوجته لم يرد اسمها كاملاً بل ورد الاسم الأول فقط ، و لم يرد ذكر لإسم والدها أو إسم العائلة ، و ربما كان ذلك بناء على رغبة الطرفين بعدم ذكر كامل الإسم أو العائلة، صيانة و حماية لمكانة و مهابة العائلة . و السطر الثالث يشير الى تنازل الزوج ( أبوسليمن ) لجميع متعلقات البيت من أثاث و متاع .... و غيره ، و إثبات ذلك في هذه الوثيقة ، في مقابل أن تنازل الزوجة ( سَكِينَة ) عن صداقها ، و استعيض عنه بمبلغ ( ٣٠ دينار ) كرضاً من الزوج ( أبوسليمن ) للسيدة ( سَكِينَة ) و ربما كان هذا المبلغ الرضية للزوجة أقل من مبلغ الصداق الذي كانت تطلبه الزوجة كمقدم صداق - فرغياً في إثبات هذه الحالة أن جميع ما في بيتها يكون ملكاً لها مع تنازلها عن صداقها - الذي استعيض عنه بمبلغ الرضية و هو ( ٣٠ ديناراً ) و الضامن لذلك هم إثنان من الموالى<sup>(١١)</sup> ، و المولى تستعمل للدلالة على الخليف و الجار و التابع و السيد و المولى الوارد ذكرهم في البردية هم: ١- عثمان بن عبدالله مولى عكاشة بن يوسف ، ٢- و عبيدة مولى عبدالملك بن أبي زياد المازجي<sup>(١٢)</sup> ، و كتب عنه شهادته و عبارة ( و كتب عنه شهادته ) توضح أن ( عبيدة ) ربما كان أمياً و كتب عنه شهادته عثمان بن عبدالله .

و في واقع الأمر إن مثل هذه النصوص الوثائقية النادرة الهامة تكشف لنا حقائق هامة عن العلاقات الإجتماعية و الإنسانية خلال القرون الأولى للهجرة ، قلما نجد في نصوص أخرى غير أوراق البردى و الكاغد .

و الوثائق السابق ذكرها من أوراق خَلَع و طلاق و مجالس صلح و قضاء تدلنا على أن المسلمين كانت لديهم عناية بالأسرة بصفتها اللبنة الأولى في المجتمع الإسلامي ، فإذا صلحت صلح المجتمع و إذا فسدت فسد المجتمع ، و من أجل ذلك عنت الدولة الإسلامية بهذا الأمر عناية خاصة ، حتى أن بعض أهل الذمة ( يهود ، نصارى ) ارتضوا أن تنفذ عقود بيعهم وشرائعهم و زواجهم و طلائعهم وفق شريعة الإسلام علما رأينا في الورقة النادرة المؤرخة بشهر محرم سنة ٢٩٧هـ الموافق أكتوبر ٩٠٩ م و التي كشفت عن معلومات هامة عن طلاق رجل من أهل الذمة يدعى ( سوية بن إيشادة ) لزوجته السيدة و تدعى ( قسبدي ) ابنت جرجة الراهب ) ، و هذا النص النادر يكشف لنا عن تمتع أهل الذمة بحريتهم في مجتمع المسلمين و ارتضاءهم انقاد سائر عقودهم وفق الشريعة الإسلامية و بحضور شهود مسلمين كما ورد في نص الوثيقة السابق ذكرها .

كذلك كشفت هذه الوثائق عن حقائق هامة منها تمتع المرأة في المجتمع الإسلامي بحقوق الاختيار و بالحرية المطلقة في استمرار العشرة مع الزوج و بحقوقها أيضا في الخلع منه إذا ما رغبت في ذلك وفق ما شرعه الإسلام . و على سبيل الإجمال فإن مثل هذه الوثائق تعبير بالغة الأهمية للباحثين و الدارسين في مجال الحضارة و الفكر و النظم الإسلامية في العصور الوسطى .







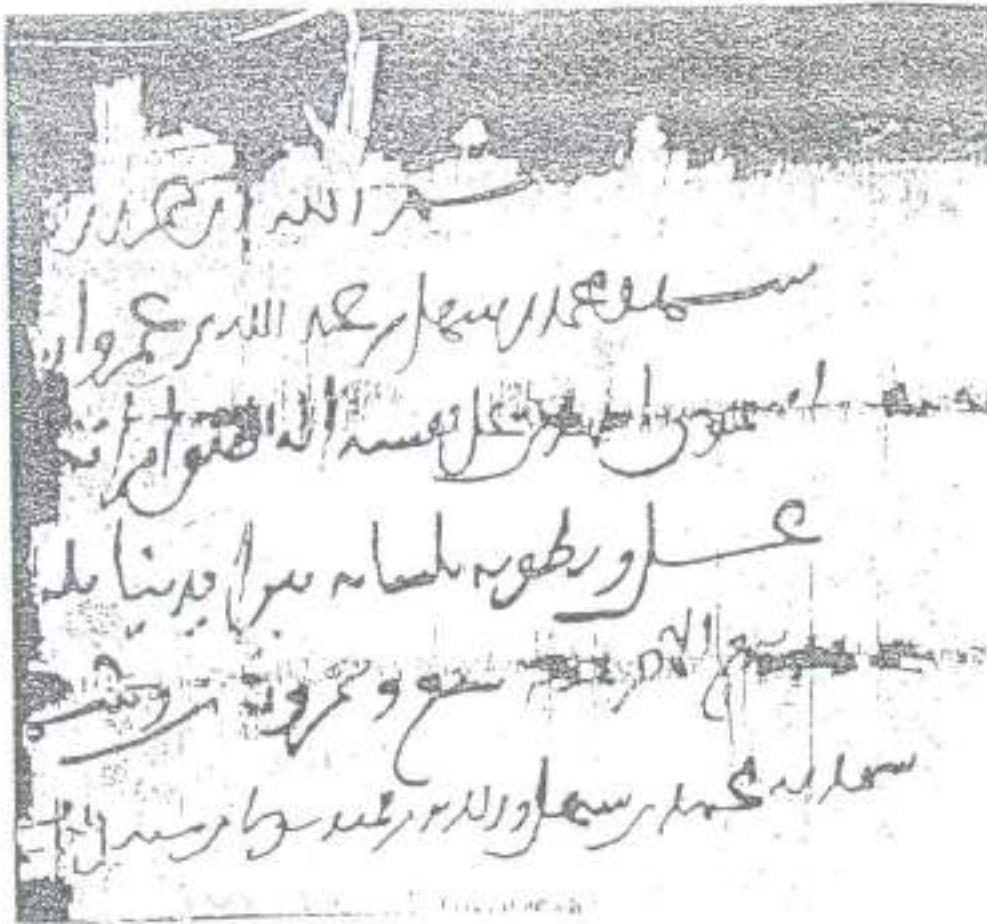


انا محمد بن  
 هارون بن النبي شاه و اربنصر ما بقع  
 فلهذا الامر سنة و دار الله را اسواقكم  
 و لسر محمد بنك حسنة صل حسنة است  
 كى بلى و محرم و لا طلبه و لا حور سيب  
 مر الاسفار - در عزرا عمر و لا عمر و لا صباح  
 و مدرس محمد بنك سيب سوار  
 دار الله الله محمد بنك سوار  
 كى نعم محمد بنك سوار كى نعم محمد بنك سوار  
 لى - الله محمد بنك سوار و كى سيب  
 و الحسنة بنك سوار سوار محمد بنك سوار

لوحة رقم (٣) :

ورقة طلاق محفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا - تمسب للقرن ١٥٣ / ٩ م





لوحة رقم (٥) :

ورقة طلاق نادرة مزخرفة بشهر ربيع الآخر سنة ٢٥٧ هـ - محفوظة بمتحف جامعة

بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية .





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المخلصين

والمؤمنين الذين هم خير ما خلق الله

على وجه الأرض

صلى الله عليه وسلم

لوحه رقم (٧)

وثيقة تتعلق بالحكم في مجلس القضاة محفوظة بالأكاديمية الوطنية بالعمان

(مجموعة الاقضية والامر)



لغير الله الر حلال الر حلال  
 ما ا صطبه سلفه الر حلال  
 ما عتبه من الر حلال  
 و الر حلال ما عتبه من الر حلال  
 ما عتبه من الر حلال  
 ما عتبه من الر حلال  
 ما عتبه من الر حلال

لوحة رقم (٨) :

وثيقة تتعلق بمجلس صلح بين زوجين محفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا

( مجموعة الاشيلونق رانس )

## الحواشي والتعليقات

- ١- سورة البقرة - آية رقم ( ٢٢٩ )
- ٢- الشيخ محمد علي الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير المجلد الأول - طبع دار القرآن الكريم - بيروت - لبنان سنة ٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م - ص ٢٠٥
- ٣- الشيخ محمد علي الصابوني : المرجع السابق - ص ٢٠٥ حاشية ( ٣ )
- ٤- رواد الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه
- ٥- الشيخ محمد علي الصابوني : المرجع السابق - ص ٢٠٥ - ٢٠٦
- ٦- أحمد بن محمد بن علي القيومي القرني : الصحاح المترو - طبع مكتبة لبنان - بيروت - ١٩٨٧ م - ص ٦٨
- ٧- محمود خاطر : مختار الصحاح - طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م - ص ١٨٥
- 8- Raief.G.Khoury, Chrestomathie De papyrologie Arabe Koln.1993.p.4.
- ٩- الإصطخري ( أبو إسحاق إبراهيم بن محمد القاسمي ) ت ٤٤ هـ / ١٠ م مسالك أمالك - طبع لندن هولندا سنة ١٩٢٧ م - ص ٥٣
- ١٠- المسيحي ( محمد بن عبيد الله بن أحمد ) ٣٦٦ - ٤٢٠ هـ / ٩٧٧ - ١٠٢٩ م أخبار مصر - تحقيق د. أمين فؤاد سيد ونيارى يانكي طبع المعهد العلمي الفرنسي لتأثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٧٨ م - ص ٨٢ - ٦
- ١١- الرحالة الإدريسي هو ( الشريف محمد بن عبد العزيز - تولى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م كتابه : " نزهة المشتاق في اختراق الأفاق " - طبع لندن هولندا سنة ١٨٦٦ م - ص ٤٥
- ١٢- أنظر اللوحة المرفقة - لوحة رقم ( ١ )
- ١٣- ابن ظهيرة ( أبو إسحاق برهان الدين ) ٨٢٥-٨٩١ هـ / ٤٤٢-٤٨٦ م الفضائل الماهرة في محاسن مصر و القاهرة" لتحقيق مصطفى السقا و كامل المهندس - طبع بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م - ص ٦٢
- ١٤- أنظر في ذلك : د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام طبع دار الرائد العربي - بيروت - لبنان سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، د. زكي محمد حسن : كنوز القاطنين - طبع دار الرائد العربي - بيروت - لبنان سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

- ١٥- د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق الطبعة الثانية - القاهرة - سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ١٦- د. محمد عبدالحليم نورالدين : اللغة المصرية القديمة - مطبعة دار التعاون بالقاهرة - سنة ١٩٩٨ م - ص ٢٣١-٢٣٢
- 17- Becker.C.H., Arabische Papyri des Aphroditio Fundes ( PAF) , ZA 20-1906.
- ١٨- القرآن الكريم - سورة ( عس ) آيات (٣٤-٣٦)
- ١٩- قاموس المسجد في اللغة و الأعلام - طبع بيروت - لبنان ١٩٨٦ م الأعلام ص ٥٣٢
- ٢٠- ابن كثير ( الحافظ أبي الفداء بن كثير ) ت ٧٧٤هـ - البداية و النهاية - طبع دار الفكر - بيروت - مجلد ٦ ص ٩٧
- ٢١- المقرئ ( تقي الدين أبي العباس ) ٨٤٥هـ : المواعظ و الاعتبار - طبع دار صادر - بيروت - ص ٣٥٥
- ٢٢- قاموس المسجد : المرجع السابق ص ٥٣٢
- ٢٣- الأب إسكندر عاري الكرملى : النقود العربية و علم التيمات طبع بيروت - لبنان ص ٢٢
- ٢٤- ناصر النقيدي : الدرهم الإسلامي - مطبوعات اجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٧٠ م ص ١
- ٢٥- القرآن الكريم - سورة يوسف آية رقم (٢٠)
- ٢٦- أنظر في ذلك العديد من نصوص الموديات العربية المحفوظة في دار الكتب المصرية سنة ١٩٩٤م الطبعة الثانية مجلدات ٦، ٣، ٤، ٥ .
- ٢٧- حسان علي حلاق : تعريب النقود و النواوين في العصر الأموي - طبع دار الكتب اللباني - دار الكتاب المصري بالقاهرة سنة ١٩٧٨م ص ١٢-١٣
- ٢٨- القرآن الكريم : سورة آل عمران - آية رقم (٧٥)
- ٢٩- الإمام محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح - طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ م ص ٥٧١
- ٣٠- أحمد بن محمد بن علي القيومي المقرئ : المصباح النير طبع مكتبة لبنان - بيروت - سنة ١٩٨٧ ص ١٧١
- ٣١- قاموس المسجد في اللغة و الأعلام : اللغة ص ٩٠٥
- ٣٢- القرآن الكريم - سورة الأنبياء - آية رقم ( ٣٠ )

- ٣٣- القرآن الكريم - سورة المؤمنون - آية رقم (٢٠)
- ٣٤- القرآن الكريم - سورة البقرة - آية رقم (٢٣٤)
- ٣٥- القرآن الكريم - سورة البقرة - آية رقم (٢٨٣)
- ٣٦- القرآن الكريم - سورة الطلاق - آية رقم (١)
- ٣٧- القرآن الكريم - سورة الطلاق - آية رقم (٢)
- ٣٨- القرآن الكريم - سورة الطلاق - آية رقم (٤)
- ٣٩- القرآن الكريم - سورة الطلاق - آية رقم (٥)
- ٤٠- القرئى : المصباح المنير - ص ١٤٢ - ١٤٣
- ٤١- نشرها الدكتور / رليف جورج محوري في دراسته  
Raief.G.Khoury; Chrestomathie De papyrologie Arabe.Köln.1993.p.47-48
- ٤٢- القرآن الكريم سورة النساء آية رقم (١٣٠)
- ٤٣- الشوارب بالقصص : منافع البيت و الرجل بالخاء ، أنظر في ذلك : الرازى : مختار الصحاح ص ٣٥٠
- ٤٤- أعاد نشرها الدكتور رليف جورج محوري في دراسته :  
Raief.G.khoury; op.cit.pp.42-44
- ٤٥- القرآن الكريم - سورة البقرة آية رقم (٢٣٠)
- ٤٦- د. جروهمان : أوراق اليرودي العربية بدار الكتب المصرية ج٢ - رقم (٢٠٨) ص ٢١٨-٢١٩ ،  
د. أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر - طبع الهيئة المصرية للتأليف و النشر - القاهرة سنة  
١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م
- ٤٧- القرآن الكريم - سورة البقرة آية رقم (٢٣٠)
- 48- Giorgio Levi Della Vida; Arabic Papyri in the university Museum in  
Philadelphia ( Pennsylvania) .1988.pp.54-56.
- ٤٩- الإدريسي ( الشريف محمد بن عبدالعزیز ) ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م .  
'نزهة المشتاق في إحصاق الألفاق ' طبع ليدن هولندا سنة ١٨٦٦م ص ١٥٩-١٦٠ .
- ٥٠- علي يانبا مبارك : الخطط الجديدة لمصر و القاهرة و منفا القديمة و النهرية - طبع بولاق سنة  
١٣٠٥هـ - ج ٣ ص ٧ .
- 51- Raief.G.khoury; Papyrologische studien.pp.111-113.

- ٥٢- محرم كمال : آثار سيطرة الفراعنة في حياتنا الحالية طبع الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٩٧م  
ص ٧٤ .
- ٥٣- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية  
طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - سنة ١٩٩٤ م ص ٢٤٢-٢٤٤ .
- ٥٤- عبدالله خورشيد المولى : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة طبع الهيئة المصرية  
العامة للكتاب ، بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م ص ١٠٣ .
- ٥٥- ابن ممانى ( الوزير الأيوبي الأسعد بن ممانى ) ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م . "قوانين الدواوين" - تحقيق عزيز  
سوربال عطية - رقم (١٢) - مكتبة مذبولى بالقاهرة سنة ١٩٩١م ص ١٠٩ .
- 56- Raief.G.khoury:,op.cit.pp.89-90
- ٥٧- محمد رمزي : المرجع السابق - القسم الثاني ، ج ٣ ص ٨٥-٨٦ .
- 58- Grohmann,A:,Texte Zur wirtschaftsgeschichte Agyptens in Arabischer.zelt.pp.457-460.
- 59- Raief.G.khoury:,op.cit.pp.46-47.
- ٦٠- د.حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ و الوثائق و الآثار - طبع دار النهضة العربية بالقاهرة  
سنة ١٩٧٨م ج ٣ ص ١١٦٩ .
- ٦٠- نظراً لإحشاء الإعجام بالبردية - لهذه الكلمة يمكن أن تقرأ أيضا ( المازحى ) .

## ملابس أهل الحجاز في صدر الإسلام

تبحث هذه الدراسة في الملابس التي كان أهل الحجاز يستخدمونها في صدر الإسلام. وقد تعددت أسماؤها وأشكالها تبعاً لمكانها من البدن. فمن هذه الملابس :

الإزار : هو كل ما وارى البدن وشتره<sup>(١١)</sup>، وموضعه يحيط بالنصف الأسفل من البدن<sup>(١٢)</sup>. وقيل إن الإزار لفظه أعجمية<sup>(١٣)</sup>، والإزار من الألبسة الشائعة عند أهل الحجاز، وكان بعضهم يطيل إزاره، فكانوا يسمونه الإزار المهذب، أي الذي يلامس الأرض، وهذا فيه من البطر والخيلاء، وقد نهى الإسلام عن ذلك ففي الحديث الشريف: «من جر إزاره بطراً لم ينظر الله إليه»<sup>(١٤)</sup>، لذلك حذر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم طول الإزار بالنسبة لبدن الإنسان. فمن ذلك قوله: «أزره المؤمن إلى أنصاف ساقيه لاجناب عليه فيما بينه وبين الكعبين»<sup>(١٥)</sup>. وقد حذر في نفس الوقت من إطالة الإزار بقوله: «وما أسفل ذلك ففي النار»<sup>(١٦)</sup>.

وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم مخاطباً علي بن أبي طالب فيما يخص لبس الإزار: «إذا كان إزارك واسعاً فتوشح به، وإذا كان ضيقاً فأنترز به»<sup>(١٧)</sup>. وقد كان إزار رسول الله يصل إلى نصف ساقيه، ويقول لأصحابه في مزايا الإزار المعتدل الطول: «ارفع إزارك فإنه أنقى وأبقى»<sup>(١٨)</sup>.

ولعلنا نتوصل من هذا الحديث الشريف إلى أن الغرض من رفع الإزار إلى ما فوق الكعبين، هو للطهارة والنظافة من جهة وللحفاظة على الإزار أو الثوب من التلف، أي أن أنقى بمعنى أنظف، وأبقى بمعنى يكون الثوب أطول عمراً. وكان طول إزار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أربع أذرع وشبر في ذراعين وشبر، أما بالنسبة للنساء، فقد أمرهن بإطالة الإزار أو الثوب لستر أرجلهن حتى لو كان في ذلك تلف للثوب أو ما يناله من قذارة الطريق<sup>(١٩)</sup>.



**الأسمال :** وهي الثياب التي أصبحت بالية عتيقة لكثرة استعمالها، فإذا قبل أسمل الثوب ؛ أي أخلق والسومل هو الكساء الخلق. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض من أصحابه يلبسون بعض الأحيان السمل من الثياب وذلك من باب الزهد والتقشف في الحياة، وفي حديث عائشة : «ولنا سمل قطيقة كنا نلبسها»<sup>(١١١)</sup>.

وكان الزهاد والعباد يلبسون جبة من الصوف بين قميصين غليظين ، ومن وصايا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه : أن يلبسوا الخشن من الثياب ، فمن قوله لأبي ذر : «يا أبا ذر البس الخشن من الثياب والصفيق - الكثيف السميك - من الثياب لئلا يجد الفقر فيك مسلكا»<sup>(١١٢)</sup>.

وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول عن نفسه مخاطبا أبا ذر : «يا أبا ذر إني ألبس الغليظ وأجلس على الأرض وألحق أصابعي وأركب الحمار بغير سرج وأردف خلفي ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١١٣)</sup> . ومن وصاياهم لأصحابهم : «عليكم بلباس الصوف تجدوا حلوة الإيمان»<sup>(١١٤)</sup>.

وقد سلك بعض الصحابة في لباسهم صلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلما قدم وفد من اليمن وعليهم الخلل الموشاة بالذهب شاهدوا ما على أبي بكر من عبادة وشمله ، فنزعوا ما عليهم من فاخر الثياب واقتدوا به . كذلك كان عمر بن الخطاب كان متواضعا في لباسه ، كان يلبس الجبة من الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة<sup>(١١٥)</sup>.

وهذا على بن أبي طالب أزهد الزاهدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عنه عمر ابن عبد العزيز : «ما علمنا أحدا كان في هذه الأمة أزهد من علي بن أبي طالب بعد النبي صلى الله عليه وسلم» . وقد لقبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأبي تراب لكثرة زهده في أسفاره<sup>(١١٥)</sup> ، فكان زاهدا في طعامه ولباسه فقد قيل عنه أنه «يعجزه من الطعام ما جشِب<sup>(١١٦)</sup> . ومن اللباس ما خشن»<sup>(١١٧)</sup> ، فكان يلبس الثوب مرقوعا أما بجلد أو ليف ، ويلبس الكرياس - وهو ثوب غليظ من القطن - فإذا ما وجد كنهه طويلا قطعده بألة حادة وتركه دون خياطة فيتساقط على ذراعيه حتى يبقى سدى لا لحمه له<sup>(١١٨)</sup> . وكان عليه قميص مُحرق فسر عليه جماعة من قريش فظنوا أنه ليس له من المال ما يشتري به لباس ، فقالوا : «أصبح على لا مال له» ، ولكنهم علموا أن ذلك كان من باب التقشف والزهد في الحياة ومساواة منه للفقراء<sup>(١١٩)</sup>.

ومن الصحابة والتابعين من كان يلبس الحبرات من الحرير والخز ثم تركوا ذلك زهدا في

الحياة ولبسوا لباس الزهاد، ومما يؤكد ذلك ما ورد على لسان الحسن بن علي بن أبي طالب، حين قال: «أين الذين طرحوا الخزوز والحبرات ولبسوا البتوت والشمرات»<sup>(٢٠١)</sup>، والبت لباس غليظ نسيجه من الوبر والصوف، مربع الشكل وغالبًا ما كان يصنع باللون الأخضر، ويبدو أنه من لباس الفقراء والزهاد، وفي حديث علي بن أبي طالب عندما دخل عليه طائفة من الناس، قال لخادمه قنبر: «بتهم أي أعطهم البتوت»<sup>(٢١١)</sup>.

ومن الصحابة الزهاد، الصحابي سلمان الفارسي، بعثه عمر بن الخطاب عاملاً على المنائن، كان لباسه من الصوف وقوته من خبز الشعير، وكذلك كان أبو عبيدة بن الجراح، لباسه الصوف الحشن<sup>(٢٢١)</sup>.

**البجاء**: جمعها بجد؛ وهو كساء من الصوف مخطط من لباس الأعراب<sup>(٢٢٢)</sup>، وهذه الأكسية كانت معروفة عند أهل الحجاز، فكان عبسة بن فهم المزني دليل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، دائماً في أسفاره بلبس كسائين، فعرف هذا البجاءين، وقيل أن رسول الله هو الذي سماه بذلك<sup>(٢٢٤)</sup>، ومن البجاء كانوا يتخذون البسط ليُجلس عليها، ففي حديث جابر بن عبد الله الأنصاري، أنه دعا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى خيمته بسط له بجاءاً من شعر<sup>(٢٥١)</sup>.

**البرود**: ومن الألبسة الشائعة عند أهل الحجاز، البردة، جمعها أبراد والبرود، لها أشكال عديدة، وهي عبارة عن كساء مخطط مربع الشكل يلتحف بها معروفة عند أهل البادية، فكانوا يلبسونها<sup>(٢٥٦)</sup>، كذلك كانت من لباس أهل الحضرة، فكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يلبس البرود في العيدين وفي الجمع ذات لون أحمر<sup>(٢٧١)</sup>، وفي منى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يخطب راجياً يعله وعليه برد أحمر وعلي بن أبي طالب كان أمامه يعبر عنه<sup>(٢٨١)</sup>، وعليه بردا مجرانياً غليظ الحاشية، كما شوهد وعليه بردان أخضران<sup>(٢٩١)</sup> وفي حديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو جالس في أصحابه وعليه بردة، وعن عائشة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم، لبس برادة سوداء»، فقالت: ما أحسنها عليك يشربها بياضك سوادها، وسوادها بياضك»<sup>(٣٠١)</sup> وفي حديث لأنس بن مالك: أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعليه بردة جونية، أي ذات ألوان والغالب عليها الأبيض والأسود، وقيل سميت بذلك، نسبة إلى بني الجون، إحدى قبائل الأزد<sup>(٣١١)</sup>.

وتقرن أحياناً اسم الفاخر مع البرود، فيسمى البرد الفاخر، وقد عرف بذلك نسبة إلى رجل

من قيم، اسمه فاخر، وقيل لأنه أول من لبس البرد الموشى. والبرد لباس للمرأة والرجل، فالنساء يتزين بالبرد وكذلك الرجال، ومن العادات أن بعض الرجال يلبسون بردين زيادة في الأناقة والترقب<sup>(٣٢١)</sup>.

واشتهرت مدينة عدن بصناعة البرد، وكذلك مدينة صنعاء ونجران. وقد ورد اسم البرد في الحديث الشريف منسوباً إلى عدن، وذكروا أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «جلل فرساً له سبق بردا عدنيا» ويقول أحد الصحابة وهو سليم بن عامر: «رأيت على عثمان بن عفان برداً يمانياً ثمنه مائة درهم»<sup>(٣٢٢)</sup>.

وكان لبرد رسول الله، صلى الله عليه وسلم نصيب في شعر الشعراء، فقد قال كعب بن زهير شعراً عندما وهبه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، برده بعدما أتاه ثانياً نازعاً ما عليه من الشرك<sup>(٣٢٣)</sup>.

وقد خلف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بردين الأثرى التي كساها كعب بن زهير، وقد أراد معاوية شرائها من كعب، فكتب إلى كعب: «بعنا بردة رسول الله، بعشرة آلاف درهم»، فرفض كعب<sup>(٣٢٤)</sup>. وقال: «ما كنت أثر بشوب رسول الله أحد»<sup>(٣٢٥)</sup>. ولما مات كعب، بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألف درهم، وأخذ منهم البردة، ويذكر السيوطي، أن البردة ظلت عند بني أمية إلى عهد بني العباس<sup>(٣٢٦)</sup>.

وذكروا أن البردة التي كانت عند بني العباس، هي البردة التي أعطاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم أهل أبيه<sup>(٣٢٧)</sup>، أثناء غزوة تبوك أمناً لهم، ولما آلت الدولة إلى بني العباس اشتراها أبو العباس السفاح منهم بثلاثمائة دينار. وظل بني العباس يتوارثونها، فكان خلقهم يضعونها على أكتافهم في المناسبات تبركاً بها وكانت البردة على المقترحين قتل فتلوئت يدهم، وهناك من يقول: إنها ظلت إلى عهد المستعصم آخر خلفاء العباسيين نصارت بيد السشار<sup>(٣٢٨)</sup>. وقيل أن التتار أمروا بحرقها، فقال قائدهم هولاكو: ما كان حرقها استهان بها وإنما تطهيراً لها، ولا تعرف ما القصد من التطهير<sup>(٣٢٩)</sup>.

البرنس: ومن الألبسة الشائعة والمعروفة عند أهل الحجاز، البرنس: والبرنس هو كل ثوب غطاء رأسه جزء منه متصلاً به<sup>(٣٣٠)</sup>، وهو عبارة عن دراعة أو حبة يلبسه الرجال والنساء، والبرنس معروف عند العرب في العصر الجاهلي، فقد ورد في أشعارهم<sup>(٣٣١)</sup>. وظل الناس يستعملون البرنس في الإسلام، وقد ذكروا أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً

منها<sup>(١٤٣)</sup>، إلا أنه نهى عن لبس البرنس والقميص والسروال والحفاف، والشباب التي منها الزعفران والورس في الحج أو العمرة<sup>(١٤٤)</sup>، ويرى ابن خلدون إن السر في هذا التحريم: أي لبس المخيط في الحج والعمرة، يعود إلى أن لباس المخيط مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية، بينما منهج الحج ومشروعيته تدعو إلى نبذ هذه المظاهر، فمن أقوال ابن خلدون في ذلك: «إنما تفصيل الشباب وتقديرها وإحاطها بالحياطة للباس، من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذه في سر محريم المخيط في الحج، لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العيد قلبه بشئ من عوائد ترفه، لا طيبا ولا لبا ولا نسا، ولا مخيطا ولا خفا»<sup>(١٤٥)</sup>.

وكان عمر بن الخطاب يلبس البرنس، من ذلك أنه كان يقول: «سقط البرنس عن رأسي»<sup>(١٤٦)</sup>، وقد لبسوا البرانس المصنوعة من الخز<sup>(١٤٧)</sup>، فكان على أنس بن مالك يرتسا أصفر من خز<sup>(١٤٨)</sup>، وقد صار البرنس من لباس القراء، وفي حديث لعبد الله بن أبي بكر قوله: «ما كان أحدا من القراء»، إلا وله برنس يغدو فيه وخصيه بروح فيها»<sup>(١٤٩)</sup>.

التيان: (بالضم والتشديد)، من الملابس الخاصة التي لا تلبس إلا وقت الضرورة وفي الحالات الخاصة، وهو عبارة عن سراويل قصيرة طولها لا يتعدى الشبر، يستر فيها العورة، وأكثر من كان يستعملها الملاحين. وفي حديث لعمار بن ياسر: «أنه صلى في ثياب فقال إني محشون»، فقد لبس التيان لأنه يشتكى ألم في مشانته، وفي حديث لعمر بن الخطاب: «صلى رجل في ثياب وقميص»<sup>(١٥٠)</sup>، وقيل أن كلمة التيان أعجمية أصلها فارسي، ويقال (تيان) بالفارسي، و(تومان) بالتركية والكردية<sup>(١٥١)</sup>.

الثوب: هو اللباس، معروف عند أهل الحجاز، وإذا ما كان الثوب جديدا وعليه زخارف، سمي (مجبورا)، وإذا ما كان رثا خلق سمي (الهدم)<sup>(١٥٢)</sup>، وقد تسموا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، حديثا نهى فيه عن لباس ثوب الشهرة، فقال: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله تعالى ثوب مذلة»، وقد فسروا ثوب الشهرة، بأن يجعلوا للقميص كمين أحدهما على الآخر، ليبدو على لابسه قميصين أحدهما على الآخر<sup>(١٥٣)</sup>.

الجببة: شرب من الثياب بكمين واسعتين، مقدمتها مفتوحة، وتلبس فوق الثياب، وتسمى أحيانا الدراعة<sup>(١٥٤)</sup>، والجببة من الأبيسة المعروفة عند أهل الحجاز، فكانوا يجلبون الجبب من الشام والعراق<sup>(١٥٥)</sup> فقد كان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، جبة من صنع

الشام<sup>(١٥٦)</sup>، وقد أهدى أحدهم لرسول الله جبة شامية وخفين، وفي القتال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يلبس جبة من صوف<sup>(١٥٧)</sup> وأصبحت الجباب بعد ذلك من لباس الطبقات الغنية<sup>(١٥٨)</sup>.

**الجلباب** : هو الثوب الواسع أوسع من الخمار تغطي به المرأة رأسها وصدرها<sup>(١٥٩)</sup>، وقيل هو الثوب الواسع أصغر من الملحفة تلبسه المرأة لستر بدنها، وقد سمي إزارا لكونه يلف على سائر البدن، وليل هو المقتنعة، لكونه غطاء لرأس المرأة وصدرها وظهرها، وسمى خماراً. وفي حديث أم عطية: «لتلبسها صاحبها من جلبابها» أي إزارها. ويفهم من ذلك أن الجلباب يأتي بمعنى الثوب<sup>(١٦٠)</sup>، وقد ورد اسم الجلباب في القرآن الكريم، فقد جاء في التنزيل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْأَجُكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) <sup>(١٦١)</sup>.

**الجُمَازة** : (بالضم) : ضرب من الثياب الصوف معروفة عند أهل الحجاز، وهي الدُرَاعَة من الصوف قصيرة وأكمامها قصيرة وضيقة<sup>(١٦٢)</sup>، وربما هي من الثياب التي كانت تصنع في اليمن، نسبة إلى بلدة في اليمن تسمى جَمَزَة<sup>(١٦٣)</sup>. فكانت تصدر إلى مختلف البلدان. وقد لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم الجُمَازة، ولما أراد أن يتوضأ تعذر عليه إخراج يديه لضيق كمها، فأخرج يديه من تحتها<sup>(١٦٤)</sup>.

**الحبيرة** : نوع من البرد البماعة، التي اشتهرت اليمن بصناعتها، وهي من الثياب الفاخرة ذات القيمة ولها أشكال وألوان مختلفة، فكان تجار اليمن ينقلونها إلى مختلف البلدان، وكان تجار مكة يقصدون اليمن لجلب مثل هذه الثياب. أما الحبيرة (بكسر الحاء)، فهي برود صوفاة ومخططة، من أجود أنواع الثياب في اليمن وغالية الثمن، فكانت تصل إلى مكة والمدينة، وقد نسبوا إلى الصحابي أبي ذر هذا القول: «الحمد لله الذي أطعنا الخمير وألبسنا الخبير»<sup>(١٦٥)</sup>.

وقد أثنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على برود الحبيرة، ووصفها بأنها: «مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبيرات في الثياب»<sup>(١٦٦)</sup>، وعندما أتاه، وقد تجرأ، كان عليهم من الثياب الحبيرات وأردية مكشوفة بالحرير، وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما تولى سحى بحير، من الثياب الناعمة<sup>(١٦٧)</sup>.

وكانت الحبيرة من الثياب المحببة إلى رسول الله<sup>(١٦٨)</sup>، وأحب اللباس لديه، لباس القطن،



ونادراً ما كان يلبس الصوف<sup>(٧٩)</sup>، ودائماً كان يحث على لبس الثياب البيض، فكان يقول في هذا اللباس: «البسوا من ثيابكم البيض، وكفتموا فيها صوتاكم، فبأنها من خير ثيابكم»<sup>(٨٠)</sup>.

الحسبي: وقد كان الحرير معروفاً عند أهل الحجاز، فقد كان التجار يتقلون مثل هذه السلع عن مواطنها البعيدة كالصين ومن غيرها. ومن أنواع الحرير: الخز والبريسم والديباج. وقد لبس أهل الحجاز ثياب الحرير من الخز والبريسم. ولما جاء الإسلام حرم لباس الحرير بجميع أشكاله وأنواعه، من ذلك أن أسامة بن زيد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعه ثوب من حرير، فقال له: «هذا لباس من لاخلق له» وقد أمره بتقطيعه وتوزيعه على نسائه<sup>(٨١)</sup>. وفيما يتعلق في النهي عن لبس الحرير، قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من لبس الحرير في الدنيا قلن يلبسه في الآخرة»<sup>(٨٢)</sup>.

إلا أن رسول الله، رخص لبعض الصحابة لبس الحرير لأسباب صحية، من ذلك ما ورد من حديث لأبي مالك: «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، رخص لعبد الرحمن بن عوف في قميص من حرير في سفر من حكة يجدها بجلده»، كذلك رخص للزبير<sup>(٨٣)</sup>.

ويلاحظ أن الإسلام قد حرم لباس الحرير الخالص، أما إذا كان فيه خيوط من نسيج آخر، كالصوف أو القطن فلا بأس في ذلك ومباح لباسه<sup>(٨٤)</sup>، فقد لبس جماعة من الصحابة والتابعين، الخز والبريسم الذي يدخل في نسيجه الصوف<sup>(٨٥)</sup>.

إلا أن بعض المسلمين في العصر الأموي والعباسي، لم يلتزموا بمقاعدة التحريم هذه، فقد تأثروا بما كان يلبس الأعاجم من الفرس والروم، فانغمسوا في حياة الترف، في مشربهم ومأكلهم وملبسهم، فقد لبسوا الحرير بجميع أشكاله وأنواعه. وأول من أقدم على تقليد الأعاجم الروم في لباسهم، معاوية بن سفيان وعماله فهذا زياد بن أبيه أمير العراق، كان يقلد الفرس في لباسهم، فقد لبس القباء من الديباج، وقيل أول من لبس الخز من العرب، عبد الله ابن عامر، أحد عمال معاوية بن سفيان<sup>(٨٦)</sup>.

الحقو: والحقو (بفتح الحاء وكسرهما)؛ هو معقد الإزار، ويطلق على الإزار كله<sup>(٨٧)</sup>، ويظهر أنه لباس خاص بالنساء، وتستدل على ذلك، ما روى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنه أعطى النساء اللاتي غسلن ابنته حين ماتت، حقوه»، وقال: «أشعرها إياه». وفي حديث عمر بن الخطاب، قال للنساء: «لا تزهدن في جفاه الحقو»؛ بمعنى لا تزهدن في



تغليظ الإزار وثخانتة ليكون أسير لكن» (٧٨).

**الحلّة :** والحلّة تتكون في الغالب من شويين ؛ الرداء والإزار (٧٩) ، وهناك من يجعلها ، ثلاثة أثواب القميص والرداء والإزار (٨٠) . والحلّة من الشيايب الفاخرة التي اشتهرت اليمن بصناعتها ، وتشمل الغليظ والدقيق ، فكانت اليمن ترسل الحلل إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ضمن صدقاتها ، فقد قدم علي بن أبي طالب من اليمن على رسول الله ، وكان بمكة ومعها الحلل وهي من صدقات اليمن (٨١) .

وكان لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم حُلّة حمراء ، ففي حديث للبراء بن عازب : « ما رأيت أحداً كان أحسن في حلّة حمراء ، من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » ، وفي موضع آخر كان يقول : « ما رأيت من ذي له أحسن في حلّة حمراء من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » (٨٢) ، وفي حديث لجابر بن عبد الله الأنصاري في هذا المعنى : « ما رأيت أحسن من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في حُلّة حمراء » (٨٣) . وقد كان لرسول الله ، حُلّة سبواء تمسها علي بن أبي طالب ، ويذكر البخاري : لما لبسها علي بن أبي طالب شاهد على وجه النبي عدم الارتياح ، فعرف ما أعطاه الحلّة لتكون لباساً له ، فنزعها وأهداها لأهله (٨٤) .

وفي حديث لعبد الله بن عباس ، قال : « عندما بعثني علي بن أبي طالب إلى الخوارج الحمرورية وكان علي أحسن ما يكون من حلل اليمن ، فلقيتهم ، فقالوا : مرحبا بك يا أبا عباس ، ما هذه الحُلّة ، قلت : ما تعيبون علي ، لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحسن ما يكون من الحلل » (٨٥) .

**المحسوف :** من الملابس الداخلية ، ولا يلبس إلا عند الضرورة ؛ كالمرأة الحائض ، أو الصبية الصغار مصنوعاً من الجلد ، عرضه أربعة أصابع أو شبراً (٨٦) .

**المحسرية :** نوع من الشيايب ، يسمى أغماط المحسرية ، نسبة إلى الحيرة ، التي تقع بجانب الكوفة ، والنسبة إليها حيرى أو حارى (٨٧) ، والنمط نوع من الشيايب المصيفة ، ولا يطلقون عليه غط إلا إذا كان لونه أحمر أو أخضر أو أصفر ، أما إذا كان لونه أبيض فلا يسمى غط ، ومثل هذه الشيايب ، تعتبر كسلعة تجارية ينقلها تجار العراق إلى الحجاز ، ويطلق على البسط أيضاً أغماط ، ففي حديث ابن عمر : « أنه كان يُجلل بُدنه الأغماط » (٨٨) ، والبدن هي الجمال .

**الخفء :** رداءٌ أو كساء ، وقد سمي بذلك لأنه يخفى ما تحته من الشيايب ، وكانت تلبسه العروس لتخفى ما عليها من الشيايب ، فكل ما ستر شيئاً فهو خفء ، والخفء معروف عند أهل الحجاز ، فكانوا يلبسونه ، ولا أدل على ذلك ، ما قاله أبو ذر الغفاري ، « سقطت كائى

خفاء ، فالأخفية هي الأكسية وأحدها خفاء<sup>(١٩٠)</sup>.

**الخمير** : هو الغطاء للرأس ، من لباس النساء ، فإذا قيل اختمرت المرأة بالخمير؛ أي لبسته وخرت به رأسها<sup>(١٩١)</sup> . وله أسماء كثيرة منها : التصيف ، القناع ، البرقع ، والسبا<sup>(١٩٢)</sup> .

وجمع الخمير أخمره وخُمِرَ (بسكون الميم وضمها) ، والخميرُ (بكسر الحاء والميم وتشديد الراء) ، لغة في الخمير . والخمار لباس أهل الحجاز في الجاهلية والإسلام ، وكانت المرأة تلبسه لإخفاء محاسنها وزينتها عن غير المحرمين من الرجال . وقد ورد ذكر الخمير في القرآن الكريم يدعوا إلى ستر المرأة وإخفاء زينتها ، قال تعالى : [ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ ]<sup>(١٩٣)</sup> .

ولما نزلت هذه الآية ما كان على النساء ما يغطين به رؤوسهن ووجوههن ، فعمدن إلى أكف مروطهن<sup>(١٩٤)</sup> فشققتهن واختمرن به . ويذكر ابن سعد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يصلى على الخمرة<sup>(١٩٥)</sup> ، والخمرة التي كان يصلى عليها رسول الله ، وهي ليست من الشيا ، وإنما من الحصير الخوصي ، ففي حديث أم سلمة : أن رسول الله قال لها : « ناوليني الخمرة » ، وهي مقدار ما يضع الرجل وجهه في سجوده من حصير أو تسيح خوص ونحوه من الشيا ، ولا تكون خمرة إلا إذا كانت بهذا المقدار ، وسميت خمرة ؛ لأن خيوطها يسعها<sup>(١٩٦)</sup> .

وكان لعائشة ، خمارين أحدهما جيشانياً<sup>(١٩٧)</sup> ، والآخر أسود . والمرأة لا تلبس الخمار إلا عند بلوغها ، أي التي بلغت سن الحيض وجرى عليها القلم . وجاءت كلمة الخمار بمعنى الغطاء ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « خسروا أنفسكم » ، والتخسير التغطية<sup>(١٩٨)</sup> .

وللخمر ألوان كثيرة ؛ منها : الأبيض والأسود والأصفر ، وكانوا يصبغون الخمر بالزعفران ، فيقال : خماراً ثوباً مشرود ، إذا غس في الصبغ . وفي حديث عائشة : « قأخذت خماراً لها قد ثردته بزعفران »<sup>(١٩٩)</sup> .

ومن الأعراف والتقاليد السائدة عند أهل الحجاز ، أنهم يعتبرون الخمار من لباس الحرات ، من ذلك أن عمر بن عبد العزيز ، كتب ألا تلبس أمة خماراً ولا تتشبهن بالحرات<sup>(٢٠٠)</sup> .

وأكثر ما كان يصل إلى الحجاز من العراق ، الخمر ، فالخمر كانت من بين السلع التجارية التي كان ينقلها تجار العراق إلى المدينة المنورة ، فذكروا أن أحد تجار الكوفة قدم إلى المدينة

المنورة بخمر قباعها كلها ما عدا السود منها؛ لأن أهل الحجاز لا يرغبون بهذا اللون<sup>(١١٠١)</sup>.

**الخميل** : ضرب من الثياب ويطلق على أشياء كثيرة منها : القطيفة ذات الحمل؛ والحمل : هذب القطيفة ونحوها ، فعندما تنسج القطيفة يعمل لها هذب أو حاشية حول أطرافها ، كالطنفسة مثلا يوضع لها حمل . والحملة ثوب مُخمل من صوف ، كالكساء ونحوه ، وهذه الثياب كانت معروفة عند أهل الحجاز . وقد ورد في الحديث أن جهاز قاطمة الزهراء : خميلة وقرية ووسادة آدم . فالقطيفة؛ هي كل ثوب له حمل ، وقيل الخميل ؛ هو الأسود من الثياب ، ويقول ابن سيده : الخميلة ؛ ثوب مخمل من صوف ، كالكساء له حمل<sup>(١١٠٢)</sup> ، وقد وضعوا في قبر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قطيفة حمراء . كان يلبسها فوضعت تحته<sup>(١١٠٣)</sup>.

**الدُّرَاعَة** : ضرب من الثياب ، مشقوفة في المقدمة من أعلى إلى نهاية الصدر . وفي اللسان يقول : إنها لا تكون إلا من الصوف<sup>(١١٠٤)</sup> ، وقد تكون من القطن ، وذكروا أن أول من لبس الدُّرَاعَة ، المختار بن عبيد الثقفي<sup>(١١٠٤)</sup>.

**السَّاج** : هو الطيلسان ، نسيجه غليظ ، وتصغيره سويج والجمع سيجان . وقالوا : أن السيجان هي الطبالسة السود ، وأحدها ساج . وقد ورد على لسان عبدالله بن عباس : « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يلبس في الحرب من القلائس ما يكون من السَّيجان الخضراء » . وكثير من الصحابة كانوا يلبسون السَّاج<sup>(١١٠٥)</sup>.

**السَّبِيءُ** : وقد أطلقوا على الثياب الرقاق السيوب وأحدها سَبِيءٌ . والسببيه كذلك . ويقول ابن سيده : أن السببيه هي الشقة البيضاء ، ويطلق على السببِ الخمار<sup>(١١٠٦)</sup> ، وفي الغالب يكون نسيج السبب من الكتان ، يلبسه الرجال والنساء ، فالرجال كانوا يصنعون منه العمامة ، بينما النساء يعملن منه عطاء للرأس والوجه ، والسبب له ألوان كثيرة<sup>(١١٠٧)</sup>.

**السبيجة والسبيجة** : درع أو ثوب له كم صغير نحو الثبر ، تلبسه ربات البيوت ، والسبيجة تعنى أيضاً البردة ، نسيجها من الصوف وفيها سواد وبياض ، وقالوا : أن السبيجة أو السبيجة ؛ ثوب له جيب وليست له أكمام . وهو خاص بلباس اليتامى الذين يعملون في الطين<sup>(١١٠٨)</sup>.

**السسين** : السبيبة ؛ نوع من الثياب يدخل في نسيجها خيوط من الكتان الغليظ ، وهذه الثياب تجلب من بلاد المغرب ، وقيل إنها منسوبة إلى موضع في بلاد المغرب يسمى (سسين)<sup>(١١٠٩)</sup> . وذكروا أن لعلي بن الحسين سينوجة من جلد الشعالب ، فكان إذا صلى

نزعها<sup>(١١١١)</sup>، وقالوا : أن هذه السبوجة كانت للحسن بن علي وليست لعلي بن الحسين<sup>(١١١٢)</sup>.

**السحق** : يطلق على الثوب الخلق البالي الذي انسحق لكثرة استعماله حتى أنه لا يصلح لأن يلبس ، وفي حديث عمر بن الخطاب : « من زافت عليه دراهمه فليأت بها السوق وليشترى بها ثوب سحق »<sup>(١١١٣)</sup>، وفي حديث لنصر بن أوس الظاهري ، قال : « دخلت على علي بن الحسين بن علي وعليه سحق ملحفة حمراء ، وله جمة إلى المتكف مفروق »<sup>(١١١٤)</sup>.

**السراويل** : يُذكر ويؤنث ، والجمع السراويلات<sup>(١١١٥)</sup>، وهي كلمة فارسية معربة<sup>(١١١٦)</sup>، وهو لباس يستر البدن من السرة حتى الركبتين أو تحتها ، وإذا كانت واسعة تسمى مخرقجة ، فكل واسع من السراويلات يسمى مخرقج<sup>(١١١٧)</sup>.

وقد كانت السراويل معروفة عند العرب منذ عهد قديم، وقالوا : أن أول من لبس السراويل، نبي الله إبراهيم عليه السلام ، وظلت السراويل معروفة عند المسلمين، فقد كانوا يلبسونها على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبما يدل على معرفة أهل الحجاز بالسراويل ، ما ورد في الحديث الشريف : « من لم يجد إزاراً فليلبس سراويل »<sup>(١١١٨)</sup>، وهناك من ينفي معرفة العرب في جاهليتهم لباس السراويل<sup>(١١١٩)</sup>.

ورباط السروال أو عقده تسمى التكة ، وتعرف أيضاً بحجرة السراويل<sup>(١١٢٠)</sup>، وقد كره رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، السراويل الطويلة التي تقع على ظهر القدم أو تنال من الأرض<sup>(١١٢١)</sup>، كما نهى عن لبس السراويل والقمص والعصائم والبرانس والخفاف في الإحرام لأن بها محيط<sup>(١١٢٢)</sup>.

وكانت السراويل ضمن السلع التجارية التي تأتي من البحرين إلى الحجاز ، فقد كان للبحرين حلات تجارية قديمة مع المدينة المنورة ، فكان تجار البحرين يجلبون معهم العطور والأقمشة<sup>(١١٢٣)</sup>، وقد ورد أن محرمة العبدى - بنتى إلى قبيلة عبد القيس ، كبرى قبائل البحرين - ومعها صاحب له يدعى سويد بن قيس ، قدموا إلى المدينة المنورة بتجارة ، ومعهم أنواع من الأقمشة والسراويل ، فقابلوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وقد ساءمهم على سراويل ، ومن عاداتهم أن بعض الأقمشة عندهم تباع بالوزن<sup>(١١٢٤)</sup>.

**السريال** : وقد عرف أهل الحجاز السريال ؛ وهو القميص وقولهم : فتسريال ، أى لبس القميص<sup>(١١٢٥)</sup> وقد ورد السريال في التنزيل بمعنى القميص ، ففي قوله تعالى : { سراويل تقيكم الحر }<sup>(١١٢٦)</sup>، فالقميص يقي الحر والبرد ، فاكتفى بالتنزيل بذكر الحر ، فما دق من الحر

فهو يقي من البرد، وقوله تعالى في موضع آخر: (سراييلهم من قطران تفضى وجوههم النار) (١٢٧)، وجاءت كلمة السراييل في القرآن بمعنى الدروع في قوله تعالى: (وسراييل تقيكم بأسكم) (١٢٨).

**السلاب والسلبي:** نوع من الثياب السود، وهو لباس خاص بالنساء يلبسنه في المآتم والأحزان، وقد أقر الإسلام لبس السواد في المآتم. فقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه قال لأسماء بنت عميس بعد مقتل جعفر بن أبي طالب: «تسبي ثلاثاً ثم أصغى ما شئت». وفي هذا علامة على الحداد عند فقد الأخت، كالأزواج وغيرهم. كذلك صنعت أم سلمة عند مقتل حمزة بن عبد المطلب فإنها: «بكت على حمزة ثلاثة أيام وتسلبت». وكانت هذه عادة أهل الحجاز إذا ما فقدن عزيز عليهن، فإنهن يلبسن ثوب الحداد ذو اللون الأسود، يغطين به رؤوسهن لمدة ثلاثة أيام (١٢٩).

**السيراء:** ضرب من الثياب (١٣٠)، التي كانت تصنع في اليمن، وهي من ضمن السلع التجارية التي كان تجار الحجاز وقبيلهم من التجار يجلبونها إلى مكة أو المدينة المنورة، والسيراء هي البرود من الحرير، وقد كان على أم كلثوم بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واحدة منها (١٣١).

والبردة السراء أو الخلة السراء، يكون نسيجها من الحرير الخالص، ويكون أيضاً مخلوطاً بنسيج آخر، كالقطن أو الكتان. وفي الحديث الشريف، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعطى علي بن أبي طالب برداً سراء، وقال: «اجعله خُمرًا» أي بمعنى غطاء للرأس لا لباساً للبدن. وقد رأى عمر بن الخطاب على أحد عماله حُلَّةً مُسَيَّرَةً، بمعنى إن نبيها خطوط من نسيج البريسم، وهو نوع من الحرير (١٣٢).

**الشعار:** نوع من الثياب، وهو اللباس الداخلي الذي يلامس البدن، ويسمى شعار لأنه يلامس شعر بدن الإنسان دون ما سواه من الثياب. وعندما يصقون قوماً بالموذبة، يقولون: «هم الشعار دون الدثار». من ذلك فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عندما أتى على الأنصار ومدحهم، قال: «أنتم الشعار والناس الدثار»، بمعنى أنتم الخاصة والبطانة. والدثار هو الثوب الذي يكون فوق الشعار (١٣٣).

**الصحارية:** نوع من الثياب، وسميت بذلك نسبة إلى صحراء، وهي مدينة بعسان كانت تصنع مثل هذه الثياب، فكان تجار عمان ينقلون مثل هذه السلع إلى الأمصار كسلعة تجارية،



فكان يصل منها إلى الحجاز ، وذكروا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كفن في ثلاث أثواب ، منها ثوبين صحاريين<sup>(١٣٤)</sup> . وقيل أنه كفن في ثلاثة أثواب بيض مائة<sup>(١٣٥)</sup> .

**الطيلسان والغالسان** : جمعها الطيالة ، وهو ضرب من الأكسية<sup>(١٣٦)</sup> الفاخرة ، من لباس الخواص والطبقات الغنية<sup>(١٣٧)</sup> ، وقيل هو الوشاح ، يوضع على الكتف خالي من التفصيل والخياطة ، ويسمى عند أهل مصر ، الشال<sup>(١٣٨)</sup> ، وقد كان لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حبة طيلسان ، وقد لبس التابعون الطيالة المزرة بالديباج ، فعل ذلك ، عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب<sup>(١٣٩)</sup> ، وفي حديث حماد بن زيد عن يزيد بن حازم ، قال : « رأيت على علي بن الحسين طيلساناً كردياً غليظاً وخفين مائيتين غليظتين »<sup>(١٤٠)</sup> .

ويتحدث الجاحظ عن أنواع الطيالة ، ويصفها من حيث الجودة والمصدر ، فيقول : إن أفضل الطيالة الرومانية والطيرية<sup>(١٤١)</sup> ، يليه الأملى<sup>(١٤٢)</sup> ، ثم المصري ، ثم القومسي<sup>(١٤٣)</sup> ، وذكرنا أن أول من لبس الطيلسان في المدينة المنورة ، جبير بن مطعم<sup>(١٤٤)</sup> .

**العدينيات** : وهي ثياب فاخرة الصنع ، نسبة إلى مدينة عدن ، الميناء التجاري الهام لبلاد اليمن ، فهذه الثياب تعتبر سلعة تجارية تنقلها تجار اليمن إلى سائر البلدان ، وقد ورد في الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان قد استعمل بروءاً عدينية »<sup>(١٤٥)</sup> .

**العصب** : برود ميمية ، وقد سميت بذلك ، لأنهم أثناء صناعتها يشدون خيوطها مع بعضها ويقومون بصباغتها ثم يتسجرونها<sup>(١٤٦)</sup> ، وامتنازت هذه البرود إنها تخلوا عن الألوان الزاهية ، لذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر المرأة المعتدة بأن تلبس ثوب العصب فقد ورد في حديثه الشريف : « المعتدة لا تلبس المصبغة ، إلا ثوب عصب »<sup>(١٤٧)</sup> ، وقد نقلوا عن عمر ابن الخطاب ، أنه نهى عن لبس ثياب العصب ، لما بلغه إنها تصبغ بالبول ، فقال : « تهينا عن التعرق »<sup>(١٤٨)</sup> .

والعصب نوع من الثياب كالتورس ، من ثيابات اليمن ، ويستخرج من ثياب صبيغة تستعمل في صبغ البرود<sup>(١٤٩)</sup> ، والعصب ، (يفتح الصاد) : هي أمشاط مفاصل الحيوانات ، وهي عظام مدورة يعمل منها الخرز ، وإذا ما بيست يصنعون منها القلائد يتزين بها النساء . وقد ورد في الحديث الشريف ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لثوبان : « اشترقا طامة قلادة من عصب ، وسوارين من عاج »<sup>(١٥٠)</sup> .

**العطاف** : ويسمى أيضاً الإزار أو الرداء ، يوضع على العنق<sup>(١٥١)</sup> ، وهو من الألبسة المعروفة والشائعة عند أهل الحجاز ، فمن حديث ابن عمر قوله : « خرج مُتَلَقِعاً بِعَطَافٍ ، وما



ورد عن عائشة قولها « فناولتها عظاما كان على فرأت فيه تصليبا ، فقالت : تحيه  
عنى » (١٥٢) .

**العمامة :** من لباس الرأس ، والجمع عمام وعيام (١٥٣) . والعمامة : هو اللباس الذى يلاصق  
على الرأس تكويرا (١٥٤) . وكان العرب يرون فى العمامة رمزا للسيادة ، فإذا ما عمم الرجل  
أصبح سيديا ، فيقولون : أنه سود (١٥٥) . وقد ورد فى أقوالهم : أن العمامة تيجان العرب ،  
لأنهم يرونها رمزا للعزة والكرامة والفخر . وربما اكتسبت العمامة هذه المكانة الرفيعة ، كون أن  
مكانها على الرأس .

وقد ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العمامة ، وكانت له عمامة تسمى السحاب ،  
لونها أبيض كساها على بن أبى طالب (١٥٦) ، وأخرى تسمى الخوتكية (١٥٧) . فكان رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، يخرج فى الصفة ، وهم قراء المدينة وعليه الخوتكية ، وهذه العمامة  
معروفة عند الأعراب كانوا يعتمون بها . وفى حديث أنس : « جئت إلى النبي صلى الله عليه  
وسلم ، وعليه خمبصة خوتكية (١٥٨) . وكان على رسول الله يوم دخل مكة فاتحا عمامة  
سوداء » (١٥٩) .

وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العمامة وحث على لبسها ، فقد نسبوا حديثا  
لرسول الله ، قوله : « اعتموا تزدادوا حلما ، ونسبوا حديثا آخر : « العمامة تيجان العرب فإذا  
وضعوا العمام وضع الله عزهم » (١٦٠) ، لذلك أصبحت العمامة بعد هذا الحديث رمزا للحلم  
والكرامة ، فافتنى المسلمون أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى لبس العمامة حتى أن  
لبسها أصبح سنة اقتدى بها المسلمون ، وفى حديث جابر بن عبد الله الأتصارى ، قال : « رأيت  
عليًا عليه عمامة سوداء قد أرخاها من بين يديه ومن خلفه » (١٦١) .

والطريقة التى كانت تلبس فيها العمامة ، إنها تسدل بين الكتفين ، وتقتصر بقدر أربعة  
أصابع ، وكانت هذه هى طريقة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى لبس العمامة ، كان  
يسدلها بين يديه ومن خلفه (١٦٢) . وفى حديث ابن عمر ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، عمم عبد الرحمن بن عوف بعمامة سوداء ، وقال : هكذا تعمم » (١٦٣) . وفى رواية  
أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوم غدِير خُم دعا على بن أبى طالب ، فعصمه وأرخى  
عذبة العمامة من خلفه ، ثم قال : « هكذا فاتعتموا فإن العمامة سيماء الإسلام ، وهى الحاجز بين  
المسلمين والمشركين » (١٦٤) . وينهم من هذا الحديث أن العمامة أصبحت لباس خاص بالمسلم ،  
وهى السمة التى يعرف بها عن المشرك ، فالمشرك لا يلبس العمامة ، فقد أراد رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، أن يميز بين المسلم والمشرك بلبس العمامة ، وقد كان على الزبير بن العوام يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها <sup>(١١٦٥)</sup> .

وللعمامة ألوان مختلفة ، منها : الأسود والأبيض والأصفر ، وفي التنزيل أن الله تبارك وتعالى ، أنزل الملائكة يوم بدر تعزيراً للمسلمين ، ( صومين ) ، أى لابسين العمامات ، وكانت عمامتهم ذات ألوان مختلفة <sup>(١١٦٦)</sup> . وقيل أنها كانت صفراء شبيهة بعمامة الزبير الصفراء <sup>(١١٦٧)</sup> .

ولما اشتدت الحصار بالخليفة عثمان بن عفان يوم الدار ، خرج على بن أبي طالب من منزله معتماً بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متقلداً يسيفه وأمامه ابنه الحسن وعبدالله بن عمر مع جماعة من المهاجرين والأنصار <sup>(١١٦٨)</sup> ، وفي حديث لأبي جعفر الأنصاري ، قال : سمعت على بن أبي طالب يوم قتل عثمان ، يقول : « تبا لكم سائر الدهر » <sup>(١١٦٩)</sup> .

وليس العمامة رفاً يدل على كمال الرجل ، فقد ورد في الحديث الشريف : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يتعوذ من الحور بعد الكور » <sup>(١١٧٠)</sup> ، ومعنى بذلك التقصان بعد الزيادة ، وهو من تكوير العمامة ، فالكور الكمال في لبس العمامة ، والحور التقصان . فهي إذا رمز الوقار والهيبة ، وفي نفس الوقت زينة وجمال للرجل ، وقد ورد عن الخليفة على بن أبي طالب ، قوله في العمامة : « جمال الرجل في عيته وجمال المرأة في حُفها » <sup>(١١٧١)</sup> .

وقد وضعوا العمامة موضع التقديس ، ونسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحاديث بهذا المعنى ، وما يدل على تهجيل العمامة ومكائنها في نفوس المسلمين ، قول عمر بن الخطاب حين قدم عليه رجل يشكو إليه عدى بن أرطاة في أرضه ، فقال عمر : « قاتله الله ، أما والله ما غرنا إلا بعمامته السوداء » <sup>(١١٧٢)</sup> .

وقد لبس الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين ، العمامات ذات الألوان المختلفة ، فقد لبسوا العمامات البيض والسود والصفرة ، والعمائم الصفراء كانوا يجلبونها من هرات <sup>(١١٧٣)</sup> ، فقالوا لمن كان يلبسها : « هري عمامته » ، ألا أن العمامات البيض والسود أكثر شيوعاً من غيرها <sup>(١١٧٤)</sup> .

وقد لبس على بن الحسين بن على بن أبي طالب ، العمامة البيضاء ، ففي حديث لحسد بن هلال ، أحد التابعين أنه رأى على بن الحسين يعتم بعمامة ويرخي عمامته خلف ظهره شيراً أو أكثر بقليل <sup>(١١٧٥)</sup> .

وقد تحدثوا عن العمامة وفوائدها ، من ذلك ما أورده الجاحظ في كتابه البيان والتبيين .  
على لسان أبي الأسود الدؤلي حين سئل عن العمامة وفوائدها ، قال : « جنة في الحرب ، ومكته  
من الحر ، ومدفأة من القبر ، ووقار في الندى ، وواقية من الأحداث ، وزيادة في القامة ، وهي  
بعد عادة من عادات العرب » (١١٢٦) . كذلك أشار الجاحظ إلى فوائد العمامة ، أنها تقيد  
الإنسان إذا ما قام بعمل شاق ، يشهدا على وسطه لتخفيف العناء حتى يستمر في العمل ،  
وفي الأسفار البعيدة كانوا يشدون العمامة على أوساطهم لتخفيف عناء السفر ، كذلك لما  
حُعن عمر بن الخطاب ، فإنهم عصبوا بطنه بعمامة سوداء (١١٢٧) .

وقد ساهمت العمامة بعد ذلك في تصنيف المجتمع والتمييز بينهم ، وقد أشار الجاحظ لهذه  
الظاهرة بقوله إنهم جعلوا « للخلفاء عمامة ، وللقضاة عمامة ، وللبقالين عمامة ، وللأعراب عمامة ،  
وللابناء عمامة ، وللنصارى عمامة ، ولأصحاب التشاخي عمامة ؛ أي المحزونين » . وقد كان لبعض  
الملابس مساهمة في هذا التصنيف ، فجعلوا لكل حرفة زي خاص بها ، فيقول الجاحظ :  
« ولكل قوم زي ؛ فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ، وللشروط زي ، وللكتاب زي ، وللكتاب  
الجندي زي » (١١٢٨) .

**الفسروج** : قميص صغير ، والفرجية : ثوب واسع طويل الأكمام من لباس علماء الدين  
(١١٢٩) ، وقيل الفروج ، قباء فيه شق من خلفه (١١٣٠) ، والفروج ، يكون عادة من الحرير ، وقد  
ليس أهل الحجاز الفروج (١١٣١) .

**الفسوف** : ثياب موشاة من برود اليمن ، نسيجها من القطن ، واحدها فوقه ، وذكروا أن  
عثمان بن عفان كان يلبس الخلة من الفوف ، وهي جبة بيضاء (١١٣٢) .

**القياء** : ثوب يلبس فوق الثياب ويمتنطق عليه (١١٣٣) ، وقد لبس أهل الحجاز القياء (١١٣٤) .  
وأصبح بعد ذلك من لباس الوزراء والكتاب ، كما كان يلبسه العسبة الصغار ، وكذلك يلبسه  
الخدم ، وكان أقل قيمة ، وهنا يعطى موشراً على أن الأقبية أنواع ، منها الفاخر ومنها المتواضع  
اليس (١١٣٥) .

**القيطية** : من الثياب التي اشتهرت مصر بصناعتها ، وربما عرفت بهذا الاسم نسبة إلى  
أقباط مصر ، وهي رقيقة بيضاء ، نسيجها من الكتان (١١٣٦) ، فكانت تصل إلى الحجاز ، ففي  
حديث أسامة بن زيد : « كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيطية » ، وقد أمر رسول الله  
النساء اللاتي يرتدين القياطي ، أن يلبسن تحتها ثوب آخر ، حتى لا يظهر من خلاله معالم

أجسادهم، وفي عهد عمر بن الخطاب، نهى النساء عن لبس القبايط، وما جاء في قوله: «لا تلبسوا نسائكُم القبايط، فإنه أن لم يشف فإنه يصف» (١١٨٧).

**القسيّة** : ضرب من الثياب، وقد عرفت بذلك، نسبة إلى القيس؛ وهي من قرى مصر، تقع على الساحل قريية من تيس، يعمل بها مثل هذه الثياب، وهي من الكتان مخلوطة بالحرير (١١٨٩)، لذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نهى الرجال عن لبسها، ففي حديث عن علي بن أبي طالب: «أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس القسي» (١١٩٠).

**القطرية** : القطر أو القطر (بكسر القاف وسكون الطاء)؛ هي قرية أو ناحية تقع على ساحل البحر ضمن بلاد البحرين، ويعمل في قطر البرود ذات الأعلام، والتي غالباً ما يكون لونها أحمر، خشنة الملمس، وهذه الثياب أو البرود أو الخلل، نسبة إلى قطر، فيقال: البرد القطرية (١١٩١).

وقد ورد ذكر الثياب القطرية عند ابن سيدة في المخصص، إلا أنه لم يعرف إن كانت هذه الثياب تنسب إلى بلد أو إلى رجل (١١٩٢)، وكانت هذه البرود ضمن السلع التجارية التي كانت قطر تصدرها إلى كثير من البلدان، فكان التجار ينقلون هذه الثياب إلى الحجاز، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان متوشحاً بثوب قطري، كذلك عائشة، كان عليها من الثياب درعاً قطرياً ثمنه خمسة دراهم (١١٩٣).

وقد شوهد علي بن أبي طالب وصعه ذرة يمشي في أسوان الكوفة، بأمر الناس يتقوى الله ويحسن المعاملة، وكان عليه قطريتان؛ إزاراً إلى نصف الساق ورداء، على ظهره، وفي حديث سعيد بن عبيد، عن علي بن ربيعة: أنه رأى علي بن أبي طالب يرد بين قطريين (١١٩٤).

**القميص** : جمعها أقمصة وقمص وقمصان (١١٩٥)، والقميص هو الجلباب، ومجلبب؛ أي لبس القميص وشكل القميص؛ له جيب وله أزرار، فإذا قبل ذرته؛ أي شدت أزراره (١١٩٦)، ويأتي القميص أحياناً بمعنى الدرع (١١٩٧)، وقد شاهد أحد الصحابة، عثمان بن عفان وهو يخطب على المنبر وعليه قميصاً قوياً، والقوهي، نسبة إلى قوهستان إحدى مدن إيران (١١٩٨)، وفي حديث عبد الله بن هذيل، قال: «رأيت علياً عليه قميص وازي (١١٩٩)، إذا مد كفه بلغ الظهر فإذا أرخاه بلغ نصف ساعده»، وقال عطاء بن أبي محمد: «رأيت علياً عليه قميصاً من الكرايس (١٢٠٠)، غير غسيل»، واشترى علي بن أبي طالب، قميصاً زائياً (١٢٠١)، وكان طويل الأكمام، فقال للبايع، كفه، ثم لبسه وقال: «الحمد لله الذي كسا علي بن أبي

طالب<sup>(٢٠٢)</sup> وللأقمصة أسماء كثيرة نسبة إلى مواطن صناعتها كما لاحظنا ذلك، فمن هذه الأقمصة، القميص السيلاني، منسوب إلى بلاد الروم<sup>(٢٠٣)</sup>.

وفي الدولة الأموية والعباسية، تأثر الخلفاء والقادة والطبقات الغنية، بلباس ملوك الروم والفرس، وظهرت علامات البذخ والبطر، في الملابس والمأكّل والمسكن، وفي الفرس. من ذلك ما يذكره الجاحظ من أن يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد - ويزيد بن الوليد، وكذلك المهدي والهادي والرشيدي والمعتصم والواثق في الدولة العباسية، لا يلبسون القميص إلا مرة واحدة، إلا إذا كان هذا القميص نادراً أو عجيّباً<sup>(٢٠٤)</sup>.

ويُرجع ابن خلدون هذا التأثير بالأعاجم من الروم والفرس، إلى عهد عمر بن الخطاب، لأن الفتوحات الإسلامية بلغت إلى طبرستان في بلاد فارس وإلى مصر وأجزاء من شمال أفريقيا<sup>(٢٠٥)</sup>.

وقد زاد إظهار هذا التأثير نتيجة لانتساع رقعة العالم الإسلامي، بسبب الفتوحات في العصر الأموي، ثم النشاط التجاري الواسع بين العرب وهذه الأمم، وهذه الأمم البعيدة في العصر العباسي، ما أدى إلى التمازج الحضاري بين هذه الأمم، وما نتج عن ذلك من تأثيرات واضحة خاصة على الصعيد الاجتماعي، وقد ساهمت المصاهرات بين العرب وبنات الأعاجم من الفارسيات والروميّات في هذا المضمار، ويعلق ابن خلدون على هذه الظاهرة من التأثيرات: «وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الأحوال وإستجداة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والأينية...»<sup>(٢٠٦)</sup>.

لقد عهد عبد الملك بن مروان وابنه سليمان، شاع في لباسهم الوش والتطريز والزركشة، فظهرت عليها التأثيرات الفارسية والرومية، ومعظم خلفاء بني أمية كانوا سولعين يمثل هذه الشاب، حتى أن أحدهم أصرى أن لا يدخل عليه في بلاطه من أهل بيته ورجال دولته إلا بلباس الموشاة، ذات الزخارف، فكان إذا جلس على كمرسي الخلافة أو ركب الجواد أو ارتقى المنبر، بلبس البروس. وقد تأثرت الطبقات الغنية بهذا المظهر، وكذلك الطبقات الوسطى راحت تفتن أثرهم وتجاريهم في لباسهم وهي لا تمتلك المال بما أدى إلى ظهور مشكلة الدائن والمدين في المجتمع<sup>(٢٠٧)</sup>.

القلنسية: جمعها فلاتس، وقيل قلنسوة<sup>(٢٠٨)</sup>، والقلنسية من ملابس الرأس معروفة، وإذا قيل قلنس، أي لس قلنسوة<sup>(٢٠٩)</sup>، وقد لبس أهل الحجاز القلاتس، فكان على رسول



الله صلى الله عليه وسلم قلنسوة لونها أبيض ، وهذه القلائس كانت تأتي إلى الحجاز من مصر ومن اليمن ، فكان على رسول الله قلنسوة مصرية لونها أبيض وأخرى يمنية ، واشتهرت القلائس المصرية باللون الأبيض ، وفي الحرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة لها أذنان ، تسمى ذات الأذنين (٢١٠) .

وفي حديث ليزيد بن الحارث بن بلال الفزاري ، قال : « رأيت على علي قلنسوة بيضاء مصرية » (٢١١) ، وقد ورد أن عبدالله بن سعيد بن أبي هند ، قد رأى على بن الحسين وعليه قلنسوة بيضا ، (٢١٢) .

وفي العصرين الأموي والعباسي ، أصبح للقلنسوة مكانة رفيعة ، لما أدخل عليها من الإضافات ، فكان أعيان القوم يلبسونها إذا ما أرادوا الدخول على أصحاب السلطة من الخلفاء والأمراء وغيرهم ، لما في ذلك من التخميم والتعظيم للإسهاب وكذلك لمن يريد الدخول عليه . ويعلق الجاحظ على ذلك بقوله : « لأن ذلك أشبه بالاحتفال والتعظيم والإجلال ، وأبعد من التبذل والاسترسال ، وأجدر أن يصلوا بين مواضع انسهم في منازلهم ومواضع انقياضهم » ، وكانوا يلبسون القلائس في الصيف والشتاء (٢١٣) .

**القوهي** : خرب من الثياب الفارسية ، نسيجها رقيق وغليظ الخيط يتخذ من الكتان (٢١٤) ، وغالبًا ما يكون لونها أبيض ، تنسب إلى مدينة قوهستان الفارسية ، وقد عرف أهل الحجاز الثياب القوهية منذ صدر الإسلام (٢١٥) .

**المقنع والمقنعة** : وهو ما تغطي به المرأة رأسها ومحاسنها ، وكان من لباس الحرائر من النساء ، وقد ورد عن عمر بن الخطاب ، أنه رأى جارية عليها قناع ، فضربها بالدرّة وقال : « أنتشبهين بالحرائر » (٢١٦) .

**الكسوة** : الكسوة والكسوة من اللباس ، وقد كسوته الثوب ، بمعنى لبس الكسوة (٢١٧) ، والكساء نوع من الثياب وفي حديث لعثمان بن حكيم ، قال : رأيت على بن الحسين وعليه كساء خز ، وجبة خز ، ولما أيام الجمع ، كان يلبس كساء خز لونه أصفر ، وذكروا أن على بن الحسين ، كان يشتري كساء الخبز بخمسين دينارًا فيشتوه فيه ثم يبيعه ويتصدق بثمنه ، ويقتصر لباسه في الصيف ، على ثوبين من ثياب مصر اسموني (٢١٨) .

**المُرَجَل** : نوع من ثياب الرشي عليها صور ومربعات صغيرة ، ويصف ابن سيدة هذه المربعات ، بأنها شبيهة بأعين الرجوش (٢١٩) ، وتسمى المُرَجَل . هذه الثياب تصنع في اليمن



وتنقل إلى سائر الأقطار والمرط والمرجل ، عبارة عن إزار من الخز معلم بخطوط ، وفي الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وعليه مرط مُرَجَل » ، وقد ورد أنه كان يصلى وعليه من هذه المرحلات ، وكان النساء يلبسن المروط المرحلة ، ويقال : أن عائشة ذكرت نساء الأنصار « فقامت كل واحدة غالى مرطها المرحل » (١٢٢٠) .

**مُستَقَّة** : (جمعها مساتق) ، وهو عبارة عن قراء أكمامه طويلة ، والكلمة قارسية ، تسمى مُستَقَّة - وقال أنس بن مالك : أن ملك الروم أهدى إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مُستَقَّة من سُندس ، فلبسها رسول الله ، ويقول أنس : كأنني أنظر إلى يديها تذبذبان ، يعنى أن أكمامها طويلة ، وقد أهداها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى النجاشي ملك الحبشة بيد جعفر بن أبي طالب ، وذكروا أن عمر بن الخطاب « صلى بالناس وبداه في مُستَقَّة » (١٢٢١) ، وقد أهديت إلى علي بن الحسين مُستَقَّة من العراق ، فكان يلبسها فإذا ما أراد أن يصلى نزعها (١٢٢٢) .

**المُصَلَّب** : هو الثوب الذي عليه نقوشات وتصاوير تُشبه الصلبان ، وقد نهى رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، عن الصلاة في الثوب المُصَلَّب ، وقد كره هذا النوع من الثياب ، ففي حديث عائشة : « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان إذا رأى التصلب في ثوب قبضه ، أي قطع مخرج التصلب فيه » ، وفي حديث أم سلمة : « أنها كانت تكره الثياب المُصَلَّبة » (١٢٢٣) .

**المُطَرَف والمُطَرَف** : رداء نسيجه من الخز ، شكله مربع وله أعلام ، وقيل أن المطرف هو الثوب الذي عُمل في طرفيه أعلام (١٢٢٤) ، وقد شهد أبي هريرة وعليه مُطَرَف خز وفي طريقه أعلام (١٢٢٥) ، وكان أهل الحجاز يلبسون المطرف الخز ، وهو من الألبسة الشتوية (١٢٢٦) .

وفي حديث محمد بن ربيعة بن الحارث ، قال : « رأيت علي عثمان مطرف خز ثمنه مائتي درهم ، فقال : هذا لثائلة كسوتها إياه فأنا ألبسه أسرها به » ، ويقوم من ذلك أن المطرف لباس للرجال والنساء ، ويقول محمد بن ربيعة : « كان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوسعون على نساءهم في اللباس الذي يصفان ويتجمل به » (١٢٢٧) .

**المعجر** : ثوب يلف به الرأس في أغلب الأحيان ، يلبسه الرجال والنساء ، فكانت المرأة تعتجر به ؛ أي تلف به رأسها ثم تلبس الخليلاب فوقه ، ومعنى الإعتجار لف العمامة ، وكان أهل الحجاز يلبسون المعاجر ، وكان التجار يتقلونها من اليمن (١٢٢٨) .

**المعافرية** : نوع من الثياب اليمنية، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى بلده في اليمن تسمى معافر، ويقال إنها منسوبة إلى رجل اسمه معافر، أو إلى قبيلة . فكانت اليمن تصدر هذه الثياب إلى سائر البلدان ومنها إلى الحجاز ، فمن لباس أهل الحجاز المعافرية، فكروا أن عبد الله بن عمر، دخل المسجد وعليه بردان معافريان وعندما بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، معاذ بن جبل إلى اليمن عاملاً على الصدقات، أمره بأن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله من المعافرية<sup>(٢٢٢٩)</sup>.

**المقطعات** : من المنسوجات اليمنية، وهي ثياب تشبه الجباب، من الخز ومن غيره، وعليها الوشي المقطع، وفي اللغة كانوا يطلقون على حيلة الثياب القصار مُقطعات. وقد ورد في الحديث الشريف : « أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه مُقطعات له »<sup>(٢٢٣٠)</sup>. وقد ورد ذكر المقطعات في القرآن الكريم : [ فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار ]<sup>(٢٢٣١)</sup>.

**اللحاف والملحف والملحفة** : هم اللباس الذي يكون فوق سائر اللباس<sup>(٢٢٣٢)</sup>، من الألبسة الدارجة عند أهل الحجاز، وإذا ما صيغ باللون الأحمر، لا يلبس إلا في الأعراس<sup>(٢٢٣٣)</sup>. واللحاف، يطلق على كل شيء يكتحف به، وعن عائشة إنها قالت : « كان النبي، صلى الله عليه وسلم، لا يصلي في شعرنا ولا في لحفنا »<sup>(٢٢٣٤)</sup>.

**الشعرة** : برود مخططة من الصوف، من لباس الأعراب، ففي الحديث : جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قوم عليهم النصار، لم يقتصر لبس النصار على الأعراب، بل كان معروفاً عند أهل الحجاز ففي حديث مصعب بن عمير: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقبل وعليه شعرة، وفي قول الصحابي خباب بن الأرت، أن حمزة بن عبد المطلب كانت عليه شعرة قلحا<sup>(٢٢٣٥)</sup>.

وللنساء العربيات لباس خاص، فلباسهن داخل المنزل يختلف عنه في الخارج، فمن لباسهن: السراويل الفضفاضة والقميص المشقوق عند الركبة وعليه رداء قصير ضيق، وإذا ما خرجن يرتدين الحيرة، وهي ضرب من برود اليمن، عبارة عن كساء يعطى سائر البدن، ثم تلف المرأة على رأسها مندبل تربطه في عنقها وله ألوان عديدة<sup>(٢٢٣٦)</sup>.

ولأهل الذمة لباس خاص، ففي عهد عمر بن الخطاب، أمر بأن يُفرق بين المسلمين وبين أهل الذمة من اليهود والنصارى في اللباس، فكتب إلى عماله بهذا الخصوص، فقد بعث إلى عثمان بن حنيف بكتاب يقول فيه : « أن لا يترك أحد منهم يشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته . ويُؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات - الحيط الغليظ يعقده في

وسطه - ويأن تكون قلاتسهم مُضربه... ويأن يجعلوا إشراك تعالهم مشنية ولا يحذوا حلو  
المسلمين» (٢٢٧).

إلا أن في العصر الأموي أهلت هذه السنة ، فصار لياس أهل الذمة كليات سائر المسلمين ،  
ولكن عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة حرص على إعادة سنة عمر ، فمن ذلك قوله لأحد  
عماله : «وقد ذكر لي أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا ليس العمائم وتركوا المناطق  
على أوساطهم» وفي موضع آخر كان يقول : « وامنع من قبلك فلا يلبس تصوائس قباء  
ولا ثوب خز» (٢٢٨).

## الهواش

- ١- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري) : لسان العرب : أزر ج ٤ ص ١٧ - دار صادر بيروت .
- ٢- إبراهيم اد. أنس وآخرين) : المعجم الوسيط، أزر ص ١٦ - الطبعة الثانية .
- ٣- الرازي محمد بن أبي بكر : مختار الصحاح أزر ، ص ١٥ ، باعتناء محمود خاطر ، الطبعة الأخيرة ، القاهرة ١٩٥٤م .
- ٤- الهيثمي (أبو العباس علي بن أبي بكر) : مزارع الطنآن - ص ٢٤٩ ، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان .
- ٥- الهيثمي : مزارع الطنآن - ص ٢٤٩ .
- ٦- الطبرسي (أبي نصر الحسن بن الفضل) : مكارم الأخلاق : ص ١٢٥ ، باعتناء السيد علاء الدين العلوي كركلا ، مؤسسة الأعلمي ، وانظر زيدان (جرمي) ، تاريخ تمدن الإسلام : ج ٥ ص ٢٥ ، دار الهلال .
- ٧- ابن سعد (محمد بن سعد بن سعيد بن شيبان البصري الزهري) : الطبقات الكبرى، ج ٣ - ص ٣٠ دار صادر بيروت .
- ٨- الجبوري اد. يحيى) : الملابس العربية في الشعر الجاهلي ، ص ٧١ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان ١٩٨٩م .
- ٩- الجبوري : الملابس - ص ٧١ .
- ١٠- ابن منظور : اللسان : مثل ج ١١ ، ص ٣٤٥ - وانظر جوري : الملابس ، ص ٧٢-٧٣ .
- ١١- الطبرسي : مكارم الأخلاق - ص ١٣٢ .
- ١٢- الطبرسي : ص ١٣٢ .
- ١٣- الطبرسي : ص ١٣٢ .
- ١٤- حسن (د. حسن الحاج) : حضارة العرب في العصر الأموي، ص ١٨٠ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
- ١٥- حسن : ص ١٨٠ .
- ١٦- جشب الطعام : أي طعن الطعام، وضعام جشب : خليط خشن ، وقيل الطعام الجشب الذي لا آدم فيه . اللسان : جشب ج ١ ، ص ٢٦٥ .

- ١٧- ابن الصباغ (علي بن محمد بن أحمد المالكي) : الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة - ص ٢١٩ - دار الكتب التجارية ، النجف ، وانظر حسن : حضارة العرب في العصر الأموي ص ١٨١ .
- ١٨- ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد) : شرح نهج البلاغة - ج ١ ، ص ٢٦ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- ١٩- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١١٣ .
- ٢٠- ابن منظور : اللسان ، بت ج ٢ ، ص ٨ ، وانظر جيزي : الملابس ، ص ٧٦-٧٥ .
- ٢١- ابن سيده (أبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي) : المخصص ج ١ ، ص ٧٩ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، اللسان ، بت ج ٢ ، ص ٨ .
- ٢٢- حسن : حضارة العرب ، ص ١٨ .
- ٢٣- اللسان : ج ٣ ، ص ٧٧ وانظر جيزي : الملابس ، ص ٧٦ .
- ٢٤- اللسان : ج ٣ ، ص ٧٧ وانظر جيزي : الملابس ، ص ٧٦ .
- ٢٥- اللسان : ج ٣ ، ص ٧٧ وانظر جيزي : الملابس ، ص ٧٦ .
- ٢٦- اللسان : ج ٣ ، ص ٨٧ وانظر الصحاح : برد ص ٤٧ .
- ٢٧- ابن شبه (أبو زيد حمر بن شبه السيري البصري) : تاريخ المدينة المنورة ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، منشورات دار الفكر ، قم .
- ٢٨- جيزي : الملابس ، ص ٨٥ .
- ٢٩- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم) ، صحيح البخاري ، مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٨١ ، دار الجيل بيروت .
- ٣٠- جيزي : الملابس ، ص ٨٦ .
- ٣١- اللسان : ج ١٣ ، ص ١٠٢ .
- ٣٢- جيزي : الملابس ، ص ٧٩-٨٣ .
- ٣٣- ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٥٨ ، ج ٣ ، ص ١٣١ وانظر جيزي : الملابس ص ٨٥ .
- ٣٤- ابن كثير (أبو الفداء ، الحافظ الدمشقي) : البداية والنهاية ، مجلد ٢ ج ٤ ، ص ٣٧٢ ، تحقيق : ملحم وأخريين ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م . وانظر جيزي : الملابس ، ص ٨٦ .
- ٣٥- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،

دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة، القاهرة، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٢، ج ٤، ص ٣٧٣.

٣٦- جيورى، الملايس، ص ٨٧.

٣٧- السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨.

٣٨- أيله، مدينة تطل على البحر الأحمر، وقيل لسان مائى يخترق المدينة، وتعتبر الحد الفاصل بين الحجاز والشام، وهناك من يقول إنها للشمام أقرب، ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبدالله)، معجم البلدان مجلد ١، ص ٢٩٢، دار صادر بيروت.

٣٩- السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٣٩ وانظر ياقوت، معجم البلدان أيله مجلد ١ ص ٢٩٢.

٤٠- جيورى، الملايس، ص ٨٧.

٤١- معلوف (الويس)، التجدي لى اللغة والأدب والعلوم، برن ص ٣٦، الطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦ م.

٤٢- اللسان، برنس ج ٦، ص ٢٦ وانظر جيورى، الملايس، ص ٨٩-٩٠.

٤٣- الطبرسى، مكارم الأخلاق، ص ١٣٩.

٤٤- البخارى، مجلد ٣ ج ٧، ص ١٨٧، وانظر جيورى، الملايس، ص ٩٠.

٤٥- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة ص ٤١١-٤١٢، مطبعة مصطفى محمد القاهرة.

٤٦- البخارى، مجلد ٣ ج ٧، ص ٢٦.

٤٧- الطبرسى، مكارم الأخلاق، ص ١٣٩.

٤٨- المخصص، ج ٤، ص ١٨٦ وانظر اللسان، برنس، ج ٦، ص ٢٦.

٤٩- المخصص، ج ١، ص ٨١، اللسان، برنس ج ٦، ص ٢٦، جيورى، الملايس، ص ٩٠.

٥٠- اللسان، برن ج ١٣، ص ٧٢.

٥١- جيورى، الملايس، ص ٩٦.

٥٢- جيورى، الملايس، ص ٩٦.

٥٣- اللسان، ثوب ج ١، ص ٢٤٦.

٥٤- اللسان، حب، ج ١، ص ١٤٩.

٥٥- زيدان، السند ج ١، ص ٣٧.



- ٥٦- البخاري : مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٨٦ .
- ٥٧- البخاري : مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٨٦ .
- ٥٨- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١١ .
- ٥٩- اللسان : جلب ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .
- ٦٠- الصحاح : جلب ص ٦-١٠ ، المخصص : ج ١ ص ٢٩ ، اللسان : جلب ج ١ ، ص ٢٧٢ .
- ٦١- القرآن الكريم : الأحزاب آية ٥٦ .
- ٦٢- المخصص : ج ١ ، ص ٨١ ، اللسان : ج ٥ ، ص ٣٢٤ .
- ٦٣- ياقوت : معجم مجلد ٢ ، ص ١٦٣ .
- ٦٤- اللسان : ج ٥ ، ص ٣٢٤ - ج ٥ ، ص ١٠٥ .
- ٦٥- المخصص : ج ١ ، ص ٧٢ ، اللسان : ج ٤ ، ص ١٥٩ .
- ٦٦- اللسان : ج ٤ ، ص ١٥٩ .
- ٦٧- البخاري : مجلد ٣ ج ٧ ، ص ١٩٠ .
- ٦٨- البخاري : مجلد ٣ ج ٣ ، ص ١٨٩ .
- ٦٩- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١٢٠ .
- ٧٠- الهيثمي : موارد الطمان ص ٣٤٨ .
- ٧١- الطبرسي ، ص ١٢٥ ، الهادي ، ص ٣٥٢ ، اللسان : ج ٥ ، ص ٣٤٥ .
- ٧٢- البخاري : مجلد ٣ ج ٧ ، ص ١٩٣ .
- ٧٣- البخاري : مجلد ٣ ج ٧ ، ص ١٩٥ ، الطبقات : ج ٣ ، ص ١٣١ .
- ٧٤- الطبرسي : ص ١٢١ ، اللسان : ج ٥ ، ص ٣٤٥ .
- ٧٥- الطبرسي : ص ١٢٢ ، اللسان : ج ٥ ، ص ٣٤٥ .
- ٧٦- زيدان : التمدن ج ٥ ، ص ٩٢-٩٣ .
- ٧٧- الصحاح : ص ١٤٨ ، اللسان : ج ١ ، ص ٥٨ .
- ٧٨- جوري : ص ١١١ .
- ٧٩- الصحاح : ج ١٥٠ ، اللسان : ج ١١ ، ص ١٧٢ .
- ٨٠- اللسان : ج ١ ص ١٧٢ ، جوري : ص ١١٥ .

- ٨١- ابن الأثير: (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكرم): الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨-١٩٧٨م.
- ٨٢- ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٥.
- ٨٣- جبري: ص ١١٢.
- ٨٤- البيهقي: معجم ٣ ج ٧، ص ١٩٥، اللسان: ج ١١، ص ١٧٢.
- ٨٥- القوصي: نسبة إلى مدينة لرهستان عن المدن الفارسية، وهي منطقة جبلية تقع بين هراة ونيسابور، فتحها المسلمون في عهد الخليفة عثمان سنة ٢٩ هجرية على يد القائد عبدالله بن عامر بن كريد، ياقوت: معجم مجلد ٤ ص ٤١٩.
- ٨٦- جبري: ص ١١٤.
- ٨٧- اللسان: حروف ج ٩، ص ٥٩.
- ٨٨- الحيرة: (بالكسر ثم السكون)، مدينته جاهلية تبعد عن الكوفة بحوالي ثلاثة أميال، وربما تكون مدينة الجف قد قامت على أنقاضها، ياقوت: معجم مجلد ٢ ص ٣٢٨.
- ٨٩- اللسان: حرج ٤، ص ٢٢٥.
- ٩٠- جبري: ص ٥٣-٥٤.
- ٩١- الصحاح: خبر ص ١٨٩، اللسان: حرج ٤، ص ٢٥٧.
- ٩٢- جبري: ص ١٢٢.
- ٩٣- القرآن الكريم: سورة النور آية ٣١.
- ٩٤- المرط: هو كل ثوب غير مخيط، اللسان: مرط ج ٧، ص ٤٠٢.
- ٩٥- ابن سعد: الطبقات ج ١، ص ٤٦٨.
- ٩٦- اللسان: حرج ٤، ص ٢٥٨.
- ٩٧- الجيش: نبات له قشبان طوال خضر مملوءة حيا صفراء يلهم من ذلك أن حمار عائشة نسيجه من النبات، اللسان: جيش ج ٦، ص ٢٧٨.
- ٩٨- اللسان: حرج ٤، ص ٢٥٨، جبري: ص ١٢٤.
- ٩٩- جبري: ص ١٤٨.
- ١٠٠- جبري: ص ١٢٥.

- ١٠١- أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) ، الألفاني ج ٣ - ص ٤٥ . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- ١٠٢- المصيري الشيخ كمال الدين) : حياة الحيوان الكبرى ج ١ - ص ٥٥ . المكتبة الإسلامية . المخصص : ج ١ ، ص ٨٠ .
- ١٠٣- ابن سعد : الطبقات ج ٢ ، ص ٢٩٩ - الأريلى (أبو الحسن علي بن عيسى) - كشف الغمة في معرفة الأئمة ج ١ ، ص ١٩ ، باعتنا . السيد هاشم الرسولي - تبريز ١٣٨٥ .
- ١٠٤- اللسان : درج ج ٨ ، ص ٨٢ .
- ١٠٥- زيدان : الضلعن ج ٥ ، ص ٨٣ .
- ١٠٦- اللسان : سراج ج ٢ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ : جبوري : ص ١٥٣ .
- ١٠٧- المخصص : ج ١ ، ص ٦٣ .
- ١٠٨- جبوري : ص ١٤٤ .
- ١٠٩- اللسان : سراج ج ٢ ، ص ٢٩٤ .
- ١١٠- اللسان : سين ج ١٣ ، ص ٢٠٣ .
- ١١١- ابن سعد : الطبقات ج ٥ ، ص ٢١٧ .
- ١١٢- اللسان : سين ج ٢ ، ص ٢٩٤ .
- ١١٣- اللسان : سراج ج ١٠ ، ص ١٥٣ .
- ١١٤- ابن سعد : الطبقات ج ٥ ، ص ٢١٧ .
- ١١٥- الصحاح : سرول ص ٢٩٦ ، المخصص : ج ١ ، ص ٨٣ .
- ١١٦- المخصص : ج ١ ، ص ٨٣ ، اللسان : سرول ج ١١ ، ص ٣٣٤ .
- ١١٧- المخصص : ج ١ ، ص ٨٣ .
- ١١٨- البخاري : مجلد ٣ ج ٧ ، ص ١٨٧ : جبوري ، ص ١٦٥ .
- ١١٩- زيدان : ج ٥ ، ص ٩٢ .
- ١٢٠- المخصص : ج ١ ، ص ٨٣ .
- ١٢١- اللسان : سرول ج ١١ ، ص ٣٣٤ .
- ١٢٢- البخاري : مجلد ٣ ج ٧ ، ص ١٨٧ .

- ١٢٣- البلاذري : (محمد بن حابر) : أنساب الأشراف - ج ٤ ، ص ٤٣ ، تحقيق محمد حميد الله - دار المعارف القاهرة : الهيثمي - سواره الظنآن ص ٤٩ : المسري (د. حسين علي) : تاريخ البحرين وعسان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموي - ص ١٤١ ، مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت - ٢٠٠٠م .
- ١٢٤- الهيثمي ، ص ٤٩ .
- ١٢٥- الصحاح - سربل ص ٢٩٣ .
- ١٢٦- القرآن الكريم : النحل آية ٨١ .
- ١٢٧- القرآن الكريم : ابراهيم آية - ٥ .
- ١٢٨- القرآن الكريم ، النحل آية ٨١ ، اللسان : سربل ج ١١ ، ص ٣٣٥ ، جنوري : ص ١٦٧ - ١٧١ .
- ١٢٩- اللسان : سلب ج ١ ، ص ٤٧٢-٤٧٣ ، جنوري : ص ١٧٤-١٧٥ .
- ١٣٠- المخصص : ج ١ ، ص ٧١ .
- ١٣١- البخاري ، مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٩٥ .
- ١٣٢- اللسان : ج ٤ ، ص ٣٩١ .
- ١٣٣- اللسان : شعر ج ٤ ، ص ٤١٢-٤١٣ ، جنوري : ص ١٧٦ .
- ١٣٤- ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، اللسان : صخر ج ٤ ، ص ٤٤٥ .
- ١٣٥- ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .
- ١٣٦- المخصص : ج ١ ، ص ٧٨ .
- ١٣٧- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١١٠ .
- ١٣٨- المعجم الوسيط : طلس ج ٢ ، ص ٥٦١ .
- ١٣٩- ابن سعد : الطبقات ج ٥ ، ص ١٠٣ .
- ١٤٠- ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .
- ١٤١- نسبة إلى مدينة الرزيان ، وهي مدينة كبيرة متصلة بجمال طبرستان ، كثيرة الخيرات ، وقد بلغ صافي خراجها زمن الرشيد أربعمئة ألف وخمسون ألف درهم ، ياقوت : معجم مجلد ٣ ص ٤-٦ .
- ١٤٢- نسبة إلى مدينة آمل ، تقع في غرب جيحون - الاضطخري (أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي) : المسالك والممالك ، ص ١٦٦ ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحيني ، دار القلم القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م .

- ١٤٣- تونس ، مدينة تقع على أطراف جبال قرستان . بالكوت - معجم مجلد ٤ ص ٤١٤ ، والنظر  
 الجاحظ الأوغشمان عمرو بن بحر المصري : التصريح بالتجارة ، ص ٢٢ ، باختصاص حسن حسني عبد  
 الرهابي . الطبعة الرحمانية ١٢٥٤-١٩٣٥ م .
- ١٤٤- زيدان : التمدن ج ٥ ، ص ٩٣ .
- ١٤٥- جوري : ص ٥١ .
- ١٤٦- المخصص : ج ١ ، ص ٧٢ ، اللسان : عصب ج ١ ، ص ٤-٦ .
- ١٤٧- اللسان : عصب ج ١ ، ص ٦٠-٦٠٤ ، جوري : ص ٤٤ .
- ١٤٨- اللسان : عصب ج ١ ، ص ٦٠-٤ .
- ١٤٩- جوري : ص ٤٤ .
- ١٥٠- اللسان : عصب ج ١ ، ص ٢-٦ .
- ١٥١- المخصص : ج ١ ص ٧٧ ، اللسان : عطف ج ٩ ، ص ٢٥١ .
- ١٥٢- اللسان : عطف ج ٩ ، ص ٢٥١ ، جوري : ص ١٩١ .
- ١٥٣- اللسان : عصب ج ١٢ ، ص ٤٢٤ .
- ١٥٤- المخصص : ج ١ ، ص ٨٢ .
- ١٥٥- المخصص : ج ١ ، ص ٨٢ .
- ١٥٦- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١٣٩ ، جوري : ص ٢٠٢-٢٠٣ .
- ١٥٧- المورتونية ، تُرِفَت بهذا الاسم ، نسبة إلى رجل عاش في العصر الجاهلي اسمه حوثكة ، وكان  
 يتعمم بهذه العفة . اللسان : حثك ج ١٠ ، ص ٤١ .
- ١٥٨- اللسان : حثك ج ١٠ ، ص ٤١ .
- ١٥٩- اللسان : عجر ج ٤ ، ص ٥٤٤ .
- ١٦٠- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١٣٨ .
- ١٦١- ابن سعد : الطبقات ج ٣ ، ص ٢٩ .
- ١٦٢- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١٣٨ .
- ١٦٣- ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ١٣١ .
- ١٦٤- جوري : ص ٢٠٤ .

- ١٦٥- ابن سعد : الطبقات : ج ٢ ، ص ١٣١ .
- ١٦٤- جبري : ص ٢٠٤ .
- ١٦٥- ابن سعد : الطبقات : ج ٣ ، ص ١٠٣ .
- ١٦٦- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١٣٩ .
- ١٦٧- ابن سعد : الطبقات : ج ٣ ، ص ١٠٣ .
- ١٦٨- الدميري : حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، ص ٥٤ .
- ١٦٩- ابن سعد : الطبقات : ج ٣ ، ص ٢٩ .
- ١٧٠- المخصص : ج ١ ، ص ٨٢ : جبري : ص ٢٠٢ .
- ١٧١- الخافظ : البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، مكتبة الخالجي بمصر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .
- ١٧٢- جبري : ص ٢٠٤ .
- ١٧٣- هراة : مدينة مشهورة تتبع ولاية خراسان ، بها خيرات كثيرة وتتنوع بها المحاصيل الزراعية ، وكانت مزدهرة بالسكان وأهلها أثريا ، وبها من الفضلاء والعلماء الكثير ، والقوت : معجم مجلد ٥ ص ٣٩٦ .
- ١٧٤- جبري : ص ٢٢٥ .
- ١٧٥- ابن سعد : الطبقات ج ٥ ، ص ٢١٨ .
- ١٧٦- الخافظ : البيان والتبيين ج ٣ ، ص ١٠٠ : جبري : ص ٢٠٦ .
- ١٧٧- جبري : ص ٢٠٦ .
- ١٧٨- الخافظ : البيان ج ٣ ، ص ١١٤ .
- ١٧٩- المعجم الوسيط : لرج ج ٢ ، ص ٦٧٨ .
- ١٨٠- اللسان : لرج ج ٢ ، ص ٢٤٤ .
- ١٨١- البخاري : مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٨٦ .
- ١٨٢- اللسان : لرف ج ٩ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .
- ١٨٣- المعجم الوسيط : لباء ج ٢ ، ص ٧١٣ .
- ١٨٤- البخاري : مجلد ٣ ج ٧ ، ص ١٨٦ .



- ١٨٥- الشايخ أبو الحسن علي بن محمد - الديارات - ص ١٥٥ ، تحقيق كوركيس عواد ، منشورات مكتبة المنى بغداد ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ م .
- ١٨٦- المخصص : ج ١ ، ص ٧١ .
- ١٨٧- اللسان : قط ج ٧ ، ص ٣٧٣ ، جوري : ص ٥٦ .
- ١٨٨- المخصص : ج ١ ، ص ٥٦ .
- ١٨٩- البخاري : مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٩٥ ، اللسان : قسم ج ٦ ، ص ١٧٥ .
- ١٩٠- البخاري : مجلد ٣ ، ج ٧ ، ص ١٩٥ ، المخصص : ج ١ ، ص ٧٢ ، ياقوت : معجم : مجلد ٤ ، ص ٣٤٦ ، اللسان : قسم ج ٦ ، ص ١٧٥ .
- ١٩١- ياقوت : معجم مجلد ٤ ، ص ٣٧٣ ، الفيروز آبادي (محمد الدين محمد بن يعقوب) : القاموس المحيط : قط ج ٢ ، ص ١٢٣ .
- ١٩٢- المخصص : ج ١ ، ص ٧٢ .
- ١٩٣- اللسان : قط ج ٥ ، ص ١٠٦-١٠٥ .
- ١٩٤- ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
- ١٩٥- المخصص : ج ١ ، ص ٨٢ ، اللسان : قسم ج ٧ ، ص ٨٢ .
- ١٩٦- المخصص : ج ١ ، ص ٨٤ .
- ١٩٧- اللسان : قسم ج ٧ ، ص ٨٢ .
- ١٩٨- ابن سعد : الطبقات : ج ٣ ، ص ٥٧ .
- ١٩٩- الرازي : نسبة إلى مدينة الري الفارسية ، وصفها ياقوت ، بأنها من أعظم المدن الفارسية ، كثيرة الحيرات من المواد الزراعية ، وهي تسمى بلاد الجبل . ياقوت : معجم مجلد ٣ ص ١١٦-١١٨ .
- ٢٠٠- الكرياس والكرياسة : نوع من الساب ، وهي لفظة فارسية معربة ، ونسب إليه البائع ، يقال : كرايس . اللسان : كرس ج ٦ ، ص ١٩٥ .
- ٢٠١- الزاير : نسبة إلى موضع في شمال العراق عند المرسل ، وهناك زايران ، الزاير الأعلى والزاير الأسفل ، وهما نهران بفسان في دجلة عند موضع يقال له ، السن . ياقوت : معجم مجلد ٣ ، ص ١٢٤ .
- ٢٠٢- ابن سعد : الطبقات ج ٣ ، ص ٢٨ .

- ٢٠٣- الطبرسي : مكارم الخلاق ، ص١١٦ .
- ٢٠٤- الجاحظ : كتاب الناج من أخلاق الملوك ، ص١٥٦-١٥٧ . تحقيق المعاصم فوزى عطوى . الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت لبنان .
- ٢٠٥- ابن خلدون : المقدمة ، ص١٧٢ .
- ٢٠٦- ابن خلدون : المقدمة ، ص١٧٢ .
- ٢٠٧- حسن : حضارة العرب في العصر الأموي ، ص١٨١-١٨٢ .
- ٢٠٨- المخصص : ج ١ ، ص٨١-٨٢ .
- ٢٠٩- اللسان : قلس ج ٦ ، ص١٨١ .
- ٢١٠- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص١٣٨ .
- ٢١١- ابن سعد : الطبقات ج ٣ ، ص ٤٠ .
- ٢١٢- ابن سعد : الطبقات ج ٥ ، ص ٢١٨ .
- ٢١٣- الجاحظ : البيان ، ج ٣ ، ص ١١٤ .
- ٢١٤- المخصص : ج ١ ، ص ٧٢ .
- ٢١٥- الطبرسي : مكارم الأخلاق ، ص ١١٠ .
- ٢١٦- الطبرسي ، ص ١٣٤ ، اللسان : تقع ج ٨ ، ص ٣٠ .
- ٢١٧- المخصص : ج ١ ، ص ٦٣ .
- ٢١٨- ابن سعد : الطبقات ج ٥ ، ص ٢١٧-٢١٨ ، الثموني : مدينته قديمه من مدن صحعيد مصر ، تقع غربي النيل ، باقوت : معجم ص ٢٠ .
- ٢١٩- المخصص : ج ١ ، ص ٦٧ .
- ٢٢٠- اللسان : رجل ج ١١ ، ص ٢٧٨ : جوري : ص ٥٠ .
- ٢٢١- اللسان : مستق ، ج ١٠ ، ص ٣٤٣ .
- ٢٢٢- ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢١٧ .
- ٢٢٣- اللسان : صلب ج ١ ، ص ٥٢٩ : جوري : ص ٤٥ .
- ٢٢٤- المخصص : ج ١ ، ص ٦٨ .
- ٢٢٥- اللسان : طرف ج ٩ ، ص ٢٤٠ .

- ٢٢٦- الطبرسي : ص ١١٠ - .
- ٢٢٧- ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٥٨٠ - .
- ٢٢٨- اللسان : عرج ج ٤ ، ص ٤٤٤ : جوري : ص ٤٦ - .
- ٢٢٩- اللسان : عرج ج ٤ ، ص ٥٩٠ : جوري : ص ٤٦ - .
- ٢٣٠- اللسان : قطع ج ٨ ، ص ٢٨٢-٢٨٣ : جوري : ص ٤٧ - .
- ٢٣١- القرآن الكريم ، المصحح آية ١٩ - .
- ٢٣٢- اللسان : لطف ، ج ٩ ، ص ٣١٤ - .
- ٢٣٣- الطبرسي : ص ١١٩-١٢٠ - .
- ٢٣٤- اللسان : لطف ، ج ٩ ، ص ٣١٤ - .
- ٢٣٥- اللسان : ترجم ٥ ، ص ٢٢٥ - .
- ٢٣٦- حسن ، حنارة العرب ، ص ١٨١ - .
- ٢٣٧- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ، كتاب الخراج ، ص ١٣٧ ، المطبعة السلفية - القاهرة ، المطبعة  
الرابعة ١٣٩٢ - .
- ٢٣٨- أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٨ - .

## قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير (أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد): الكامل في التاريخ . دار الفكر . بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- الأسطخري (أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي) : المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحيني، الإدارة العامة للثقافة مصر ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.
- أنيس (د.) إبراهيم وآخرين : المعجم الوسيط . مطابع دار المعارف بمصر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.
- البخاري (أبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم) : صحيح البخاري ، دار الجيل بيروت .
- البلاذري (محمد بن جابر) : أنساب الأشراف . تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف القاهرة.
- الجاحظ (أبرعشمان بن بحر البصري) : الثبصر بالتجارة . باعثناء حسن حسني عبد الوهاب ، الطبعة الرحمانية ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م.
- البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون . مكتبة الخالجي ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.
- كتاب الناج في أخلاق الملوك . تحقيق المحامي فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت لبنان ، بدون تاريخ .
- الجبوري (د. يحيى) : الملابس العربية في الشعر الجاهلي . دار الغرب الإسلامي . بيروت - لبنان ١٩٨٩ م .
- ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد) : شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م.
- حسن (د. حسين الحاج) : حضارة العرب في العصر الأموي . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة بدون تاريخ .
- الدميري (الشيخ كمال الدين) : حياة الحيوان الكبرى . المكتبة الإسلامية .
- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر) : مختار الصحاح ، باعثناء محمود خاطر ، المطبعة الأميرية . القاهرة ١٩٥٤ م.
- زيدان (جرجي) : تاريخ تمدن الإسلام ، دار الهلال .

- ابن سعد (محمد بن سعد بن ميثع البصري الزهري) : الطبقات الكبرى . دار صادر بيروت .
- ابن سيده (أبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي) : المخصص . دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار النهضة مصر، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- الشاشي (أبي الحسن علي بن محمد) : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد . مكتبة المثني بقداد مطبعة المعارف ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .
- ابن الصباغ (علي بن محمد بن أحمد المالكي) : الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، دار الكتب التجارية ، النجف .
- الطبرسي (أبي نصر الحسن بن الفضل) : مكارم الأخلاق . باعتناء السيد علاء الدين العلوي، كربلاء . مؤسسة الأعلمي .
- أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) : كتاب الأغاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٤٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) : القاموس المحيط ، شركة ومطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- ابن كثير (أبو الفداء، حافظ الدمشقي) : البداية والنهاية ، تحقيق د. أحمد ملحم وآخرين دار الكتب العلمية، بيروت . لندن ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- المسري (د. حسين علي) : تاريخ البحرين وعمان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموي ، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت ٢٠٠٠م .
- معلوف (نويس) : المنجد في اللغة . المطبعة الكاثوليكية، بيروت .
- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي بن أحمد) : لسان العرب ، دار صادر . بيروت .
- الهنشي (نور الدين علي بن أبي بكر) : سوارد الظمان ، تحقيق محمد عبد الرازق حيزة، دار الكتب العالمية بيروت . لبنان .
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبدالله) : معجم البلدان . دار صادر . بيروت .
- أبروسف (يعقوب بن إبراهيم) : كتاب الخراج ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٩٢هـ .

أ.د. محمد مؤنس عوض \*

## النقد الاجتماعي من خلال كتابات

وليم الصوري (ت ١١٨٦م) وأبو شامة المقدسي (ت ١٢٦٧م)

دراسة في التاريخ المقارن لعصر الحروب الصليبية

يتناول هذا البحث بالدراسة أمر النقد الاجتماعي لدى اثنين من المؤرخين المعاصرين لمرحلة الحروب الصليبية خلال القرنين ١٢، ١٣م في بلاد الشام، وهما وليم الصوري<sup>(١)</sup>، وأبو شامة المقدسي<sup>(٢)</sup>، وينحى إلى التعريف الموجز بهما، ثم بمؤلفاتهما، والرؤية النقدية الاجتماعية لهما، كذلك يتناول أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

ويلاحظ أن هناك عدة إشارات من الضرورة بمكان ملاحظتها في بداية هذا البحث يمكن إجمالها كالآتي:-

أولاً: تعد المادة المصدرية عن التاريخ الاجتماعي عموماً في عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢، ١٣م محدودة مقارنة بما ورد في مؤلفات متعددة تناولت الجانبين السياسي والعسكري بتفاصيل مسهبة ونستفي في ذلك إشارات وردت في كتب الرحالة المسلمين والمسيحيين واليهود على إختار أن الرحلة عين الجغرافيا المصرية وأحتوت على إشارات اجتماعية بالإضافة إلى كتب أخرى ألفها مؤرخون مسلمون فقيهاء كما في حالة كتب الداع وكذلك دواوين الشعر.

\* أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة عين شمس - كلية الآداب والعلوم - جامعة القاهرة



ثانياً: لا تزال الكتابة التاريخية في مصر والوطن العربي عموماً في أشد الحاجة إلى توسيع من الدراسات هما النقد التاريخي والتاريخ المقارن وهو أمر وجدناه متوافراً في حقل اللغويات مما أدى إلى إثرائه بينما مجال الكتابة التاريخية لا يبارح مكانه مقارنة بحجم ونوعية التأليف في ذلك المجال خارج نطاق العالم العربي وهو أمر تكشف عنه بجلاء شبكة المعلومات الدولية (الانترنت).

ثالثاً: إن المقارنة بين المؤرخين المذكورين ينبغي ألا تؤدي بنا إلى إعصاف الأحكام أو الفكرة المسبقة أو القولية، إذ من المنطقي تماماً ألا ينطبق في كافة الروايات وكذلك ألا يختلف في جميع الجوانب فلكل رؤيته الإحصاعية وتكوينه الفكري ونظراته للأمور.

رابعاً: إن مفهوم النقد الإجمالي هنا لا ينبغي النظر إليه من خلال الرؤية الضيقة للمجتمع بل من خلال الكيان العام الصليبي أو الإسلامي بأبعاده ومستوياته المختلفة ككل لأن ذلك من شأنه تعميق الدراسة.

أما التعريف الموجز بالمؤرخين المذكورين فنعرف أن وليم الصوري قد ولد في مدينة بيت المقدس حوالي عام ١١٣٠م، وأخذ من عائلة فرنسية متوسطة إشتهر رجالها في أحداث الحملة الصليبية الأولى<sup>(٣)</sup>، وقد درس في بداية حياته في أحد المعاهد العلمية الدينية التي توافرت في تلك المدينة<sup>(٤)</sup>، ولما بعد وخلال الأعوام من ١١٤٥ إلى ١١٦٥م، درس في غربي أوروبا<sup>(٥)</sup> وتقل بين باريس، وشارتر، وأورليانز بفرنسا، وبولويسا في إيطاليا<sup>(٦)</sup>، وتعددت دراساته بين الفلسفة واللاهوت، والقانون الكنسي، والمدني<sup>(٧)</sup>، وجاء ذلك خلال ما عرف بنهضة القرن الثاني عشر الميلادي<sup>(٨)</sup> وهي أخطر النهضة التي شهدتها مرحلة العصور الوسطى الأوروبية، ولا ريب في أن تلك الأعوام مثلت مرحلة فارقة في تكوينه الفكري، فإذا أضفنا إلى ذلك إجادته لعدة لغات مثل اللاتينية، واليونانية بالإضافة إلى العربية، والعبرية، والفارسية كما تردد في بعض المؤلفات، أدركنا تصوراً أعمق عن التكوين العقلي لذلك المؤرخ المهجن ثقافياً والذي جمع بين ثقافة الشرق اللاتيني والغرب الأوروبي والثقافة الإسلامية كما سيتضح لنا.

ولمّا بعد، عاد أدراجه إلى مملكة بيت المقدس الصليبية التي كان يعتبرها وطنه في عهد الملك عموري الأول (١١٦٣-١١٧٤م) وعمل مريباً لأبنته بلدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م)، وتعلم أنه في عام ١١٧٥م تولى منصباً كنسياً متميزاً في صورة رئيس أساقفة صور<sup>(١١)</sup>، ومع ذلك فإن طموحه الشخصي فاق ذلك بمراحل على نحو سبب له متاعب جمة.

من ناحية أخرى؛ لم تخل حياته من أدوار سياسية مهمة، إذ قام بسفارة إلى الإمبراطورية البيزنطية عام ١١٦٨م في عهد الإمبراطور مانويل كومنين<sup>(١٢)</sup> (١١٤٥-١١٨٠م)، كما شارك في نشاط كنسي بارز في صورة مجمع النيران الثالث الذي عقد في روما عام ١١٧٩م<sup>(١٣)</sup>.

لا نغفل كذلك الإشارة إلى بعض الأحداث المؤثرة في حياته في صورة وفاة والدته عام ١١٨١م، وكذلك مقتل أخيه رالف في إحدى المعارك مع المسلمين<sup>(١٤)</sup>، وهي إشارات وردت في الفصل المفقود من تاريخ الأعمال الذي عثر عليه هايبر ونشره.

أما الحادث الخوري في حياته فقد تمثل في رغبته العارمة في الحصول على منصب بطريرك بيت المقدس، ولكنه لم ينله على نحو وُلد لديه شعوراً متضاعفاً بالظلم إنعكس بصورة واضحة على كتاباته وهو ما سوف نتناوله في موضع آخر من هذا البحث.

وبالنسبة لمؤلفاته، نعلم أنه ألف كتاباً عنوانه أعمال الملك عموري

*Gesta Amalrici Regis.*

كذلك ألف كتاباً آخر عنوانه أعمال ملوك بيت المقدس<sup>(١٥)</sup>، *Gesta Hierosolymitanorum Regnum.* حيث أكمل فيه تاريخ فوشيه الشارترى مؤلف كتاب تاريخ الحملة على بيت المقدس<sup>(١٦)</sup> *Gesta Francorum Jherusalem Peregrinatium*، كما ألف كتاب أعمال الأمراء الشرقيين<sup>(١٧)</sup> *Gesta Orientalium Principum*، وهناك من يقرر أنه قام في عام ١١٨٢م بوضع كتاب أعمال ملوك بيت المقدس وكتاب أعمال الملك عموري في كتاب واحد بعنوان تاريخ الأعمال التي جرت فيما وراء البحر<sup>(١٨)</sup> *Historia Rerum Inpartibus Transmarinis Gestarum.*

والأمر المؤكد أن وليم الصوري جمع مادة كتابه بعناية واستقى معلوماته على أوسع نطاق<sup>(١٧٧)</sup> سواء من الوثائق أو من المعاصرين من صنّاع الأحداث السياسية، وكذلك المعمرين، وأمتاز أسلوبه بالصفة العلمية والتحليل المنطقي، وندرت فيه الإشارات الجغرافية والأسطورية التي نجدتها بنسب متفاوتة في مصادر ذلك العصر بين الحين والآخر، ولذلك لم يكن غريباً أن اعتبر أحد المؤرخين مؤلفه "تاريخ الأعمال" بمثابة العمل الرئيسي من جانب الكتابة التاريخية في العصور الوسطى<sup>(١٧٨)</sup>، وبعد المصدر الرئيسي عن المرحلة المتقدمة من ١١٢٧م إلى ١١٨٤م ناهيك عن أهميته في معالجة المرحلة السابقة على عام ١١٢٧م، وقد جعله ذلك الكتاب في نظر البعض من أكبر مؤرخي مرحلة القرون الوسطى<sup>(١٧٩)</sup>، وبصفه عامة كثيراً ما يقال أن ذروة نضج الكتاب التاريخي الأوروبية لم تكن على أرض أوروبا بل في الشرق اللاتيني من خلال ذلك المؤرخ البارز.

مهما يكن من أمر، نعلم أن ذلك المؤرخ مات مسموماً على الأرجح في ٢٩ سبتمبر عام ١١٨٦م<sup>(١٨٠)</sup> بعد حياة حافلة بالأحداث على المستويين الشخصي والعام.

أما بالنسبة للمؤرخ الآخر، وهو أبو شامة المقدسي فقد ولد في دمشق في ٩ يناير عام ١٢٠٣م؛ أي بعد ١٧ عاماً من وفاة وليم الصوري، وقد تعلم علوم الدين وفيما بعد صار فقيهاً شافعيّاً، ووصف بأنه من كبار الفقهاء والمحدثين<sup>(١٨١)</sup> وأحتل مكانة بارزة بين علماء عصره، وقد تعددت إهتماماته بين الفقه، والنحو، والتاريخ، واللغة<sup>(١٨٢)</sup>، مما عكس موسوعية تكوينه الفكري في عصر إنتشرت فيه تلك الظاهرة بين أعلام مفكره.

وقد ارتبط أبو شامة بدمشق ولم يغادرها إلا إلى الحج إلى الأماكن المقدسة الإسلامية بالحجاز أو لزيارة بيت المقدس أو مصر، وفي الأخيرة تعلم على أيدي علماء وفقهاء القاهرة، والإسكندرية، ودمياط<sup>(١٨٣)</sup>، فحياته متأرجحة بين بلاد الشام ومصر وهو بالنالي جزء من ظاهرة الشامصر وارتباطها الجغرافية، والتاريخية، والحضارية، ولا تغفل أن جده كان إماماً للمسجد الأقصى<sup>(١٨٤)</sup> واستشهد خلال المذبحة المروعة الشهيرة التي إرتكبها الصليبيون خلال المرحلة من يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م حتى يوم الإثنين ٢٥ يوليو من نفس العام.<sup>(١٨٥)</sup>

وأبو شامة رجل علم، فقد عين مدرساً في المدرسة الركنية عام ١٢٦١م، وأُنقل منها إلى المدرسة الأشرفية عام ١٢٦٢م وأستمر يؤدي دوره التدريسي حتى مقتله<sup>(٢٦)</sup>.

ولا تغفل تأثر أبو شامة بالثنين من العلماء هما: علم الدين السخاوي (ت ١٢٤٥م)<sup>(٢٧)</sup>، والعز بن عبد السلام (ت ١٢٦٢م)<sup>(٢٨)</sup>، وكلاهما كان معارضاً للسلطة ورافضاً مصاحبة رجالها خشية أن يؤثر ذلك على قراراته بما يتعارض مع توجهاته الدينية.

وأنعكس إحترافه للعمل العلمي وتجنبه الأتصال بالسلطة على مؤلفاته التي أتسمت بالغازاة التأليفية ويمكن إيراد مؤلفاته التاريخية على النحو التالي:

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.

- مختصر الروضتين.

- ترهة المقلتين في أخبار الدولتين.

- الذيل على الروضتين.

- كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد.

- مختصر تاريخ دمشق لأبن عساكر<sup>(٢٩)</sup> (٣٠ مجلداً).

- مختصر تاريخ دمشق لأبن عساكر (١٠ مجلدات).

وهكذا، فإن مؤلفاته التاريخية إرتبطت بالكتابة عن الفاطميين أو العبيدين والدولة النورية

والصلاحية بالإضافة إلى إحتضاره مرتين لتاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر (ت ١١٧٦م)

الذي كان يقع في ٨٠٠ جزء جمعوا في ٨٠ مجلد فهو أكبر تاريخ ألف عن مدينة في الإسلام.

ولأنه موسوعي التكوين العلمي، إنعكس ذلك على كتاباته، فآلف في مجال العلوم الدينية

والنحو والشعر منها:

- الباعث على إنكار البدع والخرافات.

- نور المسرى في تفسير أبيه الإسراء.

- المختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول.
- كتاب المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز.
- كتاب السئلة.
- السرائك وما أشبه ذلك.
- الخقق في علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول.
- ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري.
- إبراز المعاني في حوز الأمان في القراءات السبع للإمام الشاطبي.
- شرح القصائد النبوية للسخاوي.
- شرح الحديث المنقضي في مبعث المصطفى.
- الواضح الجلي في الرد على الخبلي.
- القصيدة الدامغة للقرفة الزائغة.
- قصيدتان في وصف أفعال الحاج.
- مقدمة في النحو.
- أرجوزة في العروض والقوافي.
- ذكر منازل الطريق من جهة دمشق<sup>(٣١)</sup>.

ويلاحظ أن أبا شامه كان متمسكاً بأهداب الدين مقاوماً للبدع على نحو أدى إلى اصطدامه مع بعض المعارضين وحدث أن تعرض لإعتداء عليه من جانب شخصين نظاهرا بهما يريدان منه الافتاء في بعض أمور الدين على نحو أدى إلى وفاته فمات مقتولاً عام ١٢٦٧م<sup>(٣١)</sup>.

ذلك أمر مؤلفات كل من وليم الصوري وأبو شامه المقدمي، أما فيما يتصل بالجابب النقدي الإجتماعي، فيلاحظ أن عمدة مؤرخي الصليبيين في القرن ١٢م عاصر مرحلة قوة

المملكة الصليبية كما عاصر مرحلة ضعفها وأدرك التحولات السياسية والاجتماعية التي مر بها الكيان الصليبي، وقد أدرك بالفعل حجم التدهور الذي وصل إليه الصليبيون بعد رحيل آخر ملوكهم الكبار وهو عموري الأول عام ١١٧٤م وصولاً إلى قبيل معركة حطين الفاصلة عام ١١٨٧م<sup>(٣٢)</sup> بنحو عام.

ومن حسن حظ المؤرخين الذين تخصصوا في تاريخ الحروب الصليبية، أن مؤرخها الكبير الذي تحرق شوقاً لنصب بطريرك بيت المقدس لم ينله، لأنه في حالة حصوله عليه لعدتد - من المقترض - أن يعيقه عن أن يرصد برؤيه نقدية ما حدث في المجتمع الصليبي.

ولا نغفل أن نقده لذلك المجتمع نوافر لديه من خلال طبيعته الشخصية، ثم مقارنته بين الغرب الأوروبي في عصر فضته والشرق اللاتيني بالإضافة إلى تجربته الشخصية مع المناصب العليا في المؤسسة الكنسية في مملكة الصليبيين.

تجدر الإشارة؛ إلى أن وليم الصوري تعامل مع ذلك الموقف الخوري في حياته عندما ناله هرقل<sup>(٣٣)</sup> رئيس أساقفته فيسارية إذ نعلم أنه بعد وفاة البطريرك أمالريك في أكتوبر عام ١١٨٠م إختارت هيئة رجال الدين بكيسة القيامة في بيت المقدس هرقل السدي وصفه البعض بأنه "لم يكن سوى فئس من أوفرن لا يعرف إلا القراءة والكتابة غير أنه كان على وسامه وطلعة جذابة"<sup>(٣٤)</sup>، ويلاحظ أن أم الملك الصليبي حينذاك - وهو بلدوين الرابع - كانت معجبة به<sup>(٣٥)</sup> ولا نغفل إشارة وليم الصوري إلى سوء خلقه حيث كانت له عشيقه هي ابنة تاجر في نابلس اسمه باشيا دي ريفوري وثارت شائعات متعددة عن سلوكه المشين<sup>(٣٦)</sup>، ولا مرء في أن ذلك الوضع أصاب مؤرخنا بصدمة جعلته ينقد مجتمعه نقداً مرأ.

ويلاحظ أن تلك الحادثة كشفت لنا عن الفساد الأخلاقي في المؤسسة الدينية الصليبية وجاء ذلك مطابقاً لما أورده فيما بعد المؤرخ الصليبي جاك دي فري Jacques de Vitry .

عندما أشار إلى أن من رجال الدين الصليبيين من كان يؤجر دور العبادة المسيحية من أجل تسهيل أعمال الدعارة نظراً للأرباح المادية الكبيرة التي كان يجنيها من يقوم بذلك<sup>(٣٧)</sup>، كما أنها دلت على أن المناصب في مملكة الصليبيين وخلال مرحلة ضعفهم لم تكن تسدح تحقيقها.



من جهة أخرى، شعر ذلك المؤرخ بأن هناك فجوة أجيال حقيقية بين جيل التأسيس القوي والجيل الثاني الذي تأثر بالمؤثرات الشرقية وضعفت لديه دافعية القتال.

وها هو ذا يقول "السؤال المطروح دائماً وبعدل تام هو لماذا قاوم أبائنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداً، قاوموا دائماً بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير ولماذا كانت دوماً قوة صغيرة تبعد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو ويقابل ذلك أننا نجد رجالنا في أيامنا غالباً ما قهروا من قبل قوات أدنى منهم وأقل"<sup>(٣٨)</sup>.

ومن المنطقي والمتوقع تماماً أن يعقد المقارنات ويخلص إلى أن الجيل المعاصر له جيل بعيد عن الناحية الدينية وهو أمر طبيعي من رئيس أساقفة مثله، فيقرر "إن السبب الأول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالاً متدينين ويخافون الرب وقد قام مقامهم الآن جيل شرير أبناء أئمة مزيفون للتعقيدة المسيحية يتبعون سبيل جميع الأشياء الخرمة دونما تمييز... هؤلاء هم رجال العصر الحالي وخاصة القاطنون في الشرق"<sup>(٣٩)</sup> وفي مقدورنا فهم تلك العبارات من خلال معرفتنا بأن المجتمع الصليبي حينذاك أنتشرت فيه معدلات الجريمة من سرقة ورشوة"<sup>(٤٠)</sup> وإخلال خلقى بصورة ملفته للإنتباه.

وفي موضع آخر من كتابه يقرر ما نصه "كنا وقد وصفنا حتى الوقت الحالي في الكتب السابقة بالشكل الأمثل لمقدرتنا المآثر البارزة للرجال الشجعان الذين إحتفظوا بالسلطة الحاكمة لمدة ثمانين عاماً ونيف في منطقتنا من الشرق وبشكل خاص في القدس إلا أننا الآن ننتقل إلى الشجاعة"، كذلك يضيف ما نصه: "... لكننا الآن فقدنا جميع مصادر السمعة المتألقة كما أن الموضوعات الوحيدة التي تقدم نفسها هي كوارث بلد متألم وبهذه الطعافة وهي موضوعات لا تقدم إلا لإستدراج صحبات العويل والدموع"<sup>(٤١)</sup>.

كما يضيف قائلاً ما نصه: "... ولذلك أصبح العدو -عقياً لنا على أماننا- أقوى من أنفسنا"<sup>(٤٢)</sup>.

وبلاحظ أن النقد الإجتماعي لذلك المؤرخ لا يتصل الشبه عن الواقع السياسي والعسكري للوجود الصليبي، إذ أن صلاح الدين الأيوبي كان قد بدأ حرب الإستنزاف الأيوبية- الصليبية وبدأ يفرض واقعاً حربياً جديداً على الصليبيين وبالتالي أدرك ذلك

المؤرخ أن الإتهام الأخلاقي لدى الصليبيين وفجوة الأجيال هي المسئولة عما يحدث، لأن السقوط دائماً يكون من الداخل قبل الخارج.

يبقى أن نذكر أن وليم الصوري توقع سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية قبل حدوث ذلك من خلال معركة حطين ٤ يوليو ١١٨٧م، ودخول صلاح الدين للمدينة المقدسة محوراً في ٢ أكتوبر من نفس العام، وفي الفصل الأخير من تاريخ الأعمال لشعير صرعه مؤرخ بعيد النظر لا يستطيع أن يفعل شيئاً في مواجهة مظاهر إتهام مجتمع الصليبيين والقسايد والتصارع الداخلي على الصعيد السياسي بين الملكية وأمراء الأطراف الذي وصل إليه.

تجدر الإشارة إلى أن نقد المجتمع الصليبي أمر وجدناه في بعض إشارات فوشيه الشارترى وتزايدت بصورة واضحة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) التي أرادت استعادة الرها التي حررها المسلمون عام ١١٤٤م فإذا بها توجه نحو حصار فاشل لدمشق، وجاء وليم الصوري يركز تناوله النقدي واستمر من بعده النقد الذاتي الصليبي بدليل ما نجده في كتابات جاك دي فنري وبوركهارد من جبل صهيون<sup>(٤٦)</sup> Burchard of Mount Sion.

على نحو يؤكد استمرار معالم الضعف الصليبي من القرن ١٢م إلى القرن ١٣م وإن تزايدت في النصف الثاني من القرن الأخير على نحو مهد للأشرف خليل بن قلاوون الإجهاد على كيان مختصر في أغسطس من عام ١٢٩١م بإسقاطه عكا في قبضه المماليك إلا أن وليم الصوري يعد أكبر مؤرخ صليبي مثل النقد الاجتماعي للصليبيين بصورة لا نجد لها نظيراً على مدى القرنين ١٢ و ١٣م دونها مبالغة.

أما أبو شامة فإن كتابه الباعث على إنكار البدع والحوادث يقدم من خلاله إشارات مهمة عن نقد عادات وتقاليد دمشق حرض على الكشف عن ألما ليست من الدين في شيء. وقد أشار إلى جامع أقامه البعض في دمشق في موضع ضيق فتضاعف الضيق والخرج وكشف عن أن البعض إدعى أنه رأى في منامه أن ذلك الموضع دفن فيه بعض آل البيت كذباً وبهتاناً وبالطبع صدقه العوام<sup>(٤٧)</sup> وهو في ذلك يدعو ضمناً إلى أعمال العقل وعدم إتهام الدين العاطفي الذي وجد لدى قطاعات كبيرة من عامة المسلمين في ذلك الحين سواء في دمشق أو غيرها من مدن بلاد الشام.

كما ذكر أمر إعتاد الناس عمله عشية يوم عرفه حيث يفعلوا ما يفعلُه الحجاج من الدعاء والثناء وهو أمر لا سند له من الشرع، كذلك عارض ما شاع بين العوام من أنه من وقف ببيت المقدس أربعة وقفات تعدل حجة وتطور الأمر إلى إسقاط الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة<sup>(٤٥)</sup> وهو فرض من فروض الإسلام.

كذلك أنكر أبو شامة على معاصريه ما أسماه صلاة الألفية في ليلة النصف من شعبان وفيها قراءة قل هو الله أحد ألف مرة وهي منة ركعة وفي كل ركعة تتم قراءة الفاتحة مرة وبعدها سورة الإخلاص عشر مرات، ووصف تلك الصلاة بأنها "طويلة مستقلة" لا سند لها<sup>(٤٦)</sup>.

كذلك كان ذلك المؤرخ ناقداً لسلوكيات سيئة في المجتمع الدمشقي ومنها ما كان يحدث في تلك الليلة من إزدحام القوم وأشار إلى حدوث "الفسوق، والمعاصي، وكثرة اللغظ، والحطف، والسرقة، وتنحيس مواضع العبادات، وإمهتان بيوت الله"<sup>(٤٧)</sup>، على نحو أنسار غيرته الدينية، وبعد ما أشار إليه في هذا الشأن من أهم وأوضح صور النقد الاجتماعي من جانب ذلك المؤرخ والفقير الغيور على الإسلام والمقاوم للبدع ويلاحظ أن ذلك أمر كثر تردده في الموالد والاحتفالات الدينية من العصور الوسطى حتى يومنا هذا في العديد من مناطق العالم الإسلامي.

كذلك إنجبه إلى معارضة قراءة القرآن الكريم بالألحان في الجنائز، وأنصراف الناس إلى الحديث خلالها إلى أمور الدنيا ومتاعها من مال، وأبناء، دون الإلتفات إلى عظة الموت في حد ذاتها<sup>(٤٨)</sup>، ويلاحظ أن تلك الزاوية النقدية لا تزال تعاني منها المجتمعات المسلمة حتى يومنا هذا مما عكس بعد نظر أبو شامة الذي تخير ذلك الأمر كحي يورده في كتابه ضمن أوجه النقد المتعددة.

كما عارض ما يفعله البعض مما يعرف بصلاة الرغائب، وهي التي تصلى بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من شهر رجب حيث أوضح أنها بدعة لا أساس لها<sup>(٤٩)</sup> ويلاحظ أنه تأثر في ذلك بأستاذه عز الدين بن عبد السلام الذي أنكر تلك الصلاة<sup>(٥٠)</sup>.

يبقى أن نشير إلى أن ذلك الاتجاه لم يكن قاصراً على أبي شامة بل كان من قبلة ومن بعده وهو أمر يكشف لنا عن أن الفقهاء والمؤرخين العيورين على دينهم حرصوا على نقد عادات وتقاليد يقن العامة أنهما من الدين وهي ليست منه.

ولا يغفل أن تلك الزاوية النقدية لدى أبي شامة أدت إلى خصومات من جانب من تقدمهم ونجد الأمر واضحاً في ما كتبه اليوسفي العلبي (ت ١٣٢٦م) الذي قرر أن أبا شامة "كان كثير الغضب من العلماء والأكابر والصلحاء والظعن عليهم"<sup>(٥١)</sup> بل إقمه بذكر مساوئ الناس وذكر أعراضهم بالمحوم"<sup>(٥٢)</sup>، كما قرر ما نصه: "كان غير موفق في معظم حركاته رحمة الله تعالى وإيادنا وسامحه بما نال من أعراض المسلمين"<sup>(٥٣)</sup> ومع ذلك فإن ذلك القول إنفراد به ذلك المؤرخ على الرغم من أن باقي المصادر التاريخية أشادت بأبي شامة لعلمه وخلقه مما يجعل المرء لا يقبل في يسر وسهولة ذلك، ومع ذلك فمن الممكن من خلال سياق الأحداث تصور أن إشداده في النقد الاجتماعي ومباهرته بذلك ولد عداوات تجاهه.

ومن المفترض أن عدم ارتباط أبي شامة بمنصب رسمي جعله أكثر حرية في نقده للمجتمع الدمشقي حينذاك وهو في تلك الزاوية النقدية يتشابه مع مؤرخ آخر سابق على عصره هو سبط بن الجوزي (ت ١٢١٥م) الذي عمل عظيماً وواعظاً ومصلحاً اجتماعياً وأملك روحاً نقدية"<sup>(٥٤)</sup>.

ذلك أمر النقد الاجتماعي عند أبي شامة، أما إذا ألمحنا إلى عقد مقارنة بين كل من ولیم الصوري وبينه من تلك الزاوية نجد أن الأثنين يتفقان في أن الجانب الديني توافر لكل منهما فولیم الصوري رأى أن تخلي الجيل المعاصر له عن الدين أوصله إلى ذلك الأمر من الضعف، كما أن أبا شامة أدرك أن من الضرورة بمكان التمسك بالاسلام دون بدع أو حرافات يتصورها العامة دون سند من الشرع وهو أمر متوقع من مؤرخين عاشوا في عصر الحروب الصليبية وهي جزء من العصور الوسطى في الشرق والغرب التي وصفت بعصور الإيمان نظراً لتعاظم الظاهرة الدينية فيها.

ويتفق الأثنان في معارضة معاصريهم فما بصورة أو بأخرى، ولذلك لم يكن غريباً أن كان القتل مصوراً لهما، فمات الأول مسموماً على الأرجح، أما الثاني فمات بعد حادثلة الاعتداء عليه بالضرب من مهاجيه.

ولا نغفل أنه خلال مراحل الصدام بين قوى متصارعة سياسياً ومختلفة دينياً ولغوياً كما في حالة المسلمين والصلبيين على أرض بلاد الشام من المنطقي تماماً تزايد أمر النقد الاجتماعي لدى مؤرخي كل طرف من أجل إكتساب إنجازات لا تتوافر لدى الطرف الآخر.

ومع ذلك هناك أوجه للإختلاف بين المؤرخين المذكورين في نقدهما للمحتصين الصليبي والإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.

وتجدر الإشارة؛ إلى إختلاف المؤرخين فيما يتعلق بالإرتباط بالسلطة السياسية القائمة فالملاحظ أن وليم الصوري يوصف ويحق بأنه مؤرخ رسمي لمملكة بيت المقدس الصليبية من خلال إرتباطه بالملك الصليبي عموري وإن لم يمنعه ذلك من أن يقدم وجهة نظره النقدية لبي قومه سواء في تاريخه للمرحلة الواقعة قبل عهد ذلك الملك أو خلالها أو من بعدها، أما أبو شامه فيوصف بأنه فقيه "توري" تتلمذ على يد عز الدين بن عبد السلام الذي ألقى ببيع المال كونه مهكناً فإنه رفض الإرتباط بالسلطة ولم يجعل الوظيفة قيداً عليه ولذلك فضل العمل الحر ليحصل على قوت يومه<sup>١٥٥</sup> ولذا إمتلك دافعيه للنقد إنعكست على كتاباته وإن أدت به في النهاية إلى أن دفع الثمن من خلال حياته الشخصية.

ولا نغفل أن وليم الصوري في تاريخ الأعمال وظف ذلك النقد الاجتماعي من خلال ما يمكن وصفه بالرؤية المستقبلية حيث توقع سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية من قبل حدوث ذلك وهو أمر ميز كتاباته وأعطى عمقاً أكبر لنقده الاجتماعي، أما أبو شامه فلا تتوافر لديه مثل تلك الرؤية المستقبلية مع ملاحظة أن تلك الزاوية لا تعد نقيصاً في كتاباته حتى لا تؤدي بنا المقارنه إلى القولية وإعتساف الأحكام.

كما أن من الملاحظ أن نقد وليم الصوري الاجتماعي للصلبيين جاء في وقت كان فيه الخط البياني لبي قومه في هبوط بينما كان الخط البياني للمسلمين في صعود وبمكس إدراك ذلك من خلال تنوع مراحل صراع صلاح الدين الأيوبي معهم ونجاحه في فرض قوته العسكرية في أي وقت شاء وفي أي مكان أراد فكان نقده معبراً بصدق عن الوضع السياسي والعسكري للصلبيين خاصة خلال المرحلة الواقعة بين عامي ١١٧٤ - ١١٨٦ م، أما أبو



شامه فإنه كتب الباعث في وقت كان المسلمون أقبواً مقارنته بأعدائهم ويكفي أن نشير إلى أنه بعد وفاته بعام تقريباً تمكن المسلمون بقيادة الظاهر بيبرس من إسقاط إمارة أنطاكية الصليبية عام ١٢٦٨ م<sup>(٥٦)</sup>، ومع ذلك ينبغي ألا نغفل مواجهتهم لتحدي آخر خطير قادم من الشرق في صورة الغزو المغولي الذي وصل إلى بلاد الشام وإن تمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة به في صورة معركة عين جالوت الحاسمة عام ١٢٦٠ م.

ويلاحظ أن رؤية ولیم الصوري في نقده الاجتماعي للصليبيين أتت بالتفاصيل وتعدد جوانبها نظراً لطبيعة كتابه تاريخ الأعمال أما أبو شامة فإن نقده كان مرتبطاً بعادات وتقاليد لم يكن لها سد ديني حقيقي كما أوضح في الباعث فجاء نقده اجتماعياً دينياً صرفاً بعيداً عن الارتباط بالجانين السياسي والعسكري على عكس ما وجدناه لدى ولیم الصوري.

ذلك عرض عن النقد الاجتماعي في بلاد الشام من خلال كتابات ولیم الصوري (ت ١١٨٦) وأبو شامة المقدسي (ت ١٢٦٧ م) كدراسة في التاريخ المقارن لعصر الحروب الصليبية.



## المواش: -

(١) - عن وليم الصوري أنظر:

Krey(A.B), william of Tyre, The making of an historian in The Middle Ages's, vol.XVI, pp. 149-166. 1941,

Crawford(R.), " william of Tyre and The Maronites", vol.XXX, 1955,pp.222-228.

Davis(R.), " william of Tyre", in Baker (D.)Relations between East and West in The Middle Ages, Edinburgh 1961,pp.64-75.

Vaisey(D.), " william of Tyre and The art of Historiography", Med.Stud., vol.XXXV,1973,pp433-455.

Edhury(P.), " william of Tyre, A Historian of the Crusades and The Kingdom of Jerasalem (1130-1184) , B.F.A.A.U.,vol.XXXV1988, pp.43-52.

Edbury(P.) and Rowe( ), william of Tyre, Historian of the Latin East, Cambridge, 1988.

Hammad(M.), Latin and Muslim Historiography of the Crusades, Acomparative study of William of Tyre and Izz Addin Ibn Alathir, Ph.D.,Pennsylvania University 1987.

وهناك فصل منها في: من حاد، وليام الصوري والصراع الفرنجي الإسلامي ١٠٩٩-١١٨٤م، ضمن كتاب  
 كبحاث ودراسات في التاريخ العربي مهداة إلى ذكرى مصطفى الحياوي ١٩٣٦-١٩٩٨، تحرير صالح  
 الحمارة، الجامعة الأردنية، ط عمان ٢٠٠١م، ص ٢٥٣-٢٧٥، عمر كمال توليق، "التأريخ ولسم  
 الصوري"، مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية ع (٢١) عام ١٩٦٨م، ص ١٨١-٢٠٠، السيد  
 البار العربي، مؤرخو الحروب الصليبية، ط القاهرة ١٩٦٢م، ص ٩٩-١٥٢، محمد مؤنس عوض،  
 ولسم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية، سلسلة دراسات شرق أوسطية،  
 مركز بحوث الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٩٥م، هاري ألر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ت.محمد عبد  
 الرحمن برج، ط القاهرة ١٩٨٤م، ج ١، ص ١١١، محمود الرويضي، إمارة الرها الصليبية، ط.مؤسسة  
 ٢٠٠٢م، ص ٣٩-٤٢، محمد عبد الشافي المغربي، العصور الوسطى الأوروبية رؤية في المصادر  
 والنصوص التاريخية وعمليات التعليق والترجمة، ط. الإسكندرية ٢٠٠٤م، ص ٣٢-٣٣.

(٢) عن أبو شامة المقدسي أنظر:

أبو شامة، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق طيار آلستق قسولاج، ط.بيروت ١٩٧٥م،  
 ص ١٥-٤٠ من مقدمة التحقيق، حطبة الكتاب التزم للرد إلى الأمر الأول، تحقيق جمال لسرون،  
 ط.الرياض ٢٠٠٣م، ص ٧-١٤ من مقدمة التحقيق، الخلق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال

الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق أحمد العويني، ط. الزرقاء ١٩٨٨م، ص ١١-٢٨، مآين كتوب، البداية والنهاية، ط. القاهرة ب.ت.، ج ١٣، ص ٢٥٠-٢٥١، أين شاكر النكبي، فوات الوفيات، ط. القاهرة ب.ت.، ج ١، ص ٥٢٧-٥٢٨، أبو شامة، الخضر المؤمل في السرد إلى الأحرار الأول، تحقيق صلاح الدين مقبول أحمد، ط. الكويت ب.ت.، ص ٢١-٢٣، السواك وما أشبه ذلك، تحقيق أحمد العسوي وأبو حليفة، ط. طنطا ١٩٩٠م، ص ٧، البرزالي، الملقطى على كتاب الروضتين للعسوف بتاريخ البرزالي، تحقيق عمر عبد السلام نصيري، ط. صيدا ٢٠٠٦م، ج ١، ص ١٦٢-١٦٣، الياضي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يحترق من حوادث الزمان، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ج ٤، ص ١٦٤، النعمي، المدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، ط. دمشق ١٩٨٤م، ج ٢، ص ٢٣-٢٤، المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٦٢، أين تغري بوزي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. القاهرة ب.ت.، ج ٧، ص ٢٢٤، الصفاي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكين سويله، ط. دمشق، ص ٩٩، أين طولون الصاخي، قرة العيون في أخبار باب حبرون، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٦٤م، ص ١٤، حسين عاصي، المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين، ط. بيروت ١٩٩١م، ص ١١-٣١، فصححة البراوي، علم التاريخ دراسة في مناهج البحث، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص ١١٦-١١٧، سعيد الشاوي، لسابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية ٤٩٢-٥٦٠ / ١٠٩٩-١٢٩١م، ط. عمان ١٩٩١م، ص ٣٢، حاشية (٥٨)، علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص ٤٧، حاشية (١)، أحمد شوكان، العزيز بن عبد السلام وأبو شامة، ط. دير الزور ١٩٩٢م، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ت. عبد الحليم النجار، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ج ٦، ص ١٤، أحمد أحمد بلوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ب.ت.، ص ٢٧٥-٢٧٧، صلاح الدين المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص ١٥، عمر الساريس، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، ط. جدة ١٩٨٥، ص ١٥٥، نور الدين حاطوم وأحمر، السدحلي إلى الساريس، ط. دمشق ١٩٦٥م، ص ٣٠٥-٣١١، فاروق عمر فوزي، التدوين التاريخي عند المسلمين، ط. العين ٢٠٠٤م، ص ١٤٩-١٥١، عبد النعم ماجد، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٤.

Cahen(C.), La Syrie du nord a L'epoque des Croisades, paris 1940, pp.66.

Ahmed(M.), Arab Historiography during the Zengid and Ayyubid, period, in Lewis (B.) and Holt (M.P.), Historians of the Middle East, Oxford 1962, pp.92-94.

(٣) جمال الدين الشبلي، التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ط. بيروت، ب.ت.، ص ٧٠.

(٤) عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص ٣٤.

(٥) بيول سمايلي، المؤرخون في العصور الوسطى، ت. تاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٨٤، ص ١٤٢.

(6) Edbury, William of Tyre, pp.44.

(٧) بيول سمايلي، المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٨) عنها أنظر هذه الدراسة القديمة الجديدة:

Haskins(.), The Renaissance of The Twelfth Century, Cambridge 19.

(9) Barker(E.), The Crusades. London 1949, pp.108.

(١٠) عنه أنظر:

Nicetas Choniates, O'City of Byzantium, Annales of Nikitas Choniates, Trans. By Harry Magoulas, Wayne State University Detroit 1984, pp.101- 107.

Magdalino, The empire of Manuel I Komnenos, 1143-1180, Cambridge 1997.

Nicol(D.) A Biographical dictionary of the Byzantine Empire, London 1991, pp.78-79.

محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل كومنين، ط. الإسكندرية، ١٩٨٥م، محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٣٢٥-٣٤٢، علي عودة الغامدي، "معركة ميريا كيقالون ١١٧٦م" مجلة كلية الشريعة- جامعة أم القرى- مكة المكرمة، العدد (١)، العام (١) عام ١٤٠٩هـ، ص ١٢٣-١٥٠، أسد رستم، الروم، ط. بيروت ١٩٥٦م، ج ٢، ص ١٤٤-١٦٨، حسين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٢١٧-٢٣٢، زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، ط. القاهرة ب.ت، ص ٩٩-١٠٠، نزار تالوت وايس، السلاجقة، لطفى الحوري والسدافوقي، ط. بغداد ١٩٦٨م، ص ٧٢.

(11) Ency. Amer., "William of Tyre", vol. XXV111, U.S.A, 1985, pp.786.

(١٢) حسن عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ١١٧١-١٢٦٨م / ٥٦٧-٥٦٦هـ، الإسكندرية ١٩٨٩م ص ٣٤.

وأنظر أيضاً:

Hugens(.), Guillaume de Tyr etudiant un chapitre de son Histoire retrouve, Latomus, XXI, 1962, pp.811-829

(١٣) عبد الله الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحرب الصليبية، ط. الرياض ١٩٩٤م، ص ٩١.

(١٤) نفسه، نفس الصفحة.

(١٥) جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص ٧٢.

(١٦) عبد الله الربيعي، المرجع السابق، ص ٩١.

وعن ذلك التاريخ أنظر:

Ruhricht, Chronologisches Verzeichniss Landes, Bezuglichen Literature von 333 Bis 1873, Berlin 1890, p.p.23.

وله ترجمة إنجليزية أنظر:

William of Tyre, History of deeds done beyond The Sea, Trans. by Babcock (E.A) and Krey (E.B.), New york 1943.

وله ترجمتان عربيتان من جانب سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٩٠م وحسن حشيشي، القاهرة ١٩٩٥م والأخيرة مزودة بتعليقات وحواشي مما أعطى لها قيمة أكبر.

(١٧) هاري ألر بارنز، المرجع السابق، ص ١١١.

(18)Edbury, pp.43.

(19)Pernoud( ), The Crusades, Trans. by Enid Mclood, london1966, pp.289.

(20)O.D.B., vol.111, Oxford 1991, pp.2197

(٢١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، ط. بيروت ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٢٢) نفسه، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٢٣) فتحة البراوي، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٢٤) نفسه، نفس الصفحة، فروق عمر فوزي، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٢٥) عن تلك الصفحة أنظر:

Anonymous, The Deeds of Franks and other pilgrims to Jerusalem, trans.by R.hill,London 1962, pp.91.

ابن الفلاس، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ١٣٧، السرياني، تاريخ الخلفاء، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ٤٢٧.

Hagenmeyer(H.), "Chronologie de la premiere Croisade", R.O.L., T.v11, Annee 1899, pp.477-479.

ميخائيل اسكندر، القلم عبر التاريخ، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص ٥٧-٥٨، سعيد عاشور، أبناء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٠، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص ٨٣.

(٢٦) فتحية البراوي، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢٧) نفسه، نفس الصفحة.

والسخاوي هو علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد ولد بسخا وهي من أعمال محافظة الغربية عام ١١٦٣م، واكتشف في أول أمره مذهب الإمام مالك ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وقد اتقن العديد من العلوم مثل القراءات والنحو والفسر ودرس للكثيرين وأشهر تلاميذه أبو شامة وتولى عام ١٢٤٥م عنه أنظر:-

أبن تفرج بردي، المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٤، ج ٧، ص ٢٨٤، ابن كسبر، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨١-١٨٢، أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٧،

(٢٨) عز الدين بن عبد السلام هو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد المهذب السلمي، ولد عام حوالي عام ١١٨٠م، وبرع في العديد من العلوم ووصل إلى درجة الإفتاء، وتولى قضاء مصر القديمة مدة، واشتهر بقراءة الحاشية بيع الماليت، ومن مواقفه المشهورة أنه لما أعطى الملك الصالح إسماعيل بلعن الشقيف وصعد للصبيان عام ١٢٤٠م، أثار ذلك حفيظة الشيخ فأسقط الدعاء له في حطة الجمعة في مسجد دمشق لعزله فرح إلى مصر، وكانت له دولة رفيعة لدى الملك الظاهر بيبرس وقد تولى عام ١٢٦٢م، عنه أنظر:-

أبو شامة، الدليل على الروضين، تحقيق محمد زاهد الكوكبري، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص ٢٤٠، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، بإعتناء أحمد حطيط، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٣٨، حاشية ٣، الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ٦٥١-٥٦٦٠، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط. بيروت ١٩٩٩م، ص ٤١٦-٤١٩، العزير في عمير من غير، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، ط. بيروت ١٩٨٥م، ج ٣، ص ٢٩٩، الألباني، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٣-١٥٥، ابن تفرج بردي، النجوم الزاهرة، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ج ٧، ص ٢٠٨-٢٠٩، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق الأرنؤوط، ط. دمشق ١٩٩١م، ص ٧، ص ٥٢٢-٥٢٤، محمود الشرفاوي، سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص ٢٥-١٣٨، محمد حسن عبد الله، عز الدين بن عبد السلام بائع الملوك، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص ٤٩-١٩٠، أحمد يوسف القرعي، سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٦-٦٠، عز الدين الرحمن مراد، عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء حياته وعصره، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص ١٧-١٠٠، أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ١٦٢-١٦٤، محمد الزحلي، عز بن عبد السلام



سلطان العلماء وياتع الملوك، ط. دمشق ١٩٩٨م، عبدالله الوهبي، عز بن عبد السلام حياته وآثاره  
ومنتهجه في التفسير، ط. القاهرة ١٩٧٩م، علي القفر، عز بن عبد السلام ومناهجه الأصولي،  
ط. القاهرة ب-ت، عبد العظيم فودة، عز الدين بن عبد السلام وأثره في الفقه والأصول، ط. القاهرة  
ب-ت.

(٢٩) ابن عساكر هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي ولد عام ١٠٠٥م وبعد إتمام  
الحديث في زمانه وقد جمع بين معرفة الأسانيد والشون وقد طاف بالعديدي من أقطار العالم الإسلامي لا  
سيما بلدان المشرق طلباً للعلم وعاد إلى دمشق ١١٣٨م بعد أن بلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم  
العلم ما يزيد على ١٢٠٠ شيخ بالإضافة إلى ٨٠ شيخه ولف العديد من المؤلفات مثل تاريخ مدينة  
دمشق ووقع في ٨٠٠ جزء جمعوا في ٨٠ مجلد، كما ألف كتاباً في الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وقد  
توفي عام ١١٧٦م، عند أنظر:-

بافوت، معجم البلدان، ط. القاهرة ب-ت، ج ٥، ص ١٣٩ - ص ١٤٦، محمود ماضي، "الإمام ابن عساكر"،  
عالم الفكر، (١٥٠)، العدد ٤، مجرم - صفر، ١٩٩٤م، ص ٣٦٩ - ص ٣٧٢، أحمد عبد الكافي،  
ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية، ط. دمشق ١٩٩١م،  
سعيد عاشور، "بعض أضواء جديدة على ابن عساكر واجتماع الدمشقي في عصره"، ضمن أعمال المؤتمر  
الدولي عن ابن عساكر في ذكرى مرور ٩٠٠ سنة على ولادته ٤٩٩ - ١٣٩٩م، ط. دمشق ١٩٧٩م،  
ص ١٩٧ - ص ٢٣٤، سيد العابدي، "الحافظ الكبير أبو القاسم ابن الحسن ابن هبة الله"، المؤتمر السابق،  
ص ٣٣ - ص ٤٠، أحمد رمضان، "المسجد الأموي بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء في لتاريخ  
دمشق لابن عساكر"، المؤتمر السابق ص ١٥٠ - ص ١٥٩، صلاح الدين المشهد، أعمال ابن عساكر  
والجغرافيا عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ١٨ - ص ١٥٧.

Eliss, ff(N.) La Description de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959, pp.xv11-xxv111.

(٣٠) عن تلك المؤلفات أنظر:-

الوليبي العباكي، ذيل مرآة الزمان، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٢٦٨، أحمد أحمد بندي، المرجع السابق،  
ص ٢٧٦ - ص ٢٧٧، فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، ص ١٥٠ - ص ١٥١، شاكرو مصطفى، المرجع  
السابق، ص ٢٦٧.

(٣١) عن مقنله أنظر:-

ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٦٤، البرزالي، المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٣٢) عن معركة حطين أنظر:

The Old French Continuation of William Of Tyre 1194-1197, In The Conquest of  
Jerusalem and the third Crusade, ed.by P.W. Edbury, Hampshire 1996, pp. 158-  
163.



ابن شداد، النواذر السلطانية والحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيبان، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٧٥-  
 ص ٧٩، العماد الأصفيهانى، الفتح القسى في الفتح القدسى، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٤-٢٣، ابن  
 واصل، مفرج الكروب في تاريخ بنى أيوب، ت. جمال الدين الشيبان، ط. القاهرة، ج ٢، ص ١٨٦-  
 ص ١٩٤، ديفيد جاكسون، "معركة حطين والإستيلاء على القدس" ضمن كتاب حطين صلاح الدين  
 والعمل العربي الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص ٨٩-١١٠، جوزيف دالمون، سبع معارك فاصلة  
 في العصور الوسطى، ت. محمد فتحي الشاذلي، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٠٣-١٣١، سعيد  
 عاشور، "حطين وقائع وعبر"، مجلة العربي، العدد (٣٤٤) يوليو ١٩٨٧م، ص ٤٢-٤٥.

(٣٣) عن البطريرك هرقل أنظر:

Kedar(P.), "The patriarch Eraclius", in Kedar (B.Z), Mayer (H.E), Small (R.C.) eds.,  
 Outremer Studies in The History Of The Crusading Kingdom of Jerusalem,  
 presented to Joshua praver, Jerusalem, 1982, pp. 177-204.

(٣٤) برسكان، تاريخ الحروب الصليبية، ت. السيد البلاز العريبي، ط. بيروت ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٦٨٦.

(٣٥) نفسه، ص ٦٨٦، حاشية (١).

(٣٦) نفسه، ص ٦٨٦.

(37) Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. by A. Stewart, P.P.T.S., vol 1. London  
 1896, pp64.

وعن ذلك الجانب لدى الصليبيين أنظر:

العماد الأصفيهانى، الفتح القسى في الفتح القدسى، ط. القاهرة، ب.ت، ص ١٧٠، زكى النقاش، العلاقات  
 الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨،  
 ص ١٥٢، قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية في ألف ليلة وليلة، ضمن كتاب بين الأدب والتاريخ،  
 ط. القاهرة ١٩٨٨م، ص ٣٣، يوشع براور، عالم الصليبيين، ت. محمد خليفة وقاسم عبده قاسم،  
 ط. القاهرة ١٩٨١م، ص ٢٢٩، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيين في مملكة بيت المقدس  
 الصليبية، ١٠٩٩-١١٨٧ ميلادية، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ٢٢٩-٢٣٠، حسان حلاق،  
 العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص ١٩٥.

Brundage (J), "prostitution Miscegenation and sexual purity in The First Crusade" in  
 Edhury (ed.), Crusade and settlement, cardiff 1985, pp. 57-72.

(٣٧) وليم الصوري، تاريخ الأعمال، الموسوعة الشامية، ط. دمشق ١٩٩٥، ج ٧، ص ٣٨٢.

(٣٨) نفسه، نفس الصفحة.

(٣٩) نفسه، ص ٥٠٣.

(٤٠) عن ذلك أنظر: - حسن عبد الوهاب، "الرشوة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام عند الحملة الصليبية الأولى وحق سقوط بيت المقدس ١٠٩٥-١١٨٧م/٤٨٨-٥٨٣هـ"، ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٩٧م، ص ٩٣-١٥٤.

(٤١) نفسه، نفس الصفحة.

(٤٢) نفسه نفس الصفحة.

(٤٣) عنه أنظر رحلته:

Burchard of Montsion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.s, vol.VII, London 1896.

وهناك ترجمة عربية لها أنظر: بوركهارد من جبل صهيون، وصف الأرض المقدسة، ت. سعيد الينشاري، ط. عمان ١٩٩٥م.

وهذه الدراسة المهمة:

Grabois(A.), Christian pilgrim in the Thirteenth century and the latin Kingdom of Jerusalem: Burchard of Mount Sion "Outremer Studies. PP.285-596.

وأيضاً محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطى، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٨١-٨٩.

(٤٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث، تحقيق بشر محمد عون، ط. دمشق ١٩٩١م، ص ٣٧.

(٤٥) نفسه، ص ٤٦.

(٤٦) نفسه، ص ٥٠.

(٤٧) نفسه، ص ٥٩.

(٤٨) نفسه، ص ٤٧.

(٤٩) نفسه، ص ٦١-٦٣.

(٥٠) اليافعي، المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٥١) ذيل امرأة الزمان، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ط ٢، ص ٣٦٧.

(٥٢) نفسه، نفس الصفحة.

(٥٣) نفسه، نفس الصفحة.

(٥٤) جمال فوزي عمار، التاريخ والتورخون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ٥٢١-٥٩٠هـ،

ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص ١٣٨.

(٥٥) وقد قال في ذلك:

وقد يسر الله الكرم بفضله

عنى النفس مع عيش به أتقنع

وما دمت أرضى باليسر إني

عنى أرى هولاً لغوي أحتضع

ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٧، ص ٥٥٤.

(٥٦) عن ذلك أنظر:

ابن عبد الظاهر، التوضيح الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الحويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م، ص ٣٠٧-٣١٣، القريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٦٨، السهني، دول الإسلام، تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ج ٢، ص ١٨٨، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والسلمون، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٤٧٠-٤٧٣، سعدون عباس نصرالله، رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٩٥م، ص ١٠٦-١٠٧، عبد العزيز الحويطر، الملك الظاهر ببرس، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص ١٣٦-١٣٨، أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ط. بيروت ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٣٣٨-٣٣٩، عبد الله سعيد الغامدي، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، ط. مكة المكرمة ١٤١٠هـ، ص ١٨٩-١٩١، محمد مؤنس عوض، الظاهر ببرس مؤسس دولة سلاطين المماليك بمصر (٦٥٨-٥٦٧هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٢٥-٢٦، يوسف غوثه، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، ط. عمان ١٩٨٣م، ص ١٩٣-١٩٤.

أ.د. عبد الرحمن عبد الواحد محمد الشجاع \*

## الأثر الاجتماعي لمساهمة المرأة في النشاط الوقفي

في عهد الدولة الرسولية ( ٦٢٦-٨٥٨هـ / ١٢٢٩-١٤٥٤م )

الوقف منظومة اجتماعية أفرزتها الحضارة الإسلامية وهو يُعنى بتوفير موارد مالية لرعاية مؤسسات اجتماعية ومنشآت تعليمية ، ومجاميع وأفراد بشرية ، وكل ما يتعلق بالناس من طرق وسبل وحيوانات .

وتتولى حماية تلك المنظومة مؤسسات وقفية صارمة النظام ، مستمرة القيام ، سواء لحماية أصل الوقف أو لإدارة المنشآت الموقوفة عليها .

لقد تولت كتب الفقه الإسلامي تنفيذ الوقف من حيث حكمه وإجراءاته وأركانه وطرق تنفيذه ، حيث يعد ما جاء في كتب الفقه بمثابة اللوائح والأحكام التنفيذية التي تضبط حركة الوقف .. إلا أن التاريخ يسعى لاستخراج الأثر الذي خلفه هذا الوقف سواء على المستوى الاقتصادي أم على المستوى الاجتماعي أم على المستوى العلمي .

وبما أن مصطلح ( الوقف ) يعني من حيث اللغة ( الخس ) إلا أن معناه الدلالي هو :  
المنع من التصرف في عين الموقوف ليستخلص منه مورداً مالياً مستمراً للتصرف على ما

\* أستاذ التاريخ والحضارة - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء

أوقف من أجله . ولذلك شملت الأوقاف أراضي زراعية ، ودوراً ، وقصوراً ، وأسواقاً ، وحواليات ، وحمامات ، وأقراً ، ومطاحن ، ومعاصر<sup>(١)</sup> .

إن ظاهرة الوقف التي شاعت في وسط المجتمع الإسلامي تعد ظاهرة جديدة بالدراسة فهي إحدى ملامح الحضارة الإسلامية . بدأت هذه الظاهرة وليدة ومحدودة الحجم ، ثم كبرت وتضخمت وتوسعت معالمها ومجالاتها ومظاهرها .. وأحدثت آثاراً هائلة في العديد من مناحي الحياة .

وعهد بني رسول ( ٦٢٦-٨٥٨هـ / ١٢٢٩-١٤٥٤م ) عهد عاصر آخر عهد بني أيوب وجزءاً كبيراً من عهد المماليك وهما عهدان تملكان زمام الأمور في دار الإسلام وأثرا تأثيراً كبيراً على مناحي الحياة المختلفة في أرجاء بلاد الإسلام . واليمن جزء من دار الإسلام يصدق عليها ما يصدق على بقية دار الإسلام ، من تأثيرها بما تم من تغيرات وتطورات في العهدين الأيوبي والمملوكي . ومن هذه التأثيرات انتشار ظاهرة الوقف بشكل واسع ، وبما أن هذه الورقة تُعنى بدراسة الأثر الاجتماعي لمساهمة المرأة في النشاط الوقفي فإنها لن تعرض لدراسة ظاهرة الوقف وآثارها بصفة عامة . فهذه لها مجال آخر ، وإنما تقتصر على ما حددتها في عنوانها .

\*\*\*

وقبل أن نتحدث عن أثر ما أوقفته المرأة اجتماعياً ينبغي أن نعرِّج على ما يمكن أن نسميه ظاهرة بروز دور المرأة في عهد بني رسول في المجال الوقفي بشكل ملفت للنظر ، رغم عدم بروزهن العلمي كما هو حال الحكام في عهد بني رسول الذين اشتهروا بتمكنهم العلمي بعلوم ومعارف شتى .. أما المرأة في عهد بني رسول وبالذات نساء البيت الحاكم فقد ساهمن في الوقف بشقٍ صوره .

وإذا ما حاولنا استكناه الأسباب التي دفعتهن لهذا النشاط فإننا نحتمل الأسباب التالية :

(١) انظر : غزاة . الوظيفة الاجتماعية للوقف في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي ( السؤقر السدولي السابع لتاريخ بلاد الشام - الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين ١٧-٢١ شعبان ١٤٢٧هـ / ١٠-١٤ أيلول ٢٠٠٦م .

١- التوجه الخيري في ابتغاء الأجر والثواب خاصة أن المرأة بحكم طبيعتها عاطفية رقيقة المشاعر .

٢- توفر المال لديهن لموقعهن من البيت الحاكم . أو لامتلاكهن أموالاً وإن لم تكن من أسرة بني أيوب مثل نساء وجهاء في هذا العهد . " فكلما كانت ذات مال وأموالاً زادت مشاريعها الخيرية وكبر وقفها وكثر ما يدره هذا الوقف على القاسمين والطلاب الفقراء والأيتام"<sup>(١)</sup> .

٣- التقليد لنساء بني أيوب ونساء أمراء المماليك في مصر والشام . ولعل هذا مشاهد من خلال المقارنة حيث نجد النساء يتسابقن في هذه البلدان ويتنافسن في المزيد من الأوقاف على تبرّات خيرية كثيرة .

٤- تشجيع أقربائهن من السلاطين والأمراء والوجهاء حيث لم يقفوا حائلاً دون مثل هذه الرغبات إن لم يدعوهن إليه دفعاً .

٥- إحساسهن بوجود حاجة عند الناس ويبدو أن كثرة التعداد السكاني ، وعدم وجود إنفاق رسمي من قبل الدولة لتلبية متطلبات الناس ، تطلب التحرك الطوعي من قبل ذوي اليسار عموماً ، والنساء خصوصاً فظهر هذا بشكل الأوقاف .

\* \* \*

وإذا ما عرفنا تلك الأسباب فإننا في حاجة إلى التعرف على أنواع ما أوقف .. لنعرف بعد ذلك على ألوان من الآثار الاجتماعية للوقف التي استفاد منها قطاع كبير من الناس .  
لما العودة إلى الوثائق الوقفية التي بقيت من عهد بني رسول تبين لنا أن الموقوفات كانت تتمثل في :

أراضي زراعية ، وهي أكثر ما أوقف حيث أوقفت في زيد والجد وحيلة ، وفي مناطق كثيرة من المناطق التي كانت تحت نفوذ بني رسول . وكانت هذه الأرض عادة ما تسوّج بالحبوب المختلفة ومنها نخيل .

<sup>(١)</sup> طه هديل . الحياة الاجتماعية في اليمن في عصر الدولة الرسولية ٣٦٧ .



ومن الموقوفات الخيرية ، والحانات ( الفنادق ) ، والمخازن ، والحمامات التي تسجر  
للمستخدمين والأفران ، والآبار ، وبيوت للإيجار ، ومعاصر للزيت ، وأحياناً كانت  
حيوانات توقف للخدمة مدة حياتها .. أو ثياباً حتى تخلى<sup>(١)</sup> .

وتتميز الأوقاف بأنها كانت تؤمن مورداً مالياً للصرف على مبرات خيرية إما على شكل  
مؤسسات ومنشآت وإما على شكل خدمات تقدم للسحاجين .. ولهذا فالأموال الموقوفة  
لا بد أن تكون مهيأة لأن تدر الأموال النقدية أو العينية كالحبوب والتمور والأغذية المختلفة  
التي تصرف كما هي ، أو تحول إلى أموال نقدية.

هذا بالإضافة إلى أن المنشآت الاجتماعية ( مدارس - مساجد وملحقاتها ) نفسها هي  
في حد ذاتها موقوفة فقد بنيت لهذا الغرض أو بنيت داراً للسكنى ثم حولت إلى مدرسة أو  
مؤسسة اجتماعية أخرى .

وسنحاول عمل قاعدة بيانات للمؤسسات العلمية والاجتماعية والمساعدات الاجتماعية  
لستخلص منها الآثار الاجتماعية التي نتجت عما أوقفته المرأة في عهد بني رسول .

(١) النظر : الوقفية الغسانية .

Table 2: Main characteristics of the study

Study	Author	Study type	Study period	Study location	Study design	Study population		Sample size	Response rate
						Number	Percentage		
1	Al-Sayid et al. (2018)	Descriptive study	2018	Al-Ramadi	Quantitative	100	100%	100	100%
2	Al-Sayid et al. (2019)	Descriptive study	2019	Al-Ramadi	Quantitative	100	100%	100	100%
3	Al-Sayid et al. (2020)	Descriptive study	2020	Al-Ramadi	Quantitative	100	100%	100	100%
4	Al-Sayid et al. (2021)	Descriptive study	2021	Al-Ramadi	Quantitative	100	100%	100	100%
5	Al-Sayid et al. (2022)	Descriptive study	2022	Al-Ramadi	Quantitative	100	100%	100	100%











<p>المستجدات في التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>
<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>
<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>	<p>التعليم العالي في الأردن</p>





## النتائج لقاعدة البيانات :

من خلال استعراض قاعدة البيانات السابقة نستطيع استخلاص النتائج والآثار الاجتماعية التالية :

١. أن المرأة في عهد بني رسول كانت لها مشاركة فاعلة في المجالات الاجتماعية بشكل ملفت ، ولم يقتصر هذا على المرأة من البيت الرسولي وحده ، بل وجدنا مشاركة من قبل الإماء ، وذوات المال من غير البيت الرسولي .

٢. أن نساء الأسرة الحاكمة أسرة بني رسول كان هن مشاركة في النشاط الوقفي بصورة المختلفة الذي أثر تأثيراً ملموساً في الحياة الاجتماعية .

٣. توجد مفارقة ملحوظة : وهي أن نساء أسرة بني رسول قمن برعاية وحماية الحركة العلمية ، والصرف عليها سخاء كالمندارس والمساجد المزهلة للتدريس والوقف عليها وفي الوقت ذاته لم تبرز منهن واحدة يقال بأنه درست وتعلمت وصارت بارعة في فن من الفنون. بينما وجدت نساء عرفن بالعلم في العصر الرسولي من أقارب فقهاء وعلماء مثل : الخيرة الصالحة هند بنت محمد بن علي القوتاني زوجة الفقيه أحمد بن عمر بن يوسف المكني وكانت تدرّس الطلاب ليلاً<sup>(١)</sup>، أو من أقارب الأئمة الزيدية مثل : صفية بنت المرتضى بن المفضل<sup>(٢)</sup>. ولا تفسر هذه المفارقة إلا أن نساء الأسرة الحاكمة انشغلن بالمشكلات التي كانت تنسار في القصر الحاكم وعوضن الاهتمام بالعلم اهتمامهن بالسخاء المالي في الأوقاف بصفتين يمتلكن ما يتفقهن على هذه المصارف .

٤. أن الوقف اشتمل على : الأرض الموقوفة لتكون بمثابة مصدر الإيرادات للمصرف على وقف آخر وهو المدرسة أو المسجد أو أي منشأة أخرى ، واشتمل الوقف أيضاً : على المدرسة والمسجد وأشباههما نفسها فهي أيضاً وقف كما هو حال الأرض ، إلا أن الأرض يرعاها الناظر بالاستصلاح لتظل تؤدي ريعها بكفاءة كاملة .. بينما المنشأة التعليمية أو غيرها تتلقى الدعم المالي من إيرادات الوقف الأول سواء لإصلاحها أو لإعالة كل من رتب فيها ، أو يقوم بالخدمة فيها .

(١) الوصافي - تاريخ وصاف ٢١٢ .

(٢) زيارة - خلاصة المتون ٤١ . وانظر في هذا الموضوع : هديل - الحياة الاجتماعية ٣٩٩-٤٠١ .

٥. أن الوقف في عموم كل الوقفيات وصف بأنه ( وقف عظيم ) أو ( وقف جيد ) أو ( وقفت وقفاً كاملاً ) أو ( أملاك جلييلة ) أو ( أوقافاً تقوم بكفالتها كلها ) أو ( أوقفت من عيار ما تملك من الأراضي يكفي الصرف عليها ويريد ) أو ( وقفاً مجزئاً ) أو ( مالاً كثيراً ) .  
كل هذه العبارات تدل بوضوح على أن مقدار الأرض الموقوفة التي تدر غلاتها أمواتاً جلييلة للصرف على المؤسسات الموقوفة كانت تشكل مورداً مستديماً تلي احتياجات كل المنتفعين اجتماعياً في وسط المجتمع .

٦. أن أغلب المدارس والمساجد الموقوفة كانت بالمدن مثل : زيد وتعرز وذي جيلة بحكم أن هذه المدن هي مقرات الحكم في الدولة الرسولية .

مع عدم إغفال القرى والمناطق التابعة لتلك المدن ، فقد بنيت فيها مدارس من قبل نساء البيت الرسولي وغيرهن مما يدل على أن الاهتمام بقيام المؤسسات ليس مجرد المنافسة للسمعة والبروز في بناء مثل تلك المؤسسات تحت أي مبرر نفسي .. وإنما يلاحظ وجود الحاجة لتلك المؤسسات في مثل تلك القرى والضواحي مثل : المدرسة الصلاحية بقرية المسلب .. ، والمدرسة الصلاحية بقرية السلامة بوادي نخلة .. لو أحصينا المدارس في المدن والقرى لوجدنا الأكثر عدداً يوجد في القرى والضواحي .

بل وجدنا مؤسسات وافية اجتماعية تمهدت المرأة بإنشائها في مناطق لم تكن المرأة قد وصلتها ولكنها كما يبدو علمت باحتياج الناس إلى مثل هذه الميزة الخيرية فسعت لإنشائها كما هو حال إنشاء مدرسة في ظفار الجبوس .. وهي منطقة بعيدة عن موطن المرأة بشكل كبير .

٧. أن المدارس لم تكن " مجرد مباني عادية بل كانت بطراز بنائها المعماري المتطور عبارة عن مجمع يضم في داخله قاعات الدرس ، وجامع ، إضافة إلى خانقاه ، بواقم تدريسي ، وخدماتي متكامل ، فضلاً عن مخازن للطعام المخصص يومياً للواردين على المدرسة <sup>(١)</sup> وملحقاتها ، من طلاب وضيوف ..

ولهذا نلاحظ غالبية المدارس يكون بجوارها خانقاه أو دار مضيف ، ودار طعام ، وساقية ماء أو بئر وعليها مكلف يقوم بزح الماء إلى البرك والمظاهر الملحقة ، وسبيل لشرب الدواب .

(١) هذيل . الحياة الاجتماعية ٤٣٧ .

## المصادر والمراجع

- الأشراف الرسولي . أبو العباس إسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)
- ١ . فاكهة الزمن ومفاكحة الآداب والفن في أخبار من ملك اليمن على إثر التبابعة لمولك العصر والزمن . ( الباب الخامس ) تحقيق / علي حسن علي معني ( رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي صادرة عن جامعة تونس - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - قسم التاريخ ، تونس ٢٠٠٥م ) .
- الأكموع . القاضي إسماعيل بن علي
- ٢ . المدارس الإسلامية في اليمن . مؤسسة الرسالة . بيروت . ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- يا محرمة . عفيف الدين أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م)
- ٣ . فلاة البحر في وفات أعيان الدهر . الجزء الثالث . تحقيق / محمد سالم عبد النور . وزارة الثقافة والسياحة . صنعاء . ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م .
- البريبي . عبد الوهاب بن عبد الرحمن (ت ٩٠٤هـ/١٤٩٨م)
- ٤ . طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريبي . تحقيق / عبد الله محمد الحشي . ط الثانية . ١٤١٢هـ/١٩٩٤م . مكتبة الإرشاد . صنعاء .
- الجندي . أبو عبد الله هاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
- ٥ . السلوك في طبقات العلماء والملوك . تحقيق / محمد بن علي الأكموع . ط الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
- الحشي . عبد الله محمد
- ٦ . معجم النساء السليات . دار الحكمة البناية . صنعاء . ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
- حاد . أسامة أحمد
- ٧ . مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي ( عصر دولتي بني أيوب وبني رسول ) . مركز الإسكندرية للكتاب . الإسكندرية . ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
- الخزرجي . أبو الحسن علي بن الحسن (٨١٢هـ/١٤٠٩م)
- ٨ . العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية . تصحيح وتنقيح / محمد بسيوي عسل . مطبعة الفلال . مصر . ١٣٢٩هـ/١٩١١م .
- ٩ . العقد الفاهر الحسن في طبقات أكابر اليمن . تحقيق / علي مطهر حمود العلاماني . رسالة ماجستير . معهد التاريخ العربي والترات العلمي . بغداد . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
- ابن الدبب . رحيه الدين أبو القتيب عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م)
- ١٠ . الفضل المرید علی بعلہ المستفید فی أخبار مدينة زید . تحقيق / يوسف شلحد . دار العودة . بيروت . ١٩٨٣م .
- وايضة . أحمد صالح
- ١١ . من تاريخ المدرسة الياقوتية في عدن . بحث منشور في كتاب المدرسة الياقوتية في عدن ودرر المدارس الإسلامية في اليمن في نشر التعليم . دار جامعة عدن . ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .
- ابن أبي الرجال . أحمد بن صالح (ت ١٩٦هـ)



١٢. مطلع الدور وجمع البحور في تراجم رجال الزيدية . تحقيق / عبد الرقيب مطهر محمد حجر . ط الأولى . ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م . مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية . صنعاء . اليمن .
- زبارة . محمد بن محمد يحيى
١٣. خلاصة المتون في أنباء وتبلاء اليمن الميمون . ج١ . الطبعة الأولى . ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م . مركز التراث والبحوث اليمني . صنعاء .
- السيدي . عبد العزيز بن راشد ( الدكتور )
١٤. المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية ( ٦٢٦-٨٥٨هـ / ٢٢٩-١٤٥٤م ) . ط الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- علوانة . يوسف حسن
١٥. الوظيفة الاجتماعية للوقف في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي ( المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام - الأوقاف في بلاد الشام - عند الفتح العربي الإسلامي في إني نهاية القرن العشرين . انعقد في ١٧-٢١ شعبان ١٤٢٧هـ / ١٠-١٤ أيلول ٢٠٠٦م ) .
- مجهول
١٦. ديوان الخراج الديوان المالي المعمور في زمن بني رسول ( مخطوط مصور بمكتبة الملك فهد الوطنية . الرياض ) .
- مجهول
١٧. نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفرى الوارف . تحقيق / محمد عبد الرحيم جازم . المعهد الفرنسي للأثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء ٢٠٠٣م .
- مجهول
١٨. الوثيقة العمانية [ مخطوط يادارة الأوقاف بمدينة تعز برقم ( ٩ ) ] .
- هس صادق
١٩. صورة المرأة اليمنية في الدراسات اليمنية . ترجمة / أحمد جرادات . المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية . صنعاء . ١٩٩٧م .
- قذافي . عبد حسين عوض أحمد
٢٠. الحياة الاجتماعية في اليمن في عصر الدولة الرسولية ( ٦٢٦-٨٥٨هـ / ١٢٢٩-١٤٥٤م ) رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي وحضارته صادرة عن قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء . ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
- الوصافي . وجه الدين عبد الرحمن بن عمر الحيشي ( ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م )
٢١. تاريخ وصاف المسى ( الاعتبار في التواريخ والآثار ) . تحقيق / عبد الله محمد الحيشي . مركز الدراسات اليمنية . صنعاء . ١٩٧٩م .

دكتور : محمد أحمد الكامل\*

مظاهر الاحتفال بطهور (ختان) أبناء

سلاطين وأمراء بني رسول في اليمن

( ١٢٢٦ - ١٤٥٨ هـ )

مدخل: التاريخ الحضاري الذي يهتم برصد مختلف المظاهر والنشاطات الحياتية البشرية: الفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والعمرائية... الخ؛ هو المرآة الحقيقية العاكسة لحياة وتاريخ الأمم والشعوب ومتغيراتها في شتى المناحي الحياتية، وعلى مستوى مختلف المراتب الاجتماعية، وهو الذي يقاس عليه مدى رقي أو انحطاط تاريخ وحضارة أي أمة من الأمم، كما يوضح التأثيرات والتفاعلات المختلفة بين مختلف الحضارات البشرية. وما التاريخ السياسي والعسكري - الذي ما يتم التركيز عليه في الغالب - إلا إحدى صور تلك المتغيرات الحضارية التي لا تأخذ - للأسف - حقيها من الدراسة والبحث.

والتاريخ الحضاري للأمة الإسلامية حافل بالنشاطات والمتغيرات الحضارية، التي ترتبط أغلبها بالتصور العقدي الإسلامي الذي يعد منهاجاً شاملاً لمختلف الجوانب الحياتية . وعليه فإن هذا التاريخ الحضاري للأمة الإسلامية أينما كانت وعلى أي مستوى اجتماعي، هو الجدير بالاهتمام والبحث العلمي الجاد والهادف لمعرفة حقيقة تاريخ هذه الأمة المهضوم في

---

\* قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء.

الدراسات التاريخية التي بين أيدينا. ومن المظاهر الحضارية التي تتميز بها المجتمعات الإسلامية في حياتها الاجتماعية، في أي زمان وفي أي مكان: مناسبة ختان الأبناء التي تمثل إحدى سنن الإسلام وشريعته، وتجرى هذه المناسبة وسط فرحة وهبهجة يختلف الاحتفاء والاحتفال بها من مجتمع لآخر، ومن وسط اجتماعي لآخر، وذلك بحسب الظروف والإمكانات.

وهذا البحث يعرض لنموذج تاريخي لمظاهر الاحتفال بهذه المناسبة في اليمن، وهو نموذج خاص من واقع الحياة الاجتماعية الخاصة بالأسرة الرسولية، التي حكمت في اليمن لأكثر من قرنين من الزمان من سنة (٦٢٦ - ٨٥٨هـ) ذلك أن هذه المناسبة التي أطلق عليها (الفرحة) كانت تجرى في إطار هذه الأسرة الحاكمة في أجواء احتفالية كبيرة ومنتيرة عما هو سائد في حياة معظم الأسر اليمنية. وقد بدأ البحث بمدخل عام تناول الختان في الإسلام من حيث: تعريفه، ومشروعيته، وحكمه، ووقته، والحكمة منه، ثم الاحتفال به. ثم يدلغ البحث إلى عرض مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة لدى سلاطين وأمراء دولة بني رسول في اليمن.

### أولاً: الختان في الإسلام.

لابد من التنويه ابتداءً إلى أن (الختان) المعنى في هذا البحث هو ختان الأبناء المذكور، والذي يمثل أحد مظاهر الشريعة الإسلامية وستنها، كما سيبين من خلال عرض العناصر التالية:

١. معنى الختان لغةً وشرعاً: في اللغة: الختان - كما جاء لدى ابن قيم الجوزية - بكسر الخاء - اسم لفعل الختن، و يسمى به موضع الختن أيضاً<sup>(١)</sup>... وختان الرجل هو الحرف المستدير على أسفل الحشفة... كما جاء في الحديث: "إذا نقي الختانان فقد وجب الغسل"<sup>(٢)</sup> وقد يطلق الختان على الدعوة إلى وليته، كما تطلق العقيقة على ذلك أيضاً<sup>(٣)</sup> ويسمى ختان الرجل إعداراً<sup>(٤)</sup>

وفي الشرع: هو قطع ذلك الحرف المستدير على حشفة الذكر حتى تكشف جميع الحشفة<sup>(٥)</sup> وهو ما يترتب عليه الأحكام الشرعية التي أوصلها بعض الفقهاء إلى قرابة الأربعمائة حكم<sup>(٦)</sup>.

٢. مشروعية الحتان. الحتان - كما أجمع عليه الفقهاء - هو أحد سنن الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها.<sup>(١٢)</sup> وقد مورس الحتان في حياة كثير من الأمم والشعوب، لا سيما لدى بعض الأمم التي آمنت بديانة سماوية كأمة اليهود.<sup>(١٣)</sup> وبما أن الإسلام هو دين الفطرة - كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم - : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم: آية ٣٠) {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} (الأعراف: ١٧٢). فإن الحتان يعتبر أحد سنن المشروعة التي دعا إليها دعوة صريحة وجعله على رأس خصال الفطرة البشرية.

ويرى بعض المفسرين والعلماء أن الحتان هو (الصبغة) المشار إليها في قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} (البقرة: ١٣٨).<sup>(١٤)</sup> وأنه أحد خصال الفطرة التي ابتلي بها الله إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: {وَإِذِ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتْمَحُنُّ} (البقرة: ١٢٤). وقد أوضحت السنة النبوية تلك الشعيرة والفطرة السليمة، كما جاء من الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبواب متفرقة من كتب الصحاح والسنن المشهورة،<sup>(١٥)</sup>.

من ذلك ما جاء في الصحيحين من رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : \* الفطرة<sup>(١٦)</sup> خمس: الحتان، والاستحداد، وتصف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب.<sup>(١٧)</sup> وتلك السنن تضمنتها الشرائع السماوية التي جاء بها الأنبياء... وأن نبي الله إبراهيم - عليه السلام - اختن وهو ابن ثمانون عاماً أو بعدها.<sup>(١٨)</sup> ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم وأمنه قد أمروا باتباع ملة إبراهيم: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ ابْتَغِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} (النحل: ١٢٣). {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ قَالِبُعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} (آل عمران: ٩٥). وعلى ذلك فالحتان من فطرة الإسلام وأحد سنن وشعائره التي طبقها الأنبياء والمرسلون من قبل.

٣. الحكم الشرعي للحتان. اختلفت أقوال فقهاء المسلمين وأئمة مذاهبيهم حول حكم الحتان، ما بين القول بوجوده وسنن... وكل يعتمد على حُجج ودلائل شرعية. فمن

القائلين بأنه مسنون وليس بواجب وجوب الفرض ولكن ياتم تاركه: الإمامان مالك وأبو حنيفة. <sup>(١٤١)</sup> أما القائلون بوجوبه وفرضيته، فمنهم: الإمامان الشافعي وأحمد <sup>(١٤٢)</sup> وكذا الحنابلة. <sup>(١٤٣)</sup> والشعبي، وربيعة، والأوزاعي، ويحيى بن سعيد الأنصاري. <sup>(١٤٤)</sup> ومهما كان وجه الاختلاف فهو اختلاف - كما يرى الشيخ الشعراوي - في الاصطلاح الذي يسدرج تحته الحكم. وأن كلمة الفقهاء على اختلاف مذاهبهم قد اتفقت على أن الحتان: "من فطرة الإسلام وشعائره وأنه أمر محمود ولم ينقل عن أحد من فقهاء المسلمين قول يمنع الحتان أو عدم جوازها." <sup>(١٤٥)</sup>

وما يدل على ذلك أن من القائلين بسنته من شدد في أمره. فقد شدد مالك حتى قال: من لم يختن لم تجز إمامته و لم تقبل شهادته. <sup>(١٤٦)</sup> وفي فقه الإمام أبي حنيفة أنه لو اجتمع أهل مصر (بلد) على ترك الحتان قاتلهم ولي الأمر؛ لأنه من شعائر الإسلام وعصائمه. <sup>(١٤٧)</sup>

٤. وقت الحتان. اختلف الفقهاء في تحديد وقت إجراء الحتان؛ وذلك لعدم ورود نص صريح من السنة بتحديد وقته، ف يرى بعض الفقهاء أن وقت الحتان لا يتجاوز الثانية عشرة من عمر الصبي. <sup>(١٤٨)</sup> بينما البعض يرى أن المستحب للحتان الفترة ما بين العام السابع إلى العاشر من عمره لأنها السن التي يؤمر فيها بالصلاة. <sup>(١٤٩)</sup> ومنهم من يرى أن اليوم السابع من الولادة هو الوقت الأنسب والمستحب اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، لما ورد من انه عقى عن الحسن والحسين تحتها لسبعة أيام. <sup>(١٥٠)</sup>

ويشير الشعراوي إلى أن ما عليه الأكثرية أنه اليوم السابع بعد يوم الولادة. <sup>(١٥١)</sup> ربما يكون ذلك من باب مخالفة لليهود الذين يجرون الحتان في اليوم السابع من الولادة. <sup>(١٥٢)</sup> وعلى العموم فإن أمر اختيار وقت إجراء الحتان - كما يرى بعض العلماء - متروك لسولي الأمر الذي يعلم بحال الصبي وقدرته على تحمل الحتان بتشاوره مع الطبيب للتثبت من طاقة المحتن. <sup>(١٥٣)</sup>

وكلما كان الحتان مبكراً في حياة الصبي عند طاقته له، كان ذلك أفضل صحياً ونفسياً للصبي. <sup>(١٥٤)</sup> أما إذا كان هناك ضرر قد يقع للصبي من جراء الحتان أو قد يتسبب في إعاقته صحية ونفسية مستديمة، فإن الحتان لا يجوز له إلا إذا زال المانع، تطبيقاً للقاعدة الفقهية التي



تقول بسقوط بعض الواجبات بخوف الهلاك، أو أن الصبي ولد وحشفه ظاهرة ليس منسوبة جلدته تعطيها توجب إزالتها<sup>(٣٨)</sup> وهكذا فإن الشفق عليه لدى مختلف المذاهب الشرعية أن لا يدخل الصبي مرحلة التكليف إلا وقد حُت.

٥. الحكمة من الحتان. بما أن الحتان - كما سبق - هو صفة الله و أحد سن النظرية التي شرعها الله سبحانه وتعالى في حياة البشر. فإنه جل شأنه لم يُشروع من شيء صغر أم كبر، إلا وكان وراءه حكما وفوائد عدة. منها ما يتصنح الإنسان من معرفتها، ومنها الذي ما يزال في علم الغيب. وقد كشف العلماء - سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم - حكما وفوائد كثيرة للحتان في حياة الفرد والمجتمع، سواء أكانت فوائد دينية وأخلاقية تتعلق بالعبادة والامتثال لأمر الله وتقييد من يصعبون شعائر دين الله عمن سواهم... أم فوائد صحية جسدية ونفسية... الخ<sup>(٣٩)</sup> وما توصل إليه العلماء حتى الآن بالنسبة لفوائد الحتان، وما تكون جزءاً من الفوائد والحكم التي تكون وراء تشريعه من قبل الخالق عز وجل لا كلها<sup>(٤٠)</sup> ولهذا كله فقد حرص المسلمون أبنا كالأول على تطبيق هذه الشعيرة الدينية حتى وإن واجهتهم عوائق<sup>(٤١)</sup>.

٦. الاحتفال بالحتان. بما أن الحتان يعد أحد المظاهر والمشاعر الدينية والاجتماعية التي تميز المجتمع المسلم، فإنه كغيره من المشاعر والمظاهر والمناسبات المماثلة - يجرى وسط مظاهر احتفالية تنوع صورها بتنوع ظروف وبيئات الأسر والمجتمعات الإسلامية... وفي واقع الأمر فإن الاحتفال بالحتان وما يصاحبه من مظاهر جمع الناس والتفاني الأموال في كثير من المظاهر الاحتفالية لم ترد بها سنة أو أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما هو حال العقيقة ووليمة العرس...<sup>(٤٢)</sup>.

ويبدو أن إجراء الحتان مع العقيقة في يوم واحد - كما سبق القول - يعد مجزياً لكل من العقيقة والحتان. وهذا هو المطبق لدى أغلب الأسر والمجتمعات الإسلامية التي تقيم الحتان في يوم العقيقة حتى القرن طعام العقيقة بالوليمة<sup>(٤٣)</sup>. غير أن هناك أسر وشرايح اجتماعية ومجتمعات - خاصة ممن يجرون الحتان في مراحل متأخرة من عمر الصبي - يفردون الحتان بمظاهر احتفالية واحتفالية مستقلة. حتى أن (الحتان) كان يطلق على الدعوة لوليمته<sup>(٤٤)</sup> كما يطلق العرب على طعام الحتان اسم (الغديرة)<sup>(٤٥)</sup>.



ثانياً: مظاهر الاحتفال بظهور أبناء سلاطين وأمراء بني رسول في اليمن.

لما كان ختان الأبناء - وما قد يصحبه من احتفال بفرحة إتمامه - من الأمور البديهية والمألوفة والمستكررة في حياة الأسر والمجتمعات الإسلامية - وإن وجدت بعض التمايزات في إجراءات والاحتفال به من مجتمع لآخر ومن بيئة لأخرى - فإن ذلك المظهر لم يُشكل حدثاً تاريخياً قائماً بذاته مما يستدعي المصادر التاريخية - التي تعرض لتاريخ المجتمع الإسلامي ودوله - إلى الاهتمام به وتدوين أخباره، إلا إذا جاء ذكره عرضاً ضمن سياق أخبار أخرى.

غير أن معلوماتنا التاريخية عن الختان وما يصحبه من احتفال جاء في مراحل متأخرة عندما شهد المجتمع الإسلامي - وعلى وجه الخصوص منذ العهد العباسي الثاني ثم في ظل عهد دولة المماليك الأولى والثانية - جملة من المتغيرات - سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية... الخ - منها ما هو إيجابي يتفق مع مبادئ ومقاصد وأخلاقيات الإسلام، ومنها السلبي الذي يتناقض مع تلك المبادئ.

ومن تلك المتغيرات ما طرأ على الاحتفالات الاجتماعية والدينية - على نوعها - من مظاهر وطقوس وبدع جديدة لم تُشهد من قبل، ومنها ما يتناقض مع الأخلاق الإسلامية، الأمر الذي أثار حفيظة كثير من العلماء والمؤرخين. <sup>(٣٦)</sup> وقد جرى ختان أبناء بعض خلفاء بني العباس وسلاطين المماليك وأمراءهم، في مظاهر وطقوس احتفالية كبيرة أطلق عليها (القرحة) أنفقت فيها أموالاً كثيرة. <sup>(٣٧)</sup>

ولما كان سلاطين وأمراء بني رسول في اليمن يقتفون أثر سياسة وخطوات سلاطين المماليك في مصر في مختلف النواحي السياسية والحضارية. <sup>(٣٨)</sup> فقد نقلوا عن سلاطين وأمراء المماليك تلك المظاهر والطقوس الاحتفالية الكبيرة والمميزة التي أقاموها بمناسبة ظهور أبنائهم، والتي استندعت تدوينها من قبل المصادر التاريخية التي أرخت لهذه الدولة. ومن خلال ما جاءت به تلك المصادر من معلومات عن هذه المناسبة، والتي من خلالها نستعرض هنا أبرز تلك المظاهر الاحتفالية. وذلك على النحو التالي:

١. وقت الختان. يتضح من خلال إشارات المؤرخين أن سلاطين بني رسول كانوا يجرون الختان والاحتفال به في وقت متأخر من حياة أبنائهم لئلا تمتد إلى سنوات لبعضهم.<sup>(٣٩)</sup> والمهم أن يكون ذلك تحت سن التكليف، وهذا يخالف ما هو سائد لدى معظم الأسر اليمنية التي تجرى الختان في الأيام الأولى من حياة المصبي<sup>(٤٠)</sup>. والدليل على ذلك ما أورده المؤرخون في عباراتهم عن تلك المناسبات التي كانت تقام بمناسبة ظهور عدد من الأبناء في مناسبة واحدة. فالنظير يوسف (حكم من سنة ٦٤٧ إلى سنة ٦٩٤ هـ) - كما جاء لدى المؤرخ الخورجني - أنشأ فرحة ظهور أبنائه في مدينة زيد سنة ٦٨٩ هـ.<sup>(٤١)</sup>

وأنشأ السلطان الأفضل عباس (حكم من ٧٢١ إلى ٧٦٤ هـ) فرحة الظهور لأبنائه سنة ٧٦٥ هـ<sup>(٤٢)</sup> وكذلك أنشأ الأشرف إسماعيل (حكم من سنة ٧٧٨ إلى سنة ٨٠٣ هـ) فرحة الظهور لأبنائه في مدينة تعز سنة ٧٩٤ هـ<sup>(٤٣)</sup>. والحال نفسه في احتفال السلطان الناصر أحمد بن الأشرف (حكم من سنة ٨٠٣ إلى سنة ٨٢٧ هـ) بظهور أبنائه في مدينة زيد سنة ٨٠٨ هـ،<sup>(٤٤)</sup> وكذلك الاحتفال بظهور أبناء السلطان الظاهر يحيى (حكم من سنة ٨٣١ إلى ٨٤٢ هـ) الذي تم في مدينة زيد سنة ٨٣٧ هـ.<sup>(٤٥)</sup> ومما يدل على أن الختان كان يجري متأخراً في حياة أبناء السلاطين أو بعضهم: أن من هؤلاء الأبناء من تولى السلطة في هذه الدولة وهو صبي لم يحن بعد مما عرضته للسجن.<sup>(٤٦)</sup> وقد ينعم بعض السلاطين على بعض الأمراء أو العامة بإجراء ظهور أولادهم مع أبنائه في ذلك اليوم الذي سمي بيوم (الفرحة).<sup>(٤٧)</sup>

وهذا الختان الجماعي كان مشابهاً لما كان لدى سلاطين وأمراء الماليك في مصر.<sup>(٤٨)</sup> ومع ذلك فلم يكن الختان الجماعي قاعدة، فقد حن السلطان الظاهر يحيى ولداً واحداً له في مدينة تعز سنة ٨٣٣ هـ.<sup>(٤٩)</sup>

ولخلص مما سبق إلى أن إجراء ختان أبناء السلاطين يتم في مراحل متأخرة من طفولتهم. ويستشهد الدكتور طه أبو زيد في ذلك بأبيات عن قصيدة قامها الشاعر

إسماعيل المقرئ (توفي سنة ٨٣٧هـ) بمناسبة الاحتفال بظهور أبناء السلطان  
الرسولي الأشرف إسماعيل سنة ٧٩٤هـ. تلك الأبيات هي:

مشوا نحو الحديد بلا احتفال      وقد شحذ الحديد لهم وسنا  
فما ارتعدت فرانسهم لديه      ولا لكصرا على الأعقاب جهنا  
ولكن زاد أوجههم ضياء      وأجزل في طلائفهم وأسنا

فهو يستدل من تلك الأبيات بأنهم ليسوا بأطفال صغار ولكنهم مشوا نحو الحديد وهو  
يحدد لعملية الختان<sup>(٥٠)</sup> أما عن تحديد موعد إجراء الاحتفال بهذه المناسبة فيبدو أنه قد  
ارتبط بظروف السلاطين وأوضاع دولتهم. ففي الغالب كانت هذه الاحتفالات تقام في  
وقت هدوء واستقرار نسبي تعيشه الدولة أو عقب تحقيق نصر حربي أو مكسب سياسي،  
فتكون الفرحة مضاعفة.<sup>(٥١)</sup>

٢. الإعداد والتجهيز. يعتبر ما وصلنا من معلومات حول (الفرحة) التي أقامها  
سلاطين بني رسول بمناسبة ظهور أبنائهم، في أغلبها إشارات عامة من الصعب الوقوف منها  
على معلومات تفصيلية عن طبيعة ومظاهر تلك الاحتفالات التي تدل تلك الإشارات ذاتها،  
بأنها كانت تقام في ظل طقوس ومراسم احتفالية كبيرة. غير أن المؤرخ الخرجي (المسوي  
سنة ٨١٢هـ) أبرز مؤرخي دولة بني رسول في اليمن<sup>(٥٢)</sup>، أورد معلومات تفصيلية حول  
إحدى تلك المناسبات، وهي مناسبة ظهور أبناء السلطان الأشرف إسماعيل، التي تمت في  
يوم الخميس التاسع من ذي القعدة سنة ٧٩٤هـ.<sup>(٥٣)</sup> ومن خلال تلك المعلومات نستطيع  
التعرف على طبيعة ومظاهر الاحتفال بتلك المناسبات - التي كانت تستغرق وقتاً من  
الإعداد والتجهيز، حتى تتم بتلك الصورة البهيجة - وذلك كما يلي:

٢. ١. تجهيز المأكول والمشروب وملحقهما. تميزت حفلات الظهور تلك بتنوع  
ما يقدم فيها من أنواع كثيرة ومختلفة من المأكولات والمشروبات ولحومها، والتي وصفت من  
قبل المؤرخين بأنه لم ير مثليها.

وعليه فإنه كان لابد من الاستعداد لذلك بمدة كافية قبل يوم الاحتفال، ومن خلال ما قدمه الخرجي من معلومات حول المناسبة المذكورة، نجد أن مدة التجهيز والإعداد لما سيقدم في تلك المناسبة من مأكول ومشروب ونحوه.. تجاوزت الشهرين. حيث جاء ذلك في عبارته التالية: " .. ولما انقضى شهر رمضان ( سنة ٧٩٤هـ ) عزم السلطان على تطهير أولاده فشرع في تحصيل مالا بد منه مما تدعو الحاجة إليه.."<sup>(٥٤)</sup> وأخذ بتعداد أنواع ما جهز من المأكول والمشروب والطيب ونحوه، من ذلك: اللحوم على اختلاف أنواعها من الطير وذوات الأربع، ومن الحبوب والمكسرات والتوابل والخضروات مثل: الخنطة والسمنون والعلان والأرز ومن الرمان والعدس والقرطم والخمر ومن الزبيب واللوز والجوز والسكر والزعفران والنشا والقلفل والكزبرة والزنجبيل والبصل والثوم والكمون والملح وسائر التوابل والمصطكى والقرفة والسنبل والجوزبوا والشوير والسياسة والسوسن. والقبول والفواكه على اختلاف أجناسها وأنواعها: كالفجل والقرع والموز والبطيخ والرطب والأعتاب والليمون.. وسائر أنواع الفواكه. ثم عدد بعض ما تم تجهيزه مما يحتاج إليه صنع ذلك الطعام من قنود وأوان، مثل: الحطب والسلط والشمع والبيض وآية الصيني واليشم والقاشاني والفخار من الصحون والزبادي والجرار والأدواح والكيزان البيض والطباشير والقراريب والمطاهر. انتقل بعدها لتعداد ما تم تجهيزه من المشموم وعُد منه أنواعا من الرياحين مثل: القل والورد والبرجس والياسمين والمنشور والكاذي والانسوج والبلح... وأشباه ذلك، ومن أنواع الطيب: كالمسك والعود والصندل والبنفسج والشند والسند والعنبر وماء الورد والفوالي.. وبعد انقضاء شهر شوال طلب صناع الحلوى لصناعة الأنواع المختلفة من الحلويات مما لا يدخل - حسب قوله - تحت العد والحصر منها: المسوط والمشبك والقاهرية والقرعية والشيزرية والحشخاشية والفانيد والبطاطيخ وأشباه الطير والبطاطيخ والقطائف المقلية والحيايص والحشكنان والكعك المطابق الخشور.. وغيرها وأشار إلى أعداد ما تم تجهيزه من أواني لصناعة الحلوى منها: الصحون الصينية والفخار الزبيدي - نسبة إلى زبيد - ثم أخذ يذكر ما تم تجهيزه من مشروب: كالسويا والفسقاع وأشباه ذلك.. وما تم تجهيزه من أنواع وأشكال متعددة من قصور الشمع. فنلك نماذج

مما أعد من المأكول والمشروب وملحقهما.. وغيره الكثير مما يقول عنه الخزرجي بأنه لا يدخل تحت العد والحصر. (٥٥)

٢. ٢. توجيه دعوات لكبار القوم. لاشك أن ذلك الإعداد الكبير يقتضي حضورا كبيرا من مختلف الشرائح الاجتماعية. وعليه فقد تم توجيه دعوات لحضور ذلك الاحتفال إلى عتبة القوم من: الأمراء والقادة والقضاة والعلماء... وغيرهم ممن ذكرت المصادر حضورهم تلك الاحتفالات التي سبقت الإشارة إليها. ومن خلال بسط المؤرخ الخزرجي في الحديث عن المناسبة المذكورة أعلاه، نجد أن طلائع المدعوين من الأمراء وكبار الموظفين، قد وصلت إلى مقر الاحتفال في مدينة تعز قبل نصف شهر من يوم إجراء الطهور، وتوالت الوفود تباعا وأن أعداد من بنات ونساء الأمراء وأكابر ومقدمي وقضاة أهل البلد قد حضروا الاحتفال بهذه المناسبات. (٥٦) كما أن المدعوين قد أحضروا معهم صنوفا متنوعة من الهدايا النفيسة التي تليق بهذه المناسبة من ملبوس وماكول ومشوم وزينة.. ونحو ذلك. (٥٧)

٣. المراسم الاحتفالية. من خلال ما أورده لنا المؤرخون من معلومات عن تلك المناسبات والاحتفال بها، وعلى وجه الخصوص النموذج الاحتفالي الذي قُصّل أخباره المؤرخ الخزرجي، فإن الاحتفال بالطهور يمر عبر برنامج ذات خطوات متعددة. فبعد التجهيز والإعداد - المشار إليه أعلاه - يبدأ البرنامج الاحتفالي قبل عدة أيام من يوم الاحتفال الأكبر (يوم الطهور). كما أن البرنامج الاحتفالي قد يتجاوز ذلك اليوم إلى أيام آخر بعده. فقد تستمر الاحتفالات حتى يكون آخرها الاحتفال بمناسبة شفاء المختونين من الأبناء من جروح خناهم. وتسير خطوات ذلك البرنامج الاحتفالي على النحو التالي:

٣. ١. استقبال المدعوين مع هداياهم: يبدأ البرنامج الاحتفالي باستقبال المدعوين الواصلين مع لسائهم وما يحملونه من هدايا، حيث يتم استقبالهم على إيقاعات الآلات الموسيقية الرسمية وعزف المغاني وبعض العروض العسكرية، وذلك ترحيبا بهم وهداياهم. وقد وصف لنا الخزرجي طريقة استقبال أجمال الهدايا التي وصل بها كبار المدعوين في حفل طهور أبناء الأشراف السالف ذكره بقوله: "وصار كل من حمل حملا.. يجعل قبل محموله رأسين من البقر كبيرين على أتم ما يكون من الحسن وعليهما توبان من الحرير الملون وتصل معه



عدة من المغاني والزناجين واليوافين يزلون كل حمل إلى باب الدار المعروف بدار النصر من ثعبات المعمورة،<sup>(٥٨)</sup> فإذا وصلوا الباب المذكور قام مقدم الجزارين فيرع الثياب الخريبر ويذبح ما وصل من الجزائر، فإذا ذبح ما أتى به إلى هناك، أحذه من حضر من الغلمان ك: السواس والحمالة واليوافين وغلمان البساتين وأهل الأصطيل والقبالين.. وغيرهم ممن ينخرط في سلكتهم.<sup>(٥٩)</sup>

٣ . ٢ . العروض العسكرية والموسيقية: قبيل يوم الطهور بثلاثة أيام تبدأ بميدان الاحتفال، العروض العسكرية والموسيقية صباحا ومساء بحضور المدعوين ونسائهم وعامة الناس. ويشير الخزرجي في المناسبة المذكورة أعلاه، أنه في السادس من ذي القعدة أمر السلطان بركوب العساكر إلى ميدان ثعبات صباحا ومساء وبحضور الوزراء والأمراء ومختلف الولاة و سائر الجند من الخيل والرجل. فيجتمع الجميع صباحا ومساء في ميدان ثعبات أمام الدار السلطانية، حيث استمرت العروض وسط قرع الطبول وعزفت الأبنواق الموسيقية مدة ثلاثة أيام.<sup>(٦٠)</sup>

٣ . ٣ . مراسم يوم الطهور: يعتبر يوم الطهور هو اليوم المنتظر الذي أعد له ما يليق بمكانته في حياة الأسرة المالكة، فهو يوم اكتمال الفرحه وفيه تضرب الطبول وآلات الموسيقى مع استعراض لفرق من الجند واخيالة، وفيه يقدم المهتسون قمتصاهم للسلطان وأسرته، وفيه يقول الشعراء إبداعاتهم الشعرية التي نظموها بهذه المناسبة، وفيه يقدم ما أعد من الأسمطة المختلفة ، لأنواع المأكول والمشروب والطيب ، وفيه يخلع السلطان الخلع والألقاب والمنح والإقطاعات على الأمراء وكبار الحاضرين، وفيه ينعم السلطان على الجند والحاضرين على اختلاف طبقاتهم بالكسوة والأعطيات والصدقات الجزيلة.

وقد وصف الخزرجي المظاهر الاحتفالية في ذلك اليوم الذي حضره وهو يوم ظهور أبناء الأشرف إسماعيل الموافق يوم الخميس التاسع من ذي القعدة سنة ٧٩٤هـ بقوله: "... فحضر الناس على اختلاف طبقاتهم من الوزراء والأمراء والمقطعين والمشدين وكتاب الدواوين والقضاة والفقهاء وكبراء أهل الوقت .. ودخل الجميع سباطا قد أتقنته طهاته وتناسقت في الحسن جهاته، لم يرالواون أعظم منه، بعد أن أفضت الخلع الملوكية



والشائعات المذهبية وكسي الحاضرون على اختلاف حالاتهم وتباين طبقاتهم من غلمان السلطان خاصة، ثم عرجوا من مجلس السباط إلى مجلس الخلوى فأخذوا منه بحسب ما أرادوا ، ثم قاموا إلى سباط فيه من الخوز واللوز والزبيب والعب والسويا والفقاع والقسق والبندق وما أشبه ذلك شيء كثير، ثم قاموا إلى مجلس الطيب فاستعملوا منه شيئا كثيرا من المسك والعنبر والماورد والشند والغالية. وكان يوما مشهودا لم يكن في الدهر مثله. <sup>(٦١)</sup> وفيه قدم الأدباء والشعراء والفقهاء والقضاة والأمراء عدد من القصائد بين يدي السلطان أنشأوها لهذه المناسبة.. وهي كثيرة بحيث يقول الخزرجي: " ولم يمكنني إثبات قصيدة أحد دون الآخر وفي إثبات جميعهم تطويل وملل " غير أنه - الخزرجي قد اكتفى بإثبات قصيدته التي قالها في تلك المناسبة، ومن مطلعها:

هب النسيم معنير النفحات      وشدا الحمام بأطيب النغمات  
وتصوع اليمن الخصب بأسره      بالطيب من عدن إلى عرفات  
وتألق البرق الكليل فأشرقست      أنواره في حنوس الظلمات  
فرحا بتطهير الملوك الأكرمين      الأعظمين الجلة السادات  
أسد الحروب إذا الرماح تشاجرت      يوم الرغى وأهله الجلمات  
أولاد مولانا ومالك عصرنا      قمر الخلافة صادق العزمات  
الأشرف بن الأفضل بن علي      بن داود بن يوسف قسور الغابات

وهي تزيد عن ثلاثين بيتا قال عنها: " ... قلنتها يومئذ وأنا أعلم أنها دون كل ما قيل ولكن لحأت الضرورة إليها" <sup>(٦٢)</sup> وقد أجاز السلطان في اليوم التالي جماعة الشعراء وغيرهم ذهابا وفضة. <sup>(٦٣)</sup>

وهذا النموذج الاحتفالي الذي بسط الخزرجي في وصفه، قد يكون مشابها لبقية حفلات الطهور التي أحل الحديث عنها. فقد وصف حفل ختان أبناء السلطان الناصر أحمد، الذي أقيم في مدينة زبيد - العاصمة الثانية لدولة بني رسول - في شهر شعبان سنة ٨٠٨هـ ، بالفرحة العظيمة تصدق فيه السلطان على كافة غلمانه وأنعم على كافة العسكر. <sup>(٦٤)</sup>

الخاتمة: نخلص مما سبق عرضنا عن مظاهر الاحتفال بظهور أبناء سلاطين بني رسول في اليمن إلى ما يلي:

١- كان إجراء الظهور يتم في الغالب في مراحل متأخرة من مراحل الصبا في حياة الأبناء، وكان يتم- في الغالب- لأكثر من ابن في مناسبة واحدة. وهذه ظاهرة تفرد بها بنو رسول عما هو سائد في معظم الأسر والبيئات اليمنية التي تجرى الحتان في الأيام الأولى من حياة الأبناء.

٢- كان الظهور يجري وسط مظاهر احتفالية كبيرة قد تستمر إلى عدة أشهر، ابتداء من الإعداد والتجهيز - والتي قد تسبق يوم الاحتفال الأكبر وهو يوم الظهور بمدة تصل إلى أكثر من شهر في بعض المناسبات- وانتهاءً بآخر المراحل الاحتفالية بمناسبة شفاء موضع الحتن. أما ما جاء من وصف لمراسيم الاحتفال... من عروض عسكرية وموسيقية والعباب وأغاني وأهازيج وما تخللها مما أعد من صنوف متنوعة من المأكولات والمشروبات والطيب ونحوه، وما صاحب ذلك من مما أعده الشعراء من القصائد وما أنعم به السلاطين والأمراء من الخلع والمناصب والعطايا والصدقات.

٣- تدل تلك المظاهر الاحتفالية عما كانت تعنيه هذه المناسبة لدى السلاطين والأمراء من أهمية احتفاء وابتهاجا ياتيان إحدى سنن الشريعة الطاهرة، كما تنبئ في الوقت ذاته عن حالات الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي كانت تعيشه هذه الدولة في كثير من الأوقات.

٤- تشابه هذه المظاهر الاحتفالية مع المظاهر الاحتفالية ذاتها التي أجراها سلاطين المماليك في مصر، الأمر الذي يدلنا على عمق التأثيرات الحضارية المملوكية في السواحي الحضارية المختلفة لبني رسول في اليمن.

٥- يوصي الباحث بالتركيز على دراسة مثل هذه المظاهر الحضارية في حياة المجتمعات والشعوب الإسلامية عبر مختلف الحقب التاريخية؛ لما لذلك من أهمية في توثيق تراث وثقافات وعادات المجتمعات الإسلامية، واستلهام الأبعاد التاريخية والحضارية المختلفة الجوانب، حتى نكتمل الصورة التاريخية الحضارية لتلك المجتمعات..

## الهوامش

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين: تحفة المودود بأحكام المولود. ط١. تحقيق: أحمد سليمان. دار ابن رجب .  
المنصورة. مصر. ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م. ص ١٩٥.

(٢) ابن قيم الجوزية: المصدر السابق. ١٩٥، الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح  
مطبعة الخليلي. القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م. ص ١٨٨، عنوان، عبد الله ناصح: تربية الأولاد  
في الإسلام. ط٢. (٥. م) ج ١/١٠٧.

(٣) ابن الجوزية: تحفة المودود ١٩٧.

(٤) الزحيلي، وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته. دار الفكر. ط٢. بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م. ج ١/٣٠٦.

(٥) الزحيلي: المرجع السابق ١/٣٠٦.

(٦) ابن قيم الجوزية: المرجع السابق ١٩٦.

(٧) الشعراوي، محمد متولي. تربية الأولاد في الإسلام. المكتبة الوقفية. القاهرة. ٢٠٠٤م. ص ١٨٢.

(٨) أورد موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على شبكة الانترنت معلومات عن فرضية الحتان ومراسم الاحتفال  
به عند اليهود كما يلي: جاء الحتان ليكون مفهوما بأنه علامة العهد الذي بين الله وبنى إسرائيل  
منذ قصة إبراهيم في سفر التكوين.. لم تفسر الديانة اليهودية سبب كون الحتان علامة العهد الرباني  
فوق ما جاء في سفر التكوين من المثال والأمر التوجه إلى إبراهيم. وينطبق فقط على الوليد الذكر...  
تفرض العجوة حتان كل الذكور في اليوم الثامن من ولادتهم ( التكوين ١٧: ١ - ٤، اللاويون ١٢:  
٣) لكن حتى وليد الأم اليهودية غير المخصن نادرا ما يعتبر يهوديا مع ذلك.. تقع فريضة الحتان على  
الأب إلا أنه ييب عنه عادة حينما يلقبهم بذلك يسمى "موهيل" (المطهر) ويتم حفل الحتان في  
اليوم الثامن من الولادة إلا إذا كانت الظروف الصحية للوليد لا تسمح بذلك. ففريضة الحتان تسخ  
حتى أمر الالتزام بالنسب، وبالتالي قد يتم القيام بحفل الحتان في السبت أو العيد... يسمى حفل  
الحتان بالعبري "بريت ميلاد" يعني "عهد الحتان". إن حفل الحتان مناسبة مبهجة وسارة تجلب  
حشودا من الأهل والأصدقاء إلى منزل أهل الطفل. وما أن المشاركة في طقس الحتان شرف فإنه يتم  
تعيين ذوي القرابة جدا لحمل الطفل في أثناء الاحتفال الذي يشمل علبى القراءات والصلوات  
بالإضافة إلى العملية الطبية التي يتم بعدها تناول مادة دسمة وسعيدة... إن حفلة "بريت" تشكل  
مناسبة إعلان اسم المولود ويمكن اختيار أي اسم لكن جرت العادة على تسمية الأطفال باسماء  
الأقرباء في الأسرة

<sup>(٩٠)</sup> انظر مناقشة ذلك لدى: ابن قيم الجوزية: تحفة المودود ٢٣٣-٢٣٥، سويد، محمد نور بن عبد الحفيظ: منهج التربية النبوية للطفل مع نماذج تطبيقية من حياة السلف الصالح، مكتبة انصار الإسلامية، الكويت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ص ٦٩.

<sup>(٩١)</sup> انظر: علوان: تربية الأولاد ١ / ١٠٧-١١٠.

<sup>(٩٢)</sup> يقول الإمام الشعراوي (تربية الأولاد في الإسلام ١٨٥): "إن معنى الفطرة في هذا الحديث تتمثل في مجموع ما ورد من أن الفطرة هي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء وانفقت عليها الشرايع، فكانوا أمر جلي ينظرون عليه... وقال الشوكاني في ليل الأوعار: إن تصور السنة بالفطرة لا يراد به السنة الاصطلاحية المقابلة للفرض والواجب والمنلوب، وإنما يراد بها الطريقة، أي طريقة الإسلام، لأن لفظ السنة على لسان الشارع أعم من السنة في اصطلاح الأصوليين".

<sup>(٩٣)</sup> أورده البخاري في كتاب التيمم باب قص الشارب وتقليم الأظفار، وأورده مسلم في كتاب الطهارة.

<sup>(٩٤)</sup> انظر تصوص الحديث في ذلك في صحيح البخاري / كتاب الاستئذان / باب الحن بعد الكسر ونسف الإبط. وكتاب الأتساء / باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، وصحيح مسلم / كتاب الفضائل / باب من فضائل إبراهيم عليه السلام.

<sup>(٩٥)</sup> الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١ / ٣٠٦.

<sup>(٩٦)</sup> الشعراوي: تربية الأولاد ١٨٢ وما بعدها.

<sup>(٩٧)</sup> الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١ / ٣٠٦.

<sup>(٩٨)</sup> ابن قيم الجوزية: تحفة المودود ٢٠٩ وما بعدها.

<sup>(٩٩)</sup> الشعراوي: تربية الأولاد ١٨٥.

<sup>(١٠٠)</sup> ابن قيم الجوزية: تحفة المودود ٢٠٩.

<sup>(١٠١)</sup> الشعراوي: تربية الأولاد... ١٨٦.

<sup>(١٠٢)</sup> الحنفي، محمد بن محمود الأسروشي: جامع أحكام الصغار، تحقيق: أي مصعب البديري، محمود عبد الرحمن عبد النعم، دار النهضة، القاهرة، ١٩٩٤م. ١ / ٢١٢.

<sup>(١٠٣)</sup> الشعراوي: تربية الأولاد ١٨٩.

<sup>(١٠٤)</sup> الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١ / ٣٠٦، سويد: منهج التربية النبوية... ٨٦.

<sup>(١٠٥)</sup> الشعراوي: تربية الأولاد ١٨٨.

(٢٥) ابن قيم الجوزية: تحفة المودود... ١٢٣٠ سويد: منهج التربية النبوية ٨٦، غير أن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلي على شبكة الانترنت، أورد بأن الحتان فرض على كل الذكور في اليوم الثامن من ولادتهم.

(٢٦) الشعراوي: تربية الأولاد... ١٨٩.

(٢٧) علوان: تربية الأولاد... ١ / ١١٤، باحارث، عدنان حسن صالح: مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة. دار المجتمع. (٥. م) ص ٦٢.

(٢٨) ابن قيم الجوزية: تحفة المودود... ٢٤٨ الشعراوي: تربية الأولاد... ١٩١.

(٢٩) علوان: تربية الأولاد... ١ / ١١٤ - ١١٦.

(٣٠) حول المزيد عن تلك الفوائد والحكم من تشريع الحتان في حياة البشر، أنظر. الشعراوي. تربية الأولاد ١٦٨، علوان: تربية الأولاد ١ / ١١٤ - ١١٦. ومن الفوائد الصحية للحتان لتبس هذا المقطع من مقال منشور على شبكة الانترنت: \* من وجهة النظر الطبية فإن الحتان يحول دون تراكم مادة غدية أشد، حنية القوام، كرهية الرائحة تورث المرء حيقاً شديداً. و مما بلغت النظر أن الهندوس - و هم لا يتحشون - يصابون بسرطان القضيب أكثر مما يصاب به المسلمون في الهند. والجلدير بالذكر أن الحتان يمارس اليوم في كثير من أنحاء العالم الغربي - بعيداً عن المعتادات الدينية - كإجراء وقائي من كثير من الأمراض نظراً لما له من آثار صحية رغم أن الأطباء هناك كانوا يناهضون فكرة إجراء الحتان بشدة سابقاً. وقد أكدت مقالة نشرت في مجلة: Postgraduate Medicine أن مليون طفل أمريكي يمتن الآن كل عام في أمريكا، كما تؤكد دراسات أخرى بأن ٦٠ - ٨٠% من المتولدين الذكور في أمريكا يتحشون. هذا وإن هناك العشرات من التقارير الطبية التي أثبتت أهميتها ضرورة إجراء عملية الحتان كإجراء احترازي بالنسبة إلى الكثير من الأمراض والتي منها: ١. الهريس التناسلي Genital Herpes. ٢. السيلان Gonorrhoea. ٣. الزهري Syphilis. كما أكدت الدراسات العلمية الحديثة انخفاض حدوث مرض الإيدز عند المحتشين. ويعرف البروفسور ويتويل بموقفه العدائي تجاه الاعتنان ويقول: \* لقد كنت من أشد الناس عداءً للحتان، وقد شاركت حينئذ في الجهود التي بذلها الأطباء آنذاك للإقلال من نسبة الحتان، ولكن الدراسات العلمية التي ظهرت في الثمانينات أظهرت بغير ازدياد في نسبة الالتهابات الولية عند الأطفال غير المحتشين، و ما ينطوي عليه من خطر حدوث التهاب مزمن في الكلى وفشل كلوي في المستقبل و بعد إجراء المزيد من الأبحاث، و إجراء تحييص دقيق لكل الدراسات العلمية التي أجريت في هذا المجال، وصلت إلى نتيجة مخالفة تماماً، و أصبحت من أشد أنصار الحتان، و أثبتت أن الحسان ينهسي أن يصبح أمرا روتينيا عند كل مولود \*





(٣٧) ابن حجر الملقب: إنباء المعر ١/١٠٣، ٣/١١٩، ٥١١.

(٣٨) عن الثأنات المملوكية في دولة بني رسول - انظر: ابن فضل الله العمري- مسائل الأبهار ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٤، ٥٥، ٥٦، الفلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صحح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (د.ت)، ٣٥/٥، المقرئزي، الخطط ٣/٢٢، ٧١-١، ابن حجر: إنباء المعر ١/١٠٣، عليان، محمد عبد الفتاح - الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدولة الرسولية. رسالة دكتوراه-جامعة القاهرة. ١٩٧٣م، ٣٩، وما بعدها، حاد، أسامة أحمد. مظاهر الحضارة في اليمن في عصر دولتي بني أيوب وبني رسول. رسالة دكتوراه جامعة الإسكندرية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ص ٣٠ وما بعدها، الحشي، عبد الله محمد: حياة الأدب اليمني في عهد بني رسول. ط ٢. وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء ١٩٨٠م، ص ٢٧ وما بعدها، خليفة، ربيع حامد: الفنون الإسلامية في عهد الدولة الرسولية، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، العدد ٨ سنة ١٩٨٨م ص ١٤-١٦.

(٣٩) نُح بعض الشعراء الذين تقوا قصائد في مثل تلك المناسبات منهم الشاعر إسماعيل بن المقري إلى هذا التأخير في إجراء ختان أبناء بني رسول، انظر: أبو زيد، طه أحمد. إسماعيل المقري حياته وشعره. ط ١. مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ص ٢٧٨.

(٤٠) يذكر الحضرمي في كتابه (تقامة في التاريخ) إلى هذه المناسبة في المجتمع اليمني في تامة بقوله: \* بعد أن يمتحن على المولود ثمانية أيام يدعى المزمين إذا كان ذكرا- أو المزمينة إذا كانت أنثى- لإجراء عملية الجراحة بنظافة. ويذبح كبش أو كبشان أو ثلاثة ويوزع على الفقراء واللاجوار أو يقام وليمة بمناسبة الختان. ويدعى الأهل للفتور ويعطى للأطفال في إناء صغير غسل كل طفل يلقن منه ياصعه وهو يقول فرحا: حالي حالي قطعوا زب خالي. وهذه التمامة للكباش أكثر ما تستعمل للكباش أو للأغنياء \* الحضرمي، عبد الرحمن عبد الله. تامة في التاريخ. ط ١. المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية. صنعاء ٢٠٠٥م ص ٣٩٠. و حول تأخر الختان عند بعض القبائل يشير الدكتور طه أبو زيد في كتابه: إسماعيل المقري ص ٢٧٨، ٢٧٩ هامش ٣، إلى ذلك بقوله: \* هنالك بعض الأسر اليمنية في بعض المناطق لا يكتنون الصبي إلا في مرحلة الصبا وربما بعد البلوغ عند بعض القبائل بل في موعد الخطوبة للزواج، ففي بعض القبائل يحن الشاب عند الخطبة وعند مباشرة عملية الختان ينصب إلى آخر جد ولا يدي التوجع من ألم العملية التي تجري بالمواس العادية فإذا أظهر توجعه رفضت الخطبة من جهة أولياء الخطبة الذين يحضرون مندوبهم وأظن أن هذه العادة تلاشت بعد قيام الثورة تماما \*.

(٤١) الحزرجي: العقود ١/ ٢١٦.

(٤٢) الحزرجي: العقود ٢/ ١١٥.

(٤٦) الخورجي: العسجد الخورجي، موفق الدين علي بن الحسن: العسجد النبوك قمين ولي اليمن من النبوك ط ٢. نسخة مصورة بالأولست. وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ٤٦٩.

(٤٧) مجهول. تاريخ الدولة الرسولية في اليمن. تحقيق: عبد الله محمد الحشبي، مطبعة الكتاب العربي، دمشق، دار الجبل، صنعاء ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ص ١٤٣.

(٤٨) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي. الفضل الزيد على بغية المستيد في أخبار مدينة زيد، تحقيق يوسف شلج، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء ١٩٨٣م ص ١١١، ١١٢، مجهول. تاريخ الدولة الرسولية ٢٧٨.

(٤٩) هو السلطان الأشرف إسماعيل بن الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل. وقد آتت إليه السلطة بعد وفاة أخيه السلطان المنصور عبد الله، بتدبير من النساء والأعيان رغم صغر سنه. إذ تولى سنة الحكم وهو صبي لم يبلن بعد، فحكم مدة سنة وشهرين إلى أن قبض عليه عنه الظاهر بمبي الذي نصب للملك من بعده (حكم من سنة ٨٣١ - ٨٤٢هـ)، وأودعته في السجن بخصن المملوكة مع مجموعة من النساء من بينهن والدته سنة ٨٣١هـ إلى أن مات في سجنه. انظر: ابن الديبع، قرعة العود بأخبار اليمن اليمنيون، ط ٢. تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، (٥، ٢) م. ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ص ١٣٩٣ ابن حجر العسقلاني: إنباء العبر بانباء العمر ٤٠١ / ٣.

(٥٠) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية ٢٢٠.

(٥١) ابن حجر العسقلاني: إنباء ١٤ / ٢، ١٤ / ٣، ٥١١.

(٥٢) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية ٢٢٠.

(٥٣) أبو زيد: إسماعيل بن المقرئ ٢٧٨هـ ص ٢.

(٥٤) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية ٢٢٠.

(٥٥) حول ترجمته وإنتاجه العلمي انظر: الربيعي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن: طبقات صلحاء اليمن، تحقيق: عبد الله محمد الحشبي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، (٥، ٢) ص ٢٩٠-٢٩١، العمري، حسين بن عبد الله، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المعاصر: دمشق، ص ٥٩.

(٥٦) جاء في كتاب: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ص ١١٥. أن حفلة الطهور أجريت نهار الخميس ٢٣ شهر شوال من السنة ذاتها. ويندو أن هذا التاريخ هو تاريخ وصول الوفود المدعوة إليها، أما التاريخ الحقيقي ليوم الطهور فهو الذي لبته الخورجي كونه كان حاضرا ذلك الاحتفال.

(٥٧) الخورجي: العقود ٢ / ١٩٤ - ١٩٥.

- (٥٥) الخرجي: المسجد ٤٦٩ - ٤٧٠، العقود ٢ / ١٩٤ - ١٩٥.
- (٥٦) الخرجي: المسجد ٤٧٠، العقود ٢ / ١٩٥.
- (٥٧) الخرجي: المسجد ٤٧٠.
- (٥٨) ثعبات إحدى ضواحي مدينة تعز عاصمة دولة بني رسول، وفيها تقع قصور الدولة وتواريتها وقصور  
السلامين وكمبار الأمراء والقادة التي تحف بها الحدائق والمتنزهات.
- (٥٩) المسجد ٤٧١.
- (٦٠) المصدر السابق ٤٧١.
- (٦١) المسجد ٤٧١.
- (٦٢) العقود ٢ / ١٩٧.
- (٦٣) المسجد ٤٧٣.
- (٦٤) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ١٤٣.
- (٦٥) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ٢٢٠.
- (٦٦) المصدر السابق ٢٢٠.
- (٦٧) المصدر السابق ٢٢٠ - ٢٢١.
- (٦٨) ابن الديبع: الفضل المزيه ١١١، ١١٢. : مجهول. تاريخ الدولة الرسولية ٢٧٩.
- (٦٩) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية ٢٧٩.
- (٧٠) المصدر السابق ٢٧٩.
- (٧١) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية ١١٦.
- (٧٢) الخرجي: العقود ٢ / ٢٠٠.
- (٧٣) الخرجي: المسجد ٤٧٤.

أ.د. حياة ناصر الحجى \*

## بعض ملامح الأحوال الداخلية

في عهد السلطان قايتباي

٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م

دراسة وثائقية

مقدمة - أولاً: الفئات البشرية: ١- الأشراف قايتباي ٢- كبار الإداريين ٣- أولاد الناصر ٤- القضاة ٥- العامة ٦- العربان  
ثانياً: الأعيان المالية: ١- تكلفة الأخطار الخارجية ٢- الفتن الداخلية ٣- جمع الأموال ثالثاً: المعاناة الاجتماعية: ١- الصادرات - ٢- ضرب الفلوس ٣- الطاعون وأبعثاً: الوقت والتعمير: ١- الأوقاف ٢- الإنشاءات العمرانية خامساً: النتائج -المراتط - الهوامش- المصادر والمراجع.

### مقدمة :

الماليك ... مجموعة بشرية أجنبية بيضاء ... وصلت إلى الأراضي العربية بطريق الشراء أو الأسر حيث اعتنق أفرادها الماليك الإسلام ... فأصبحوا مسلمين ... وأهلهم التدريب العسكري لتولى مسئوليات الدفاع عن الإسلام والأراضي العربية ضد الصليبيين والتمتار والتركمان ، فاستبسلوا ، وتفوقوا ، وحققوا الانتصارات الحائلة ... ثم هبأت لهم الأحوال الصعبة التي عاشتها البقاع العربية تحت السيطرة الصليبية والتهديدات التنارية فرصة الوصول إلى السلطة.

---

\* أستاذة تاريخ العصور الوسطى - جامعة الكويت

وقد كانت مبادئ الإسلام في المساواة والعدالة والإنصاف والحرية بين جميع المسلمين مع التجاوز الكامل والمطلق لفوارق الأصل والنسب والمال دعامة رئيسية قوية في توليهم مقاليد الحكم في مصر وبلاد الشام والحجاز . وعلى كرسى السلطة عمل المماليك على تحقيق الهدف الذي المهم لذلك الوضع وهو الشرعية التي تهبأت لهم من خلال إحياء الخلافة العباسية ، والجهاد الإسلامي ضد الأخطار الأجنبية . ثم بعد ذلك حرص المماليك على إحراز أهداف دولية تحقق لسلطنة المماليك الرفعة والرخاء ، ولكن هذه الأهداف الدولية لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال إطار تام وشامل من الشعبية أو التأييد من سكان مصر والشام والحجاز ... وقد تحققت لهم هذه الشعبية الواسعة التي طمحوها لها وعملوا من أجلها من خلال تلك المؤسسات العظيمة التي تظهر واضحة في الجوامع والمساجد والمدارس والأربطة والزوايا والخانقاهات في المجالات الدينية والعلمية والاجتماعية ، ومن خلال الوكالات والخانات والقياساريات في النشاط التجاري ، ومن خلال السدود والجسور والقنوات والترح في الحقل الزراعي .

وعندما تحقق للمماليك إطار الشرعية والقاعدة الشعبية بذوا العمل في الوصول إلى الأهداف الدولية المتبقية ... وكان العمل ثنائياً مشتركاً ... المماليك كهيئة حاكمة وأيديهم جميع مقاليد الحكم والحرب ، والشعب كقاعدة مساندة ومزينة يمثلها القائسون على تطبيق حيثيات الشرع الشريف وهم كبار القضاة والعلماء في مصر والشام والحجاز . وعندما انصهر هذا الثنائي الحاكم والشرعي في بوتقة الإسلام كلمة عملاً ومقصدًا ... تحققت الأهداف الدولية المأمولة في تيوأ سلطنة المماليك مكانة عالية بين ممالك العالم المعاصر آنذاك ... وقصدتها سفراً ، مختلف البلاد في الشرق والغرب ... المسلمة والمسيحية ... من أجل بناء علاقات دبلوماسية تقوى أواصر الاحتكاك والتعامل في جميع المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية.

كذلك حققت سلطنة المماليك هدف عقد الاتفاقيات الدولية مع تلك الدول ، فتمتت بذلك الأمان للجياليات المسلمة في تلك المجتمعات المسيحية ، كما هيأت نشاطاً تجارياً واسعاً لشعوب مصر والشام والحجاز ، وأثمر هذا التبادل التجاري الشامل أرباحاً طائلة كان أثرها واضحاً في المنشآت الوقفية ، والإحجازات العمرانية ، والمؤسسات الاجتماعية في جميع مدن وقرى وضياع أقاليم مصر والشام والحجاز ، لقد كان الاقتصاد قوياً ، وبيت المال موقوراً . كما كان نشاط البيع والشراء في الأسواق المحلية في قمة الانتعاش والازدهار ، ونعمت

شعوب مصر والشام والحجاز بعوامل الاستقرار والأمان والرخاء... لقد اعتمد الماليك في بقائهم واستمرارهم على مبادئ الإسلام ، فنصرهم الإسلام ، وحقق لهم بقاء طويلاً تجاوز القرنين والنصف من الزمان .

إن الهدف من هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على بعض الجوانب المهمة في عهد حكم الأشرف قايتباي الذي جاءت فترة حكمه في العقود الأخيرة من تاريخ سلطنة الماليك . ترى لم هذه الحقبة بالذات ؟ السبب الأول أن المطلاع على هذا العهد - بقوته المثبتة في هيئة السلطان شخصية وعظماً وإنصافاً ، وتأزر المسؤولين فيه من الماليك وأهل البلاد ، وبضعفه الممثل في حرج مكانة سلطنة الماليك تاريخياً نتيجة تهديدات العثمانيين والتركمان والبربر - يجد نفسه أمام حيرة التساؤل وصعوبة التفسير وبالتالي الرغبة الملحة في معرفة أسباب هذا التباين ، والعوامل المؤثرة في ظهور هذه الصورة غير الطبيعية التي تجمع بين جوانبها الكثير من التناقضات في الظواهر مع التباين الحاد في الحوادث .

وهذه الدائرة الواسعة من الحيرة والتساؤل تدفع الباحث بقوة لمعرفة أسباب هذه التناقضات ، عوامل ثمرها ونتائج تصادمها ... فعلى سبيل أمثال يلاحظ أن الشراء الفاحش لدى كبار المسؤولين والصرف غير المحدود على أعداد العسكر بتناقض تاماً مع معاناة الناس من غلاء مختلف أنواع البضائع في أغلب سنوات هذه الحقبة . كذلك كانت معاناة سلطنة الماليك من التهديدات العثمانية والتركمانية تناقض تاماً استهانة الماليك الجلبان بالمصلحة العامة وضرورة الدفاع عن البلاد وبذل النفس والنفس والاهتمام فقط بأخذ الرواتب من السلطان ومبالغ كبيرة . كما إن العلاقات الحسنة التي ربطت الأشرف قايتباي بالناس وطبقة العظماء تباين تاماً مع عدم رضوخ فئات البربر لحكم الماليك الذين حاولوا بالدبلوماسية والقوة معاً إرساء عوامل الاستقرار في تلك الأقاليم المتسردة ... كل هذا وغيره يجعل المرء - بمن النظر ويركز الفكر في حقبة غير عادية من التناقضات في عصر تميز بالقوة العسكرية والسياسية والاقتصادية ومع ذلك سقطت دولته بعد عقدين أمام بنادق العثمانيين .

والباحث في هذه الحقبة يخرج بنتيجة واضحة هي أن دولة الماليك في عهد الأشرف قايتباي كانت دولة قوية محصنة بعسكر مدرب ، وثراء فاحش ، وطبقة من كبار علماء العصر ومع ذلك كانت معاناتها من الأخطار الخارجية الكثيفة وبسرعة غير محدودة مع اهتمام طبقة الماليك السلطانية فيها بالمصالح الخاصة الآتية كات سبباً في انهيارها الداخلي ... حتى يمكن



القول إن سلطنة الماليك كان سقوطها سريعاً وبشكل يكاد يكون مفاجئاً وغير متوقع ... إنه السقوط الداخلي على الرغم من عوامل القوة التي سبق ذكرها والتمثلة في شخصية السلطان وطبقة العلماء، وإخلاص الناس وتأزدهم.

## أولاً : الفئات البشرية :

### ١- الأشرف قايتباي :

الأشرف قايتباي أبو النصر الظاهري المحمودي ، قدم إلى مصر مع التاجر محمود بن رستم<sup>(١١)</sup> سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م قنصب إليه وعُرف بالمحمودي. وأصبح من مماليك السلطان الظاهر جقمق [ ٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م ]<sup>(١٢)</sup> ثم أعتقه ، وصار خاصكياً<sup>(١٣)</sup> ثم دواداراً ثم صار أتايكاً «مقدم العسكر» في سلطنة الظاهر ثم بغا [ ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ]<sup>(١٤)</sup> حيث اتفق الأمراء الماليك على توليته السلطنة سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م .

وعرف الأشرف قايتباي بالثبات على الرأي مع العزم والتصميم على تنفيذ ما يعتقد فيه علم وصلاح . كما كان حاسماً قاطعاً في آرائه مما جعل له هبة كبيرة بين معاصريه . وكان متديناً ورعاً متعبداً . وأحب قراءة كتب العلم وسير الملوك والخلفاء ، إلى جانب رغبته الشديدة في المعرفة وكثرة أسئلته للقضاة عن كثير من الأمور . كما كان فارساً شجاعاً ، ومجاهداً جسوراً . وكان يحب جمع المال بالوسائل المشروعة مع كراهيته للارتشاء . وألقى بعض الضرائب تخفيفاً عن الرعية . وقرر أن يعتزل السلطنة أكثر من مرة ولكنه كان يرجع عن قراره تحت إلحاح الأمراء .

كذلك كان الأشرف قايتباي حريصاً على زيارة مختلف المدن والشعور حرصاً على تفقد أمورها وأمور الرعية فيها مثل القدس والخليل ودمياط والإسكندرية ورشيد وإدكو وغيرها من مدن وثغور مصر والشام . وله إسهامات كبيرة في عمارة الأماكن المقدسة في المدينة ومكة في مسجد الحنيفة ، ومسجد نمر ، وبركة خليص وبشر زمزم . كما أنشأ بجانب المسجد الحرام عند باب السلام مدرسة وبجانبها رباط للفقراء - وسبيل ماء . كذلك أنشأ مدرسة بالمدينة المنورة ، ومدارس أخرى بالقدس .

وعمر عدداً كبيراً من المباني الجميلة في القلعة مثل إيوان القلعة والقصر الجديد المطل على القسراقة<sup>(١٥)</sup> . كما بنى جامعاً بجزيرة الروضة ، وجامعاً بقلعة الكيش ، وجامعاً بالناصرية . كذلك أنشأ قناطرًا وجسوراً كثيرة في الأقاليم ، وأوقف الأوقاف الجليلة على عثمانه ، بالإضافة

إلى ذلك أنشأ مدرسة وتربة عرفتا باسمه في الصحراء خارج القاهرة. وقد دام حكمه تسعة وعشرين عاما ، وتوفي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م<sup>(٩٦)</sup>.

وعندما بويح الأشرف قايتباي بالسلطنة سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م أراد الأمراء أن يغيظوا عليه شعار الملك « فتمنع من ذلك وكفى ، فألبسوه ذلك الشعار غصبا ، وهو يتمتع غاية الامتناع »<sup>(٩٧)</sup> ، وهذا يدل على عدم رغبته في الحكم والسلطة. وقد كان الأشرف قايتباي شديدا في تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ولذا كان لا يتوانى عن ضرب كل من يقدم على شرب الخمر من المماليك مهما بلغت صلته به<sup>(٩٨)</sup>.

كذلك كان الأشرف قايتباي كثير الخروج على ظهر فرسه من القلعة سواء في الليل أو النهار ، متفقدا الأحوال خارج القلعة . وكان خروج السلاطين في الماضي من الأمور النادرة<sup>(٩٩)</sup> ، وإن حدث فإن ذلك يكون علنا وبرفقة كبيرة ، ولكن الأشرف قايتباي كان حريصا على الخروج مع قلة قليلة من المرافقين ، واعتاد سلوك الطرق الضيقة دون الطرق المزدحمة ، بل كثيرا ما تجول متنكرا في الأسواق بين عامة الناس كي يتعرف على أحوالهم عن قرب ويشكل مباشر.

كما كان الأشرف قايتباي دائم التنقل بين أقاليم مصر والشام<sup>(١٠٠)</sup> ، وحتى في الأوقات التي كانت الأحوال فيها في القلعة تسمى بتدبير المؤامرات ووقوع الفتن كان لا يتردد في الرحيل إلى الأماكن التي رتب لزيارتها<sup>(١٠١)</sup> . ويصعب تعليل أسباب هذا الإتكال الكلي باستقرار الأوضاع لحكمه ، هل هو التوكل على الله سبحانه وتعالى في تنفيذ ما يراه واجبا من أعمال ؟ أم هي الشقة بأن الفئات القليلة من أصحاب الفتن أضعف من أن تقدم على اغتصاب السلطة ؟ . إلى جانب ذلك كان الأشرف قايتباي دائم التفقد لأتحاء البلاد للاطلاع على أحوالها وكيفية تدبير شئونها<sup>(١٠٢)</sup> ، حرصا على تأمين عوامل الاستقرار والرخاء في كافة أقاليمها ، وعلى سبيل المثال في سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م زار دمياط ورشيد وعدة من المناطق المجاورة لهما<sup>(١٠٣)</sup>.

وقد عمل الأشرف قايتباي في سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م على التخفيف من المركزية في معالجة المشاكل الشخصية للناس حيث أصدر قرارا بأنه لن ينظر في أية شكوى إلا إذا عجز أصحاب الاختصاص عن حلها<sup>(١٠٤)</sup> . وذلك لرجوع الخلق إليه في كل صغيرة وكبيرة ، ولكن يبدو أن هذا القرار كان فرصة لكبار المسئولين للتطاول على عامة الناس وأصحاب المصالح العامة فعاد وقرر في سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م أنه سيفتح سجله بومى السبت والثلاثاء.

للاستماع شخصياً إلى شكاوى عامة الناس. وقد كانت أكثر تلك الشكاوى ضد الأمراء والمباشرين والفضان «جامعى الضرائب»<sup>(١١٥)</sup>. وفى بعض الأحيان كان الأشرف قايتباى يصدر عفواً سلطانياً بالإفراج عن المسجونين من ذوى الجرائم الخفيفة كما حدث سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م<sup>(١١٦)</sup>.

وقد كان الأشرف قايتباى حريصاً على التعامل بالحق فعندما زار فى سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م مدينة المحلة وقف له جساعة من العامة وشكوا له سوء تصرف كاشف المحلة، فطلب منهم برهان أو دليل على ما يقولون حتى يتخذ الإجراءات اللازمة تجاهه، فلما ذكروا له أنه لا دليل لديهم أمر بعقوبتهم<sup>(١١٧)</sup>، وذلك - على الأرجح - متعاً للاقتراءات والادعاءات الكاذبة بين الناس من أجل ترسيخ قواعد الاستقرار. ومن جانب آخر كان الأشرف قايتباى كثير التصدق على الفقراء<sup>(١١٨)</sup>، ففي سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٧م تصدق بمبلغ ألف دينار للفقراء المقيمين بالجامع الأزهر<sup>(١١٩)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك زار الأشرف قايتباى فى سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م الإسكندرية وتفقد أحوالها، وتوجه إلى مكان المنار القديم بالشعر حيث أمر ببناء برج كبير فيه سيأتى ذكره. ثم توجه إلى إدكو ودمنهور وغيرهما من مناطق إقليم الغربية<sup>(١٢٠)</sup>. وفى محرم سنة ٨٨٣هـ / أبريل - نيسان سنة ١٤٧٨م ابتدأ بعمارة مدرسة الأشرف قايتباى فى المدينة المنورة<sup>(١٢١)</sup>.

وتعكس رحلة الأشرف قايتباى لأداء فريضة الحج سنة ٨٨٤هـ - ١٤٨٠م<sup>(١٢٢)</sup> الكثير من سمات شخصيته التى يجدر ذكرها فيما يلى :

- ١- الحرص على توصية الأتابكى أزيك الظاهرى<sup>(١٢٣)</sup> وبشيك الدوادار<sup>(١٢٤)</sup> «بحفظ الرعية»<sup>(١٢٥)</sup> مما يؤكد اهتمامه الكبير بأسباب راحة الرعية من الأمان والاستقرار.
- ٢- عدم اصطحاب أحد من كبار الأمراء فى رحلة الحج هذه، واقتصار المرافقون على قلة من صغار الأمراء والمماليك السلطانية وبعض المباشرين<sup>(١٢٦)</sup>.
- ٣- الخروج من القاهرة فى سرية مطلقة فلم يشعر أحد بخروجه، واتخذ طريقه بين التهرب حتى لا يراه أحد<sup>(١٢٧)</sup>. فلما كلف الرعية ما لا طاقة لها به من أسباب الاحتفال بتوابعه، ولا يصل الخبر إلى أى من أعداء السلطنة بعدم وجوده فى القاهرة فبهياً لهم بذلك فرصة التناول على أمن السلطنة.

٤- التصديق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار<sup>(٢٢٨)</sup>، ومثلها لفقراء المدينة المنورة . وهذه عادة السلاطين المماليك وكبار الأمراء عند قيامهم بأداء قريضة الحج .

٥- كان طول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس<sup>(٢٢٩)</sup>، ربما خشية الوقوع في الخطأ فيما يتعلق بحقوق الرعية في عدل الأحكام .

٦- فعل في الطريق أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف<sup>(٢٣٠)</sup> - ربما - نزولاً إلى الله تعالى وطلباً للرحمة والمغفرة .

٧- أكمل كافة مناسك الحج في « تواضع وخضوع إلى الغاية »<sup>(٢٣١)</sup> .

كذلك كان الأشرف قايتباي شديد الحرص عند القيام برحلاته المختلفة على أن يتم خروجه بشكل أقرب إلى السرية، فيذكر ابن إياس عن خروج الأشرف قايتباي سنة ٨٨٤هـ / ١٤٨٠م لأداء قريضة الحج : « ولم يشعر بسفره أحد من الناس، فخرج على حين غفلة »<sup>(٢٣٢)</sup> . بل كان حريصاً على أن يسلك في خروجه هذا من القاهرة الطرق الواقعة بين التراب حتى لا ينتبه إليه أحد<sup>(٢٣٣)</sup> .

وقد كان من كرم الأشرف قايتباي أنه عندما يتأكد من تورط شخصية مملوكية بتدبير فتنة ضده يبادر إلى نفي هذه الشخصية إلى مدينة بعيدة في السلطنة ذات طابع ديني مع الحرص على إعطاء هذه الشخصية المال اللازم للاستعداد لعملية الترحيل والنفي<sup>(٢٣٤)</sup>، فلانكون عرضة للمهانة ومد اليد للسؤال، كما لانكون مقصداً لشماتة الأعداء .

إلى جانب ذلك كان الأشرف قايتباي حريصاً على أن تحترم الممالك التي ارتبطت بمواثيق مع سلطنة المماليك<sup>(٢٣٥)</sup> نصوص وشروط تلك المواثيق . من ذلك مثلاً عندما تقاعس حاكم قبرص عن إرسال الجزية المقررة عليه، قرر الأشرف قايتباي سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٩م أن يرسل حملة عسكرية إلى قبرص لإجبار حاكمها على الالتزام بتنفيذ ما جاء في مواد الاتفاقات، إلا أن وصول الجزية المقررة حال دون رحيل الحملة نحو قبرص<sup>(٢٣٦)</sup> .

علاوة على ذلك اهتم الأشرف قايتباي اهتماماً كبيراً بعمل مقصورة من الحديد صنعها للحجرة الشريفة في الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة حيث تم صنعها سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م . وبلغ وزنها أربعمائة قنطار من الحديد تقريباً<sup>(٢٣٧)</sup> . وقد أرسل الأشرف قايتباي هذه المقصورة مع الحجاج برعاية الأمير شاد بك<sup>(٢٣٨)</sup> . ومعها مصحفاً كبيراً حصل على جبل بمفرده .

وكان من النوادر ، وقد كتبه شاهين النوري <sup>(٤٢٨)</sup> ، ومات ولم يكمله ، فأكمه الشيخ خطاب <sup>(٤٢٩)</sup> بأمر الأشرف قايتباي . ويذكر ابن إياس أن المصحف في أيامه كان محفوظا في الحجرة الشريفة <sup>(٤٣٠)</sup> . وكان الأشرف قايتباي شديد الحرص على توديع العسكر المتوجه للدفاع ضد الأخطار الخارجية ، كما كان يهتم في الانفراد بقائد الحملة من أجل أن يحمله توصياته الأخيرة في المهمة الموكولة إليه <sup>(٤٣١)</sup> .

واستمر الأشرف قايتباي يتصدق على الفقراء في كثير من المناسبات ففي سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م فرق الأشرف قايتباي ألف دينار على الفقراء عندما كان منقطعاً عن الإدارة المباشرة لشئون الحكم نتيجة كسر في رجله <sup>(٤٣٢)</sup> .

## ٢- كبار الإداريين :

تولى الأشرف قايتباي الحكم وسلطنة المماليك تعاني من أحوال سيئة ، فقد وقع في تلك السنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م « من الفتن والشور والأتكاد ما لا ينكاد أن يضبط ، وقتل فيها من الأمراء والعسكر ما لا يحصى » <sup>(٤٤١)</sup> . ومن اللافت للنظر بداية أنه كان بين الظاهر ترميغا وبين الأشرف قايتباي « أيمان غليظة بأنه لا يخدره ولا يتسلطن فلم تتم هذه الأيمان » <sup>(٤٤٢)</sup> . ترى ما هي الأسباب التي جعلت الأشرف قايتباي يبحث بأيمانه ويتسلطن وهو الذي عرف عنه التبدن والتنقي ؟ من معرفة شخصية الأشرف قايتباي يصعب قبول دوافع الطمع والرغبة في الحكم ، ويرجح أن الأشرف قايتباي بعد أن تبين له طمع بعض الأمراء في السلطنة أدرك خطورة تطور ذلك الوضع مع ضعف الظاهر ترميغا ، فوجد أنه من الأفضل بما يملك من خبرة وقدرات شخصية أن يسك زمام الأمور في سبيل خدمة المصلحة العامة ، مدركاً ببعده نظره حسن تقدير الظاهر ترميغا في عدم التزامه بالعهود التي قطعتها على نفسه نحو السلطنة .

بالإضافة إلى ذلك فإن حقيقة الوضع تبين أن اعتلاء الأشرف قايتباي كرسى السلطنة تم أثناء حيس الظاهر ترميغا وانفراد خاير بك <sup>(٤٤٣)</sup> بتدبير شئون السلطنة . ويؤكد هذا الوضع عدم قدرة الظاهر ترميغا على الانفراد بالحكم ، وفرض سيطرته على الأمراء والبلاد ، وقد انتهى عهد السلطان ترميغا بسجته وتولى خاير بك الظاهري زمام الأمور مما استوجب قيام الأشرف قايتباي بهذه الخطوة من أجل هدف إعادة الأمور إلى نصابها حرصاً على استقرار الأوضاع في سلطنة المماليك . وفي بداية سلطنته أمر الأشرف قايتباي بإخراج السلطان المعزول الظاهر ترميغا



يقا إلى ثغر دمياط، فخرج وهو في غاية العز والإكرام من غير قيود، وودعه الأشرف قايتباي واعتذر له عن توليه السلطنة بعد أن عجز قريبا عن تدبير أمورها وطمع فيها بعض الأمراء. مثل خاير بك الظاهري، بحيث حتم الوضع تولى الأشرف قايتباي مقاليد السلطة. وغادر الظاهر قريبا القاهرة في مركب جليل حيث استقر في دمياط مكرما (٤٧). وقد اشترط الأشرف قايتباي على العسكر قبل أن يلبس شعار الملك «أنه ما يتفق عليهم نفقة البيعة، فرضوا بذلك، فلما تسلطن لم يتفق على العسكر شيئا» (٤٨)، ولعل سبب عدم صرف النفقة هو حاجة البلاد وقتها إلى الأموال لأغراض الدفاع والتجهيزات العسكرية ضد الأعداء على الحدود الشمالية.

لقد كانت العلاقات الشخصية والتنافس بين الأمراء من الأمور التي طالما أقلقته الأشرف قايتباي حيث حرص دائما على الصلح بين الأمراء (٤٩) من أجل استتباب الأمور في الدولة. كما شهدت فترة حكم الأشرف قايتباي كثيرة محاولات إثارة الفتن التي كان يديرها الأمراء ذوي الأطماع في السلطنة (٥٠).

وقد كان الأشرف قايتباي دائم اللقاء بكمبار الإداريين في السلطة كي يستمع إلى المشاكل المزعجة لديهم والتي استعصى عليهم حلها دون الرجوع إليه، ويشمل ذلك اللقاء أيضا القضاة وكل ما يعرقل مسئولياتهم (٥١). وفي حالة وقوع شكوى في حق أي من هؤلاء كبار الإداريين أو القضاة فإن الأشرف قايتباي كان يستدعي المشتكى عليه كي يحقق معه بالموضوع (٥٢). كذلك نهج الأشرف قايتباي السياسة ذاتها مع نظار الدولة، ففي ذي القعدة سنة ٨٩١هـ / نوفمبر - تشرين الثاني سنة ١٤٨٦م عزل قاسم بن شغيثه (٥٣) عن الوزارة ونظر الدولة، ووضعه تحت الحراسة حتى يقدم تقريرا ماليا مفصلا عما كان مسئولاً عنه من أمور مختلفة. وعين عوضه في نظر الدولة موفق الدين بن القمص الأسلمي (٥٤).

وفي بعض الأحيان عند شكوى بعض العامة من تصرف بعض الإداريين، وتأكد الأشرف قايتباي من صحة الشكوى فإنه يأمر فوراً بضرب ذلك الإداري بالعصى (٥٥). فحدث في سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م عندما اشتكى شخص يبيع القراء بأن ناظر الخاص (٥٦) تاج الدين عبدالله بن نصر الله المقسى (٥٧) قد أخذ منه عدة أصناف من القراء ولم يدفع ثمنها، فلما تأكد الأشرف قايتباي من هذه الشكوى عزل ناظر الخاص المقسى هذا، وولى بدلا عنه كاتب السر (٥٨). ابن مزهر الأنصاري الشافعي (٥٩) بعد أن أخذ حق البائع من المقسى (٦٠). بل إن



فترة قدم البريد من عند الأشرف قايتباي بخير الأمراء الذين بالقاهرة أنه توجه « إلى نحو البلاد الشامية ليكشف على أمر النواب والقلاع بنفسه »<sup>١٧٢١</sup>. كما كتب للأمراء أن « يتوضوا بأحوال الرعية والجنود، وأن يحضروا تفرقة الجوامك<sup>١٧٢٢</sup> ما دام السلطان غائبا »<sup>١٧٢٤</sup>. وهذا كله يؤكد حرص الأشرف قايتباي على تفقد أحوال النواب في النيابات الشامية، ومستوى التحصينات الدفاعية في الحصون والقلاع الشامية لتأمين جبهة الحدود الشمالية التي تحيط أخطار التركمان والعثمانيين والروم. كما إن حرصه على عدم الخروج بعسكر كبير حتى لا يظهر أمام أولئك الجيران المتريبين بسلطنة المماليك بمظهر الخارج للقتال والحرب، وإنما خرج في رفقة صغيرة من المماليك، وعدد قليل من الأمراء لهدف الاطلاع والاستكشاف لأحوال البلاد. ومن جانب آخر كان الأشرف قايتباي حريصا على عدم تأخر روانب الجند فأرسل للأمراء مؤكدا ضرورة الوفاء بها بحضورهم، كما أنه لم ينس الرعية فأوصاهم بها خيرا.

ولاشك إن هذا الإحساس بالمسئولية عند الحاكم نحو الواجبات العسكرية من ناحية، وحقوق الرعية من ناحية أخرى، من أسباب استقرار الأوضاع الداخلية في مصر حينذاك، فيذكر ابن إياس أنه « في غيبة السلطان لم يقع الخلف بين الأمراء، بل كان الأمان والاطمئنان في القاهرة وجميع ضواحيها، حتى عند ذلك من النوادر »<sup>١٧٤١</sup>. ووصل الأشرف قايتباي إلى طرابلس ثم حلب، ولبل أن يواصل السير نحو الفرات أرسل إلى الأمير أزيك الظاهري في القاهرة بأمره أن يلبس الأمراء الصوف، ويصرف الكسوة للجنود، وقد نفذ الأمير أزيك الظاهري أمر الأشرف قايتباي بحضور كافة الأمراء والعسكر<sup>١٧٦١</sup>. لقد أراد الأشرف قايتباي أن تسيير الأمور في القاهرة كما لو كان موجودا، فلا يحس من فيها بغيبة السلطان، وعدم اكتراثه بحقوقهم المالية والعينية والأدبية. كما أن مراسلاته في هذا الخصوص مع الأمراء في القاهرة ترجع إلى إيمانه بأهمية متابعتة الشخصية للأمور، وعدم الاعتماد الكلي على معظيات الأمراء المتواجدين في القاهرة، على الرغم من العلاقة الوطيدة التي تربطه بهم. وفي طريق العودة استقر الأشرف قايتباي بعض الوقت في دمشق « وجلس في القصر الذي بالميدان، وحكم بين الناس، وارتفعت الأصوات له بالدعاء »<sup>١٧٧١</sup>. وهذا يدعو للقول أن الأشرف قايتباي كان حريصا على العلاقة المباشرة مع الرعية أينما تواجد حتى يطلع على كيفية أحوال الناس، وما يعانونه من مشاكل، وإمكانية إيجاد الحلول المناسبة التي تعود على الرعية بالخير.

وقد حدث بعد أن انتهت جولة الأشرف قايتباي في الفرات سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م، توجه إلى حلب ثم إلى حماة، ولكنه مرض فيها فنقل في محفة إلى دمشق، وعندما وصل خسر

مرضه إلى القاهرة ، انطلقت الإشاعات بموته ، « قاضطرت أحوال الأمراء في بعضهم ، وأظهر كل أحد منهم ما في نفسه من السلطنة »<sup>(١٧٨)</sup> . وعلم الأمير بشيك الدوادار بأن يرد بك جيس<sup>(١٧٩)</sup> أحد الأمراء الأخرية عمل تكتلا مع بعض الماليك من أجل العمل على سلطنة الأمير جانى بك أو جانم بك الفقيه<sup>(١٨٠)</sup> أمير سلاح ، في حالة التأكد من موت الأشرف قايتباى . وكان جانم بك الفقيه هنا طامعا في السلطنة والحكم . فأمر الأمير بشيك الدوادار بالقبض على يرد بك جيس هذا ، وضربه حتى كاد أن يهلك ، ثم نفاه إلى منطقة الواحات . وبذلك تم القضاء على مظاهر هذه الفتنة قبل عودة الأشرف قايتباى إلى القاهرة<sup>(١٨١)</sup> . وقد انعكست أخبار مرض الأشرف قايتباى ، ووقع هذه الفتنة على الأحوال في القاهرة فسادها الاضطراب ، ولكن الأنبياء بشفاء الزشرف قايتباى وقرب عودته كانتا سببا في تغير الوضع ، فزيت القاهرة « وأظهر الناس الفرح والسرور بعالية السلطان ، وسكن الاضطراب الذى كان بالقاهرة ، ويطل القال والقال الذى كان بين الأمراء »<sup>(١٨٢)</sup> . وقد احتقلت القاهرة احتفالا كبيرا بعودة الأشرف قايتباى في شوال سنة ٨٨٢ هـ / يناير - كانون الثانى سنة ١٤٧٨ م بعد غياب حوالى أربعة شهور في الأقاليم الشامية متفقا الفلاح الشمالية ، ومستكشفا لأوضاع الثيابات وسير العمل فيها ، ومتعرفا على أحوال الناس وأسباب أرزاقهم ، فلما عاد بعد أن أنجز كل هذا وجد ترحيبا كبيرا من الأمراء والناس « وعظم أمره جدا »<sup>(١٨٣)</sup> .

ويبدو أن الأشرف قايتباى قد علم بعد عودته بتدابير الأمير جانم بك الفقيه ، أمير سلاح ، في سبيل تولي السلطنة ، فلما جهز محمل الحاج عين الأشرف قايتباى الأمير جانم بك أميراً للركب . وبعد مغادرة المحمل رسم بهدم سبيله الذى كان قد انشأه في منطقة الرملية . وقد سر الناس بخروج الأمير جانم بك من القاهرة<sup>(١٨٤)</sup> . وعند عودة ركب الحاج إلى مصر في محرم سنة ٨٨٢ هـ أبريل - نيسان سنة ١٤٧٨ م أمر الأشرف قايتباى بالقبض على الأمير جانم بك الفقيه أمير سلاح في العقبة ، وأرسل من هناك إلى القدس بطالا<sup>(١٨٥)</sup> . وهكذا كان الأشرف قايتباى لا يتهاون في معاقبة مديري الفتن متى ثبت له تورطهم في أى خطة تأمرية ، ولكنه كان ينفذ عقريتهم بهدوء ، وعلى مراحل ، وفردا فردا دون إثارة أى زوعدة أو ضجة سواء بالحبس أو النفى إلى المدن والأقاليم المختلفة في سلطنة الماليك<sup>(١٨٦)</sup> .

ومن الجدير بالذكر أنه عند وقوع سوء تفاهم بين الأشرف قايتباى وأحد كبار الإداريين في المجلس السلطاني مثل « كاتب السر » نتيجة تدخله فيما لا يعنيه من وجهة نظر الأشرف

قايتباي ، فإن هذا التدخل يكلفه أحيانا عزله من وظيفته ، ولا يعود إليها إلا بعد توسط كبار الأمراء بينه وبين الأشرف قايتباي بل وبعد تقديم مبلغا كبيرا من المال (٨٧). ولعل التساؤل الذي يطرح نفسه هنا ، هل يعتبر قبول الأشرف قايتباي لهذا المال على أنه قبولا للرشوة ؟ من دراسة سيرة الأشرف قايتباي وسلوكياته المختلفة في كافة المجالات فإنه يصعب الأخذ بهذا الرأي ، وعلى الأرجح إن الأشرف قايتباي كان يلزم كل من يقع في الخطأ دفع مبلغا من المال لبيت المال على سبيل الغرامة عقابا له على ائتراف الخطأ خاصة وأن الأوضاع الخارجية للدولة كانت تستلزم الكثير من الإنفاق ،

ويلاحظ خلال عهد حكم الأشرف قايتباي تركيز عدد كبير من الوظائف العالية في الدولة في شخصية واحدة، على غير المعتاد في العهود السابقة، فالأمير يشبه من مهدي الدوادار كان وزيرا ، واستادارا ، ودوادارا كبيرا ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة ، وأمير سلاح (٨٨). وعلى الرغم من تعجب المؤرخين المعاصرين من هذه الظاهرة الإدارية الجديدة إلا أنهم لا يفسرون أسبابها !! ولهذا فإن تفسير هذه الظاهرة لا يخرج عن ثلاثة أسباب هي: الأول : المزاج الشخصية والأخلاقية التي تميز بها شخص ما فتجعله قادرا على القيام بعدد كبير من مسئوليات السلطنة . والثاني : قلة الشخصيات الملكية القادرة على تحمل مسئوليات الوظائف العالية في هذا العهد . والثالث: كان الأشرف قايتباي يثق في عدد قليل من الأمراء نتيجة للمؤامرات الكثيرة التي وقعت بينهم قبل توليه السلطة، ولذا قام بتوزيع الوظائف العالية في السلطنة بين هذه الشخصيات القليلة التي كان يثق بها دون غيرها.

ومن الظواهر اللافتة للنظر في سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م تعيين الأشرف قايتباي محمد بن العظمة (٨٩) وهو من العامة في نظر الأوقاف (٩٠) بتزكية من بعض المقربين من الأشرف قايتباي قلما تولي محمد العظمة هذه الوظيفة تعهد للأشرف قايتباي بأن يحضر له شهريا مبلغا كبيرا من المال. ومن ثم بدأ تسلط ناظر الوقف الجديد على أصحاب الأوقاف رجالا ونساء ، وحصل للناس منه أضرار كبيرة، واشتط في رسوم الأوقاف، ويات بدق في الحسابات الوقفية القديمة والجديدة، مستخدما في سبيل تحقيق أغراضه المالية هذه بعض الأعوان الفاسدين حتى ضاق أعيان الناس من تصرفاته وتسلطه على أوقافهم وأموالهم (٩١). ويلقى ابن إياس باللوم على الأشرف قايتباي على تقريبه مثل هذا الشخص، وإعطائه صلاحيات يتجاوز من خلالها على الناس (٩٢). وفي الحقيقة لا تعرف سبب رفض المؤرخ ابن إياس لهذا الشخص هل لأنه من العامة

وليس من أعيان الناس وبخاصة ابن إياس ذاته من المالكين<sup>١١٤</sup> أم لأن هذا الشخص مارس فعلا تسلطا غير مقبول عند أصحاب الأوقاف في سبيل توفير الأموال للأشرف قايتباي<sup>١١٥</sup> ومن جانب آخر فإن التساؤلات الأخرى التي يجب أن تطرح فعلا هي لماذا عين الأشرف قايتباي هذا الشخص في وظيفة نظر الأوقاف، خاصة وإن هذه الوظيفة تتعلق بحقوق أهلية وخبرية لها علاقة مباشرة بمصالح الناس؟ هل كان الأشرف قايتباي يأمل - من خلال تحصيل الأموال المتوفرة من الأوقاف - في مصادر جديدة للدخل لتتيح له فرصة الإصلاح والبناء، والتعمير في أنحاء السلطنة<sup>١١٦</sup> خاصة وأنه عرف عنه حساسا كبيرا في العمارة وبناء الأوقاف<sup>١١٧</sup> عند الإجابة عن هذه التساؤلات فإن الحقيقة المتعلقة بالتوجهات الشخصية عند الأشرف قايتباي في سبيل خدمة المصلحة العامة تكمن وراء تعيين هذا الشخص في هذه الوظيفة؛ أما مسألة مدى قبول هذا على مستوى الرأي الشخصي فإن هذا أمر صعب لارتباطه بالرؤية الفكرية لكل فرد من خلال نظريته الشخصية للأمور، ولكن يبدو أن الأمور ساءت كثيرا فأمر الأشرف قايتباي بالقبض على محمد بن العظمة ناظر الأوقاف حيث أُلزم بعمل جميع حسابات الأوقاف، وعين في نظر الأوقاف شرف الدين عبد الياسط<sup>١١٨</sup> البقري<sup>١١٩</sup>. وقد أمر الأشرف قايتباي في أواخر سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م بضرب محمد بن العظمة ناظر الأوقاف المعزول بالمقارع في وسط الحوش، وكتب عليه قسما أن لا يعود قط يسعى في نظر الأوقاف، ومتى سعی في ذلك يكون دمه هدرا، وكتب من هذا القسم أربع نسخ، وبعث إلى كل قاض نسخة منها<sup>١٢٠</sup>. لقد كان الأشرف قايتباي شديدا في معاقبة من يسبى تدبير شئون وظيفته، وكان لا يتردد عن الحضور شخصيا للتأكد من معاقبة المسمى<sup>١٢١</sup>.

كذلك عندما علم الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م أن مشقال الطواشي الظاهري<sup>١٢٢</sup> رأس ثوبه السقاة يضرب في بيته الفلوس المزيفة، أمر الأشرف قايتباي بكبس داره والقبض عليه<sup>١٢٣</sup>. وفي أواخر العام التالي سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م أمر الأشرف قايتباي بنفى مشقال الطواشي هذا إلى مكة حيث غادر القاهرة بصحبة الحجاج. كما تم القبض على مساعده وهو من ممالك الأتابكي أزيلك الظاهري ويدعى قمرغا. وتمت مصادرة آلة ضرب النقود المزيفة من بيت مشقال الطواشي، وكان الأشرف قايتباي عازما على قطع أيديهم ولكن توسط الأمراء جعله يكفئ بنفى مشقال وسجن قمرغا الذي ظل مسجونا حتى توفي في سجنه<sup>١٢٤</sup>.



بالإضافة إلى ذلك قبض الأشرف قايتباي على محمد بن إسماعيل بردار الأمير أزيك الظاهري عندما علم عنه أنه يأخذ من المشاة كلهم في حلب ديثارا ديثارا، وقيد بالحديد وضرب ضرباً شديداً . وصودر منه زيادة على أربعين ألف دينار، وتوفى وهو في الحبس سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م<sup>(١٠٢١)</sup>. وفي سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م كثرت الشكوى في محمد بن إسماعيل قاضى منطقة الواحات فأمر الأشرف قايتباي بإحضاره فلما حضر عزاه وضربه بالمقارع . ثم أشهره في القاهرة وهو على حصار<sup>(١٠٢٣)</sup> ثم سجنه فسات بعد أيام . وفي عام ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م اشتكت امرأة من بندر الدين بن القرافي أحد نواب المالكية . فأمر الأشرف قايتباي بإحضاره ، فلما حضر يطحه وضربه ضرباً مؤلماً وفرض عليه غرامة كبيرة<sup>(١٠٢٤)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك كانت الأحوال العسكرية تقتضى متابعة أمور العسكر وتحديد لثاته ، ففي سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م تم عزل ثمانين من الجنود من الشيوخ والعجزة والضعفاء ، ومن ثم قطعت جوامعهم أو مرتباتهم . وكان الأشرف قايتباي حريصاً على توزيع الإقطاعات بنفسه حتى يتأكد من إعطائها لمن يستحق<sup>(١٠٢٥)</sup>.

### ٣- أولاد الناس :

لعل من الأمور التي شغلت الأشرف قايتباي وضع أولاد الناس وحياتهم الإقطاعات والمراتب الكبيرة مع عدم تادية الواجب العسكرى الإلزامى على المماليك، ولذا كان حريصاً على التأكد من الأهلية الحربية عند هؤلاء للاستفادة منهم في شئون الدفاع الحربي لو تطلب الوضع ذلك في أسوأ الأحوال، وعليه كان يطلبهم بين أونة وأخرى لاستعراض كفاءتهم الحربية . وكان هذا الوضع يسبب إخراجاً كبيراً لبعض أولاد الناس نتيجة تدنى مستوى الأداء العسكرى لديهم<sup>(١٠٢٦)</sup>.

وكسان ديوان الوزارة<sup>(١٠٢٧)</sup> هو القائم على توزيع المرتبات من اللحوم على أولاد الناس والمتعسفين والنساء ، وبالتالي كانت هذه المهمة هي إحدى مسؤوليات الوزارة<sup>(١٠٢٨)</sup>، إلا أن ذلك لا يتم إلا بأمر من الأشرف قايتباي شخصياً ، ففي سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م اتفق شهر صفر ولم يأمر الأشرف قايتباي بصرف رواتب أولاد الناس، فوقف له جماعة ممن لم يتلق عليهم فوعدهم بأن يصرف لهم بعد فراق نفقة المماليك السلطانية ، فخطبه الأعيان وحذروه من مغبة قطع مرتبات أولاد الناس، فبصر تصرفه بالغلاء ، وكثرة الصرف على العسكر المحارب ضد التركمان ، وقلة المال المتوفر وقتذاك<sup>(١٠٢٩)</sup>، وعندما قرر الأشرف قايتباي توزيع مرتبات أولاد الناس حرص في أثناء عملية التوزيع - التي قام بها شخصياً - على اقتطاع جزء من تلك

المرتبات لتغطية تكاليف الحملة الجديدة ضد التركمان ، فإذا كان المرتب ألف درهم تحصل صاحبه خمسون ديناراً ، وإن كان المرتب ألف وخمسمائة درهم تحصل صاحبه خمسة وسبعين ديناراً وهكذا . أما من كان مرتبه أقل من ألف درهم فكان يأخذه ويغادر المجلس فلما استمرت هذه العملية رفض بعض اولاد الناس أخذ مرتباتهم وغادروا المجلس غاضبين<sup>(١١١)</sup> . ولكن في سنة ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م طلب الأشرف قايتباي أولاد الناس إلى القلعة ليرد إليهم نصف المبالغ التي أخذت منهم عند خروج الحملة الثانية ضد التركمان<sup>(١١٢)</sup> . ولا يوجد تفسير واضح في مصادر تلك الفترة عن أسباب هذا التصرف ولذا يرجح أنه ربما أحس الأشرف قايتباي أنه ظلم هؤلاء بأخذ جزء من مرتباتهم . وربما لأنه أدرك حاجة هؤلاء للمال نتيجة الغلاء الذي تعرضت له البلاد في ذلك الوقت ، فلم يرغب أن يكون سبباً في عدم توفر المال بين أيديهم للحصول على الغذاء . ومن ثم أمر الأشرف قايتباي أولاد الناس بالاستعداد للسفر مع الحملة الثانية ضد التركمان . ومن لا يرغب في السفر يحمل لبيت المال مائة دينار لاستخدام محارب بديل عنه ، وتم تعميم هذا على جميع أولاد الناس ممن لديهم رواتب وإقطاعات<sup>(١١٣)</sup> . أما التي ليس لديه إقطاع ويبلغ مرتبه ألف درهم فيجب عليه دفع خمسة وعشرين ديناراً<sup>(١١٤)</sup> .

وفي سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م جلس الأشرف قايتباي شخصياً لاختيار الكفاءة الحربية لأولاد الناس فمن اجتاز الاختبار أجبر على المشاركة في الجيش ، ومن فشل قطع راتبه أو دفع مبلغ مائة دينار عوضاً عن بديل يتوب عنه في الخدمة الحربية ، وتوسط بعض الأمراء للشفاعة لإعفاء بعضهم من الدفع أو الاكتفاء بمبلغ خمسين ديناراً فقط ، ولكن الأشرف قايتباي رفض واستمر في توبيخ من لم تتوفر فيهم صفات الفروسية<sup>(١١٥)</sup> . ولعل المسرور الوحيد لإقدام الأشرف قايتباي على هذه المصادرة لرواتب أولاد الناس أنه لم ير مبرراً لإعطاء أولاد الناس الرواتب مع تقاعسهم عن تقديم الواجب الحربي وعدم المشاركة في الحملات العسكرية ، إلى جانب غضبه لعدم توفر صفات الفروسية عند بعضهم من أجل الاستفادة منهم في الدفاع عند تعرض البلاد للأخطار الفادحة . ومن ثم كان الأشرف قايتباي مقتنعاً بأن دفع هذه الرواتب بدون عمل يعد خسارة جسيمة خاصة مع قناعة العجز المالي في بيت المال ، وتزايد التهديدات الخارجية ، وبدراسة موقف المؤرخ ابن إياس المشير من تصرف الأشرف قايتباي يمكن القول بأن السبب في ذلك يعود إلى ابن إياس نفسه كان أحد هؤلاء أولاد الناس .

ومن جانب آخر كان الأشرف قايتباي لا يتردد في عقوبة أي شخص من أولاد الناس إذا تأكد من قيامه بأي عمل غير أخلاقي كما حدث سنة ٨٧٦هـ / ١٤٨١م<sup>(١١٥)</sup> .



## ٥- العامة :

كان التهديد العثماني بالزحف نحو سلطنة المماليك، وإثارة المماليك الجليان القتل من أجل السلطة والنفقة<sup>(١٣٨)</sup>، مع حركات تمرد طوائف العريان<sup>(١٣٩)</sup> في مختلف أقاليم سلطنة المماليك ضد السلطة والقائمين عليها<sup>(١٤٠)</sup>، بالإضافة إلى الحملات العسكرية المملوكية التي توجهت للدفاع ضد التركمان كان كل ذلك من الأسباب الأساسية في ارتفاع أسعار البضائع في أسواق مصر والشام خاصة في العشر سنوات الأخيرة من حكم الأشرف قايتباي<sup>(١٤١)</sup>. ومن أسباب الغلاء أيضا تسلط بعض فئات المماليك على المال العام، وبالتالي وجود ظاهرة الاحتكارات، الأمر الذي كان يؤدي إلى ارتفاع أسعار المواد الضرورية مثل الماء. من ذلك على سبيل المثال يلاحظ أن تسلط المماليك الجليان على السقايين لأجل حمل النريس أدى إلى عدم وجود الجمال، وبالتالي قلة الماء المنقول على ظهور الجمال حتى بلغ سعر الراوية من الماء نحو من ثلاثة أضعاف سعرها المعتاد<sup>(١٤٢)</sup>.

كذلك ارتبط ارتفاع أسعار الغلال ارتباطا عكسيا مع زيادة منسوب مياه النيل<sup>(١٤٣)</sup> حيث إن عدم فيضان النيل كان يؤدي إلى ارتفاع أسعار الغلال، وقلق الناس، وتكاليفهم على شراء القمح<sup>(١٤٤)</sup>، ولعل السبب في هذا يعود إلى تلاشي الشعور بالاطمئنان عند عامة الناس<sup>(١٤٥)</sup>، وربما نتيجة إحساسهم بعدم استقرار الأوضاع بشكل مطلق، ولذا فإن أقل ارتفاع في أسعار الغلال يثير قلقهم ومخاوفهم من مغبة تعذر الحصول على الغذاء.

ويجدر الذكر أنه بعد شهور قليلة من تولي الأشرف قايتباي السلطنة وقع ارتفاع في أسعار الغلال<sup>(١٤٦)</sup>، وتكيد الناس مشقة في الحصول على الغذاء بسعر مناسب مما أدى إلى تدمرهم علنا حتى إن الأشرف قايتباي سمع عبارات التذمر أثناء مروره في شوارع القاهرة<sup>(١٤٧)</sup>. بل إنه في أواخر تلك السنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ارتفع سعر القمح حتى وصل إلى سبع مائة درهم للأردب، فعمل الأشرف قايتباي على فتح مخازن قمحه وباع منها بأقل من السعر المتداول وقتذاك، وهو سبع مائة درهم، فانفجرت الأزمة<sup>(١٤٨)</sup>.

وفي منتصف سنة ٨٧٣هـ / أواخر سنة ١٤٦٨م ارتفع سعر الغلال مرة أخرى. وبلغ سعر إردب القمح ست مائة درهم الأردب، والشعير ثلث مائة درهم الأردب، والبقول مائتي درهم الأردب، بل بلغ سعر إردب القمح في شدة الأزمة سبع مائة درهم، وكذلك الشعير والقرن. وكان السبب الرئيسي في هذه الزيادة وقت الفيضان<sup>(١٤٩)</sup>، فلما حصل الفيضان انفجرت أسعار

المواد الغذائية ، ولكن استمرار انتشار وباء الطاعون في تلك السنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م كان سببا رئيسيا في استمرار ارتفاع أسعار المواد الغذائية في مصر<sup>(١٤٠)</sup>، كما شهدت بلاد الشام في تلك السنة أيضا غلاء شديدا إلى درجة أن إمدادات التمرين بالغلل للعساكر البرية - المغادرة لمحاربة التركمان عبر الأراضي الشامية- أرسلت بالمراكب من القاهرة مباشرة إلى ساحل البلاد التركية الشمالية عند مواقع قتال التركمان<sup>(١٤١)</sup>.

وفي منتصف سنة ٨٧٤هـ / أواخر سنة ١٤٦٩م ارتفع سعر الغلال مرة أخرى حتى بلغ سعر كل أردب قمح أربعة دنانير ذهب أشرفية، وكل أردب شعير سبعمائة درهم، وكذلك الفول ، وبلغ حمل التبن نحو دينار أشرفي ذهب، وانتشر الغلاء في جميع أرجاء البلاد<sup>(١٤٢)</sup>، ومع زيادة الغلاء في تلك السنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م أمر الأشرف قايتباي بفتح مخازين من مخازن القمح الخاصة به ، وبيع القمح منه بسعر الإردب ألف درهم ، فاستعاض الناس به خيرا ، وتوفر الخبز في الدكاكين<sup>(١٤٣)</sup>، ومع ذلك استمر ارتفاع الأسعار حتى عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م حيث بلغ سعر إردب القمح تسعمائة درهم، وإردب الشعير ثلثمائة درهم والفول أقل من ذلك قليلا<sup>(١٤٤)</sup> كما شمل الغلاء كافة أنواع الغذاء<sup>(١٤٥)</sup>، ولكن في منتصف سنة ٨٧٥هـ / بداية سنة ١٤٧١م انخفضت أسعار الغلال والغذاء في مصر مثل الدقيق والخبز والبرسيم والجبن واللحم وغير ذلك من المواد<sup>(١٤٦)</sup>، ويلاحظ هنا ارتفاعا اعتياديا ملحوظا في أسعار جميع المواد الغذائية ، بل ويلاحظ أيضا تقبل الناس لهذا التفاوت الواضح في الأسعار مما يدل على احتمال زيادة دخل الفرد الواحد مع مرور الوقت .

كذلك شهدت مصر في سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م غلاء شديدا وجوعا كبيرا نتيجة عدم وجود الخبز في الحوائط لأن الباعة أصحاب الحوائط كانوا يفضلون بيعه جلة في الأفران ، واشتد الازدحام على الأفران ، وزاد تهافت الناس على شراء الخبز وتخزينه نتيجة الخوف من تفاقم الأزمة، وقل اهتمام الأفران بنوعية الخبز نتيجة للازدحام ، ومع ذلك لزم المحتسب داره دون أدنى اهتمام بالأزمة وترك أعوانه «الذين يأكلون البراطيل»<sup>(١٤٧)</sup> يدهرون شئون البلاد حتى صار كل واحد منهم «عنده القماش والبغال والعبيد والصرف والمستحب وغير ذلك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»<sup>(١٤٨)</sup>.

وفي سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م اشتكى العامة من تصغير وزن الخبز وزيادة ثمن اللحم والجبن مع أن أسعار الغلال كانت رخيصة ، وتصدر القضاة حل هذه المشكلة ، وتحدثوا مع الأشرف

قائمتها بخصوصها فأصدر مرسومها شريفاً بتحديد أسعار اللحم بأنواعه المختلفة كما تم تحديد أسعار الألبان وغيرها، وحددت نوعية الخبز وأسعاره (١١٥٦). كما أمر الأشرف قايتباي بعزل المحتسب، وأعطيت الحسبة إلى ناظر الدولة قاسم بن أحمد بن شغيته القرالي (١١٦٠). كما أوكل إلى ناظر الدولة أيضاً مهمة الإشراف على دار الضرب خشية الغش في صناعة الفيلوس (١١٦١). ومن ثم فإن مصر شهدت في محرم سنة ٨٧٨هـ / مايو - أيار سنة ١٤٧٣م انخفاضاً ملحوظاً في أسعار مختلف أنواع المواد الغذائية (١١٦٢). ولكن في سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م قل وجود الحبوب في الأسواق، ونذر الخبز في الدكاكين، وتزاحم على شراء القمح حتى وصل المحصول الجديد (١١٦٣).

كذلك في محرم سنة ٨٨٨هـ / يناير - كانون الأول سنة ١٤٨٣م كانت كميات الإنتاج من الغلال قليلة مما أدى إلى ارتفاع أسعارها بل شمل ارتفاع الأسعار سائر البضائع الأخرى (١١٦٤). وفي منتصف السنة التالية ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م انخفضت أسعار البضائع، وعم الرخاء أقاليم مصر (١١٦٥). ويبدو أن هذا الوضع ارتبط ارتباطاً كبيراً بقيضان النيل ووفرة الإنتاج الزراعي. وفي هذا الصدد يذكر ابن إياس أن سعر إردب القمح بلغ نصف دينار (١١٦٦). ويبدو أنه يعتبر هذا سعراً منخفضاً قياساً على أسعار القمح خلال تلك السنوات، ولكن عند مقارنة هذا السعر بما وجد في جمادى الآخرة سنة ٧٣٦هـ / يناير - كانون الثاني سنة ١٣٣٦م يلاحظ أن سعر إردب القمح وقتذاك كان خمسة عشر درهماً، وعندما ارتفع السعر نتيجة انخفاض منسوب فيضان النيل بلغ سعر الإردب عشرين درهماً (١١٦٧). الأمر الذي يبين - بدليل واضح - تراجع القيمة الشرائية للعملة المتداولة في سلطنة المماليك في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي إلى بيع القمح بالدينار حيث اعتبر الدينار وقتها عملة ثابتة تادرة التداول نتيجة انخفاض أسعار المواد الغذائية بشكل عام. ولكن يبدو أن الانخفاض التدريجي للقيمة الشرائية للدينار جعل التداول به أصراً عادياً في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. وبعد أشهر قليلة من سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م بدأ الغلاء يظهر تدريجياً في أسعار الغلال مع تناقص منسوب مياه النيل (١١٦٨). بل ارتفع سعر البرسيم في ذي الحجة سنة ٨٨٩هـ / ديسمبر - كانون الأول سنة ١٤٨٤م حتى بلغ سعر محصول القدان منه عشرة دنانير ذهب أشرافية (١١٦٩).

ومن ناحية أخرى جاءت الأخبار مع عودة الحجاج في محرم سنة ٨٩١هـ / يناير - كانون الأول سنة ١٤٨٦م حيث تعرضوا لمعاناة قاسية نتيجة ندرة المياه وشدة الغلاء حتى لم يتمكن

بعضهم من العودة إلى القاهرة وفضل البقاء في الأراضي المقدسة لعدم المقدرة على تحمل مشقة السفر في ظل تلك الأحوال الصعبة<sup>(١٧٠)</sup>. وقد تزايد ارتفاع أسعار المواد الغذائية مع مرور الوقت لدرجة أن سعر أردب الأرز بلغ ستة دنانير أشرقية ثم تضاعف ليصبح سعر الأردب في ذي القعدة سنة ٨٩١هـ / نوفمبر - تشرين الثاني سنة ١٤٨٦م اثنا عشر دينارا أشرقيا<sup>(١٧١)</sup>. كما تزايدت أسعار جميع الغلال والأعلاف حتى وصل سعر البرسيم لكل فدان مزروع إثني عشر دينارا، وبيع الدريس كل مائة رطله باربعمائة درهم، وهو أمر لم يحدث من قبل على الإطلاق، بل قل وجود الماء العذب وارتفع سعره.

واستمر ارتفاع أسعار البضائع في محرم سنة ٨٩٢هـ / يناير - كانون الثاني سنة ١٤٨٧م، وندرة وجود الخبز في الدكاكين، وصار رطل الخبز ينصف فضة أي ما يعادل أربعة وعشرين درهما. وزاد الوضع سوءا مع تحديد القيمة الشرائية للفلوس الجديدة وكانت أعلى من الفلوس القديمة مما جعل البضائع تباع بسعرين. فتمنيتها بالفلوس الجديدة يختلف عن سعرها بالفلوس القديمة التي تناقصت قيمتها الشرائية أمام طرح الفلوس الجديدة. ونتيجة لهذا الوضع الاقتصادي غير السوي كف الناس عن عمليات البيع والشراء، وتعطلت الأرزاق، ودم الغلاء كافة أنواع الأغذية والمشروبات حتى الماء حيث اختفت جمال السقاين<sup>(١٧٢)</sup>. وتزايد القلاء حتى بلغ أردب القمح ستة دنانير، وظهر في الدكاكين لأول مرة خبز الذرة. ومات عدد كبير من الفقراء من شدة الجوع مما أدى إلى تدخل الأشراف قايتباي فعمل على فتح مخازن القمح لديه وبيع كل أردب بخمسة دنانير<sup>(١٧٣)</sup>. وأجبر المحتسب أصحاب الدكاكين على وضع الخبز للبيع للجميع، وعدم بيعه سرا أو تخزينه إلى حين ارتفاع الأسعار من أجل تحقيق ربح أكبر، ومن خالف ذلك عوقب بشدة. وقد أدت هذه المحاولات إلى إنخفاض أسعار القمح حتى بلغ الأردب منه أربعة دنانير. كما إن منافسة الكميات الكبيرة من الذرة التي طرحت في الأسواق لعبت دورا كبيرا في انخفاض أسعار القمح<sup>(١٧٤)</sup>. وهكذا كان ارتفاع منسوب مياه النيل وانخفاضه عاملا أساسيا في تغير أسعار الغلال ففي سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م ارتفعت أسعار المواد الغذائية نتيجة انخفاض منسوب النيل<sup>(١٧٥)</sup>. بينما شهدت سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م انخفاضاً كبيراً في الأسعار نتيجة ارتفاع منسوب النيل، ولاسيما في أسعار الغلال<sup>(١٧٦)</sup>. كما كان لتوقف النيل عن الزيادة عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م عاملاً أساسياً في ارتفاع أسعار القمح والشعير وغير ذلك من الغلال<sup>(١٧٧)</sup>. ثم أخذت الأسعار في الانخفاض تدريجياً مع



فيضان النيل في آخر السنة حتى إنه في عام ٩٠١هـ / ١٤٩٥م رخصت الغلال نتيجة الفيضان إلى درجة أن كل خسة أرادب تمح بيعت بدينار<sup>(١٧٨١)</sup>.

كذلك من اللافت للنظر أن العامة كانوا يتعرضون لظلم المالك السلطانية وكثرت شكواهم بذلك إلى الأشرف قايتباي فأصدر مرسوماً في سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م : « أن أحداً من المالك السلطانية لا يحمل سلاحاً ولا يضرب أحداً من العوام، ومن فعل ذلك وسط بلا معاودة »<sup>(١٧٩١)</sup>، وقرأ هذا المرسوم لثاني يوم صدوره على المالك السلطانية عند عرضهم أمام الأشرف قايتباي. وفي ذات الوقت حرص الأشرف قايتباي على إرضاء المالك السلطانية بإجابة كل طلباتهم<sup>(١٨٠١)</sup>.

كذلك من الصفات التي عرفت عن الأشرف قايتباي خروجه من القلعة في رحلات مفاجئة في نكتم كسبير<sup>(١٨١١)</sup>، وهذا التصرف من الأشرف قايتباي يلقي كثيراً من الضوء على سلوكياته، ورغبته في الاطلاع على الأوضاع كما هي دون تحضير أو استعداد، إلى جانب ميله إلى التنقل في سكون دون تطيل أو تهليل، كما يؤكد عدم رغبته في الظهور الاحتفالي من أجل البروز والشهرة. وإن حدث وعلم العامة بخروجه فإن هذا يكون مناسبة لتوزيع الصدقات عليهم كما حدث في سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م عندما أمر السلطان الأشرف قايتباي بتوزيع مبلغ ثمانمائة دينار على الفقراء الذين كانوا يتجمعون عند خروجه في المواكب<sup>(١٨٢١)</sup>. كذلك وفي إطار مجال الصدقات فرق الأشرف قايتباي في رمضان في ذات السنة ٨٧٦هـ / فبراير - شباط سنة ١٤٧٢م مبلغ ثمانمائة دينار على الفقراء وأرباب الديون<sup>(١٨٣١)</sup>. وعلى نفس النهج قرر الأمير أزيك الظاهري للفقراء القاطنين بجامع الأزهر في كل يوم من الخبز ألف ومائتا رقيق وطعاماً بطبخ لهم كل يوم<sup>(١٨٤١)</sup>. وقد تعقب العامة سوء تصرف بعض الإداريين فعندما عانى العامة في سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م من الارتفاع الشديد في أسعار البضائع نتيجة إهمال كسباي المحتسب - حسب قولهم - حرص بعضهم على توصيل شكواهم إلى السلطان الأشرف قايتباي الذي استدعى المحتسب كسباي ووبخه على سوء أعماله، ونقصيره في خدمة مصالح المسلمين بل أمر بضربه عقاباً له<sup>(١٨٥١)</sup>.

علاوة على ذلك وفي أحد أيام سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م عند نزول الأشرف قايتباي من القلعة وقف له جماعة من العامة واشتكوا إليه من سوء إدارة الحسبة، حيث يتعذر وجود الخبز في الذكاكين بعد العصر، مع ندرة البضائع، وزيادة أسعار الغلال، وقلة المواد الغذائية. وبناء

على ذلك تم عزل يشبك الجمالى من الحسبية فى اليوم التالى، وعين مكانه قاسم بن شغيبته<sup>(١١٨٦)</sup>، ربما للعمل بسرعة من أجل الحيلولة دون وقوع غلاء فى أسعار المواد الغذائية الأساسية، وأيضاً استجابة لمطلب العامة فى تغيير الشخصية المسئولة عن إدارة الحسبية. وبناء على الاستجابة لهذه الشكوى حضر فى سنة ٥٨٩٤هـ / ١٣٨٩م جماعة من تجار الإسكندرية يشكون من نائبها على باى بأنه جار عليهم فى الظلم والمصادرات<sup>(١١٨٧)</sup>. ويبدو أنه عندما تثار الشكوى حول مسئول فى الدولة، يبدأ الأشرف قايتباى بعملية تقصى الحقائق حتى يتأكد بالدليل القاطع صدق هذه الشكوى، عندها يبادر بعزل هذا المسئول من وظيفته، وتسليمه إلى من يقوم بمحاسبتة حتى يكشف عما لديه من مخالفات كما وقع مع قاسم بن شغيبته عندما عزل سنة ٥٨٩١هـ / ١٤٨٦م عن الوزارة ونظر الدولة حيث أحيل للمساءلة القانونية<sup>(١١٨٨)</sup>. كذلك من معاناة العامة فى سنة ٥٨٩٢هـ / ١٤٨٧م أنه تم احتكار بيع الملح، وتكرر له ضامن ومكسا<sup>(١١٨٩)</sup>، فترك الناس العمل فى الملاحات وجفت حتى قل وجود الملح فى الأسواق وارتفع ثمنه.

ويبدو أن الأوضاع العسكرية استدعت فى سبيل تغطية جزء من تكاليف الدفاع عن البلاد فى عام ٥٨٩٤هـ / ١٤٨٩م بأخذ «الحبس من خراج المقطعين»، ومع أن الأسباب وراء ذلك كانت ضرورية، لكنها شكلت - فى ذات الوقت - وبالأسوأ على فئات الفلاحين<sup>(١١٩٠)</sup>. وقد تكرر ذلك فى العام التالى ٥٨٩٥هـ / ١٤٩٠م حيث أمر الأشرف قايتباى بجمع الحبس من مقطعى ضواحي الشرقية لتهينة عسكر من العريان لمواجهة التهديدات العثمانية «فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الأذى»<sup>(١١٩١)</sup>.

صلاة على ذلك انتشرت فى هذه الفترة عمليات شراء المناصب أو بذل المال فى سبيل الوصول إلى منصب رفيع فى الدولة ففى سنة ٥٨٧٤هـ / ١٤٦٩م خلع على تاج الدين أمير الحسن بن الهيصم واستقر فى استيفاء الخاص السلطانى الشريف بعد أن قدم «من الذهب ألف دينار»<sup>(١١٩٢)</sup>. كذلك فى عام ٥٨٧٥هـ / ١٤٧٠م خلع الأشرف قايتباى على قاسم بن أحمد بن شغيبته القراقى شرف الوزارة «بعد أن وزن عشرين ألف دينار نقدا»<sup>(١١٩٤)</sup>. كما يذكر الصيرفى ضمن حوادث سنة ٥٨٧٦هـ / ١٤٧١م أنه «خلع على شاهين الجمالى<sup>(١١٩٥)</sup> بشادية جدة على عادتهم بعد بذله عشرين ألف دينار»<sup>(١١٩٦)</sup>. كما استقر الخطيب محب الدين بن جماعة فى سنة ٥٨٧٨هـ / ١٤٧٣م فى خطابة المسجد الأقصى وما معها من وظائف دينية



«ببطل المال»<sup>(١٩٧)</sup>. وتولى نيابة القدس في سنة ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م جمال الدين الديري «بعد مال كبير بذله في الولاية»<sup>(١٩٨)</sup>، إلا أنه توفي بعد وصوله إلى القدس بأربعة عشر يوماً فقط<sup>(١٩٩)</sup>. كذلك تولى محيي الدين عبد القادر بن الدهانة<sup>(٢٠٠)</sup> الخنفي مشيخة الجامع المؤدى سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م بعد أن قدم مبلغاً من المال<sup>(٢٠١)</sup>. وتولى بدر الدين بن صلاح الدين المكيني مشيخة المشايبة سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م بعد أن قدم مبلغاً من المال<sup>(٢٠٢)</sup>. وكذلك تولى عفيف الدين بن الشحنة في سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م قضاء الشافعية بحلب بعد أن سعى في ذلك «بمال له صورة»<sup>(٢٠٣)</sup>. كما تولى كل من عبد العزيز بن عبد الرحمن العقيلي الحلبي<sup>(٢٠٤)</sup>، ومحمد بن إبراهيم بن يوسف الحسقاري<sup>(٢٠٥)</sup>، قضاء حلب بعد أن دفع كل منهما مبلغاً من المال. وهكذا تكررت ظاهرة تقديم المال من أجل تولي منصب في الدولة، فيذكر المعاصرون عبارة: «وأخذ منه مالا له صورة حتى تولى هذه الوظيفة»<sup>(٢٠٦)</sup>. وهكذا كان كل من يسعى لمنصب يقدم من أجل الحصول عليه مبلغاً من المال<sup>(٢٠٧)</sup> نرى لماذا وافق الأشرف قايتباي وهو الذي عرف عنه تدينه وتمسكه بالأخلاق العالية على هذا الوضع؟ هل السبب هو صعوبة الأحوال في البلاد نتيجة الأخطار الخارجية وقلة المال في بيت المال؟ ألا يعتبر هذا المال رشوة من أجل المنصب؟ ألا يعتبر هذا الوضع من المتناقضات التي شهدتها سلطنة المماليك خلال هذه الحقبة وقد أصبحت تعاني من التهديدات الخارجية والفتن الداخلية؟

كذلك من الصور التي تستحق الملاحظة في تحصيل الأموال أن السلطان الأشرف قايتباي عندما يغضب على أي شخصية كبيرة لأي سبب من الأسباب يفرض على هذا المعضوب عليه مبلغاً كبيراً من المال مقابل رضائه عنه، ويبدو إن المبلغ المقرر يكون كبيراً أحياناً، أو يجد المعضوب عليه أنه لا مبرر لدفعه فيستعج ويستمر الغضب السلطاني كما حدث مع بنت خوند شقرا<sup>(٢٠٨)</sup> التي فرض عليها الأشرف قايتباي مبلغ عشرة آلاف دينار مقابل رضاه عنها. إلا أنها امتنعت عن الدفع<sup>(٢٠٩)</sup>، إما لضخامة المبلغ أو لأنها لم تجد مبرر يلزمها بدفعه، ومن ثم سوف يترتب على ذلك تعطيل مصالحها في المجتمع، ولهذا يلاحظ بعد ذلك يقليل قدومها مرة أخرى إلى القاهرة حيث صالحت الأشرف قايتباي بعد أن دفعت «مال قيل إن جملته عَشْرُونَ ألف دينار»<sup>(٢١٠)</sup>. وهكذا كان الأشرف قايتباي يتقاضى عن بعض الأمور التي لا يرضاهها مقابل مبالغ مالية كبيرة كانت الدولة تحتاجها للاستعدادات الحربية. وعلى ذلك فمن أوجه العقوبة التي تحصلها الإداريون المعزولون نتيجة سوء أدائهم غرامة يقررها المسئولون

فيقدم المقصر» مالا له صورة<sup>(٢١١)</sup> أي دناتير معتمدة كجزء من العقوبة المقررة . كذلك حدث في سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م أن الأشرف قايتباي غضب على القاضي عز الدين بن العيسى ـ اظر الأحياس ثم رضى عنه على « أن يقوم بألف دينار»<sup>(٢١٢)</sup> . وفي حالة قاسم بن أحمد بن شغيبته القرائى الوزير المعزول الذى كان متبها بحق الدولة فإنه التزم بدفع مبلغ من المال مقابل ذلك ، وأبدى الطاعة ولكن تبين عدم قدرته على دفع مبلغ عشرون ألف دينار للسلطان الأشرف قايتباي ، وأرسل يستعطف بالورق من المباشرين والأعيان فلما عجز عن الدفع تم حبسه<sup>(٢١٣)</sup> . كذلك ألزم قاضى القضاة فى دمشق وكتاب السر فيها قطب الدين الخيضرى بدفع حسين ألف دينار مقابل رضا السلطة له ، ولم يسمح له بمقابلة الأشرف قايتباي إلا بعد دفع الغرامة كاملة<sup>(٢١٤)</sup> .

وكان الأشرف قايتباي حريصا على حسن معاملة أهل الذمة مع المحافظة على أماكن عبادتهم ، ولذا عندما حاول قاضى القدس فى سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٥م هدم كنيسة لليهود فى القدس قبض عليه وأرسل مقيدا إلى القاهرة مع من ساعده على ذلك العسل من أهل القدس<sup>(٢١٥)</sup> . وكتب السنولون كتابا إلى الأشرف قايتباي بتفاصيل الحادثة فورد المرسوم السلطانى بتكبير اليهود من كنيساتهم ، وأوقافهم ، وعدم معارضتهم فى جميع الأعمال التى اعتادوا عملها ، فابتهج اليهود ، واحتفلوا بها وأوقدوا القناديل<sup>(٢١٦)</sup> . ولكن شيوخ الدين فى القدس عز عليهم انتصار اليهود ، فأبشوا أن الكنيسة حديثة البناء ويجب هدمها ، وبالفعل تم هدمها . فسافر جماعة من اليهود إلى القاهرة ، وقابلوا الأشرف قايتباي وأخبروه بهدم الكنيسة بغير مرسومه فغضب غضبا شديدا ، وأمر بإحضار كل من كان له دخل فى الموضوع حيث أمر بضربهم جميعا بحضوره ، وانقسم العلماء فى مصر: فمنهم من انتصر للمسلمين ومنهم من أراد مساعدة لليهود - ربما - خشية الفتنة بين الرعية . وبالتالي كان رأى أغلبية قضاة القضاة بجواز إعادة بناء الكنيسة<sup>(٢١٧)</sup> . وبالفعل أعاد اليهود بناء الكنيسة حسب المرسوم السلطانى<sup>(٢١٨)</sup> . ويبدو أن الأشرف قايتباي أراد أن يتأكد من استقرار الوضع وتنفيذ مراسيمه فعمل على زيارة القدس والخليل سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م<sup>(٢١٩)</sup> .

وقد قسمت الضرائب فى تلك الحقبة التاريخية المهمة إلى قسمين : ضرائب عامة : وهى التى شملت المستلكات العامة مثل خراج الأرض ، وضرائب المراعى وضرائب الصناعة وغيرها . أما القسم الثانى : فهى تلك الضرائب التى تحملها الناس على ممتلكاتهم . وشهد هذا النظام

الضرائبي الكثير من التغيير في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. كما إن كثيرا من الضرائب كان يتم إلغاؤها في مختلف المناسبات . ومن ثم فعلى الرغم من ثبوتها ظاهريا إلا أنها كانت متغيرة في فعاليتها . وقد ألغى الأشرف قايتباي العديد من الضرائب سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م<sup>(٢٢٠)</sup> . وكذلك ألغى الأشرف قايتباي في سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م عدة ضرائب في مصر وجدة ، فسر الناس بذلك<sup>(٢٢١)</sup> . ويبدو أن تعسف الضمان بجمع الضرائب كان يؤدي في بعض الأحيان إلى ثورة الناس والانتقام من هؤلاء الضمان بالضرب وغيره<sup>(٢٢٢)</sup> . كما يظهر أن التمرد الذي وقع سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م كان هو السبب في أن الأشرف قايتباي ألغى عددا من الضرائب تخفيفا على الناس<sup>(٢٢٣)</sup> . كذلك تم إلغاء عدد من الضرائب في بلاد الشام في ذات السنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م<sup>(٢٢٤)</sup> . وزيادة على ذلك أوقف الأشرف قايتباي مجسرة من تجار سوق الأخفاف في عام ٨٧٦هـ / ١٤٧١م أثناء طلوعه للقلعة ، وشكوا له أن الضريبة المقررة عليهم قدرها أربعمائة درهما كل شهر ، ولكن الوزير أصبح يأخذ منهم ثلاثة آلاف ، فأوصى الأشرف قايتباي بعض المسئولين بأن تبقى الضريبة كما كانت ، ولكن ذلك لم يحدث ، واستمر التجار يدفعون ألف وثلثمائة درهم . فأصر هؤلاء التجار على مقابلة الأشرف قايتباي ، وشرحوا له سوء الحال وعدم التزام المسئولين بأوامره ، فأصدر الأشرف قايتباي مرسوما بإلغاء الضريبة عن تجار الأخفاف كلية<sup>(٢٢٥)</sup> .

ومن اللافت للنظر أنه في سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م ضمن شخص بلاد حلب بحيث يكون للأشرف قايتباي منها كل يوم سبعة دنائير<sup>(٢٢٦)</sup> !! ترى كيف سيتمكن هذا الضامن من تأمين مبلغ سبعة دنائير للسلطان طوال أيام السنة ؟ وهل سيستخدم أنواعا من العسف والظلم لجمع هذا المال من الرعية ؟ وهل سيكتفى بجمع الضرائب المقررة حسب قيمتها المحددة من ديوان الضرائب ؟ أم أنه سيؤيد في قيمة الضرائب لكي يتحصل له شيئا منها ؟ من الدراسة المستفيضة لحيشات هذه الحقبة ، يمكن القول بأن أهل حلب سعيانون الكثير في سبيل أن يحقق هذا الضامن مبلغ السبعة دنائير يوميا للأشرف قايتباي . وقد يكون في الحاجة الماسة إلى المال للعصف على إعداد الحملات العسكرية الكثيرة ذات الاحتياجات الباهظة التكاليف مبررا في إقدام الأشرف قايتباي على إقرار هذا التوكيل الذي قد يتضمن تطبيقه الكثير من أسباب الظلم للرعية .

والجدير بالذكر أن الأشرف قايتباي قرر في سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م تعيين كبار المستوليين لجمع ضرائب الأملاك في أحياء القاهرة وكانت تعادل أجرة خمسة شهور ، فعانى أصحاب الأملاك الصغيرة الكثير من ريلات هذه الضريبة<sup>(٢٢٢)</sup> . بالإضافة إلى ذلك عين الأشرف قايتباي في عام ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م الأمير قرقماس للتوجه إلى دمشق لجباية الأملاك فيها عن خمسة شهور ، وكذا الحال في الإسكندرية ودمياط بل شملت الجباية أوقاف البيمارستان المنصوري<sup>(٢٢٨)</sup> لمدة خمسة شهور<sup>(٢٢٩)</sup> . وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والترب فعانى الأيتام والضعفاء والصوفية من انقطاع الرواتب<sup>(٢٣٠)</sup> . ولاشك أن التهديدات الخارجية سواء أكانت عثمانية أو تركمانية وكذلك فساد العريان وقردهم إلى جانب استمرار المسالك الجلبان في المطالبة بزيادة الرواتب والتفقات مع إثارة الفتن والفساد<sup>(٢٣١)</sup> ، كان كل ذلك وراء حرص الأشرف قايتباي على جمع المال وتوفيره من جميع الجهات كذلك أرسل الأشرف قايتباي في سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م إلى نائب الشام بأن يجمع أعيان التجار بها وسائر الناس ، ويفرض عليهم دفع بعض المبالغ المالية ، كل واحد على قدر مقامه ، للمساعدة في التجهيزات العسكرية . وكتب بمثل ذلك إلى نائب الإسكندرية ودمياط<sup>(٢٣٢)</sup> . بل قرر الأشرف قايتباي في عام ٩٠١هـ / ١٤٩٥م ضريبة جديدة على بيع الغلال الأمر الذي كانت له آثاره السيئة على الناس<sup>(٢٣٣)</sup> . ومن جانب آخر كان الأشرف قايتباي حرصا على أن يشارك العامة في مباحج الأفرح الأميرية فكان يأمر بإحضار « عدة زهادى صينى فيها سكر ، ومشنات فاكهة فرقت في الجامع »<sup>(٢٣٤)</sup> . كما حرص على توزيع الحلويات على الفقراء والصوفية في المناسبات<sup>(٢٣٥)</sup> . كذلك في سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م تم توزيع المال على الأيتام في مكاتب السبيل (دور الأيتام) بحيث حصل كل واحد منهم على درهم قفصة مع الأكل الوفير<sup>(٢٣٦)</sup> .

## ٦- العريان :

شهد عهد الأشرف قايتباي الكثير من حركات تمرد العريان<sup>(٢٣٧)</sup> ضد السلطة المركزية ، وتطلب الوضع في أغلب الأحيان إرسال حملة عسكرية لقمع هذه الحركات التمردية والسيطرة على طوائف العريان . وعند تتبع هذا الموضوع بإيجاز يلاحظ أنه في محرم ٨٧٣هـ / يولييه - تموز سنة ١٤٦٨م كثر فساد العريان وتناولهم في أغلب ولايات الوجهين القليل والبحري حتى خربوا أكثرها منتهزين فرصة إشغال الأشرف قايتباي بتجهيز العسكر ضد التركمان<sup>(٢٣٨)</sup> . وهدأت الأوضاع<sup>(٢٣٩)</sup> في أواخر سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م عندما قام الأشرف قايتباي بحولة في

ولايات الشرقية والغربية متفقدا شئونها، مؤكداً على حسن العلاقات مع مشايخ ألبان في تلك المناطق (٢٤٠). وعندما توفي شيخ العرب حسن بن بغداد أحد مشايخ الغربية في جمادى الآخرة سنة ٨٧٣هـ / ديسمبر ١٤٦٨م وكان غنياً، فإن الأشرف قايتباي صادر كافة ممتلكاته (٢٤١).

كذلك في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م ثار بعض طوائف العريان في الوجه القبلي، فأرسل الأشرف قايتباي الأمير يشبك الدوادار إلى الوجه القبلي حيث «نهب البلاد وأمر نساء العريان وأولادهم»، حتى قبيل أحضر معه نحواً من أربع مائة امرأة، وقد مات منهم من الجرع عدة كبيرة، فلما عاد يشبك حصل من العريان - بسبب ذلك - مالا خيراً منه من نهب البلاد وسلب المسافرين، ووقع منهم غيبة الفساد (٢٤٢). كما ثار العريان في البحيرة في ذات السنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م (٢٤٣). وقد كان هناك من العريان في سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م من قبيل بالسلامة والمهادنة وعمل على إرسال الهدايا تودداً للأشرف قايتباي (٢٤٤)، ومنهم من استمر يشير الفتن والفساد في أنحاء الوجه القبلي (٢٤٥).

علاوة على ذلك توجه الأمير يشبك الدوادار في محرم سنة ٨٧٥هـ / يوليو، نحو سنة ١٤٧٠م إلى البحيرة لقمع تحركات العريان، ولكن قوتهم المتزايدة أجبرته على طلب النجدة، فتوجه إليه الأمير أزيك الظاهري في عدة من الأمراء والمجندين (٢٤٦). وبعد غيبة حوالي سبعة شهور عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلي حيث نجح في قمع كيان تحركات العريان جنوباً وأذاقهم أضراراً من العقوبات والتعذيب حتى «دخل الرعم» منه في تلويب العريان (٢٤٧). ويبدو أن هذا السلوك الذي انتهجه الأمير يشبك الدوادار أعجب الأشرف قايتباي فأعقد عليه هدايا التكريم. وقد قدم الأمير يشبك الدوادار من غنائم هذه الرحلة ما يزيد قيمته عن مائتي ألف ديناراً (٢٤٨).

ومن اللافت للنظر بعد هذه الحملة مشاركة عشائر العريان جيش المماليك في محاربة الشركان بمباركة سلطانية تصفى على هذه المشاركة صفة الشرعية. وقد تولى التامس شرف الدين الأنصاري مهمة الإشراف على التحاق هذه العشائر بالعسكر، والنصرف على تجميع طوائفها (٢٤٩). ولعل هذا التوجه نحو العمل على مشاركة العشائر في الدفاع عن سلطنة المماليك يعود إلى:

١- حرص الأشرف قايتباي على المحافظة على كيان سلطنة المماليك، وإن تحقيق هذا الهدف واجب تقع مسئوليته على جميع من يعيش داخل حدود هذه السلطنة.



٢- بداية تلاشي الفارق الاجتماعي المعتاد بين المماليك وغيرهم من سكان سلطنة المماليك على اختلاف طوائفهم ، والذي كان من أسباب حصر الخدمة العسكرية بطوائف المماليك ، وبالتالي أصبح من لديه القدرة على الفروسية ينال حق المشاركة الرسمية في الدفاع عن هذه السلطنة.

علاوة على ذلك توجه الأمير قمر حاجب الحجاب<sup>(٢٥٠)</sup> في سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م - يثاب ، على أوامر الأشرف قايتباي - إلى الشرقية من أجل دوع العريمان المفسدين الذين ملثوا البلاد فسادا من نهب وقتل ، كما كتب الأشرف قايتباي إلى نائب غزة ومشايخ عربان الشرقية كي يساعدوا الأمير قمر حاجب الحجاب على إتمام مهمته<sup>(٢٥١)</sup> . وقد عماد الأمير قمر حاجب الحجاب من مهمته في العام التالي ٨٧٦هـ / ١٤٧١م ومعه عددا كبيرا من العريمان المفسدين ، وشاع صيته بأنه «غاية في قتل النفس وأخذ الأموال» وكان صحبته فئات كثيرة من الفرسان والمهاجرين والمماليك السلطانية<sup>(٢٥٢)</sup> .

ومن جانب آخر كثر فساد العريمان في إقليم الشرقية في أواخر سنة ٨٧٦هـ / منتصف سنة ١٤٧٢م إلى درجة أن الناس امتنعوا من السفر ناحية الشرقية من كثرة القتل ، وقطع الطريق ، وسلب المسافرين<sup>(٢٥٣)</sup> . فلما تفاقم الوضع زادت وطأة هذه الأعمال السيئة من طوائف عربان بني حرام وبني وائل ، وفسدت أحوال أقاليم الشرقية إلى حد كبير ، قرر الأشرف قايتباي أن يرسل إليهم حملة تأديبية ضمت الأتابكي الأمير أزيك الظاهري مع مجموعة من كبار الأمراء ، مقدمين الأتوف<sup>(٢٥٤)</sup> ، مع عدد كبير من الجند حيث توجهت إلى الشرقية . وقد نجحت هذه الحملة في هزيمة العريمان وعاد الأتابكي الأمير أزيك مع عدد من زعمائهم إلى القاهرة ، بينما بقي الأمراء الآخرين في الشرقية لتأكيد عوامل الاستقرار<sup>(٢٥٥)</sup> . ولعل من أسباب كثرة هذه الفتن وحركات التمرد هو انشغال الأشرف قايتباي وكبار الأمراء والأجناد في إرسال الحملات العسكرية ضد التركمان والعثمانيين . فوجد هؤلاء العريمان في ذلك الانشغال السياسي والعسكري فرصة لهم للخروج عن دائرة الخضوع للسلطة المركزية ، وقد تطلب هذا الوضع غير المستقر إرسال الحملات العسكرية من أجل إخضاع فئات العريمان وإرساء قواعد السلام والاستقرار في الولايات الشرقية والغربية . علاوة على ذلك حرص الأشرف قايتباي على دوام التنقل بين مواقع العريمان في الجزيرة وشيرا حيث يحل ضيفا على شيوخهم ، ويقضى أياما بينهم ثم يعود إلى القلعة<sup>(٢٥٦)</sup> . ربما من أجل تقوية العلاقات مع أصحاب الفضل من شيوخ العريمان .



ومعاقبة أصحاب الفتن، ومكافأة أصحاب الرأي الراجح من أجل استتباب الأوضاع في المناطق التي يقطنونها<sup>(٢٥٧)</sup>. كما كان حريصا على إخضاع عناصر الفساد والفتنة بإرسال الحملات العسكرية بقيادة كبار الأمراء<sup>(٢٥٨)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك خرج الأتابكي الأمير أزيك الظاهري في صفر سنة ٨٧٧هـ/ يوليو - تموز سنة ١٤٧٢م في حملة تاديبية إلى البحيرة حيث هزم طوائف العريان المفسدين<sup>(٢٥٩)</sup> في تلك المناطق، وعاد بزعمائهم إلى القاهرة حيث أودعوا السجن<sup>(٢٦٠)</sup>. وهكذا كانت سلطنة الماليك موزعة في اهتماماتها العسكرية في سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م بين خطر التركمان في شمال بلاد الشام، وبين تهديدات العريان في مصر في الولايات الشرقية والغربية والصعيد<sup>(٢٦١)</sup>. ويلاحظ في بعض الأحيان إن طوائف من العريان تتعرض للناس في أطراف القاهرة وتسلبهم ثيابهم مما يؤدي إلى حدوث حالة من عدم الاستقرار والاضطراب في تلك النواحي<sup>(٢٦٢)</sup>. وزيادة على ذلك اضطرت أحوال منطقة الشرقية في سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٥م بسبب فساد العريان من بني حرام وبني وائل، فأرسل الأشرف قايتباي إليهم الأمير يشبك الدوادار من أجل العمل على استقرار الأوضاع<sup>(٢٦٣)</sup>.

كذلك هجم عرب عزالة على ضواحي الجيزة، ونهبوا خيول الماليك، وقتلوا جماعة من الغلمان، وأطلقوا من كان بالسجن في الجيزة. فجهز الأشرف قايتباي حملة كبيرة تضم عددا من الأمراء والجنود حيث توجهت إلى الجيزة، ولكن العريان كانوا قد فروا ولم تظفر الحملة بأحد منهم<sup>(٢٦٤)</sup>. وقد تم استسلام رأس العريان المفسدين مهنا بن عطية في سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٦م حيث حضر بين يدي الأشرف قايتباي بعد أن كان سببا وعاملا لكثير من حركات العصيان في أرجاء البلاد، فأكرم الأشرف قايتباي وفادته من أجل تأكيد حسن العلاقات الجديدة<sup>(٢٦٥)</sup>. كذلك غادر الأمير يشبك الدوادار في سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م القاهرة على رأس حملة عسكرية إلى الصعيد لقمع قره العريان، ولكنه لم يظفر بأحد من زعمائهم<sup>(٢٦٦)</sup>. ثم جاءت الأخبار بأن الأمير أحمد بن عمر الهواري أمير هواة قد فر من الصعيد، فأصدر الأشرف قايتباي مرسوما سلطانيا بتعيين الأمير يشبك الدوادار أميرا على هواة عوضا عن الأمير أحمد بن عمر<sup>(٢٦٧)</sup>. ولاشك أن هذا الوضع غريب تكيف يصبح أصيرا من الماليك شيخا على طائفة من العريان الذين يتمتعون بنوع من الحكم الذاتي في شتوتهم الداخلية في مناطقهم البعيدة عن القاهرة مع الإعلان بالطاعة والخضوع لحكم الماليك. ولكن يبدو أن حركات التمرد عند العريان كانت

سببا أساسيا في إزعاج الأشرف قايتباي فما أن تعود حملة عسكرية من قمع حركة تمرد حتى تخرج أخرى للقضاء على فتنة ثانية مما حثنا بالسلطات الملوكية إلى تعيين شخصية تمسك زمام الأمور بين تلك الطوائف المتمردة حتى تستقر الأوضاع في تلك المناطق البعيدة.

ومن جانب آخر علم الأشرف قايتباي في أواخر سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٨م أن عرب هوارة ثاروا ضد كاشف الوجه القبلي على سيباي<sup>(٢٦٨)</sup> وانتصروا عليه بعد قتال عنيف قتل فيه جماعة كثيرة من الجند . فقرر الأشرف قايتباي أن يرسل الأمير يشيك الدوادار في حملة عسكرية أخرى لإنقاذ الموقف في الصعيد<sup>(٢٦٩)</sup>. وبالفعل خرج الأمير يشيك الدوادار في عدة كبيرة من الجند في أواخر سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٨م متوجها نحو الصعيد للقضاء على أسباب الفتنة بين طوائف العريان<sup>(٢٧٠)</sup>. وقد عاد الأمير يشيك الدوادار في جمادى الأولى سنة ٨٨٣هـ / أغسطس - آب سنة ١٤٧٨م من الصعيد ومعه رأس الفتنة أحمد بن عسر الهواري مقبدا مع عدد من أقاربه . محققا بذلك انتصارا كبيرا بالقضاء على أسباب الفتنة بين طوائف العريان في الصعيد<sup>(٢٧١)</sup>. وقد تمت معاقبة هؤلاء زعماء العريان المتسردين بتعليقهم وإعدامهم علنا على باب زويلة<sup>(٢٧٢)</sup> ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تسول له نفسه إثارة عوامل التمرد وعدم الاستقرار من مناطق العريان في جميع الولايات. وقد أطلق الأشرف قايتباي سراح محمد بن عجلان<sup>(٢٧٣)</sup>. أحد رؤوس الفتنة- في شعبان سنة ٨٨٣هـ / نوفمبر - تشرين الثاني سنة ١٤٧٨م بعد سجن دام حوالي عشر سنين في البرج بالقلعة، وأعادته إلى مشيخة العرب بالشرقية<sup>(٢٧٤)</sup>.

كذلك وقعت فتنة عظيمة في صفر سنة ٨٩١هـ / شباط سنة ١٤٨٦م بين عريان جبل نابلس قتل فيها الأمير آقبر دي بن بخشايش<sup>(٢٧٥)</sup>، وكذلك جماعة كثيرة من العريان. فلما علم الأشرف قايتباي بهذه الأخبار السيئة بادر بإرسال الأمير آقبر دي الدوادار<sup>(٢٧٦)</sup> إلى جبل نابلس لإخماد أسباب الفتنة، وإعادة الأوضاع إلى وضعها المستقر<sup>(٢٧٧)</sup>. بالإضافة إلى ذلك أثار العريان فتنة كبيرة في النواحي الشرقية سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٦م فخرج إليهم كسباي الدوادار واضطر كاشف الشرقية مع عسكر كبير . واستطاعا بعد جهود ممتنية إخماد الفتنة<sup>(٢٧٨)</sup>. ويبدو إن إثارة العريان للفتن في الوجه القبلي كان مكلفا للدولة بشرا ومالا الأمر الذي أجبر أتابكية الجيش على اتباع الوسائل القاسية في ضرب مسببي الفتن والفساد من أجل إرساء عوامل الاستقرار في جميع أنحاء سلطنة المماليك<sup>(٢٧٩)</sup>.

## ثانيا : الأعباء المالية :

## ١- تكلفة الأخطار الخارجية :

كان الأشرف قايتباي حريصا على فرض الهيمنة السياسية والعسكرية على حدود سلطنة (٢٨١). الماليك في جميع الجهات حرصا على تأكيد وجود السلطنة وهيبتها أمام الأعداء الذين كانوا يشابهون خطرا قائما على الدوام (٢٨١). ولعل هنا من الأسباب التي جعلت الأشرف قايتباي شديد الحرص ، كثير الإصرار على توجيه الحملات العسكرية إلى جميع الجهات لمواجهة تلك التهديدات العدوانية على الرغم من التكاليف الكثيرة التي تكبدتها خزائن السلطنة في الصرف على هذه الحملات العسكرية. ولم يكن الأشرف قايتباي من أولئك الذين يقبلون دفع الأخطار باللين والهيون حيث كان يؤثر التحدي والمواجهة كما حدث سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م عندما صمم على عدم دفع خطر التركمان بالبلل والهدايا ، وفضل أن يتم ذلك بحملة عسكرية تقطع دابر ذلك التهديد التركماني (٢٨٢). وقد تكلفت الحملة الأولى في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م مبالغ باهظة عندما وزع الأشرف قايتباي نفقات الأمراء المعيّنين في الحملة ضد التركمان ، فحصل لقدم الحملة الأمير أزمير الطويل (٢٨٣) ستة آلاف دينار، وللأمير قجماس الظاهري (٢٨٤) أحد الأمراء الطيلخانات خمسمائة دينار، وللأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتي دينار، ولكل مملوك مائة دينار فكان الذي صرف على هذه التجريدة بقيادة الأمير أزمير الطويل ومجموعة من الأمراء والماليك ما يزيد على مائة ألف دينار (٢٨٥).

أما نفقة الحملة الثانية لسنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م فكانت أكبر حيث أعطى الأشرف قايتباي لكل مملوك مائة دينار (٢٨٦)، وخصص للأتابكي أزيد خمسة آلاف دينار ، وللأمير قرقماس الجلب ثلاثة آلاف دينار، ولكل أمير مقدم ألف (٢٨٧) ألفي دينار. ولكل أمير طيلخاناة (٢٨٨) خمسمائة دينار، وللأمراء العشراوات (٢٨٩) لكل واحد مائتي دينار ، فصار جملة ما صرف في هذه الحملة أربعمائة ألف دينار (٢٩٠). وفي سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١م بدأت الاستعدادات لمسيرة الحملة الثالثة ضد التركمان حيث صرف لكل مملوك مائة دينار ومائة عشرة دنائير ، واستغرقت عملية الصرف ثلاثة أيام (٢٩١). وبعد مضي ثمانية أشهر وبالذات في سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م أرسل الأمير بشبك الدوادار إلى الأشرف قايتباي يخبره بضعف المعسكر التركماني ويطلب نفقة للعسكر بسبب سوء الأحوال التصويتية، فأرسل له الأشرف قايتباي مبلغ مائة ألف دينار في الحال كي يفرقها على العسكر (٢٩٢). ثم بعد ذلك في رمضان سنة ٨٧٦هـ / فبراير-

شباط سنة ١٤٧٢م أرسل الأشرف قايتباي مبلغ أربعين ألف دينار للعسكر المتواجد في حلب ضد التركمان (٢٩٣).

ومن جانب آخر كان من دواعي العرف في الدولة العمل على إظهار هيبتها أمام طوائف المتشردين من العربان وغيرهم ، ومن ثم كانت الاستعراضات العسكرية (٢٩٤) المكلفة في الاحتفالات التي حرص المسئولون على إقامتها لغرس دواعي الهيبة والقوة في نفوس طوائف الطامعين في السلطة . كذلك كان تحقيق بعض الانتصارات في بعض الأحيان ضد العثمانيين من الأمور المرهقة للدولة حيث يطالب العسكر في أعقابها بالمكافأة وزيادة النفقة (٢٩٥) ، فيجد الأشرف قايتباي في تهيئة الميزرات الشرعية عند القضاة من أجل إيجاد الأسباب لتوفير المال المطلوب ، ومن ثم جاء نص التتوى الشرعية « على أن يقرضوا على أرباب الأملاك والأوقاف التي بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة » (٢٩٦) . ترى ألا يظهر هذا الموقف أن الأشرف قايتباي كان في وضع حرج بين مبادئ الشرع الشريف وسوء الوضعين الخارجى والداخلى في سلطنة المماليك (١٢)

ومن الوقائع التي تؤكد سوء الأحوال في سلطنة المماليك في أواخر سنوات حكم الأشرف قايتباي نتيجة زيادة النفقات وزيادة الاضطرابات والفتن أن الأشرف قايتباي - في سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م - جمع قضاة القضاة الأربعة وأعلن خلع نفسه من السلطنة، ولكنه تحت إلهام كبار المسئولين وتصميم القضاة الأربعة، والاتفاق على تنظيم النفقات ، وجمع الأموال من المقتردين (٢٩٧) أمكن ثنى الأشرف قايتباي عن تصميمه ، وطلب الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز (٢٩٨) فحدد للأشرف قايتباي مائة ثانية بحضرة القضاة الأربعة (٢٩٩) . يدل إن زيادة النفقات وإلهام المماليك في طلب المرتبات جعلت الأشرف قايتباي يفكر بأن « يتوجه تحت الليل إلى مكة ويقم بها » (٣٠٠).

ومن جانب آخر فرق الأشرف قايتباي - في سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م - على الجند نفقة قيمتها خمسون دينار لكل واحد منهم (٣٠١) . بالإضافة إلى ذلك يلاحظ أنه في سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م نادى الأشرف قايتباي العسكر للمعرض ، فلما ظفروا إلى القلعة أحضر لهم المصحف الكبير العثماني ، وحلفهم عليه قاطبة، وكذلك الأمراء أن لا يخرجوا عن طاعته ولا يخالفوه فيما يريد ثم أنفق عليهم نفقة كاملة، لكل مملوك مائة دينار، ولطائفة منهم خمسون ديناراً، وبعضهم عشرون ديناراً، وآخرين عشرة دنائير . ثم وزع مالا على المماليك الجليان وعلى فئة



المخادم ، وكذلك أولاد الناس، كما بعث نفقة للمخليفة ولبعض الأمراء ، فبلغت جملة ما صرف في هذه النفقات أربعمائة ألف دينار (٢٠٢). ترى من أين أتى الأشرف قايتباي بهذه الأموال خاصة وأن العسكر كان ولازال يتطلب الكثير من المصروفات والنفقات ؟ يقول ابن إياس «هي الخمسة أشهر التي أخذها من أجرة الأملاك والأوقاف، ومن أوقاف الجوامع والمدارس والبسارستان» (٢٠٣). كذلك هي من مصادرات طائفة اليهود والنصارى وتجار الفرنج وتجار المغاربة والبراسة وغير ذلك من أعيان التجار ومشاهير الناس (٢٠٤). وحسب قول ابن إياس فإن جملة الذي أنفق على العساكر المجردة ضد التهديدات العثمانية (٢٠٥)، والأخطار التركمانية (٢٠٦) بلغ نحو سبعة ملايين وخمسة وستين ألفا (٢٠٧).

## ٢- الفتن الداخلية:

من دراسة الأوضاع الداخلية في سلطنة المماليك في المجتمع والقلعة يتضح أن من أهم أسباب عدم الاستقرار الداخلي في سلطنة المماليك سوا - داخل القلعة أم في المجتمع هو المماليك السلطانية المعروفين بالجلبان أو الأجلاب الذين كانوا يشكلون قوة عسكرية كبيرة حريصة على تحصيل حقوقها المالية والعينية دون تقصير أو تأخير . ولذا كانت هذه القوة العسكرية المملوكية مصدر قلق كبير للأشرف قايتباي إلى الحد الذي جعله يبتكر في بعض الأحيان بتفكك السلطة واعتزال الحكم لولا موازنة القضاة والعلماء وكبار الأمراء وفتات المجتمع . ومع ذلك كان دائم الحرص على تلبية مطالبهم دون تغيير أو تأخير . ومن أهم هذه الحوادث أنه في أواخر سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ثار المماليك بالقلعة، ومنعوا الأمراء من الطلوع إليها حتى أو شك الوضع على حدوت فتنة كبيرة. وسبب ذلك أن الوزير محمد الأهناسي (٢٠٨) تأخر عن توزيع اللحم والخبز المقررين على المماليك (٢٠٩). ولكن الأوضاع هدأت عندما فرق الأشرف قايتباي الرواتب على المماليك حيث صرف لهم مرتب أربعة أشهر مع الكسوة (٢١٠)، فكان مجموع الذي وزع على المماليك السلطانية حوالي خمسمائة وخمسون ألف دينار (٢١١) وقد كان لهؤلاء المماليك السلطانية دور كبير في الحملات العسكرية للدفاع عن السلطنة المملوكية ضد الشركمان والعثمانيين ، وكان الأشرف قايتباي حريصا على أن يوزع عليهم رواتبهم وتكلفة سفرهم قبل كل حملة (٢١٢). بل كان كبار مقدمي العسكر حريصين على تفرقة الرواتب عليهم مع زيادة في النفقة من أجل تهدئة خراطهم والحيلولة دون إثارتهم للفتن أثناء إشغال العسكر بالقتال ضد الشركمان (٢١٣). وفي منتصف سنة ٨٧٨هـ / أواخر سنة ١٤٧٣م ثار

جماعة من المماليك الجليان على الأشرف قايتباي ومنعوا الأمراء من التوجه لمقابلته أو الالتقاء به . بل أرادوا قتل جماعة من خواص الأشرف قايتباي ، ولكنهم هذأوا بعد ذلك في اليوم التالي (٣١٤). وتكرر عصيان المماليك الجليان في القلعة حتى إنهم منعوا الأمراء والمباشرين من الصعود إلى القلعة، ولكن الأشرف قايتباي تمكن من قمع حركة التمرد هذه . وقبض على مديرها المملوك على باي الحشن حيث ضربه ونفاه إلى الشام (٣١٥).

ومن ناحية أخرى بدأت في سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م حوادث تطاول المماليك الجليان على بيوت كبار الإداريين مما أثار الفزع في النفوس (٣١٦). بالإضافة إلى ذلك ثار جماعة من المماليك الجليان في ذي القعدة سنة ٨٧٨هـ / أبريل - نيسان سنة ١٤٧٣م ونهبوا بعض المناطق، كما سلبوا مخازن الأمير بشيك الدوادار، واستولوا على جمال السقاين وحملوها ما نهبوه من شعير ، كما سلبوا الكثير من بضائع الناس، ونزل الأشرف قايتباي مع جماعة من الأمراء والمماليك لمعاتبتهم ولكن الأمر وقتها كان قد انتهى (٣١٧).

علاوة على ذلك يلاحظ أنه في ذي الحجة سنة ٨٧٨هـ / مايو - آيار سنة ١٤٧٣م أن المماليك الجليان أرادوا قتل الأمير بشيك الفوادار، فخرج إلى ناحية الجيزة حيث غاب خمسة عشر يوماً، وامتنع الأمراء عن الصعود إلى القلعة بينما كان الأشرف قايتباي منعزلاً غاضباً من تطاول المماليك الجليان على كبار الإداريين والعبث باستقرار البلاد . وقتل الأمراء في إقامة الصلح بين الأشرف قايتباي والمماليك الجليان حتى سلموه المملوك الأقطش رأس الفتنة حيث ضرب وسجن في البرج ٢ فلما هدأت الأمور عاد الأمير بشيك من الجيزة (٣١٨). ولم ينته الأمر عند ذلك ، ففي سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م أنار المماليك السلطانية الجليان فتنة كبيرة وأرادوا قتل الأمير بشيك الدوادار مما دعا الأشرف قايتباي أن يرسل مجموعة من الأمراء لقتالهم ، فاضطربت الأحوال في القاهرة ، وأغلقت الأسواق حتى خشى بعض الأمراء استفحال الأمر وخروجه من أيديهم. ومن جانب آخر بعث الأشرف قايتباي بعض الأمراء مع جماعة أخرى من المماليك الجليان إلى الأمير بشيك الدوادار للاعتذار منه حيث أكرم وفادتهم (٣١٩). كما عمل الأشرف قايتباي على نفي الأمير سودون المؤيدي إلى مكة عندما بلغه أنه مدير الفتنة (٣٢٠).

كذلك وقعت فتنة كبيرة بين المماليك السلطانية الجليان في القلعة في صنادي الأولى سنة ٨٨٣هـ / أغسطس - آب سنة ١٤٧٨م. وانتسخت إلى حد الاعتقال بالسيف . حتى اضطر



الأشرف قايتباي إلى مغادرة القلعة عازماً عن الحكم والسلطة. فلما تأكد المماليك الجلبان من عزمه هذا سكنت فتنتهم . وعاد الأشرف قايتباي إلى القلعة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير أزيك وكاتب السر من أجل كسب موافقته على العودة<sup>(١٣٢١)</sup>. وهكذا أصبح للمماليك السلطانية الجلبان قوة كبيرة في عهد الأشرف قايتباي بحيث إنهم شكلوا تهديداً لكبار الشخصيات الأميرية خاصة في حالة وقوع أي سوء تفاهم بين الجانبين لدرجة أن الأمراء كانوا لا يجسرون على الصعود إلى القلعة في أوقات غضب المماليك السلطانية الجلبان عليهم<sup>(١٣٢٢)</sup>. ولكن من ناحية أخرى كان هؤلاء المماليك السلطانية الجلبان يرهقون الأشرف قايتباي ويقيمون أهمية كبيرة لتواجده بينهم.

وقد ربط الأشرف قايتباي توزيع مرتبات المماليك السلطانية بأهليتهم العسكرية ففي سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م عند توزيع الواتب قام بامتحانهم فمن أجاد جذب القوس حصل على راتبه ومن عجز عن ذلك اقتطع راتبه. ومسح اسمه من قائمة المماليك السلطانية أصحاب الرواتب<sup>(١٣٢٣)</sup>. علاوة على ذلك نار جماعة من المماليك الجلبان في القلعة في سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م . وأرادوا قتل مقدم المماليك لكنه فر منهم واختفى . فأحرقوا باب الزودخانة<sup>(١٣٢٤)</sup>. وكانت فتنة كبيرة. ثم هدأت تدريجياً حتى استقرت الأوضاع مرة أخرى في القلعة<sup>(١٣٢٥)</sup>.

كذلك نار جماعة من المماليك الجلبان في سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م حيث توجهوا إلى دار برسباي قرا<sup>(١٣٢٦)</sup>. ونهبوا كل ما فيها. وأحرقوها عن آخرها . بل نهبوا الربوع التي بجوارها وأحرقوها. ثم توجهوا إلى المدرستين الأبر بكرية والفخرية وأخذوا القناديل المعلقة فيهما . «وكانت مصيبة شنيعة»<sup>(١٣٢٧)</sup>. وقد هدوت هذه الفتنة أسباب الاستقرار في القاهرة. كما إنها تعتبر أول هجوم سافر على مؤسسات ووقفية تعليمية فيها. إلى جانب أنها تمثل استهتارا واضحا بهيبة وسلطة الأشرف قايتباي . ويرجع سبب هذه الفتنة إلى أن أحد المماليك أراد أن يشتري ثوباً من بعض التجار في السوق إلا أنه تطاول على التاجر وشره وأخذ الثوب دون أن يدفع ثمنه. فشكا التاجر مصيبتة لبرسباي قرا كونه «رأس نوب الثوب»<sup>(١٣٢٨)</sup>. فاستدعى برسباي الملوك. ولما تأكد من تورطه بهذه الفعلة بالدليل القاطع عاقبه عقاباً شديداً. فلما بلغ الأمر رفقاً هذا الملوك من المماليك السلطانية ثاروا على برسباي قرا. واحتدوا على داره. ثم شلت فتنتهم المؤسسات الوقفية والمراق العامة في القاهرة<sup>(١٣٢٩)</sup>. وبدراسة أسباب هذه الفتنة وما جرى خلالها من حوادث يكن القول بأن المماليك الجلبان كانوا سبباً رئيسياً في تهديد

الاستقرار الداخلي في البلاد، ويرجع هنا بشكل أساسي إلى اهتماماتهم الكبيرة بمنافعهم المادية الخاصة دون أية اعتبارات أخرى. ويعتبر غياب هدف المصلحة العامة سببا جوهريا في نداعيات الأحوال الاقتصادية في البلاد حيث حرصت كل فئة على تحقيق المزيد من المنافع الخاصة بغض النظر عن الأضرار التي يسببها هذا التسابق المادي للمصلحة العامة للبلاد. ومن جانب آخر يسجل الطابع الإنساني في علاقات الأشراف قايتباي مع العامة توجهها معاكسا للانحراف السلوكي لفئات المنتفعين، كما يتضمن اهتماما سلطانيا مألوفيا بأحوال العامة أحد عناصر الاستقرار الداخلي في سلطنة الماليك.

ويضيف ابن إياس في تدوينه لأهم حوادث سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م «وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة، وكانت الأضحية مشحونة وغالبية، بسبب قلة الجالب من أذى الماليك المجلسان»<sup>١٣٣٠</sup>. ولا يقصر ابن إياس في حديثه هذا نوع الأذى الذي يسببه الماليك الجلبان لتجار الأضاحي ولكن من معرفة سلوكيات هذه الفئة مما جاء ذكره في مصادر هذه الحقبة يرجح إن طمع الماليك الجلبان، وجرأتهم على سلب الأضاحي من أصحابها كان سببا في عزوف هؤلاء التجار عن القدوم إلى القاهرة مفضلين المحافظة على ما يملكون دون المجازفة في سبيل تحقيق أرباح غير مأمونة المخاطر. وهذا الوضع غير العادي يكشف عن فقدان عنصرى الأمن والاستقرار في البلاد إلى جانب تأثير الأحوال الاقتصادية تأثرا بالغيا بهذا التدهور الأمتى، الأمر الذي يتضمن سلبيات عميقة على أسباب النشاط الاقتصادي على المدى البعيد. علاوة على أن صدور هذه التصرفات عن الماليك السلطانية الجلبان وهم جماعة محسوبة على الجهة الرسمية التي تمثل السلطة، بل ويستقر أفرادها في طبقات داخل القلعة، فإن هذا الوضع سيكون مدعاة لإقدام آخرين من فئات أخرى في المجتمع تفتقر إلى الوعي بأهمية المصلحة العامة إلى تقليد هؤلاء الماليك الجلبان في تصرفاتهم غير المسئولة<sup>١٣٣١</sup>، وسيؤدى هذا دون شك إلى تفاقم أسباب عدم الاستقرار، وتزايد مظاهر فقدان الأمن. كما أن غياب مبدأ العقوبة المنوطة بالذنب سيشكل بصورة غير مباشرة عاملا مشجعا في إقدام ذوى النفوس الضعيفة على اقتراف الخطأ في سبيل منفعة مادية أو مصلحة خاصة، الأمر الذي سيكون له تأثيرا سلبيا واضحا على استقرار المجتمع. ومع مرور الوقت وتزايد نفوذ الماليك الجلبان والشاوى في رفض الأوامر السلطانية المتعلقة بشئونهم وتصرفاتهم فقد بلغ الوضع إلى حد الاستهانة شبه المطلقة بهيبة السلطة<sup>١٣٣٢</sup>. ولكن مع ذلك كان الأشراف قايتباي حريصا على معاقبة

المالِك الجلبان عند اقتراح ما يخل بالآداب العامة والسلوك الحسن (١٣٣٣). وكذلك في ذي الحجة سنة ٨٨٩هـ / ديسمبر - كانون الأول سنة ١٤٨٤ م نذر وجود الضحايا من الغنم والبقر نتيجة أذى المالِك الجلبان (١٣٣٤).

وزيادة على ذلك فقد تفاقم في رجب سنة ٨٩٠هـ / يوليو أغسطس - تموز آب سنة ١٤٨٥ م اقتراح «المالِك الجلبان والزعر والعبيد» لأعمال الشر في البلاد حتى عجز الوالي وحاجب الحجاب عن ردعهم عما كانوا فيه من استهتار بالمصلحة العامة، الأمر الذي أثر تأثيراً كبيراً على اضطراب الأحوال في أنحاء البلاد (١٣٣٥). كما أثارت مشكلة تسعير البضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك من المواد الغذائية في شوال سنة ٨٩١هـ / أكتوبر - تشرين الأول سنة ١٤٨٦ م غضب جماعة من المالِك الجلبان، فتوجهوا إلى بيت البدرى بدر الدين ابن مزهر المحتسب، وأرادوا حرق بيته ولكنه اختفى، فتوجهوا إلى الشون وكسروا أبوابها ونهبوا ما فيها من شعير وقمح، وفعلوا مثل ذلك بشون الأشرف قايتباي والأمراء، «وكانت فتنة سهولة» (١٣٣٦). فلما بلغ الأشرف قايتباي الأمر بعث إليهم جماعة من المالِك الحاسكية مع مقدم المالِك، فما استطاعوا ردعهم عما هم فيه، فركب الأشرف قايتباي بنفسه وتوجه ناحيتهم في بولاق فلما رآه نروا من أمامه ولكنهم استمروا في عمليات النهب حتى خشي المباشرون من الذهاب إلى القلعة، بل إن القاضي كاتب السر تراسى على الأشرف قايتباي «وقبل رجله ثلاث مرات بأن يعفى ولده بدر الدين من الحسية، فما أجاب إلا بعد جهد كبير» (١٣٣٧). وعين عوضه في الحسية كسباي الشريفى (١٣٣٨). وفي هذا بالتأكيد دلالة واضحة عما كان يمثلته المالِك الجلبان من خطر كبير كان يشير الرعب في نفوس مسئولى الدولة، وأصبح قبول الوظائف ذات الصلة المباشرة بمصالح المالِك الجلبان من الأمور الشاذة لأن ذلك يعنى أن يقدم متولى الوظيفة حياته تمناً للمنصب.

واستمر المالِك الجلبان في فتنتهم، ففي بداية ذي القعدة سنة ٨٩١هـ / نوفمبر - تشرين الثانى سنة ١٤٨٦ م تار المالِك الجلبان مرة أخرى على الأشرف قايتباي مطالبين بصرف نفقاتهم، معترضين طريق الأمراء، عند دخولهم القلعة، مشيرين بذلك بوادى فتنة كبيرة. فعزف عدد من الأمراء عن الصعود إلى القلعة خوفاً من شرهم (١٣٣٩). واشتدت فتنة المالِك الجلبان في أواخر ذي القعدة سنة ٨٩١هـ / نوفمبر - تشرين الثانى سنة ١٤٨٦ م، وظهروا مسلحين مستعدين للقتال، فاضطربت الأحوال، وحفظ أكثر الأمراء والناس ممتلكاتهم في المخازن خشية

التهب والسلب، وأغلقت الأسواق، وتجمع أراذل العامة حول القلعة حتى غدا الوضع على حافة الانفجار. ومن جانب آخر توجه جماعة من المماليك الجلبان إلى بيت الأمير آقبردى الدوادار متولى الوزارة والاستادارية ليكون واسطة فى الاتفاق مع الأشرف قايتباى بحيث يصرف لهم نفقاتهم بعد أن حققوا النصر الكبير ضد العثمانيين منذ فترة قصيرة تحت قيادة الأتابكى الأمير أزبك الظاهرى، وأن يعين لهم نصيبهم من اللحم والعليق. وعندما عرض الأمير آقبردى الدوادار هذه المطالب على الأشرف قايتباى رفضها مصمما على موقفه فى عدم الاستجابة لهم<sup>(٣٤٠)</sup>. فلم علم المماليك الجلبان بموقف الأشرف قايتباى؛ ثاروا عليه، واتسعت الفتنة، وأغلق الأمراء أبوابهم، وعم الاضطراب والهلع. ومع حلول شهر ذى الحجة سنة ٨٩١هـ / ديسمبر - كانون الأول سنة ١٤٨٦م لم يحضر أيا من القضاة إلى القلعة لتهنئة الأشرف قايتباى بحلول الشهر نتيجة الفتنة. عندما طال الأمر قابل الأمير آقبردى الدوادار الأشرف قايتباى مرة أخرى، متطلقا معه فى القول لكى يرجع عن تعيينه فى عدم الترضوخ لمطالب المماليك الجلبان. واستطاع الأمير آقبردى بعد جهد كبير أن يحصل من الأشرف قايتباى على موافقة بصرف مبلغ خمسين دينارا لكل مملوك مع حلول السنة الهلالية الجديدة أى محرم سنة ٨٩٢هـ / ديسمبر - كانون الأول سنة ١٤٨٦م. وعندما أعلن هذا الخبر فى أنحاء القاهرة هدأت الفتنة، وأخلت الأوضاع تستقر تدريجيا. وقد نفذ الأشرف قايتباى وعده هذا مع التشدد بأن يقتصر التوزيع على الذين شاركوا فى الحملة المملوكية ضد العثمانيين حيث أعطى لكل من شارك فيها من المماليك الجلبان خمسين دينارا، ومن القراصنة خمسة وعشرين دينارا إلى جانب مرتباتهم المعينة من اللحم والعليق<sup>(٣٤١)</sup>. وبناء على ذلك يشير ابن إياس ضمن حوادث ذى الحجة سنة ٨٩١هـ / ديسمبر - كانون الأول سنة ١٤٨٦م أن: «الضحايا قليلة جدا، ولا سيما الغنم»<sup>(٣٤٢)</sup>. ولاشك أن السبب فى ذلك هو الفتنة التى أثارها المماليك الجلبان فى هذه الفترة ضد الأشرف قايتباى من أجل صرف النفقات لهم حيث نشرت الكثير من عوامل الفزع والخوف فى أرجاء القاهرة وبين الطوائف حتى خشى الناس على أقواتهم، فأخفوها فى أماكن مختلفة للحيلولة دون نهبها على أيدى هؤلاء المماليك السلطانية الجلبان<sup>(٣٤٣)</sup> وهكذا فإنه من المؤكد أن من عوامل عدم الاستقرار فى هذا العهد من سلطنة المماليك طائفة المماليك السلطانية الجلبان سواء من ناحية إثارة الفتنة والاضطراب وتكاليف التأديب والقمع أو من ناحية تكاليف الترضية والنفقة، إلى جانب أنهم دأبوا على إثارة التمرد والفتن ضد السلطة، الأمر الذى كان عاملا معوقا فى استتباب الأمن والاستقرار<sup>(٣٤٤)</sup>.



## ٣- جمع الأموال :

استلزم الصرف الكبير على الحملات العسكرية التي لم تنقطع في عهد حكم الأشرف قايتباي أموالاً طائلة كان لابد من توفيرها بمختلف الوسائل من ذلك على سبيل المثال أنه في سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م قرر الأشرف قايتباي على جماعة من المباشرين مبلغاً من المال، وأمرهم بإحضاره على وجه السرعة ليستعين به على نفقة من تعين للسفر من العسكر لمحاربة التركمان<sup>(٣٤٥)</sup>. ويقول ابن إياس في تعليقه على هذا الأمر: «فهذه أول شدة وقعت منه في حق الناس واستمر هذا الأمر منه بتزايد في كل يوم حتى جاوز الحد في ذلك»<sup>(٣٤٦)</sup>. وقد كان المال الذي يجمع من المباشرين وغيرهم يصرف في نفقات الأمراء والجنود في الحملات العسكرية الكثيرة التي خرجت في عهد الأشرف قايتباي، بل إن تلك النفقات تضاعفت طويلاً مع تزايد عدد الحملات العسكرية، فقد كانت نفقة الأتابكي أو مقدم العسكر<sup>(٣٤٧)</sup> سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م أربعة آلاف دينار وزادت حتى بلغت ثلاثين ألف دينار بعد عدة سنوات<sup>(٣٤٨)</sup>. لقد كان في الحملة الأولى ضد التركمان سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م عشرين أميراً، وألف من الأجناس<sup>(٣٤٩)</sup> المماليك، ولذا استلزم النفقات الكثيرة، كما تم صرف رواتب أربعة شهور مقدماً للأجناس المماليك<sup>(٣٥٠)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فإنه عندما هزم الجيش المسير ضد التركمان سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م<sup>(٣٥١)</sup> اضطر الأشرف قايتباي إلى عقد مجلس يضم الخليفة والقضاة الأربعة وكبار العلماء والأمراء حيث عرض موضوع إمكانية الاستفادة من أوقاف الجوامع والمساجد في تهيئة حملة جديدة لرد خطر التركمان بعد انتصارهم غير المتوقع، ولكن العلماء وعلى رأسهم أمين الدين الأتصرائي رفضوا الاقتراح السلطاني حيث أكدوا عدم جواز الاعتداء على أموال الناس، وإذا نفذ ما في بيت المال فإنه يجب الاستعانة بما «في أيدي الأمراء والجنود وحلى النساء، فيأخذ منه ما يحتاج إليه»<sup>(٣٥٢)</sup>. وهذه الحادثة توضح قوة كلمة القائمين على تطبيق مبادئ الشرع في العمل، والحرص على تطبيق مبدأ العدل الاجتماعي، كما تكشف بوضوح عن التباين بين عدم توفر المال الكافي للدفاع العسكري في بيت المال، وتفخمه لدى الأمراء والأجناس ونسائهم، إلى جانب الموقف الصعب الذي وجد فيه الأشرف قايتباي نفسه حاكماً على سلطنة تعاني من التهديدات الخارجية، والأزمات المالية، وأطماع الأمراء المماليك.

كذلك من أجل توفير المال اللازم أمر الأشرف قايتباي في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م بإيقاف

مرتبات اللحوم المقررة للفقهاء والمتعسفين ممن اعتادوا على تحصيل مرتباتهم المالية والعينية من الدولة حيث تعينهم على الرزق في تلك الأحوال الاقتصادية الصعبة ، وقد أدى قطعها إلى سعادة هزلاء لكثير من أصداف الأذى والضرر<sup>(٣٥٣)</sup> . علاوة على ذلك ، ومن أجل توفير الأموال عرض الأشرف قايتباي على القضاة مسألة قطع مرتبات كبار السن من الجند والنساء ، ولكنه لم يجد تأييدا مشجعا مما جعله يتخذ قرارا آخر بالإشراف شخصيا على توزيع هذه المرتبات شهريا بدافع الحرص على عدم توزيع المال في غير حاجته الضرورية ، وبهذا يعتبر الأشرف قايتباي أول سلطان جلس بنفسه لتوزيع المرتبات على أصحاب الإعانات ، واستمر على ذلك شهريا ، بل أصبح هذا الوضع الإداري الجديد منهاجا معتادا سار عليه من جاء بعده من السلاطين المساليك<sup>(٣٥٤)</sup> . لقد كان الأشرف قايتباي يدرك تماما كميات الأموال المقدسة عند بعض الشخصيات المتنفذة ، ولذا كان لا يتردد في طلب ما يحتاج إليه من الأموال منها وقت الضرورة مع حرصه الشديد على أن يتم ذلك بأسلوب لا يتق يحفظ لتلك الشخصيات وأهلها مكانتهم الرفيعة<sup>(٣٥٥)</sup> . وفي سبيل تحديد أوجه الصرف قرر الأشرف قايتباي في الاجتماع الذي عقده في عام ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م أن يحدد رواتب المساليك السلطانية بحيث لا تزيد عن ألفي درهم شهريا ، ومن كان يأخذ أكثر من ذلك اقتطعت تلك الزيادة بحيث أصبح راتب أي مملوك من المساليك السلطانية لا يتعدى الألفي دينار<sup>(٣٥٦)</sup> .

كذلك كان الأشرف قايتباي يلجأ إلى التجار للمساعدة المالية من أجل تغطية تكاليف الجيش ، ففي سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م طلب من التجار مبلغ أربعين ألف دينار فلما ضجروا نتيجة ضخامة المبلغ خفض إلى اثني عشر ألف دينار تم الاتفاق عليها بين المحتسب وأعيان التجار<sup>(٣٥٧)</sup> . لقد كان من نتائج كثرة الصرف والإنفاق سواء على العسكر المحارب ضد أخطار العثمانيين والتركمان في الخارج ، أو على الحملات الحربية المقاتلة في سبيل القضاء على فتن وفساد العربان في مختلف أرجاء البلاد<sup>(٣٥٨)</sup> ، أو تلك المستخدمة في كبح جماح الفتن التي كان يشيها المساليك الجليان بين الحين والآخر كل ذلك الصرف ؛ إلى جانب مصروفات جميع المناسبات الدينية والسلطانية أدى كل ذلك في بعض الأحيان إلى «شح السلطان»<sup>(٣٥٩)</sup> نتيجة قلة المال المتوفر لديه سواء الخاص أو العام . لقد كان الأشرف قايتباي حريصا على صرف الأموال في جهاتها الصحيحة ، ومن ناحية أخرى يشير ابن إياس في بعض الأحيان أن الأشرف قايتباي كان يأخذ «أموال الناس»<sup>(٣٦٠)</sup> وهنا لابد من التساؤل عن السبب خاصة أن شخصية الأشرف قايتباي تميزت بالسلوك الأخلاقي المستقيم ، كما أشار المعاصرون إلى دوافع



الخير في شخصيته ؟ قد يكون السبب الرئيسي وراء هذا التصرف هو حاجة الدولة بالفعل إلى المال من أجل تكاليف إعداد الجيوش لمواجهة زحف العثمانيين (١٣٦١)، وخطر التركمان ، وقرود العربان، وفتن الجلبان (١٣٦٢). كما إن متطلبات واجهة السلطنة وإعداد المماليك تستلزم « جملة مال كبير » (١٣٦٣). إلى جانب إنشاء المؤسسات الرقمية المختلفة والكثيرة خلال هذا العهد .

كذلك يذكر بعض المؤرخين أن الأشرف قايتباي كان يقوم أحيانا بفتح «باب المصادرات للناس» (١٣٦٤) لمواجهة التهديدات العثمانية. من ذلك على سبيل المثال إلزام النصارى واليهود من خلال مخاطبة بطرك النصارى ورئيس اليهود بضرورة تقديم المال للمساهمة في نفقات الدفاع عن البلاد . وهنا لابد من السؤال ترى لو لم يلجأ الأشرف قايتباي إلى المجتمع ممثلا في طوائفه المختلفة للمساهمة في أعباء الدفاع عن سلطنة المماليك فكيف يمكن تهيئة أسباب الدفاع، وتجهيز عسكر من الفرسان والسلاح وآلية النقل ؟ ألا يجب أن يكون للمجتمع دور في الدفاع عن البلاد ؟ خاصة وأنه من المعروف وقتذاك فداحة الخطر الذي كانت تتعرض له سلطنة المماليك من جراء التهديدات العثمانية (١٣٦٥). بالإضافة إلى ذلك يلاحظ أنه في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م عمل السلطان الأشرف قايتباي على توزيع الإقطاعات التي توارثت نتيجة وفاة بعض المماليك في الطاعون الذي شهدته مصر في الشهور السابقة بحيث تم توزيع أكبر عدد من الإقطاعات حتى تلك الإقطاعات المحفوظة للاحتياطى من أجل ترضية المماليك الجلبان ، وكانت قيمة كل إقطاع خمسة وعشرين ألف درهم ، وقد أراد الأشرف قايتباي بهذه الخطوة أن يحفظ البلاد من فتنة كان المماليك الجلبان يهددون بإثارتها (١٣٦٦).

وعلى الرغم من الحاجة الماسة للمال والعمل على إيجاد مختلف الوسائل لتوفيره إلا أن هذا العهد شهد كذلك الكثير من مظاهر الشراء الفاحش الذي تمتع به كبار الأسراء فكان جهاز العرس يتكلف من الأمتعة زيادة على أربعمائة جمال ويبلغ ثمنها نحو مائتى ألف دينار (١٣٦٧). وزيادة على ذلك كان مقدار الصرف عند أفراء الأشرف قايتباي كبيرا بل خارجا عن الحد في بعض الأحيان. ويتمثل هذا واضحا في مصاريف رحلة الحج التي قامت بها خوند قاطمة زوجة الأشرف قايتباي ورافقها فيها أخته حيث يقول ابن إياس: «فكان لها تجمل زائد قل أن يقع لأحد من الخوندات مثلها نعد ذلك من النوادر» (١٣٦٨). كما شهدت عودتها الكثير من مظاهر البذخ الفاحش (١٣٦٩).

## ثالثا : المعاناة الاجتماعية :

## ١- المصادر :

كان أول قرار اتخذهُ الأشرَف قايتباي بعد توليه السلطنة هو حبس خاير بك (١٢٧٠) عقابا له على طمعه في تولي الحكم، ثم أمر بمصادرة أمواله حيث أخذ منه ستين ألف دينار إلى جانب خيوله وسلاحه وغير ذلك من ممتلكاته الخاصة (١٢٧١). وبعدها تم ترحيل خاير بك إلى الإسكندرية حيث سجن بها (١٢٧٢). كذلك صمم الأشرَف قايتباي على أن يأخذ من الشهابي أحمد بن العيني «ألف ألف دينار» أي مليون دينار عقابا له على أن «يرد في كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد، فكان جملة ما أوردته للخزائن الشريفة من الذهب النقد مائة ألف دينار وتسعة وتسعين ألف دينار، وذلك خارجا عن بركه وغلاله وخبوله وجماله ورزقه وإقطاعاته ومراكبه وماليكه وغير ذلك، ما يساوي نحرا من مائة ألف دينار فكان مجسوع ما أخذ منه نحو ثلاثمائة دينار وخمسين ألف دينار» (١٢٧٣). ولعل التساؤل الذي يبرز هنا اتفاقا مع ذلك المدون عند ابن إياس كيف استطاع الشهابي أحمد بن العيني أن يجمع كل تلك الثروة في أربع سنوات عندما كان مشاركا في مجلس المشورة (١٢٧٤) ومقدما للدولة (١٢٧٥).

علاوة على ذلك عمل الأشرَف قايتباي على مصادرة عدد من كبار الأمراء على يد وزيره الأمير بشيك الدوادار (١٢٧٦)، وكان هؤلاء ممن حصلوا على ثروات طائلة في فترات وجيزة قبل سلطنة الأشرَف قايتباي. ومن هؤلاء المصادر بن قاضي قضاة دمشق العلاء بن الصابوني (١٢٧٧) الذي قهرس عليه إحضار مائة ألف دينار في عام ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م، وقد حبس وضرب ضربا سرحا حتى أتم إحضار بعض المال المطلوب (١٢٧٨). ثم أطلق سراحه وغادر القاهرة إلى دمشق بصحبة بعض الحرس كي يولى بقية المال المطلوب منه (١٢٧٩). ومن الأمور المألوفة أيضا مصادرة أموال من يتوفى من أصحاب المناصب الرفيعة كما حدث مع الجناب الفخري إبراهيم (١٢٨٠) الذي كان يتولى أثناء حياته نظر الديوان المفرد (١٢٨١). كما كان يحدث أحيانا أن يخلص المذنب نفسه من عقوبة الحبس بعد أن يدفع مبلغا باهظا من المال مثل الأمير خاير بك الذي خلاص نفسه من السجن بعد أن دفع مبلغ عشرين ألف دينار في عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م (١٢٨٢). ومن جانب آخر يلاحظ أن الأشرَف قايتباي أعاد في منتصف سنة ٨٧٥هـ / بداية سنة ١٤٧١م إلى جماعة من المصادر جزءا من أموالهم وذلك عند خروج الحملة الأولى ضد

التركماني سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ، فقد أعاد إلى فارس الركني ١٣٨٣ ألفاً وخمسة مائة ديناراً ، وأعاد إلى الشهابي أحمد بن أسنغا الطياري ألف دينار ، وأعاد إلى الشهابي أحمد بن الطرايلسي - الذي كان دوا دار ابن العيني - ألف دينار ، وأعاد إلى فارس السيفي دولاي باي ألف دينار ، وبعث لابن العيني خمسة عشر ألف دينار وهو بعض ما أخذه منه . كما أعاد إلى جماعة كثيرة ما كان قد أخذ منهم في المصادرات ، مما أثار استغراب الناس (٣٨٤) . ويعقب ابن إياس على تصرف الأشرف قايتباي هذا بأنه أقدم على هذا العمل « من تلقاء نفسه » (٣٨٥) . ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا ترى ما الذي جعل الأشرف قايتباي يقدم على هذا التصرف من تلقاء نفسه ودون مشورة من أحد ؟! ولماذا كان هذا التصرف كما تروي المصادر المعاصرة شخصي ؟! خاصة وأن الأشرف قايتباي كان يعد العدة وقتذاك لمسيره عسكر جديد ضد التركمان ، وكان بناء على ذلك في حاجة ماسة للمال لتجهيز العسكر ، ومع ذلك عمل على إعادة هذه الأموال ؟! إن الإجابة عن هذا التساؤل لا تخرج عن تفسيرات احتمالية؛ فعمل الأشرف قايتباي فكر بأن السبب في هزيمة العسكر المملوكي أمام التركمان أكثر من مرة يعود إلى أخذ أموال هؤلاء الناس بدون وجه حق ، حيث تم التصرف على العسكر السابق من أموال صودرت من أهلها - ربما - ظلماً - فكان مغية هذا العمل تلك الهزائم المنكرة التي لحقت بالعسكر المملوكي ، ولذا هداه تفكيره إلى إعادة جزء من هذه الأموال المصادرة إلى أهلها فربما يحقق بهذا عدالة اجتماعية لم تتحقق حين أخذها منهم ، أو قد يكون وراء ذلك تفكير الأشرف قايتباي أنه أخذ بعض تلك الأموال عنوة بينما هي حقا مشروعا لأصحابها فقرر أن يعيد تلك الحقوق لأهلها ، حيث إنه بهذا العمل سيعيد الأمور إلى نصابها ، وسيحقق شعبية كان يطمح إليها .

ومن اللافت للنظر أنه في ذلك الوقت يتناول ابن إياس - المؤرخ المعاصر - أن الأشرف قايتباي فرض على الناس كثيرا « من المصادرات وأخذ من الأموال ما يعجز عنه الراصفون » (٣٨٦) . وهنا يبرز السؤال : لماذا ؟ بدراسة شخصية الأشرف قايتباي وما اتصف به من ورع وتقوى يصعب القول أنه فعل ذلك ظلما وطمعا ولكنها الأحوال التي أحاطت بسلطنة الماليك في تلك الحقبة المتأخرة من تاريخها ، حيث عانت من التالي :

١- الأخطار الخارجية التي هددت سلطنة الماليك وألحقت الهزيمة بعسكرها أكثر من مرة ، كما نالت من هبة حدودها مثل خطر التركمان عند الحدود الشمالية لبلاد الشام (٣٨٧) .

- ٢- فتن وثورات العربان في الصعيد وفي الولايات الشرقية والغربية مما تطلب إرسال الحملات المتتالية لإخمادها من أجل دعم الاستقرار في أنحاء البلاد.
- ٣- الغلاء الذي طالما شمل مختلف أنواع الغلال والبضائع ، وتزامن بزواء الطاعون مرات عديدة ، مما أوجب الصرف لمعالجة أسباب الأزمة والتخفيف من معاناة الناس.
- ٤- الأموال الطائلة التي توفرت لدى الشخصيات المتنفذة في البلاد في الوقت الذي كانت فيه خزانة بيت المال تعاني نقصا واضحا في الأموال .
- ٥- الاهتمام الشخصي عند الأشرف قايتباي بعمل المدارس والجوامع والمساجد وأميلة الماء ودور الأيتام وغير ذلك من المؤسسات الوقفية، ولا يمكن عمل هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية والتعليمية وإلا بالأموال الطائلة.
- كل هذه الأوضاع والمتطلبات استلزمت أموالا وفيرة للصرف عليها، مما اضطر الأشرف قايتباي إلى ممارسة أسلوب المصادرة عندما وجد تخاذلا عند الأغنياء عن مد يد العون، وكان يعلم تمام كما كان العلماء والقضاة يعرفون أساكن توفر الأموال في خزائن الأمراء وكبار الإداريين .

#### ٢- ضرب الفلوس :

في بداية سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م صدر قرار رسمي بتخفيض سعر الصرف ، فبعد أن كان سعر صرف رطل الفلوس يبلغ ستة وثلاثين درهما نقرة، أصبح بموجب هذا القرار أربعة وعشرين درهما نقرة فقط مما ترتب عليه خسائر مالية للناس<sup>(٣٨٨)</sup>. وقد استمر العمل بهذا القرار إلى العام التالي ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م عندما صدر قرار ثان بأن الفلوس القديمة والمتقاة من الرصاص والحديد بأربعة وعشرين درهما الرطل على عادتهم ، وضربت فلوس جدد، كل أربعة بدرهم ونصف ، والرطل بسنة وثلاثين درهما<sup>(٣٨٩)</sup>. ومعنى هذا أن دار الضرب تشتري الفلوس المشرومة أو المكسورة بسعر الرطل أربعة وعشرين درهما، ثم يتم سكها في دار الضرب فتنباع بسعر الرطل ستة وثلاثين درهما فيخسر من باعها ثلث ثمنها<sup>(٣٩٠)</sup>.

علاوة على ذلك صدر في عام ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م المرسوم السلطاني بالتأكيد على القرار السابق بأن تستمر قيمة الفلوس كما هي بحيث يكون سعر الرطل ستة وثلاثين درهما، فاستمر الناس يبيع الفلوس على دار الضرب بسعر رطل الفلوس أربعة وعشرين درهما ، بينما لي

حالة شراء اللولوس الجديدة فإن رطل الفلوس يحسب على المشتري سواء من التجار أو من غيرهم بستة وثلاثين درهما ، وبالتالي استمرت خسارة الناس بين البيع والشراء بما يعادل الثلث<sup>(١٣٩١)</sup> . وكذلك في ذي الحجة سنة ٨٧٩هـ / أبريل - نيسان سنة ١٤٧٥م ضرب الأشرف قايتباي فلوسا جديدة يعادل كل أربعة منها درهما واحدا ، وكل رطل بست وثلاثين فلوسا ، على أن تكون معادلة الرطل بالفلوس القديمة بأربعة وعشرين فلوسا فقط ، مما أدى إلى خسارة الناس الثلث من أموالهم<sup>(١٣٩٢)</sup> . ولاتذكر المصادر المعاصرة تفسيراً لهذا العمل الذي أقدم عليه الأشرف قايتباي وأدى إلى خسارة الناس ، ولذا فإن الأرجح هو تناقص المال في خزائنة بيت المال مما أدى إلى تراجع القيمة الشرائية للفلوس ، واستدعى الوضع الجديد سك فلوسا جديدة تتناسب مع الوضع المالي المسمى وتوفر شيئا من المال نتيجة إعادة سك الفلوس بأخرى جديدة .

وبالإضافة إلى ذلك في سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٦م أعلن رسياً التأكيد على معادلة الفلوس بستة وثلاثين للرطل وزنا لا عدا ، وإن التعامل بالفضة المضروبة والذهب يكون من خلال الميزان بعد أن خفت أوزانها بشكل واضح<sup>(١٣٩٣)</sup> . وهذه الإعلانات الرسمية الخاصة بضبط القيمة الفعلية للفلوس توضح وجود بعض مظاهر الغش والتلاعب في وزن الفلوس ، فلما اكتشف ذلك لجأ المسئولون إلى ضبط التلاعب بالمعاملات النقدية من خلال ضبط قيمة الفلوس بالميزان وليس بالعدد .

ويظهر أن الأشرف قايتباي كان يرغب في معرفة رأى الناس فيما أصدره من قرارات تتعلق بالقيمة الشرائية للفلوس القديمة والدرهم القضية والذهب فتحفى ذات يوم بزي المغاربة ونزل إلى الجامع الأزهر للصلاة . وكان يسأل - في بعض الطرقات - الناس عن رأيهم في أعماله وما اتخذ من قرارات وأمر ، وكان يسمع الإجابة على ذلك مباشرة ويصدق عفوياً من عامة الناس<sup>(١٣٩٤)</sup> . وهذا يؤكد دون شك أن الأشرف قايتباي كان شديد الحرص على معرفة الانطباعات العامة عند الناس نحو ما يأتيه من أعمال وقرارات ، وتأثير ذلك كله سلباً أو إيجاباً على معيشتهم وأسباب رزقهم . وربما تكون معرفته تلك سبباً في تثبيت القرارات ذات النتائج الإيجابية ، وإلغاء ما عدا ذلك . وهذا التلاقى السلطاني - الشعبي المباشر في أوضاع تلقائية غير مخطط لها ، ودون علم العامة بشخصية السلطان بين الرغبة السلطانية في عمل ما ينفع الناس ولا يتعارض مع المصلحة العامة للبلاد . وقد كانت المشاكل التي عاناه الناس في هذه الفترة هي سك الفلوس الجدد وغلاء التضائع ، ولهذا عند مرور الأشرف قايتباي في وسط القاهرة تحدث مع الناس في هاتين المشكلتين . فأمر الأشرف قايتباي بعقد مجلس ضم القضاة الأربعة وكاتب السر وناظر الحناس والمحاسب في المدرسة الصالحية حيث علم



المجسيع أن سبب المشكلة هو أن ناظر الخاص ضرب فلوسا جديدة تحمل اسم الأشرف قايتباي وأراد أن يطرحها بأعلى من الفلوس القديمة. فلما اشتدت حدة النقاش وتمسك ناظر الخاص برأيه في المفاضلة بين الفلوس الجديدة والعتيقة، و«سمع العوام بذلك ثاروا عليه في وسط المدرسة الصالحية ورجسوه ، ولولا كاتب السر كانوا قتلوه » (٣٩٥). وعند انتهاء الاجتماع اتفق المجلس على أن تكون الفلوس كلها العتيقة منها والجديدة بالميزان بسنة وثلاثين درهما للربط (٣٩٦)، فتادوا في القاهرة بذلك واستقرت الأحوال (٣٩٧). وعند التمعن في حيشيات هذه الواقعة يلاحظ الآتي :

- ١- حرص الأشرف قايتباي على الاستماع إلى شكاوى الناس والعمل في سبيل الوصول إلى حلول مناسبة لها لرفع الظلم عنهم، إلى جانب ما تنتطوى عليه هذه اللقاءات التلقائية من ساحة نفس الأشرف قايتباي في التعامل مع العامة مما شجعهم على مبادرة الطرح.
  - ٢- كان القضاة الأربعة وهم القائمون على تطبيق مبادئ الشرع الشريف عاملا فعالا ومساهما في العمل على وضع الحلول المناسبة لمشاكل الناس وتخفيف معاناتهم.
  - ٣- تظهر عملية الترويج للفلوس الجديدة التي تحمل اسم السلطان في صرورة الفرض القسرى في سبيل تحقيق هدف دعائي لاسم السلطان، وربما تحقيق منفعة مادية بفضل جهود ناظر الخاص السلطاني ، ولكن الأشرف قايتباي الذي كان شديد الحرص على المصلحة العامة وراحة الناس، أعطى صلاحيات مطلقة لمجلس أمر يعقده يضم القضاة الأربعة لوضع الحلول المناسبة للناس بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى.
  - ٤- تبرز هذه الواقعة بوضوح مساحة الحرية الكبيرة التي تمتع بها العامة في إبداء وجهة نظرهم واتخاذ مواقف صارمة ضد تسلط أصحاب السلطة وأطساعهم حتى ولو أدى الأمر إلى مراجعتهم علنا والتضادم معهم. ولعل هذا الموقف من العامة يطرح مسألة أهمية القوات اليومية للعامة من حيث الوفرة والسعر خلال هذا العهد المتأخر من تاريخ سلطنة المماليك حتى أصبحت هذه المسألة عنصرا محرما لطبيعة العلاقات بين العامة وأصحاب السلطة.
- ولكن يبدو وسبب تدهور الأوضاع عند الحدود الشمالية في عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م أن انخفضت القيمة الشرائية للدينار بحيث تقرر أن الدينار الفضة لا يصرف بأكثر من اثني عشر فلسا (٣٩٨). ومن ثم سوف يترتب على ذلك ارتفاعا واضحا في أسعار المواد الضرورية وخاصة الأطعمة.



## ٣- الطاعون :

عانت مصر والشام في عهد حكم الأشرف قايتباي من وباء الطاعون<sup>(١٣٩٩)</sup> أكثر من مرة، ففي عام ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م انتشر الطاعون في الإسكندرية ثم في القاهرة، وأخذ في الانتشار سريعاً خاصة بين الأطفال والماليك والعبيد والجواري والغرباء<sup>(١٤٠٠)</sup>. كذلك تسرب الطاعون بين طوائف الحملة المتوجهة نحو التركمان في العام ذاته، حيث توفي من أفرادها في أثناء الطريق أعداداً كبيرة<sup>(١٤٠١)</sup>. وازدادت وطأة الوباء في أنحاء القاهرة حتى صار الغرباء يموتون في الطرقات بعضهم على بعض، فعلم الأمير يشبك الدوادار الوزير مقسلاً كبيراً قرب مدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون حيث يتم نقل الموتى، فيكفنهم، ويخرجهم، ويدفنهم ويصرف عليهم من ماله، فكان في عمله هذا عوناً للناس في تلك المحنة<sup>(١٤٠٢)</sup>.

ومع مرور الأيام زاد الغلاء والفناء بمصر والشام حتى بلغت غرارة القمح بدمشق نحو الأربعين ديناراً وأكثر<sup>(١٤٠٣)</sup>. وتوفي في هذا الطاعون اثنين من أولاد الأشرف قايتباي هما: ولده أحمد وعمره أربع سنوات، وابنته ست الجراكسة وعمرها نحو ست سنوات<sup>(١٤٠٤)</sup>. وفي أواخر سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م بدأ الوباء في التناقص<sup>(١٤٠٥)</sup> بعدما قضى على كثير من الناس<sup>(١٤٠٦)</sup>.

كذلك في سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٧ انتشر الطاعون في القاهرة. وشمل الأعيان والماليك والأطفال والعبيد والجواري والغرباء<sup>(١٤٠٧)</sup>. كما انتشر الطاعون أيضاً في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م في بلاد الشام ومصر، وهلك فيه أعداداً كبيرة من البشر، وصحبه غلاء كبيراً شمل جميع المنتوجات الزراعية<sup>(١٤٠٨)</sup>.

## رابعاً : الوقف والتعمير :

## ١- الأوقاف :

انتشرت الأوقاف<sup>(١٤٠٩)</sup> في جميع أنحاء سلطنة المماليك، وكان الأشرف قايتباي حريصاً على متابعة شئون الأوقاف، ففي سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م أرسل الأشرف قايتباي الأمير ناصر الدين محمد النشاشيبي أحد الحزبانديين ليكون «ناظر أوقاف» الحرمين الشريفين بالقدس والجليل، ويتصدى لحل جميع المشاكل المتعلقة بهما، وإجراء جميع أسرار الصيانة ليهما. وبالفعل سافر النشاشيبي إلى القدس والجليل، وأصلح جميع الأحوال المتعلقة بالأوقاف ليهما

فسر الناس بذلك كثيراً<sup>(٤١٠)</sup>، كما عمل على توصيل الماء إلى القدس من العين القريبة منها<sup>(٤١١)</sup>، علاوة على ذلك أنشأ الأشرف قايتباي في سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م مدرسة بالقدس، ورتب بها صوفية وقتها، وعين لها أوقافاً بمدينة غزة، وحدد عدد الصوفية فيها بستين صوفياً، لكل فرد منهم خمسة عشر درهما شهرياً، وجعل للطلبة فيها لكل طالب خمسة وأربعين درهماً، وعين عدداً من الموظفين للإشراف عليها مثل القراش واليواب، وجعل لشيخها شهاب الدين العميري في كل شهر خمسمائة درهماً<sup>(٤١٢)</sup>، وقد توجه الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م - بصحبة عدد من الأمراء - إلى القدس حيث تفقد أحوال الناس فيها، وتصدق على الفقراء بمبلغ ستة آلاف دينار، وأمر ببناء جامع وسبيل فيها، وقد كان لهذه الزيارة وقع كبير في نفوس الناس في تلك المناطق<sup>(٤١٣)</sup>، وبعد ذلك في السنوات التالية أنشأ الأشرف قايتباي مدرسة أخرى في القدس، وعندما انتهى بنائها في جمادى الآخرة سنة ٨٨٠هـ / يونيو حزيران ١٤٨٥م عين في مشيختها كمال الدين بن أحمد أبي شريف المقدسي<sup>(٤١٤)</sup>.

كذلك عندما حج الأشرف قايتباي وجد أن أهل المدينة المنورة يعانون «من القحط الإجماع من عدم المؤنة والقوت»<sup>(٤١٥)</sup>، فخصص في سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م مبلغ ستون ألف دينار لشراء أملاك في بلاد الحجاز تكون وقفاً على حرم المدينة المنورة وسكانها، وليصنع منها في كل يوم خبزاً وطعاماً للفقراء والمحتاجين والواردين<sup>(٤١٦)</sup>، كما خصص الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م بعد عودته من الحج - بحضور القضاة الأربعة والأمراء ستون ألف دينار ذهب من ماله الخاص لشراء ضياع وأماكن ربيع تستثمر لصالح أهل المدينة المنورة الذين سألوا في قاعة زائدة من عدم الأقوات، فأراد أن يوقف ما يمكن أن يوفر لهم مواد الطعام اليسرى<sup>(٤١٧)</sup>، إلى جانب ذلك أمر الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م بإنشاء مدرسة في المدينة المنورة، وجعل لها شبابيك تظل على الحرم النبوي<sup>(٤١٨)</sup>.

وقد كان جزء كبير من الأوقاف في سلطنة المماليك تحت إشراف القضاة، وكان الأشرف قايتباي يتابع إدارة هؤلاء القضاة للأوقاف ويغضب عند إخلال بعضهم بمسئولته كما حدث سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م عندما غضب غضباً شديداً على قاضي القضاة الشافعية واتهمه بخراب الأوقاف، ووخه توبيخاً شديداً إلى درجة أن قاضي القضاة الشافعية طلب من الأشرف قايتباي «أن يخرج الأوقاف عنه ويصير القضاء معه بلا أوقاف»<sup>(٤١٩)</sup>، لقد كان الأشرف

قايتباي حريصاً على حسن أداء القائمين بالمسئوليات الإدارية في مختلف دواوين السلطنة بكافة اختصاصاتها ، وقام بإدارة الأوقاف على رأس اهتمامات الأشرف قايتباي ، كما عرف عنه مواقف الصارمة نحو أي أمر فيه مساس بسمعة من متول الأوقاف ، من ذلك مثلاً عندما تناول القضاة الأربعة في المجلس السلطاني في سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م سوء إدارة قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الغزي لأوقاف الحنفية أمر الأشرف قايتباي بالقبض عليه في المجلس العام ، والتوجه به إلى المدرسة الصالحية ليقوم بحساب أوقاف الحنفية ، واستمر تحت الحراسة إلى أن عزل من وظيفته (٤٢٠) ، وزيادة على ذلك فإنه عندما أقدم جلال الدين عبد الرحمن بن سويد المالكي على بيع أوقاف كانت موقوفة على مدرسة جده فقد عوقب عقوبة شديدة ، وأجبر على رد المال الذي أخذه مقابل هذه البيعة (٤٢١) ، ومن ثم اجتهد كبار المسؤولين على حسن رعاية الأوقاف ، ففي سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م حضر إلى القدس الأمير جاثم الخاصكي ناظر الجوالي لجمع الضرائب المفروضة على أهل الذمة مقابل الإعفاء من الجهاد ، فبدأت عملية جمع الضرائب ، فجمع له من أهل الذمة ثلاثمائة دينار ، ومن جملة الأوقاف ما بين تسعمائة إلى ألف دينار ، فأخذ الضرائب المجموعة من أهل الذمة ، وأعاد جميع ما جمع من أموال الأوقاف ، قسر الناس بذلك كثيراً (٤٢٢) .

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الأشرف قايتباي بنى في أواخر سنة ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م تربته بالصحرَاء ، وجعل لها جامعاً بخطبة ، وقرر فيها صوفية ، وإنشأ للصوفية صوامع خاصة وحوضاً وصهريج ماء (٤٢٣) ، بالإضافة إلى ذلك توجه الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م إلى الجامع والسبيل اللذان أنشأهما في منطقة الخطارة للاطلاع على حسن سير البناء فيهما ، كما توجه أيضاً نحو الدرب السلطاني لزيارة الحوض الذي أنشأه هناك . وكان المشرف على بناء هذه الأوقاف هو الأمير يشبك (٤٢٤) الجمالي (٤٢٥) ، وفي ذات السنة استمرت العمارة في المدرسة التي أنشأها بالرواق الشرقي في المسجد الحرام (٤٢٦) ، وقد زار الأشرف قايتباي مدرسته هذه ورياضته في مكة سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م (٤٢٧) ، وتم تعيين قضاةها وقضاةها في سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م . أما في القاهرة فقد أمر الأشرف قايتباي في سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٧م بعمل إصلاحات في الجامع الأزهر بلغت حوالي عشرة آلاف دينار (٤٢٨) ، وربما كان اهتمام الأشرف قايتباي بالعلم مع تدبئه الواضح وميله إلى التصوف من الأسباب التي جعلته لا يفرق في العلم بين ذكر وأنثى ، ولهذا السبب فعندما توفي الشيخ قليج الرومي الأدهمي شيخ زاوية

الأشرف قايتباي بالمرج والزيات قررت في مشيخة الزاوية امرأة وهي زوجة الشيخ قليج، وبعد هذا التعيين من الأمور النادرة الوقوع حسب قول المؤرخ ابن إياس<sup>(٤٢٩)</sup>.

ومن اللافت للنظر أنه عندما أفضى الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشيني الأشرف قايتباي بتحليل ما يجسى إليه من أجرة أملاك الأوقاف، وعلم العامة بذلك فشاروا على الشيخ الشيشيني وقصدوا قتله، فاستمر مختفيا حتى توجه إلى مكة وجاور فيها مدة (٤٣٠). ولكن من جانب آخر وفي مجال جمع الأموال نتيجة الحاجة يلاحظ في سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م أن وصل إلى القدس قائم الحماكي<sup>(٤٣١)</sup> للكشف على أوقاف المدارس، فاستخرج من الأوقاف أموالا بلغت ألف وخمسمائة دينار، فتضرو من ذلك القراء والفقهاء الذين كانوا يعتمدون على إيرادات الأوقاف في رزقهم<sup>(٤٣٢)</sup>.

ومن اللافت للنظر كثرة إشارات مؤرخي سلطنة المماليك إلى وفيات بين الحجاج والجمال في رحلات الحج نتيجة العطش، كما يشير المؤرخ ابن إياس إلى هذا أيضا<sup>(٤٣٣)</sup>، مما يطرح سؤالا ملحا لماذا لم يعمل الأشرف قايتباي على إيجاد حل لهذه المشكلة على الرغم من الأعمال الخيرية والأوقاف الكثيرة التي عملها؟ وهل يعود هذا إلى ندرة مناطق الاستقرار والتقى والواحات على طريق الحج نتيجة عدم توفر عوامل الاستيطان في المناطق الصحراوية؟ أم أن القيام بعمل هذه المشروعات كان مكلفا ماليا في الوقت الذي كانت تعاني فيه سلطنة المماليك من سوء الوضع الاقتصادي وتفاقم الأخطار الخارجية؟ بل أكثر من ذلك أنه في سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م كان نزول الأمطار قليلا في مكة، فجفت الآبار، وتوقفت العين التي أجراها الأشرف قايتباي، وتضرر أهل مكة كثيرا من ندرة الماء<sup>(٤٣٤)</sup>، ويبدو أن عدم توفر الماء ساء للحجاج أو لأهل مكة كان من المشاكل التي استمرت في الظهور من وقت لآخر دون أن تنجح السلطة الملوكية في إيجاد حل لهذه المشكلة وآثارها المتعددة إما لصعوبة حلها أو لقلّة المال المتوفر. ولذا في بيت المال نتيجة الظروف الصعبة التي أحاطت بسلطنة المماليك إبان هذه الحقبة.

## ٢- الإنشاءات العمرانية :

اهتم الأشرف قايتباي ورجال دولته بالعمارة خاصة في مجالات الأوقاف والمؤسسات واستحدثت مناطق استيطان جديدة. كما كان الاهتمام كبيرا بالمواد المستخدمة في البناء، والأساليب المتبعة في التشييد حتى ترك هذا العهد كما هائلا من المنشآت العمرانية. لقد بنى الأشرف قايتباي في بداية عهده سبيل ماء في خط القشاشين كان غاية في جمال

العصارة<sup>(١٤٣٥)</sup>. كما كان الأشرف قايتباي شديد العناية بعصارة الجسور في جميع أنحاء البلاد شمالاً وجنوباً<sup>(١٤٣٦)</sup>. بالإضافة إلى ذلك توجه الأمير تراز الشمسى<sup>(١٤٣٧)</sup> في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م إلى الغربية للكشف على الجسور. واستمر في القيام بهذه الرحلات الكشفية بانتظام سنوياً حيث تستغرق إقامته في مناطق الغربية أشهراً لاستكمال مهمته<sup>(١٤٣٨)</sup>.

كذلك حرص الأشرف قايتباي أثناء تجواله في رحلاته الكثيرة على الكشف عن الجسور ، ففي سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م « توجه وكشف على جسر بلبيس ، وأهان كاشف بلبيس وحرظه على عصارة الجسور، وتوجه لشيبين وغيرها من البلاد لعمل مصالح الجسور والعباد وإزالة الظلم والفساد »<sup>(١٤٣٩)</sup>. كذلك رحل الأشرف قايتباي في أواخر سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٨م إلى جهة منوف العليا، وكشف عن جسورها. وأمر بإصلاحهم وأقام هناك أياماً، ثم غادرها متوجهاً إلى الفيوم والجيزة<sup>(١٤٤٠)</sup>. كما توجه الأشرف قايتباي في محرم سنة ٨٨٨هـ / يناير - كانون الثاني سنة ١٤٨٣م إلى ناحية سنبت من أجل الكشف على الجسور<sup>(١٤٤١)</sup>. ولا شك إن هذه الرحلات الاستكشافية تظهر اهتمام الأشرف قايتباي بالمراقبة المباشرة شخصياً على المنشآت العامة، والتأكد من متانة أبنيتها ، وتلمس مناطق الخراب فيها من أجل إصلاحها في سبيل المنفعة العامة. بالإضافة إلى ذلك غادر الأشرف قايتباي القلعة في محرم سنة ٨٩١هـ / يناير - كانون الثاني سنة ١٤٨٦م متوجهاً إلى إقليم الشرقية للكشف عن الجسور فيها حيث أمضى هناك بضعة أيام<sup>(١٤٤٢)</sup>.

ومن الجدير بالذكر ظهور منطقة الأزبكية حيث أنشأت هذه المنطقة الحديدية سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٦م على يد الأتابك أزيك الظاهري الذي حول تلك الأراضي الخراب السبخة إلى منطقة مستقرة مزدهرة حيث صرف عليها ما يزيد على مائتي ألف دينار من أجل بناء القاعات الجليلة والدور الفخمة والحدائق الغناء، كما بنى فيها بركة كبيرة كانت مقصد الزائرين. بالإضافة إلى جامع كبير ذو منذنة عظيمة . ثم بنى الناس القصور الشامخة حول البركة مع جملة من الدور الفاخرة، فظهرت منطقة جميلة في غاية الفن المعماري. ونسبت المنطقة كلها إلى الأمير أزيك، كما أعطاه الأشرف قايتباي ورقة شرعية بملكية الأرض. وقد كانت أرض الأزبكية في السابق وفقاً على خزائن السلاح ، ولكن إهمالها وخراب أطرافها أدى إلى عدم منفعتها حتى عمرها الأمير أزيك ، ثم أصبحت بإقبال الناس على السكنى فيها مدينة جميلة<sup>(١٤٤٣)</sup>.



بالإضافة إلى ذلك بدأ الأمير يشيك الدوادار في صفر سنة ٨٨٢هـ / مايو آيار سنة ١٤٧٧م في مشروع توسيع الطرقات والشوارع في القاهرة، وحصل على قسوة قضائية يهدم كل ما وضع في الشوارع والأسواق - بغير طريق شرعى - من أبنية وحوانيت وسقاييف ومصاطب وغيرها. واستمر الهدم حتى العام التالي ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م، وترتب على ذلك توسيع الطرقات والشوارع، ولكن جماعة من الناس تضرروا نتيجة هدم حوانيتهم وروصهم<sup>(٤٤٤)</sup>. وعندما غادر الأشرف قايتباى القاهرة إلى الشام في سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م اجتهد الأمير يشيك الدوادار في إصلاح أبواب الجوامع والمساجد، وجلى الرخام قبيهم، وتبييض حيطانهم، وتبييض واجهات المباني المطلية على الشوارع مثل الدكاكين والربوع، «حتى عادت القاهرة كأنها كما استجدت في بنائها وتزخرفها»<sup>(٤٤٥)</sup>، كما أصلح أبواب القاهرة وعتباتها، مع توسيع الطرقات وتسوية أرض المنافذ حتى يسهل الانتقال عليها<sup>(٤٤٦)</sup>. كذلك بدأ الأمير يشيك الدوادار في سنة ٨٨٤هـ / ١٤٨٠م في بناء القبة التى انشأها في رأس دور الحسينة، ثم خرب عدة ترب حولها وبني مكانها بساتين وحقول ومجارى وسواقى لكي تكون إحدى منتزهات القاهرة. وكانت القبة أية في جمال العمارة<sup>(٤٤٧)</sup>. ولكن يبدو أن بناء بعض جوانب القبة لم يستكمل، ولهذا نزل الأشرف قايتباى بنفسه للكشف عليها حيث أمر بإكمال عمارتها لأن الأمير يشيك توفي قبل أن يتم إنجاز البناء بشكل نهائى<sup>(٤٤٨)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك أمر الأشرف قايتباى في سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م يهدم جامع الروضة<sup>(٤٤٩)</sup> وإعادة بنائه مرة أخرى وعين البدرى حسن بن الطولونى<sup>(٤٥٠)</sup> شادا على عملية البناء. وصار الأشرف قايتباى يتردد على الروضة بين حين وآخر لمتابعة بناء الجامع<sup>(٤٥١)</sup> حتى انتهى العمل به سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م، وقد كان غاية في الحسن والزخرفة. «وصار يعرف بجامع السلطان»<sup>(٤٥٢)</sup>. كذلك تم تجديد جامع القلعة في سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م حيث جددت القبة والمحراب والمنبر، وحرص الأشرف قايتباى على أن يكون المنبر من الرخام الملون بدلا من الخشب، كما جدد عمارة الميضاة التى بالجامع، فجاءت من أجمل المباني<sup>(٤٥٣)</sup>. كما اهتم الخراجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى<sup>(٤٥٤)</sup> في سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م بتجديد الجامع الأزهر، وصرف عليه من ماله خمسة آلاف دينار، فأصبح غاية في الحسن. وقد شمل التجديد الجدران والسقف وستين عمودا من أجود مواد البناء. كما تم تجديد الميضاة وقناتها التابعتين للجامع<sup>(٤٥٥)</sup>. علاوة على ذلك أمر الأتابكى أزينك الظاهرى في سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م



بتجديد عمارة المدرسة المتصورية، وعمل على الفسقية التي بها قبة، وجدد بها منبراً، وأقام بها خطبة وخطب بها (٤٥٦).

ومن جانب آخر تعرضت سواحل دمياط والإسكندرية في محرم سنة ٨٧٨هـ/ مايو - أيار سنة ١٤٧٣م لاعتداءات متفرقة من القراصنة الفرنجية حيث تم أسر بعض المسلمين، مما جعل الأشرف قايتباي يرسل الأمير قجماس الظاهري في عدة مراكب لتطهير السواحل من أي تواجد فرنجي (٤٥٧) وتحصينها بالأبراج الاستطلاعية والدفاعية (٤٥٨). كذلك سافر الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م إلى الإسكندرية مع مجموعة كبيرة من الأصرار والمباشرين لروية السرج (٤٥٩) الذي أمر بعمارتها (٤٦٠) في الإسكندرية بعد انتهاء العمل به. وكان الهدف الأساسي من بناء هذا البرج هو حماية سواحل سلطنة المماليك - خاصة في تلك المناطق - من اعتداءات القرصنة الفرنجية، وبلغت تكلفته زيادة عن مائة ألف دينار (٤٦١). كما اعتنى الأشرف قايتباي بتحسين جميع سواحل سلطنة المماليك ضد اعتداءات مراكب القرصنة الفرنج، من ذلك على سبيل الذكر إنشاء سلسلة من الحديد زنتها نحو مائتي وخمسين تنطارا من الحديد عند نقطة التقاء فرع دمياط (٤٦٢) بالبحر الأبيض المتوسط وذلك في عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م. وقد كانت هذه السلسلة فعلا ذات منفعة كبيرة في حماية تلك السواحل من حركات القرصنة الفرنجية (٤٦٣). وعلى ذلك هل يمكن القول هنا بأن المدن في سلطنة المماليك في تلك الفترة كانت مفتوحة بدون حراسة على أطرافها مما كان يتيح الفرصة للمفسدين للعبث في حدودها؟! وهل كان تفاقم طابع المركزية مع تناقص أعداد كبار الإداريين من ذوي الخبرة الشديدة على مصلحة البلاد وأمنها من أسباب تكرار حدوث هذه الأزمات الأمنية داخل البلاد؟ وما سبب تقاعس الأشرف قايتباي عن عدم اتخاذ قرارات حاسمة وجذرية بشأن مسؤوليات الأمن الحدودي؟ من دراسة مجريات الحوادث في هذه الفترة يمكن القول بأن سلطنة المماليك كانت تسير إداريا بفعل مؤسساتها البيروقراطية، كما استطاعت أن تفرض هيبتها العسكرية على الحدود الشمالية بفضل الكفاءة الحربية لفتات العسكر المملوكي، ولكن وجود الشخصية المملوكية المؤثرة للمصلحة العامة بات ضعيفا أمام إنشغال البعض في تحقيق الرغبات المادية والأطماع الشخصية والمنافع الخاصة، ولذا برزت شخصية الأشرف قايتباي تعمل جاهدا في محاولات متتالية لدفع الأخطار، ولكن نتائجها كانت محدودة أحيانا نتيجة تناقص العناصر المعطاءة من أجل الصالح العام للبلاد. ولهذا فمع ما توفر لهذه الشخصية

الحاكمة من أمانة ، وقوة إرادة ، وعزيمة قوية فإن قلة وجود مثيل لها أضعف آلية الحكم ، ولكن المنشآت العمرانية والمؤسسات الوقفية الدينية والاجتماعية والتعليمية تثبت أنه عهد عطاء وعمل بلا حدود .

وضمن إنجازات الري والسقاية قرر الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٩م إصلاح القناطر التي كان قد أمر بإنشائها في الجزيرة بإشراف الأمير أزيك الطاهري ، وكانت قد تهدمت . وقد أظهرت عملية الكشف الابتدائي أن إصلاحها يتطلب أموالاً طائلة (٤٦٤) . وقد تم الانتهاء كلياً من عملية إصلاح قناطر الجزيرة هذه في سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م بعناية الأمير أزيك ، فجاءت من أجمل العمارات السلطانية . وبلغت تكلفتها الإجمالية مائة ألف دينار (٤٦٥) . كذلك أمر الأشرف قايتباي في سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م بعض المسؤولين بالتوجه إلى تواجي الجزيرة لعمل قناطر فيها ، وتم ذلك حيث صرف عليها الأشرف قايتباي خمسة آلاف دينار ، كما بنى قربها رصيفاً للمسافرين فكان فيه منفعة كبيرة للناس (٤٦٦) . بالإضافة إلى ذلك أمر الأشرف قايتباي في سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م بتجديد عمارة قناطر بني المنجا حيث صرف على ذلك سبعة آلاف دينار ، فأصبحت من أجمل المباني (٤٦٧) . علاوة على ذلك أنشأ الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م زاوية وحوض وسبيل عند قناطر المرج والزيات في الخانكة ، وحرص على حسن إتمام البناء (٤٦٨) . كما أمر الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م بتجديد قاعة المقياس بالروضة بحيث تشمل العمارة الأساس والهيكل بكافة أجزائه (٤٦٩) . ومن ناحية أخرى عندما علم الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م أن حريقاً وقع في المسجد النبوي بالمدينة المنورة بسبب صاعقة خربت المنبر والمحيطان والأعمدة والأبواب بادر بتعيين الخوaja شمس الدين محمد بن الزمن لكي يتوجه إلى المدينة لعمارة المسجد ، وأرسل صحبته عدة من البنائين والتجارين والمخمين وغير ذلك من المختصين بشئون البناء . وقد استغرقت عملية البناء هذه قرابة عام كامل فجاءت التجديدات من أجل الأبنية وأعظمها ، وتكلفت عملية البناء حوالي مائة ألف دينار (٤٧٠) .

## خامسا : النتائج :

من دراسة جوانب الوضع الداخلى فى عهد حكم الأشرف قايتباى يمكن تحديد بعض ملامح هذه الفترة المتأخرة من تاريخ سلطنة المماليك وهى كما يلى :

- ١- كثرة حدوث ظاهرة الغلاء التى شملت جميع أنواع المواد الغذائية الأساسية.
- ٢- استمرار النشاط العمرانى الذى شمل مختلف المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية ، وكافة مرافق العمل الوظيفى ، وكل ما يتعلق بتنمية الجهات ذات الصلة المباشرة بالإنتاج الزراعى مثل الجسور والقناطر والقنوات والسدود وغير ذلك ، إلى جانب تشييد مراكز الدفاع عن الحدود مثل قلعة الأشرف قايتباى فى الإسكندرية.
- ٣- حرص الأشرف قايتباى على استمرار العلاقة الطيبة مع العلماء سواء قضاة القضاء أو شيوخ الدين من أجل تأسيس قواعد حكم مستقر قائم على قواعد المشورة والتشاور.
- ٤- اشتداد التهديدات الحربية من المماليك التركمانية فى العراق وشمال بلاد الشام وأرمينيا الصغرى ، مما جعل سلطنة المماليك خلال هذه العهد فى حالة تأهب حرسى طوال الوقت ، وكانت الحملات العسكرية ضد التركمان كثيرة ومتواصلة.
- ٥- تفاقم وقوع ثورات العربان فى أقاليم مصر الشرقية والغربية والصحيد ، حيث استلزم هذا الوضع المضطرب من السلطة القائمة جهودا كبيرة ، وأموالا كثيرة ، وأوقانا طويلة ، وقد اجتهد الأشرف قايتباى مع الأمراء المماليك فى محاولات عديدة وحملات تأديبية من أجل إخضاع جماعات العربان وإرساء قواعد الاستقرار فى أنحاء البلاد .
- ٦- إدراك الأشرف قايتباى بأن مهمة الدفاع عن السلطنة المملوكية لم تعد مستولية المماليك وحدهم وإنما يشترك معهم فى ذلك الرعية ، ولهذا بدأ يفكر فى إمكانية مساهمة العامة فى هدف الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الشمالية وخاصة الخطر العثماني الذى كان يهدد الحدود الشمالية .
- ٧- الاندماج التلقائى بين الأشرف قايتباى والعامة سواء فى طرقات القاهرة ، أو فى مساجد الضواحي ، أو عند الجامع الأزهر ، فكان يؤم الصلاة والعامة من خلفه ، ويشارك فى الجنازات الفقيرة ، ويسأل الناس فى الطرقات - وهو متنكر فى لباس مغربى - عن أحوالهم ومشاكلهم.

٨- التصميم على مسالة كل من تشار حوله الشكوك من كبار المسؤولين حيث يتم توقيفه ومساءلته والتقصي عن كافة ما تحت يده من سجلات ، فإن ثبت صدق تلك الشكوك، تتم معاقبته وعزله من وظيفته ومصادرة أمواله.

٩- تفوق النشاط العمراني سواء من قبل الاهتمام السلطاني أو العناية الأميرية حيث ظهرت مناطق جديدة اختطت لأول مرة في القاهرة بمنزلها وحدائقها ورسايتها مثل الأزبكية التي أنشأها الأمير أزيك. وما زالت موجودة إلى وقتنا الحاضر.

١٠- النفقات الباهظة التي تكلفتها الحملات الحربية ضد التركمان والعثمانيين مما أرق خزائنة بيت المال، والحزانة السلطانية ، علاوة على ما تكبده المماليك والعامه من مدفوعات بشكل مباشر أو غير مباشر من أجل تمويل الحملات الحربية .

١١- الفتن المتكررة التي اقترفها المماليك الجلبان فعمت نتائجها السلبية العامة والخاصة على السواء، بل كانت سببا في كثير من الأحيان في تشنج الأحوال الاقتصادية، وصعوبة الحصول على القوت اليومي. ومن جانب آخر كان المماليك الجلبان غير مدركين للأوضاع المالية السيئة التي كانت تعيشها سلطنة المماليك في ذلك الوقت حيث انحصر اهتمامهم الرئيسي في الحصول على مرتباتهم وتصيبهم من المؤن المختلفة حتى شكلوا - في كثير من الأحيان - خطرا كبيرا أثار مخاوف مختلف الطبقات.

١٢- وقعت خلال عهد الأشرف قايتباي مصادرات كثيرة للأمرء المماليك وكبار موظفي الدولة لأسباب مختلفة تمت الإشارة إليها في حيثيات الدراسة، وبأتى على رأسها بشكل غير مباشر الخطر العثماني الكبير الذي كان سببا رئيسيا للحاجة إلى المال للمصرف على تجهيز الحملات العسكرية المملوكية.

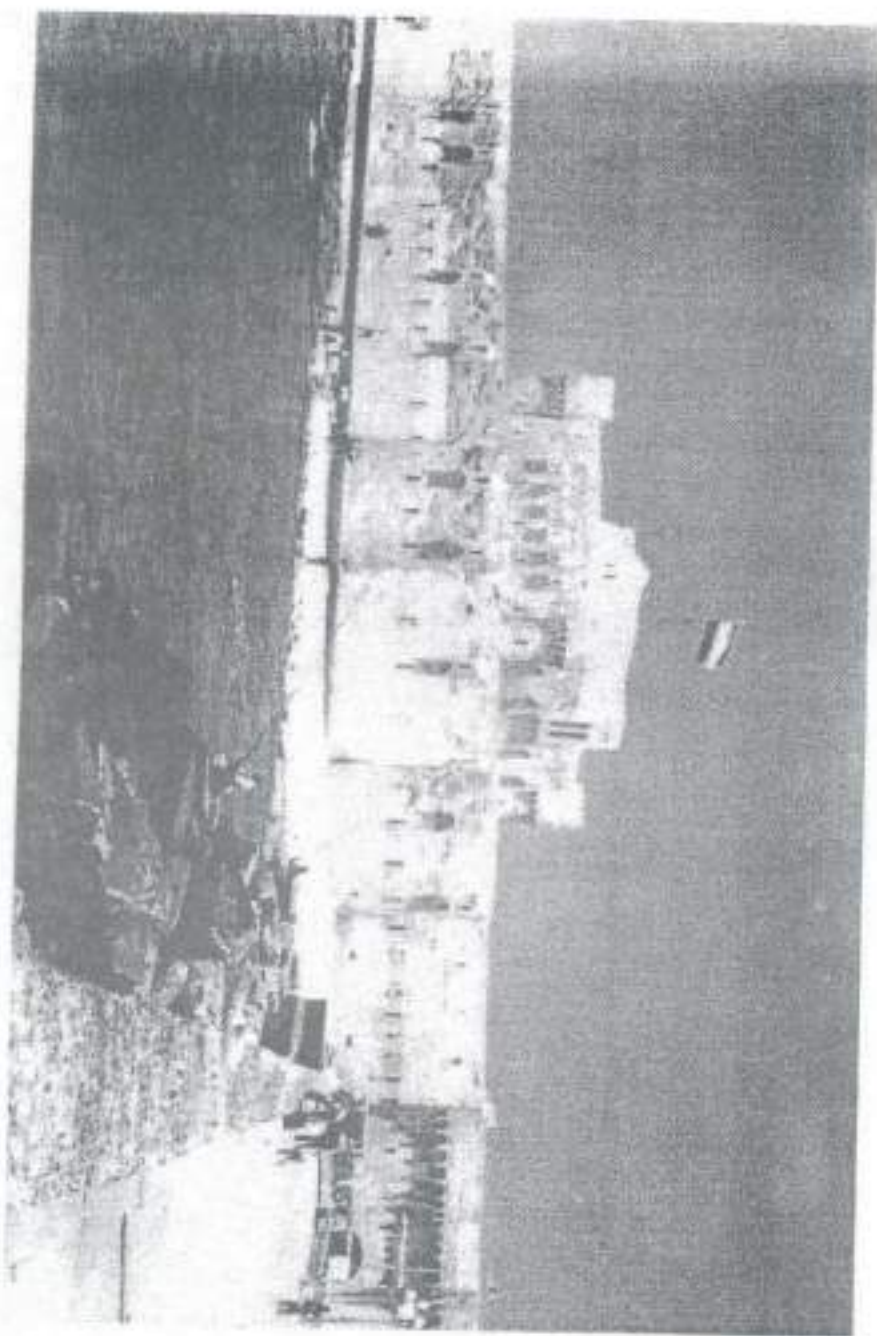
١٣- الموقف الصارم والصریح الذي وقفه الأشرف قايتباي مع « أولاد الناس » وهم المماليك أصحاب الإقطاعات والمرتبات الذين ليست لهم مساهمات عسكرية في الدفاع عن سلطنة المماليك، حيث أجبرهم مقابل هذا الإعفاء عن المشاركة الحربية على دفع كافة نفقات ومستلزمات من يقوم بالخدمة العسكرية بدلا عنهم.

١٤- ظاهرة تحزب بعض الأمرء لطوائف المماليك الجلبان، فأصبح كل أمير يتزعم طائفة من المماليك الجلبان، الأمر الذي زاد من حدة النزاع بين طوائف المماليك ، وكان سببا رئيسيا في إثارة الفتن.

- ١٥- ظهور شخصيات أميرية من المساليك شغفت بحب العلم وطلبه والتخصص فيه، مثل المنصور عثمان بن السلطان الظاهر جقمق الذي كان شخصية جليلة، وقد تخصص في مذهب أبي حنيفة حتى صار مفتيا في طبقة العلماء بعيدا عن السلطة وشؤونها .
- ١٦- اهتمام الأشرف قايتباي بالأوقاف سواء داخل مصر والشام أو عند الحرم الشريف والحرمين النبوي والقدسي، حيث كان لا يتردد في الصرف على الأوقاف، وتأمين المال اللازم لمن يعيش على أوقاف هذه الأماكن المقدسة كما عنى الأشرف قايتباي بإنشاء المراكز الوقفية المختلفة وتوفير الربيع الوقفي المناسب لها من خلال رصد الأوقاف المختلفة.
- ١٧- ازدهر عصر الأشرف قايتباي بعدد من كبار المؤرخين الذين عاصروا فترة حكمه مثل السخاوي والصيرفي وابن إياس والسيوطي، فجاءت تسجيلاتهم شهادات عيان يمكن الاعتماد عليها، والرجوع إليها، والاحتجاج بها.



قائمة قاتيلاي





## الهوامش

- ١- محمود بن رستم الرومي البرصاوي تاجر الأشرف قايتباي ووالده مصطفى، انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ١٣٦.
- ٢- الظاهر حقيق أبو سعيد الجركسي، كان مملوكا لإيغال الجركسي الذي ربا، وعلمه وأعتقه. خلع السلطان العزيز جمال الدين يوسف وتسلطن مكانه في سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م. كان ملكا عادلا، متديبا، كثير الصوم والصلاة، عفيفا عن المنكرات، متقشقا، متواضعا، متفندا للأوقاف. كما كان يحب العلم والعلماء. توفي في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م. انظر المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١-٧٤.
- ٣- المساليك الحاصرية: وهم الساليك السلطانية الذين كانوا مقرنين من السلطان، وكانت لهم الإقطاعات والرواتب ومنهم تولى الأمر، رتبة بعد رتبة. وكان عددهم كبيرا في عهد الأشرف قايتباي وأغلبهم من الشراكسة الجلبان. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥-١٦.
- ٤- السلطان قريبا: تولى حكم سلطنة الساليك لفترة قصيرة سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م، ثم تحولت السلطنة إلى الأشرف قايتباي وتم عزل الظاهر قريبا. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٤٠-٤١.
- ٥- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢٠١-٢١١، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٢١٠، ٢٣٢، ٢٥٣؛ الذيل على رفع الأصر، ص ٣٧، ١٤٧، ١٨٥، ٢١١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٨١٩ - ٨٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٣٩٤ - ٣٩٦؛ العليسي، الأوس الجليل، ج ٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣، ٢٨٤؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج ١، ص ٢٩٧ - ٣٠٠؛ القرماني، أخبار الدول وأماز الأول في التاريخ، المجلد الثاني، ص ٣١٨ - ٣٢٠؛ العصامي، سبط النجوم العوالي، ص ٤٢ - ٤٨.
- ٦- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢٠١-٢١١؛ الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٣٢٧؛ الذيل على رفع الإصر، ص ٣٧، ١٤٧، ١٨٥، ٢١١؛ ابن الشحنة، السمر الزاهر، ص ٤٣-٤٤؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج ١، ص ٢٩٩؛ العليسي، الأوس الجليل، ج ٢، ص ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٣.
- ٧- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٤.
- ٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٥.
- ٩- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠.

١- انظر الخريطة رقم (١١) .

١١- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

١٢- السخاوي ، الضرع اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ ، العليسي ، الأئس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

١٣- السخاوي ، الضرع اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

١٤- الصيرفي ، أنباء النهصر ، ص ٣٣٣ ، ٤٠١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

١٥- السخاوي ، الذيل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٥٥٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ،

ص ٦٦ .

١٦- الصيرفي ، أنباء النهصر ، ص ٤٠٤ .

١٧- المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

18- Petry , Fractionalized Estates in a Centralized Regime: The Holdings of al- Ashraf Qaytbay and Qansuh al- Ghawri according to their Waqf Deeds, p. 133, J.E.S.H.O., vol 41, part 1 .

١٩- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٢٤ .

٢٠- السخاوي ، الذيل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٤٠٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ،

ص ١٣٢ .

٢١- إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

٢٢- العليسي ، الأئس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

٢٣- أربك الظاهري ، أصبح حاحب الحجاب في عهد السلطان الأشرف قايتباي ثم تولى رأس نوبة النوب .

ثم أصبح أتاكيا للعسكر ، وكان كثير الحج كثير الكرم والعطاء . . ونال منزلة كبيرة . وانشأ منطقة

الأريكية في مكان كان عبارة عن خرائب . ويعد من أحسن الأمراء عملاً وعطاءً وعبادة وتواضعاً .

انظر السخاوي ، الضرع اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٧٠-٢٧٢ .

٢٤- بشيك من مهدى الظاهري الدوادار . لعب دوراً كبيراً في تسلطن الأشرف قايتباي . وكبرت

مكاتبه ، وكثرت أمواله وتزايدت وجاهته . وتولى الدوادارية الكبرى . وكان يساعد في العسك على

الحملات العسكرية ضد التركمان من ماله الخاص . وتولى الوزارة والانشادارية معاً . ولعب دور في

إعادة الكنيسة اليهودية لطائفها عندما خربها المسلمون. وبلغ منزلة عظيمة لم يصل إليها أمير من قبل - ريتي وكثالة بخان الخليلي وريعا وعمل بالقرب منه سيلا ومدرسة - وبنى مقابل مدرسة السلطان حسن ريعا وحوضا ومغسلا للأسموات ومكتبا للأيتام - وبنى قبة عظيمة وإنشأ قبلها تربة عظيمة فيها شيخ وصوفية وجانبها سبيل للشرب وحوض للبهائم وبحيرة عظيمة بحرى منها الماء إلى مزروعات قريبة - وتوفى سنة ٥٨٨٥ / ١٤٨٠م. انظر المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٤ .

٢٥- ابن إياس - بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٦٠ .

٢٦- المصدر ذاته .

٢٧- المصدر ذاته .

٢٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠، ١٦١، انظر كذلك السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٨١٩ .

٢٩- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٦١ .

٣٠- المصدر ذاته .

٣١- المصدر ذاته .

٣٢- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠ .

٣٣- المصدر ذاته .

٣٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٢ .

٣٥- انظر الخريطة رقم ٢ .

٣٦- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٥٠ .

٣٧- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٣ .

٣٨- شاد بك الفقيه، أمير الراكز في مكة وتوفى سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م. انظر السخاوي، الضوء،

اللامع، ج ٣، ص ٢٩٠ .

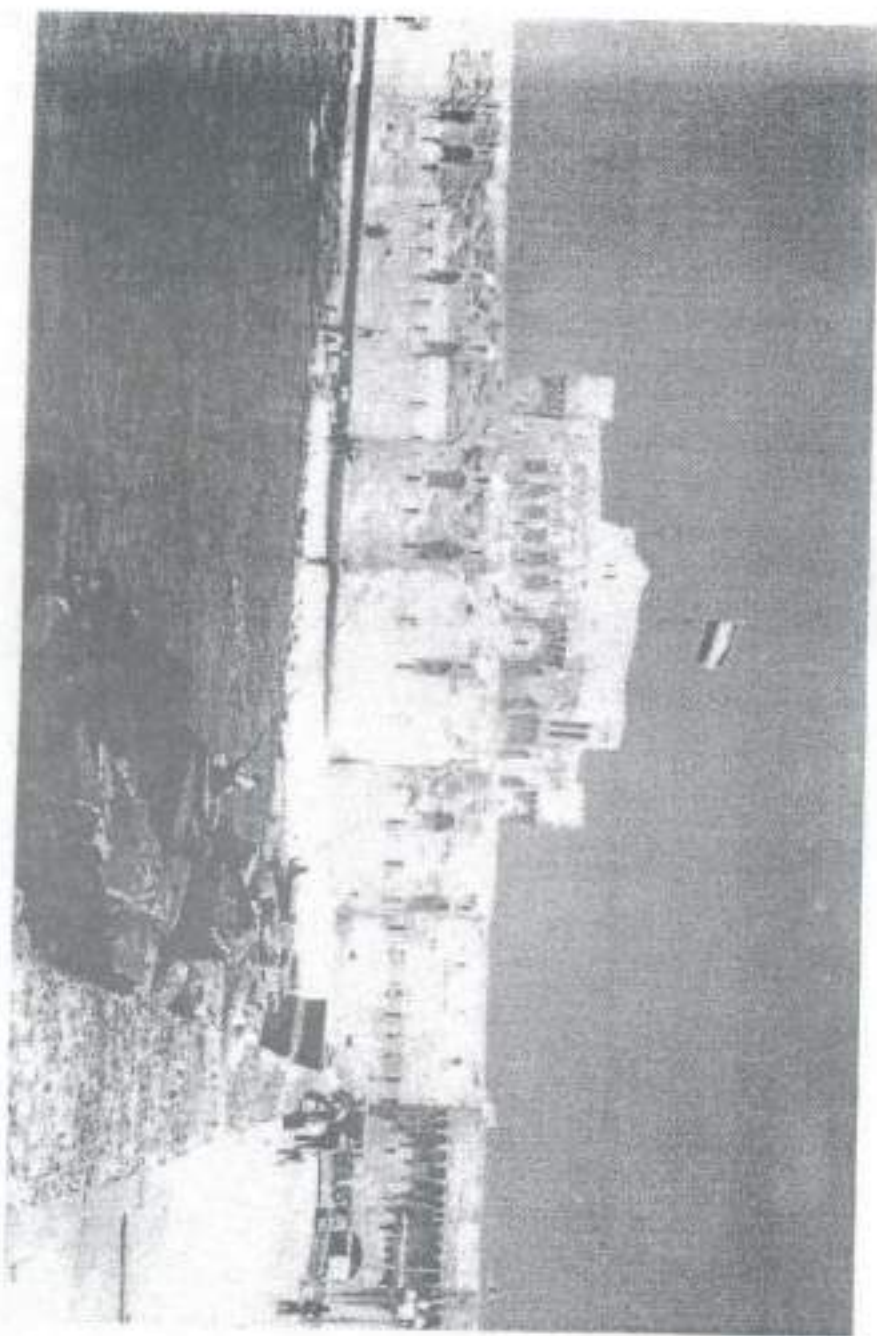
٣٩- شاهين الرومي النوري الإنباي نائب كاتب السر - قرأ القرآن الكريم وكتبه وتميز بكتابته، وكتب عدة

مصاحف وقدم بعضها للأشرف قايتباي. انظر المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٤ .

٤٠- خطاب بن عمر الدنجيبي ثم الفاهري الأزهرى الشافعي - حفظ القرآن وأجاد كتابته، وتعلم على

كبار المعلمين في ذلك - وكتب بخطه زيادة على خمسين مصحفاً وصار أحد كبار كتاب المصحف في

قائمة قاتيلاي



## الهوامش

- ١- محمود بن رستم الرومي البرصاوي تاجر الأشرف قايتباي ووالده مصطفى، انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ١٣٦.
- ٢- الظاهر حقيق أبو سعيد الجركسي، كان مملوكا لإيغال الجركسي الذي ربا، وعلمه وأعتقه. خلع السلطان العزيز جمال الدين يوسف وتسلطن مكانه في سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م. كان ملكا عادلا. متديبا، كثير الصوم والصلاة، عفيفا عن المنكرات، متقشقا، متواضعا، متفندا للأوقاف. كما كان يحب العلم والعلماء. توفي في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م. انظر المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١-٧٤.
- ٣- المساليك الحاصرية: وهم الساليك السلطانية الذين كانوا مقرنين من السلطان، وكانت لهم الإقطاعات والرواتب ومنهم تولى الأمر، رتبة بعد رتبة. وكان عددهم كبيرا في عهد الأشرف قايتباي وأغلبهم من الشراكسة الجلبان. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥-١٦.
- ٤- السلطان قريبا: تولى حكم سلطنة الساليك لفترة قصيرة سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م، ثم تحولت السلطنة إلى الأشرف قايتباي وتم عزل الظاهر قريبا. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٤٠-٤١.
- ٥- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢٠١-٢١١، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٢١٠، ٢٣٢، ٢٥٣؛ الذيل على رفع الأصر، ص ٣٧، ١٤٧، ١٨٥، ٢١١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٨١٩ - ٨٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٣٩٤ - ٣٩٦؛ العليسي، الأوس الجليل، ج ٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣، ٢٨٤؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج ١، ص ٢٩٧ - ٣٠٠؛ القرماني، أخبار الدول وأماز الأول في التاريخ، المجلد الثاني، ص ٣١٨ - ٣٢٠؛ العصامي، سبط النجوم العوالي، ص ٤٢ - ٤٨.
- ٦- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢٠١-٢١١؛ الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٣٢٧؛ الذيل على رفع الإصر، ص ٣٧، ١٤٧، ١٨٥، ٢١١؛ ابن الشحنة، السمر الزاهر، ص ٤٣-٤٤؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج ١، ص ٢٩٩؛ العليسي، الأوس الجليل، ج ٢، ص ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٣.
- ٧- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٤.
- ٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٥.
- ٩- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠.

١- انظر الخريطة رقم (١١) .

١١- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

١٢- السخاوي ، الضرع اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ ، العليسي ، الأئس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

١٣- السخاوي ، الضرع اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

١٤- الصيرفي ، أنباء النهصر ، ص ٣٣٣ ، ٤٠١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

١٥- السخاوي ، الذيل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٥٥٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ،

ص ٦٦ .

١٦- الصيرفي ، أنباء النهصر ، ص ٤٠٤ .

١٧- المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

18- Petry , Fractionalized Estates in a Centralized Regime: The Holdings of al- Ashraf Qaytbay and Qansuh al- Ghawri according to their Waqf Deeds, p. 133, J.E.S.H.O., vol 41, part 1 .

١٩- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٢٤ .

٢٠- السخاوي ، الذيل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٤٠٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ،

ص ١٣٢ .

٢١- إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

٢٢- العليسي ، الأئس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

٢٣- أربك الظاهري ، أصبح حاحب الحجاب في عهد السلطان الأشرف قايتباي ثم تولى رأس نوبة النوب .

ثم أصبح أتاكيا للعسكر ، وكان كثير الحج كثير الكرم والعطاء . . ونال منزلة كبيرة . وانشأ منطقة

الأريكية في مكان كان عبارة عن خرائب . ويعد من أحسن الأمراء عملاً وعطاءً وعبادة وتواضعاً .

انظر السخاوي ، الضرع اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٧٠-٢٧٢ .

٢٤- بشيك من مهدى الظاهري الدوادار . لعب دوراً كبيراً في تسلط الأشرف قايتباي . وكبرت

مكاتبه ، وكثرت أمواله وتزايدت وجاهته . وتولى الدوادارية الكبرى . وكان يساعد في العسرة على

الحملات العسكرية ضد التركمان من ماله الخاص . وتولى الوزارة والانشادارية معاً . ولعب دور في



إعادة الكنيسة اليهودية لطائفها عندما خربها المسلمون. وبلغ منزلة عظيمة لم يصل إليها أمير من قبل - ريتي وكثالة بخان الخليلي وريعا وعمل بالقرب منه سيلا ومدرسة - وبنى مقابل مدرسة السلطان حسن ريعا وحوضا ومغسلا للأسموات ومكتبا للأيتام - وبنى قبة عظيمة وإنشأ قبلها تربة عظيمة فيها شيخ وصوفية وجانبها سبيل للشرب وحوض للبهائم وبحيرة عظيمة بحرى منها الماء إلى مزروعات قريبة - وتوفى سنة ٥٨٨٥ / ١٤٨٠م. انظر المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٤ .

٢٥- ابن إياس - بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٦٠ .

٢٦- المصدر ذاته .

٢٧- المصدر ذاته .

٢٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠، ١٦١، انظر كذلك السيوطي، تاريخ الحلقات، ص ٨١٩ .

٢٩- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٦١ .

٣٠- المصدر ذاته .

٣١- المصدر ذاته .

٣٢- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠ .

٣٣- المصدر ذاته .

٣٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٢ .

٣٥- انظر الخريطة رقم ٢ .

٣٦- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٥٠ .

٣٧- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٣ .

٣٨- شاد بك الفقيه، أمير الراكز في مكة وتوفى سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م. انظر السخاوي، الضوء،

اللامع، ج ٣، ص ٢٩٠ .

٣٩- شاهين الرزمي النوري الإنباي نائب كاتب السر - قرأ القرآن الكريم وكتبه وتميز بكتابته، وكتب عدة

مصاحف وقدم بعضها للأشرف قايتباي. انظر المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٤ .

٤٠- خطاب بن عمر الدنجي ثم الفاهري الأزهرى الشافعي - حفظ القرآن وأجاد كتابته، وتعلم على

كبار المعلمين في ذلك - وكتب بخطه زيادة على خمسين مصحفاً وصار أحد كبار كتاب المصحف في

عصره . وتوفي سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م . انظر المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨١ .

٤١- ابن إياس . بذائع الزهور . ج ٣، ص ٢٠٤ .

٤٢- المصدر السابق . ج ٣، ص ٨٢ .

٤٣- المصدر السابق . ج ٣، ص ٢٢٨ .

٤٤- المصدر السابق . ج ٣، ص ١٨ .

٤٥- المصدر السابق . ج ٣، ص ٦ .

٤٦- خاير بك الظاهري نسبة إلى السلطان الظاهر خشقدم . تولي المازندانية في أيام خشقدم ثم تولي الدوادارية الثانية . ثم أصبح في عهد السلطان الظاهر يلباي صاحب الكلمة الأولى في السلطنة . وتولى في عهد الظاهر قريبا الدوادارية الكبرى فانقلب عليه وعزله وتسلطن ولقب نفسه بالعاقل ولكن أصحابه انقلبوا عليه . قاتلهم ، فقبض عليه الظاهر قريبا وسجنه ، ولكن الأشرف قايتباي عزل قريبا وتسلطن عرشه . واستمر الأشرف قايتباي في القبض عليه وسجنه وصادر أمواله ونفاه إلى سجن الإسكندرية . ثم أطلق سراحه فطلب الذهب إلى القدس ، ورحل إليها وتوفي سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م؛ انظر السخاوي ، الضوء اللامع . ج ٣، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٤٧- ابن إياس . بذائع . ج ٣، ص ٦ .

٤٨- المصدر السابق . ج ٣، ص ٩ .

٤٩- المصدر السابق . ج ٣، ص ١٠٦ .

٥٠- المصدر السابق . ج ٣، ص ١٥٢ .

٥١- الصيرفي . أنباء الهجر . ص ٣٧٨ .

٥٢- المصدر ذاته .

٥٣- قاسم بن أحمد بن شغيبة القزافي . ولد سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٩م . ثم اشتغل في ديوان الوزارة . ثم استقر في نظر الدولة . ولكن كانت له بعض الممارسات ضد رزق الأوقاف فأمسك وسجن ولكن الأشرف قايتباي عفا عنه وأعادته إلى نظر الدولة ثم الوزارة ثم صرف عن وظيفته . انظر السخاوي ، الضوء اللامع . ج ٦، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

٥٤- ابن إياس . بذائع الزهور . ج ٣، ص ٢٣٤ .

٥٥- الصيرفي، أنباء الهجر، ص ٤٠٠-٤٠٦.

٥٦- نظر الخاص وهي وظيفة محدثة أحدثها السلطان الناصر محمد عندما أبطل الوزارة، ومهمتها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان. وقد صار ناظر الخاص كالوزير لقرينه من السلطان وتصره، وصار إليه تدبير جملة من الأمور وتعيين المباشرين، ولكنه يعود إلى السلطان في غالب الأمور. وناظر الخاص أتباع من كتاب ديوان الخاص مثل مستوفى الخاص، وناظر خزنة الخاص. انظر الفلقشدي، صبح الأمتى، ج ٤، ص ٣٠.

٥٧- عبدالله بن نصر الله بن عبد الفتى المقيس. تاب عن أبيه في استيفاء الدولة. وتولى نظر الدولة في أيام الأشرف إينال. واستقر في نظر الجيش ثم في نظر الخاص. وتكررت إهانة الأشرف قايتباي له بالسجن والمصادرة. وكان الأشرف قايتباي ينهيه دوما بالإدخار على حساب المصلحة العامة، وتمت مصادرته في النهاية بمبلغ كبير وسجن في سجن القلعة حيث شق سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٧١-٧٣.

٥٨- «كتاب السر» وموضوعها قراءة الكتب الرسمية، وكتابة أجوبتها، واختتمها بعد ترقيع النائب وإرسالها بالبريد. وكذلك تعريف المراسيم ورواها وصلوها والجلوس لقراءة القصص في دار العدل والترقيع عليها. انظر السكي، معيد النعم، ص ٣٠، الفلقشدي، صبح الأمتى، ج ٤، ص ٣٠.

٥٩- أبو بكر بن محمد الزين بن البدر الأنصاري الشافعي. ولد سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧م. وتلقى تعليما جيدا على أيدي كبار العلماء. وكان مهذبا وذكيا وقصصا. وتولى نظر الإسطبل ثم أنصف إليه الجوالي المصرية ثم الشامية ثم خانقة سعيد السعداء، ووكالة بيت المال ثم الجيش ثم كتابة السر في سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م، واستمر فيها حتى مات سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ١١، ص ٨٨-٨٩.

٦٠- الصيرفي، أنباء الهجر، ص ٣٩.

٦١- المصدر السابق، ص ٣٩٤-٤٠٠.

٦٢- المصدر السابق، ص ٣٩١.

٦٣- المحتسب، وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وموضوعها التحدث في الأمر والنهي، والتحدث عن المعايير والصناعات، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته. وفي مصر الملوكية محنتسان أحدهما بالقاهرة وهو أعظمها قدرا، وأرفعها شأنًا، وله التصرف بالحكم والتولية

بالوجه البحرى بكامله ماعدا الإسكندرية قلها محتسب خاص بها . والمحتسب الشائى فى القسقاط ومرتبته أقل من محتسب القاهرة الذى له أيضا التحدث والتولية بالوجه القبلى بكامله . ويجلس مع السلطان فى دار العدل، ويرافق السلطان فى الموكب دون محتسب القسقاط. ويأتى مجلسه فى دار العدل بعد وكيل بيت المال، وربما جلس أعلى منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه . ومن مسئوليات محتسب القاهرة الإشراف على الأسواق ومراقبة البضائع والأسعار والموازنين . وعليه النظر فى القوت، وكشف غمة المسلمين فيما تدعو إليه حاجتهم فى ذلك، والاحتراز فى المشروب . فواجبه التأكد من عدم بيع الخمور فى الأسواق . وعدم بيع المحرم والمفسر من الأطعمة والفاقد منها . وكذلك ملاحظة الأسعار فيحافظ على السعر المناسب لسواد الغدائية فى الأسواق . ومن خالف ذلك عرض نفسه للعقاب. ومراعاة عدم الغش فى أنواع البضائع المعروضة، وصحة الأوزان . وقانونية المبادلات التجارية فلا يقع الضرر للرعية حيث يحصل التغير على قوته بسعر مناسب . انظر السبكي، معيد النعم، ص ٦٥-٦٦ : القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٦-٩٧ .

٦٤- الصيرفى، أنباء النصر، ص ٤٣ .

٦٥- المصدر السابق، ص ٤٤٢ .

٦٦- ابراهيم بن أحمد بن ثابت التاهلى من بنى عبد القادر شيوخ تاهلىس، تلقى تعليما دينيا، وانتقل إلى دمشق حيث تولى بعض الوظائف الدينية ثم إلى مصر . وقاع صيته بين الإداريين حتى وصل إلى خدمة السلطان فعظم شأنه فى الولاية والعزل والمخصصات والمصادرات . وتسمى وكيل السلطان . وقصد الكبار والصغار . وكان طالما جائرا فى جمع المال فزاد التهمر ضده حتى قبض عليه ، وصودرت أمواله ، وضرب ، وتحفظ عليه فمات بعد فترة قصيرة سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م . انظر السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ١٠-١١ : ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ١٢٩-١٣٠ .

٦٧- وكيل بيت المال وهو مسئول عن بيت المال وأملاكه وله الحق فى رفض البيع من أملاك بيت المال ولا يبيع إلا ببيع وقصر أو لحاجة التامى وله حق الحكم على أرض الدولة المشاع فيتصرف فيها وفق الحاجة . انظر السبكي، معيد النعم، ص ٦٥ .

٦٨- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١١١-١١٠ .

٦٩- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٩-١٣٠ .

٧- السخاوى، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثانى، ص ٣٠٥ : ابن الجيعان، القول المستطرف فى سفر مولانا الملك الأشرف، ص ٤٦-١٠٨ ، العليسى، الأسس الحليل، ج ٢، ص ٣١٨-٣١٩ .

٧١- ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

٧٢- المصدر ذاته .

٧٣- جوامع ومفرداتها جامكية وهي نفقة مماليك السلطان من عملات وعلوقات وكسوة والكلسة تركية Camekliye . انظر عيسى ، شرح غريب ألفاظ النجوم الزاهرة، ص ٤٦ ، دهقان ، معجم الألفاظ التاريخية،

ص ٥١ .

٧٤- ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

٧٥- المصدر ذاته .

٧٦- المصدر ذاته .

٧٧- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٣٨ .

٧٨- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

٧٩- برد بك المحندى الظاهري نسبة إلى يتيمق . أصبح مستقارا في عهد الظاهر جتمق ثم بعد ذلك أمير آخور ثم خازنداراً ثم حاجب الحجاب ثم أصبح في الآخورية الكبرى ثم أمير سلاح في عهد الأشرف قايتباي . وقتل في حملة ضد سوار انتركمان في سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م . انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣ ، ص ٧ .

٨٠- جاتم بك الأشرفي نسبة إلى برمباي الذي عمله خاصكيا ثم أمير آخور ، كانت له نكيات مع بعض السلاطين فقتل عليه وسجن ثم أطلق سراحه وتنقل في النيابات الشامية . ثم عاش في القدس بطالا . كان فقيها متدينا محبا للفقهاء والصالحين . انظر المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٦٣-٦٤ .

٨١- ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

٨٢- المصدر ذاته .

٨٣- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٣٩ .

٨٤- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

٨٥- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣ ، ص ٦٤ ، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

٨٦- ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

٨٧- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٨٣-١٨٤ .

- ٨٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٩ .
- ٨٩- محمد بن العظمة كان دلال الإقطاعات ونحوها . وتولى سنة ٥٩٩٢ / ١٤٩٦ م . انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٠٩ .
- ٩٠- نظر الأوقاف أو الأحباس وهي طريقة رقيقة يتولى صاحبها رزق المومنين والمساكين واليتيم والزوايا والمدارس . وتحفظ جميع وثائق وحجج هذه الأوقاف في ديوان الأحباس . انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨ .
- ٩١- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٩٢ .
- ٩٢- المصدر ذاته .
- ٩٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٦ .
- ٩٤- المصدر ذاته .
- ٩٥- عبد الباسط بن يحيى بن المقرئ . تنقل في الأعمال الإدارية . وتولى نظر البيمارستان ثم نظر الأحباس وأخيراً أصبح ناظر للأوقاف ثم أضيف إليه نظر الدولة . كان عاقلاً ومزهداً ومهذباً وله منزلة كبيرة بين العلماء . وتوفي سنة ٥٨٩٣ / ١٤٨٨ م . انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٤، ص ٣١-٢٣ .
- ٩٦- المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٠٩ .
- ٩٧- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢١٢ .
- ٩٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٤ .
- ٩٩- مختار السوهدري الطاهري رأس لوية السقاة . تيموا منزلة كبيرة كانت له داراً فخمة . وقد قبض عليه الأشرف قايتباي وصادر داره وأرسل مع الخجاج بطلا ليقبض في مكة . ثم أقام في الكرك إلى أن توفي سنة ٥٨٩٥ / ١٤٨٩ م . انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
- ١٠٠- ابن إياس، بدائع الزمان، ج ٣، ص ٢٠٠ .
- ١٠١- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٣٩ - ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢١١ .
- ١٠٢- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٧، ص ١٣٣ - ١٣٤ .
- ١٠٣- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٦٩ .
- ١٠٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٣ .



١٠٥- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٦.

١٠٦- الصيرفي، إنباء العصر، ص ٤٠، المسخاوي، الذيل الشام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٢٢٩، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧٥.

١٠٧- الوزارة - وهي أجل الوظائف وأرفعها رتبة. ولكن عندما استحدث منصب النيابة قلت قيمة الوزارة وصار الوزير كناظر المال لا يتعدى الحديث فيه، ولا يتسع له في التصرف محال آخر، وليس له في الولاية والعزل شيء ولا تولى الناصر محمد بن قلاوون أبطال الوزارة وتوزعت صلاحياتها ووظائفها بين ناظر المال، وشاء البدوين لتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاص لتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين، وكتاب السر للتوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاوراً واستقلالاً. وحتى لا أعيدت الوزارة فيما بعد اقتضرت وظيفة الوزير على الصدقت في المال. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨-٣٠.

١٠٨- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢-٢٣.

١٠٩- الصيرفي، إنباء العصر، ص ١٦.

١١٠- المصدر السابق، ص ٢٦، ٢٢، انظر كذلك ص ٢٢، ٢٤، ٢٨.

١١١- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٣.

١١٢- الإقطاعات توزع في سلطنة المماليك على الأمراء والجند، وعامة إقطاعهم بلاد وأراض يستغلها مقطوعاً ويتصرف فيها كيف شاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات، وهو قليل. وتختلف باختلاف حال أربابها. ويبلغ إقطاع الواحد من أكابر الأمراء مائتي ألف دينار أو أكثر. ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطيخاناء ثلاثين ألف دينار فأكثر. ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار. ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمي الحلقة ألفاً وخمسمائة دينار. أما أعيان جند الحلقة فيصل إلى مائتين وخمسين ديناراً. ولجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتب الجارية في كل يوم من اللحم والشوابل والخبز والعليق والزيت، ولاعباتهم الكسوة والشمع. وكذلك المماليك السلطانية وذو الوظائف من الجند مع تفاوت مقادير ذلك بحسب مراتبهم وخصوسيتهم عند السلطان وقربهم إليه. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٠-٥١.

١١٣- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨، ٢٦.

١١٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠-٢١، ٢٢.

١١٥- الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٩٨.

١١٦- المصدر السابق، ص ٥٠١-٥٠٢.

١١٧- أجناء الحلقة - وهم عدد جم وخلق كثير - وربما دخل لبعضهم من ليس بصفة الجند من المتحسين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات، وقد جرت عادة ديوان الجيش على عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدهم ويطلع إليه. ولكل أربعين نفرا منهم مقدم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت موافقهم معه، وترتيبهم في موقفهم إليه - وأول من رتبهم وسامهم بهذا الاسم السلطان الصالح أيوب بن الكامل محمد. انظر الفلقستدي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦.

١١٨- الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٥٠٦.

١١٩- السخاوي، الذيل الثام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٥١٠-٥١١: ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٦٢.

١٢٠- السخاوي، الذيل الثام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٦٥٤.

١٢١- عن النظام القضائي في مصر والشام في سلطنة المماليك انظر حياة المحجر، «صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك» الفصل الثاني وعنوانه: القضاة والقضاة في مصر في عهد الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤١م، ص ٦٥-١٣١، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٢م.

١٢٢- قضاء القضاة: وهي وظيفة يتحدث أصحابها في الأحكام الشرعية وتنفيذ نضاهاها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم ونصب النواب للشجدة ليعا عسر عليه مباشرته بنفسه، وهي أرفع الرطائف الدينية، وأعلاها قدرا، وأجلها رتبة. وفي بداية تاريخ سلطنة المماليك كان الوضع مقصورا على تعيين قاض واحد في الديار المصرية من أي مذهب كان من المذاهب الأربعة، وفرض إليهم تعيين نواب لهم في الديار المصرية. انظر الفلقستدي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٤-٣٦.

١٢٣- الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٧٩-٣٨٢.

١٢٤- حسن بك على بك قرا بلوك عثمان صاحب ديار بكر ويعرف بالطويل - تولى الحكم سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١ م. وتولى سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م بعد أن أخذ ابن عثمان جنده. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ١١٢-١١٣.

١٢٥- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨١، انظر كذلك، ص ١٤-١٥.

١٢٦- المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٥-٨٦.

١٢٧- علم الدين شاکر بن عبد الغنى بن الجيعان. اشتغل في كتابة الجيش ثم تولى شئون الخزانة. عرف بجودة الرأي وحسن التدبير والعقل وقوة الشخصية مع التواضع والسكون. وتوفي سنة ٥٨٨٢هـ / ١٤٧٧م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٩١-٢٩٢.

١٢٨- محمد بن محمد بن الأمشاطي العيني القاهري الحنفي، ولد سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م عرف بالفقه والأمانة وبذل الهمة وتشجيع طالبي العلم من الطلبة، وكان يتردد على مجلسه كبار العلماء مثل جاني بك ويشيك الدواتار. وقرره الأشرف قايتباي في مشيخة البروقية وكان شديداً في موافقه حتى أسام السلطان. وتوفي سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م. انظر السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص ٢٠٥-٢١٩.

١٢٩- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٩٧.

١٣٠- السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص ٢١٣.

١٣١- أحمد بن علي بن عواض الشهاب السكندري، اشتغل بالتجارة، توفي سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٧م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٩-٣٠.

١٣٢- السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٤٥١، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٩-٣٠.

١٣٣- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٠.

١٣٤- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤١.

١٣٥- أحمد بن محسود بن عبدالله الدمشقي ويعرف بإبن فرفور. ولد سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م. وتعلم على يد كبار العلماء. ودرس الفقه والنحو والعروض والمنطق. أصبح قاضياً ثم ناظر جيش الشام ثم قاضي قضاة دمشق سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م. وعزل ثم أعيد بالندل الزائد والخدمة التي لانتتهى. وقدم إلى القاهرة متهما وصودر على أموال كثيرة. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٢٢-٢٢٣.

١٣٦- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٨-٣٠٩.

١٣٧- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥٩؛ انظر كذلك السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٥٤٨.

- ١٣٨- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .
- ١٣٩- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ١٧ ، ٥ - ٤١ ، ٦٤ .
- ١٤٠- المصدر السابق ، ص ٢ ، ٨٠ ، ٩ ، ٢٦ .
- ١٤١- المصدر السابق ، ص ١١٧ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .
- ١٤٢- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .
- ١٤٣- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ١٣ ، ١٥ ، السخاوي ، الذليل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٦١٣ .
- ١٤٤- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٩ .
- ١٤٥- عن أوضاع العامة في سلطنة المماليك سياسيا واقتصاديا واجتماعيا نظرا حياة المحجى ، أحوال العامة في حكم المماليك ٦٨٧-٧٨٤ هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢ م ، الطبعة الثانية ، دار القلم ، الكويت .
- ١٤٦- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ١٣ ، ٢٦ ، السخاوي ، الذليل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٢٢٠ .
- ١٤٧- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١ .
- ١٤٨- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦-١٧ .
- ١٤٩- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ١٣-١٤ ، ١٧ ، ٣٢ ، السخاوي ، الذليل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ١٢٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٥-٢٦ ، العليسي ، الأئمن الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
- ١٥٠- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ٥٣ ، ٥٩ .
- ١٥١- المصدر السابق ، ص ٥٣ .
- ١٥٢- المصدر السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٩ ، السخاوي ، الذليل التام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٢٣١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٤١ .
- ١٥٣- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ١٦٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٤٣ .
- ١٥٤- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص ١٨٧ .
- ١٥٥- المصدر السابق ، ص ١٨٧-١٨٨ .

- ١٥٦- المصدر السابق، ص ٢٤٣، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٥٥-٥٦.
- ١٥٧- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٤٣.
- ١٥٨- المصدر ذاته.
- ١٥٩- المصدر السابق، ص ٤٧٦.
- ١٦٠- الضوء، ج ٦، ص ١٧٩-١٨٠.
- ١٦١- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٤٧٦-٤٧٧.
- ١٦٢- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٩.
- ١٦٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٠.
- ١٦٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٩.
- ١٦٥- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٧.
- ١٦٦- المصدر ذاته.
- ١٦٧- المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٢١٦-٢١٨، قارن ابن تغري بدي، النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٦٢-١٧٢، المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٥١٢-٥١٧.
- ١٦٨- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٠٩.
- ١٦٩- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٣.
- ١٧٠- السخاوي، وجيز الكلام، ج ٣، ص ٩٦٨، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٣٩١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢٤-٢٢٥.
- ١٧١- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٣٤.
- ١٧٢- السخاوي، وجيز الكلام، ج ٣، ص ٩٩٢، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٤١٦، الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٣٢٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٣٧.
- ١٧٣- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٣٧-٢٣٨.
- ١٧٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٨.
- ١٧٥- السخاوي، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٤٢٧.

- ١٧٦- المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٦٨٣ .
- ١٧٧- ابن عباس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ٣٠٤ ؛ انظر كذلك الصفحات : ٢٨٤ ، ٣٠٨ .
- ١٧٨- السخاوي، الذيل التمام على دول الإسلام ، المجلد الثاني، ص ٣٩٥ ؛ المجلد الثالث ، ص ١٠٦-١٠٧ ؛ ابن عباس ، بدائع الزهور، ج ٣ ، ص ٣١٨ .
- ١٧٩- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ١٩٣ .
- ١٨٠- المصدر ذاته .
- ١٨١- ابن عباس ، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٩٤ .
- ١٨٢- الصيرفي إنباء الهجر ، ص ٣٩٩ .
- ١٨٣- ابن عباس، بدائع الزهور ، ج ٣، ص ٦٨ .
- ١٨٤- الصيرفي، إنباء الهجر ، ص ٤٨٨ .
- ١٨٥- ابن عباس ، بدائع الزهور ، ج ٣، ص ٢٦٣ .
- ١٨٦- ابن عباس ، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٦٥ .
- ١٨٧- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .
- ١٨٨- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٤ .
- ١٨٩- المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .
- ١٩٠- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٣ .
- ١٩١- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٩ .
- ١٩٢- الصيرفي، إنباء الهجر ، ص ١٥٢ .
- ١٩٣- المصدر السابق، ص ٢٢٦ .
- ١٩٤- المصدر ذاته .

١٩٥- شاهين الجمالي ناظر الحاص . ولد سنة ١٨٢٨هـ / ١٤٣٤م، وقدم سنة ١٨٥٣هـ / ١٤٤٩م وترقى حتى بلغ شأبه جده حيث عمل فيها ستين طويلاً، وحصدت مباحثته لعقله واتزانه وسكوته مع حبه للعلم والعلماء . وجدد أماكن وأحياء كثيرة في المدينة المدورة. وقد اشتهر بأخلاقه وأدبه وعقله . انظر



السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

١٩٦- الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٨٣ .

١٩٧- العليبي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢٩٦-٢٩٨ .

١٩٨- المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٧ .

١٩٩- المصدر ذاته .

٢- عبد القادر بن محمد المحيوي القاهري، ويعرف بابن الدهانة . وكان من الموالى والدعانة جدته

لأنها كانت تستخرج الدهن من العظام . ولد سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م . ودرس الفقه واللغة العربية

وصار مفتياً . واستقر في مشيخة المؤيدة بالانظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٩٨ .

٢٠١- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٣ .

٢٠٢- المصدر ذاته .

٢٠٣- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

٢٠٤- عبد العزيز بن عبد الرحمن العقيلي ولد سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨ . ودرس القرآن والحديث والنحو .

واستوطن حلب سنة ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م . وصار ناظر الخانقاة المقدمية، وتاب في قضاء سرمين ثم عزل .

وكان حسن الأخلاق متواضعا كريم النفس . انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢١٨ .

٢٠٥- محمد بن إبراهيم بن يوسف الحسفاوي . تولى قضاء حلب في أيام الأشرف قايتباي مرة بعد أخرى

بالبذل المستدان أكثره . وكان جده قاضيا في حلب . انظر المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨٢ .

٢٠٦- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥٥ .

٢٠٧- السخاوي، الذيل انتام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٣٧٤-٣٧٥، ٤٠٦ : ابن إياس،

بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥٧ .

٢٠٨- خولد شقرا، بنت الناصر فرج بن برفوق، وأم محمد بن جرباش، وقد زوجها أبوها لمملوكه جرباش .

انظر السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص ٢١١، هامش ٣ .

٢٠٩- الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٢٢٣ .

٢١٠- المصدر السابق، ص ٢٤٤ .

٢١١- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٧ .

٢١٢- الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٣١ .

- ٢١٣- المصدر ذاته .
- ٢١٤- المصدر السابق، ٣٩٩-٤٠٠ .
- ٢١٥- ابن إياس . بدائع الزهور، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ العليسي، الأئسن الجليل، ج ٢، ص ٣٠٠-٣٠٣ .
- ٢١٦- العليسي، الأئسن الجليل، ج ٢، ص ٣٠٤ .
- ٢١٧- المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٧-٣١٠ .
- ٢١٨- المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٠٢-١٠٣ .
- ٢١٩- العليسي، الأئسن الجليل، ج ٢، ص ٣١٤ .
- ٢٢٠- الصيرفي، إنباء البصر، ص ٣٩ .
- ٢٢١- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٥٤ .
- ٢٢٢- الصيرفي، إنباء البصر، ص ٤٠ .
- ٢٢٣- المصدر السابق، ص ٢٢٠ .
- ٢٢٤- المصدر السابق، ص ٢٧٥ .
- ٢٢٥- المصدر السابق، ص ٣٦٣ .
- ٢٢٦- المصدر السابق، ص ٥٠٧ .
- ٢٢٧- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٧٩ .
- ٢٢٨- المارستان الكبير المنصوري أو الممارستان المنصوري، تم بناؤه بناه على أواخر المنصور فلان، وكان الشروع في بنائه سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م. وكان البناء رائعاً حيث شمل أربع إيوانات ودور، وقاعات . ووقف عليه السلطان المنصور فلان أوقافاً عديدة تقارب قيمتها ألف ألف درهم لم يكل سنة . وتضمنت حجة أوقاف الممارستان مصارفه مع المدرسة المنصورية والقبة المنصورية ومكتب الأيتام معا . ورتبت في الممارستان جميع أنواع العقاقير والأدوية، كما انضم إليه عدداً كبيراً من الأطباء والمختصين والفراشين . وخصصت الإيوانات للمرضى بالحميات ، وقاعة للعمى، وقاعة للجرحى وقاعة للنساء ، فكان أشبه ما يكون بالمستشفى التخصصي للكثير من الأمراض . انظر المفريزي، الخطوط، ج ٢، ص ٤٠٩-٤٠٨ ؛ النظر حياة المحي، الممارستان المنصوري منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ٢٩، ١٩٨٨م.

- ٢٢٩- ابن عباس بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٠، ٣٠٧، ٣٣١ .
- ٢٣٠- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٨٠ .
- ٢٣١- المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠-٣١٣ .
- ٢٣٢- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨١ .
- ٢٣٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٥، ص ٣٣١ .
- ٢٣٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤١ .
- ٢٣٥- السخاوي، وحيز الكلام، ج ٣، ص ٩٧٢ .
- ٢٣٦- السخاوي، الدليل النام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٥٦٤ .
- ٢٣٧- السبكي، معيد النعم، ص ٥٤-٥٥ .
- ٢٣٨- الصيرفي، إنباء النهض، ص ١٠ .
- ٢٣٩- المصدر السابق، ص ٢٤ .
- ٢٤٠- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٣ .
- ٢٤١- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥ .
- ٢٤٢- المصدر ذاته .
- ٢٤٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣ .
- ٢٤٤- الصيرفي، إنباء النهض، ص ١٢١ .
- ٢٤٥- المصدر السابق، ص ١٣ .
- ٢٤٦- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٥١ .
- ٢٤٧- المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣ .
- ٢٤٨- المصدر ذاته .
- ٢٤٩- المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤ .
- ٢٥٠- تمر من محمود شاه الظاهري نسبة إلى السلطان جنتق : تنقل في الإمرة، وناشر في الولاية دهرًا ثم المحجوبة الكبرى. كان جاترا في الأحكام، متساهلاً في الأموال والدماء. وقامى الناس منه شدة، تولى سنة ٨٨٨هـ / ١٤٧٥م وصلى عليه السلطان الأشرف قايتباي. انظر السخاوي، الغنم، التامع، ج ٣، ص ٤٢ .

٢٥١- الصيرفي ، إنباء الهضر، ص٢٩١ .

٢٥٢- المصدر السابق، ص٣٢٦ .

٢٥٣- المصدر السابق، ص٤٤٣-٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣، ص٧١ .

٢٥٤- أمير مائة أو أمراء المئين مقدمو الألو، وعدة كل منهم مائة فارس، وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين، وله التقدمة على ألف فارس من دولته من الأمراء، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر آرياب الوظائف والتراب، انظر القفقتندي، صحح الأعشى، ج٤، ص١٤ .

٢٥٥- ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣، ص٧٢ .

٢٥٦- المصدر السابق ، ج٣، ص٦٩ .

٢٥٧- المصدر السابق، ج٣، ص٦٠ .

٢٥٨- المصدر السابق، ج٣، ص٦٢ .

٢٥٩- المصدر السابق، ج٣، ص٧٥ ، وكذلك انظر الصفحات ٢٣٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ .

٢٦٠- المصدر السابق، ج٣، ص٧٤ .

٢٦١- المصدر السابق، ج٣، ص٩٠ .

٢٦٢- المصدر السابق، ج٣، ص١٠٢ .

٢٦٣- المصدر السابق، ج٣، ص١٠٥ .

٢٦٤- المصدر ذاته .

٢٦٥- المصدر السابق، ج٣، ص١١٢ .

٢٦٦- المصدر السابق، ج٣، ص١٢٠ .

٢٦٧- المصدر السابق، ج٣، ص١٢٦ .

٢٦٨- سيبأى العلاتي الأشرفي نسبة إلى السلطان إنبال . أصبح في عهد الأشرف قايتباي كاشف منفلوط لتمام العرب في وجهه وطرده كلياً فرجع بعد أن قبض على محمود شيخ بني عدى ، فأعطاه الأشرف قايتباي إمرة عشرة ، فنجح في تأمين الوجه القبلي وكان مع شدته يحب الفقراء والفقهاء، ويحب سماع القرآن الكريم ويوزع الصدقات على المحتاجين . ومات مقتولاً غيلة سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٤٣ .

- ٢٦٩- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨٨، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٣.
- ٢٧٠- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٤.
- ٢٧١- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧.
- ٢٧٢- المصدر ذاته.
- ٢٧٣- محمد بن عجلان شيخ العرب، وهو المساعد للسلطان ترميغا في حركة تمرد في دمياط ولكن الحركة لم تنجح بل أمست، وأودع في البرج منذ حيث عوقب، ثم أفرج عنه وتوفي سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٨، ص ١٥١.
- ٢٧٤- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٨.
- ٢٧٥- أقره في الأشرفي نسبة إلى إبنال، استأدار الأغوار، وخازن دار السلطان المتوقع لاستخلاص الأموال، قتل في صفر سنة ٨٩١هـ / شباط سنة ١٤٨٦م، انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣١٤.
- ٢٧٦- أقره في الدوادار الأشرفي نسبة إلى الأشرف قايتباي، وهو ابن عمه، كان خاسكيا ثم ترقى لإمرة عشيرة، ثم استقر في الدوادارية الكبرى، وتزوج أخت زوجة السلطان الأشرف قايتباي، ثم تولى الوزارة. وجلب كثيرا من الأموال من الوجه القبلي ومن الجهات النابلسية، انظر المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٥.
- ٢٧٧- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢٥.
- ٢٧٨- السخاوي، الدليل التام على دول الإسلام، م ٣، ص ٣٤٢-٣٤١.
- ٢٧٩- السخاوي، وجيز الكلام، ج ٣، ص ٩٩٣، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٣٩٢، ٤١٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٠.
- ٢٨٠- انظر الخريطة رقم (٣).
- ٢٨١- الصيرفي، إنباء العصر، ص ١٨، ٥١، ٥٣، ٧٠، ٧١، ٧٧-٧٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠٥، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٢٦١، ٢٦٥، ٣٧٣، ٣٩٤-٣٩٥، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٨٢.
- ٢٨٢- الصيرفي، إنباء العصر، ص ٨-٩، ١٨، ٢٦-٢٧، السخاوي، الدليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٢١١، ٢١٩، ٤٦١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧.

- ٣٤٠- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٥-٢٣٦ .
- ٣٤١- السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثالث، ص ٣٤٣-٣٤٤، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٣٦ .
- ٣٤٢- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٣٦ .
- ٣٤٣- السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٥١٠-٥١١، ٥٤٥، ٥٥٥، ٥٩٢، ١٦٢، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٥-٢٤٦، ٢٩٥ .
- ٣٤٥- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨ .
- ٣٤٦- المصدر ذاته.
- ٣٤٧- مقدم العسكر أو أتايك العسكر ويتولى وظيفة الأتابكية، وهو أبو الأتراء في العسكر، وأكبر الأتراء المقدمين، ويتسع أتايك العسكر بمنزلة كبيرة ومكانة رفيعة انظر التلغشتلي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٨ دهقان، معجم الألقاب التاريخية، ص ١١ .
- ٣٤٨- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨-٩ .
- ٣٤٩- السكي، معيد النعم، ص ٥٤ .
- ٣٥٠- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٩ .
- ٣٥١- الصيرفي، إنباء الهضر، ج ٣، ص ٨-٩ .
- ٣٥٢- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٣-١٤ .
- ٣٥٣- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ١٦، ٣٣-٣٧، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢-٢٣ .
- ٣٥٤- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٢٠-٢١، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤ .
- ٣٥٥- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٦-٤٧ .
- ٣٥٦- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٣٦ .
- ٣٥٧- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٢ .
- ٣٥٨- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ١٤٥ .
- ٣٥٩- ابن عباس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٣، انظر كذلك السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٥٤٨-٥٤٩ .



٣٦٠- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص١٤٩ ابن إياس ، بذائع الزهور، ج٣، ص٢٤٦ .

٣٦١- المصدر السابق، ج٣، ص٢٥١-٢٥٢ .

٣٦٢- المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٤ .

٣٦٣- المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٦ .

٣٦٤- المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٨ .

٣٦٥- المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٠ .

٣٦٦- المصدر السابق، ج٣، ص٢٩٢ .

٣٦٧- المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٢ .

٣٦٨- المصدر السابق، ج٣، ص١-٤ .

٣٦٩- المصدر السابق، ج٣، ص١-٦-٧-١٠ .

٣٧٠- المصدر السابق، ج٣، ص٥ .

٣٧١- المصدر السابق، ج٣، ص٦ .

٣٧٢- المصدر السابق، ج٣، ص٧ .

٣٧٣- الصيرفي ، إنباء البصر ، ص٤٨-٤٩ : ابن إياس ، بذائع الزهور، ج٣، ص١٠ .

٣٧٤- يكرن أمراء المشورة مجلس السلطان الاستشاري والتفيلقي معا، حيث كان هذا المجلس بمثابة مجلس الدولة، وكان يتألف في عهد الناصر محمد بن قلاوون من سبعة أمراء من ذوي الاختصاصات العسكرية والإدارية العليا. ثم زاد عدد أمراء مجلس المشورة إلى تسعة في عهد السلطان الناصر حسن سنة ١٧٤٨هـ / ١٣٤٧م . ثم صار العدد عشرة، انظر كذلك دهان ، معجم الألفاظ التاريخية ، ص٢٢ .

٣٧٥- ابن إياس ، بذائع الزهور ، ج٣، ص١٠، أما عن وظيفة «مقدم الدولة» فهو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . انظر ، دهان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٤٢ .

٣٧٦- ابن إياس ، بذائع الزهور، ج٣، ص٢٩ .

٣٧٧- العلا ، بن الصابري هو علي بن أحمد بن محمد بن سليمان القاضي علاء الدين الدمشقي ويعرف بالصابري . جاور مكة سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م . وقدم القاهرة في عهد الظاهر خشقدم لعلاقتة الطبية

- به وبأبيه فأصبح ناظر الاسطيل والأوقاف ثم ناظر اليمارستان، انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٨٤-١٨٥.
- ٣٧٨- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٢٢، ٢٣، ٢٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٨٥.
- ٣٧٩- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٣٢-٣٣، السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٨٥.
- ٣٨٠- إبراهيم سعد الدين بن نجر الدين القبطي - ولد سنة ١٨٩٤هـ / ١٤٥٩م، وتدرّب في الكتابة، وكان يباب كاتب السر ثم خدم بعض الأمراء - وكان ذكياً حادّفاً - وأصبح ناظر الأوقاف الصرغتمشية نسبة إلى الأمير صرغتمش - وقد تعرّض للقراءة أكثر من مرة. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ١٨٣.
- ٣٨١- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٢٠٢. أما الديوان المفرد فهو الديوان المختص بما أتود من البلاد لصرف غلبتها على مماليك السلطان من رواتب وعليق وكسوة. انظر القلقلندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧؛ دهقان، معجم الألقاب التاريخية، ص ٧٩.
- ٣٨٢- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٢١١-٢١٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٠٩.
- ٣٨٣- فارس الحمدي الركني فيروز نائب المقدم، استقر في الوزارة سنة ١٨٦٤هـ / ١٤٥٩م وعين للاستاءرية وتقرب من الأشراف قايناي. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٦٣.
- ٣٨٤- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٥٦.
- ٣٨٥- المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٦.
- ٣٨٦- المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٦؛ انظر كذلك السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثالث، ص ٥٤.
- ٣٨٧- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٢٦-٢٧.
- ٣٨٨- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ١١٣، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٠.
- ٣٨٩- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ١٤٢.
- ٣٩٠- المصدر ذاته.
- Bacharach, Circassian Monetary Policy : Copper, p. 41, J.E.S.H.O., vol. XIX, part 1.
- ٣٩١- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٦-٥-٧-٥.
- ٣٩٢- ابن ريس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١-٥-١٠٦، ١٢١.

٣٩٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢١.

٣٩٤- المصدر ذاته.

٣٩٥- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٩.

٣٩٦- يمكن تفسير الاختلاف في قيمة الصرف بين الفلوس الجديدة والفلوس العتيق على سبيل المثال كالتالي: إذا كان سعر رطل الفلوس العتيق ٢٤ درهم - فإن سعر رطل الفلوس الجديدة يكون ٣٦ درهماً وعكسها.

٣٩٧- ابن إياس: بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٨٩؛ قارن: السخاوي، الذليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٤٠٥-٤٢٣.

٣٩٨- السخاوي، الذليل التام على دول الإسلام، المجلد الثالث، ص ٢٥٧.

٣٩٩- انظر حياة الحجى: انجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك في الفترة ما بين عامي ٦٩٤-٦٩٥هـ / ١٢٩٤-١٢٩٥م، حولية كلية الإقتصاديات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السابع، سنة ٤-١٤هـ / ١٩٨٤م.

٤٠٠- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ١٢، ٣١؛ السخاوي، الذليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٢١٨؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٢٨؛ العليسي، الأوس الجليل، ج ٢، ص ٢٨٦.

٤٠١- ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٢٩.

٤٠٢- المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠؛ الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٥٣-٥٩.

٤٠٣- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٥٩؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٣٠.

٤٠٤- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٦٠؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٣٠.

٤٠٥- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٦٠؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٣١.

٤٠٦- الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٥٣-٥٩؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ٣١.

٤٠٧- العليسي، الأوس الجليل، ج ٢، ص ٣١٨؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج ٣، ص ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

٤٠٨- السخاوي، الذليل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص ٦٥٧-٦٦١؛ الصيرفي، إنباء الهضر، ص ٣٦-٣٦٣.

٤٠٩- انظر حياة الحجى، الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده مع تحقيق ونشر وثيقة سرياقوس، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٣م.

- ٤١٠- العليبي، الأئس الجليل، ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.
- ٤١١- المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٧.
- ٤١٢- المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٤-٢٩٥.
- ٤١٣- المصدر السابق، ج٢، ص٣١٤-٣١٦: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١١٢.
- ٤١٤- السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص٣٨٢، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢١٨.
- ٤١٥- الصيرفي، إنباء البصر، ص٤٨٠.
- ٤١٦- المصدر ذاته.
- ٤١٧- ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٦٥.
- ٤١٨- المصدر السابق، ج٣، ص١٩٦.
- ٤١٩- الصيرفي، إنباء البصر، ص٣٥٣.
- ٤٢٠- ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٣٠.
- ٤٢١- المصدر السابق، ج٣، ص٤٥.
- ٤٢٢- العليبي، الأئس الجليل، ج٢، ص٣١٨.
- ٤٢٣- ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٤٥، وما زال هذا المجمع الكبير قائما حتى يومنا هذا معبرا عن شخصية الأشراف قايتباي، رمزنا أرتقا، فنون العمارة خلال هذه الحقبة قيد الدراسة.
- ٤٢٤- يشهد الجمالي الماركسي، ناصر الحامص، تولي الحسة مدة فشكرت سيرته. وكان عاقلا مهذبا تقياً. وبنى مسجد وروض وستان وخان في منطقة الحظارة. وسافر في التجاريد وفي الريلية. ثم أصبح في الزردكاشية الكبرى. انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٧٦.
- ٤٢٥- ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٤٩.
- ٤٢٦- السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، المجلد الثاني، ص٣١٥.
- ٤٢٧- المصدر السابق، المجلد الثاني، ص٣٢٢.
- ٣٢٨- المصدر السابق، المجلد الثاني، ص٣٦٥-٣٦٦: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٢٤.
- ٤٢٩- ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٣٣.

- ٤٣٠- المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٦-٣٦٣ .
- ٤٣١- قائم النعيشة الأشرفى قايتماي، وقد تولى الدوايمارية بعد أبيه خاتم في سنة ١٠١٤هـ المشيخة، وكان ظلماً حنوناً . النظر السخاوي، الطوبى للامع، ج ٦، ص ٢٠ .
- ٤٣٢- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٣٦٤-٣٦٥ .
- ٤٣٣- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٠٥ .
- ٤٣٤- المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٩ .
- ٤٣٥- المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣ .
- ٤٣٦- المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦، ٤١ .
- ٤٣٧- تومار الشمسى ابن أخت الأشرف قايتماي، قدم مصر سنة ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م وهو في سن المراهقة، ثم أصبح سائقاً عند الأشرف إبنال ثم أمير عشرة، كان من ثمرة وأيام الظاهر خشنقدهم لستم التحفظ عليه في منزله . ثم أعطاه الظاهر تربيعة إمرة طينخاناه . ثم أصبح في عهد خاله الأشرف قايتماي أحد المقدمين، وحارب عند التركمان، وتولى أمر البحيرة فنظمها وأقر بها الاستقرار . ثم اشترك في منجارية العثمانيين سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م . كان محباً للعلماء والفقراء ومخلصاً للمساجد العامة .  
نظر السخاوي، الطوبى للامع، ج ٣، ص ٣٦-٣٨ .
- ٤٣٨- ابن إياس - بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥ .
- ٤٣٩- الصيرفي، إنباء الهجر، ص ٤٧٤-٤٧٥ .
- ٤٤٠- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٣ .
- ٤٤١- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٩ .
- ٤٤٢- المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٤ .
- ٤٤٣- المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٦-١١٨ .
- ٤٤٤- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٧-١٢٩ .
- ٤٤٥- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٨ .
- ٤٤٦- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٧-١٣٨ .
- ٤٤٧- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠ .
- ٤٤٨- المصدر ذاته .

- ٤٤٩- جامع الروضة أنشأه الفخر ناصر الجيش في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ثم جده بناءه  
الصاحب شمس الدين محمد بن القاسم معروف به ، ثم جده بناءه الأشرف قايتباي معروف به . ويذكر  
المقريزي إن صلاة الجمعة كانت تقام في جامع الفخر بالروضة هذا في أيامه . انظر المقريزي ، الخطط ،  
ج ٢ ، ص ١٣١١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .
- ٤٥٠- الحسن بن حسين المعروف بالنادر بن الطولوني . ولد سنة ٨٤٦هـ / ١٤٣٢م . وتعلم على يد  
السخاوي وأعطاه إجازة . وجع رساق المحل في عهد الأشرف إينال . كان محاضراً فصيحاً فاشتغل  
في التعليم . ثم أصبح في الدوادارية الكبرى بعناية الأمير يشيك الظاهري الذي كان يعزه كثيراً .  
وكان قائماً على بناء جامع الروضة المعروف بالمقسي وسكن هناك . كان خيراً مؤدباً متواضعاً محباً  
للظلمة محسناً للفقراء . انظر السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٩٨ .
- ٤٥١- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ، ١٩١ .
- ٤٥٢- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .
- ٤٥٣- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ، ٢٥٣ .
- ٤٥٤- مصطفى بن محمود بن رستم الرومي البرصاوي أحد أعيان التجار ، ويعرف بين التجار بتاجر  
السلطان لأنه كان يكرمه لأن والده تاجر السلطان . وكثرت أنعام السلطان عليه . وأقام بمكة سنين . ثم  
استقر في القاهرة . انظر السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
- ٤٥٥- السخاوي ، الذيل النام على دول الإسلام ، المجلد الثالث ، ص ١٦٥-١٦٦ ، ١٢٥٢ ، ابن إياس ، بدائع  
الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ .
- ٤٥٦- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٠١ .
- ٤٥٧- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٩ .
- ٤٥٨- السخاوي ، الذيل النام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٣٠٤ .
- ٤٥٩- انظر الصور التوضيحية ٤٠٤ ، ٥٠٤ .
- ٤٦٠- بعد برج قايتباي في الإسكندرية من أعظم الأبنية التي أنشأها السلاطين المساليك . وقد أقيم  
دهليز على قناطر في البحر تبدأ من الساحل وتنتهي بالبرج . وأنشأ في البرج مقعداً مطلاً على البحر  
ينظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنجية وهي داخلة إلى الميناء . وجعل في هذا البرج جامعاً  
بحضرة ، وطاخوناً وفرنناً وحرابلاً ، وأتسجتهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلاً مجهزة بالمذائع  
ليلاً ونهاراً للحيلولة دون حدوث أي هجوم فحائي لفرنج على الإسكندرية . وعين في هذا البرج



مجموعة من المعاهدين المستقرين فيه وأثنا مع رؤيتهم الشهيرة المقررة بانتظام . وجعل عليهم شادا  
من خواص السلطان قايتباي هو قانسوه المحمدى . وأوقف الأشرف قايتباي على هذا البرج الأوقاف  
الجليلة . ولا يزال هذا الأثر صويحوا حتى يومنا الحاضر . انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ،  
ص ١٥٦ .

٤٦١- السخاوى ، الذيل الثام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٣٢١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ،  
ج ٣ ، ص ١٥٥-١٥٦ .

٤٦٢- انظر الخريطة رقم ٦ .

٤٦٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

٤٦٤- المصدر ذاته .

٤٦٥- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٩-١٧٠ .

٤٦٦- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

٤٦٧- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ .

٤٦٨- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

٤٦٩- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

٤٧٠- السخاوى ، الذيل الثام على دول الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٣-٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ابن إياس ،  
بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

## المصادر والمراجع

أولاً : مصادر مخطوطة :

السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٢-٥٩٠هـ / ١٤٩٧م)

- الدرّة الضيّقة في المآثر الأشرفية، مخطوط، مكتبة المخطوطات، جامعة الكويت، رقم  
Arabe ١٦١٥.

مجهول : معاصر للسلطان الأشرف قايتباي

- تاريخ الملك الأشرف قايتباي، دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٨٥٥٤-ح.

ثانياً : مصادر مطبوعة :

(١) الكتب :

ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفى (ت ٥٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق : محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٢-  
١٩٨٤م.

ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦م.

ابن الجيعان : محمد بن يحيى بن شاکر بن عبد الغنى (ت ٨٤٧-٩٠٢هـ)

- القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام ٨٨٢هـ /

١٤٧٧م، تحقيق : عمر عبد السلام تدمرى، منشورات جروس، طرابلس، (لبنان)،  
الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

الحجى : حياة ناصر

- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مع تحقيق ونشر وثيقة وقف  
سرياقوس، الكويت، ١٩٨٣م.

- أحوال العامة في حكم المسالك ٦٨٧-٧٨٤هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢م: دراسة في الجوانب

السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤م، والطبعة  
الثانية في عام ١٩٩٤م.

- دراسات في تاريخ سلطنة الماليك في مصر والشام، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٦م.
- صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة الماليك، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٢م.

- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة الماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٥م.

#### دهمان : محمد أحمد

- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٠م.
- ابن سباط : حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط القريني .
- تاريخ ابن سباط، ج ٢، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، لبنان .
- السيكي : تايح الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م)
- معيد النعم وببيد النعم، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٣م .
- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، القاهرة، ١٣٥٣-١٣٥٥هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦م.

#### - التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، ١٨٩٦م.

- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ٣ أجزاء، بالإضافة إلى جزء الفهارس، تحقيق : بشار عواد معروف، عصام فارس المرستاني، وأحمد الخطيبي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

- الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق : حسن إسماعيل مروة، ٣ مجلدات، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٧م.

- الذيل على رفع الأصر، تحقيق : جودة هلال، محمد محمود صبيح، مراجعة : علي البجاوي، القاهرة.

#### السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق: م. أ. إبراهيم القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

- تاريخ الخلفاء، تحقيق: م. م. عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٤م.

ابن الشحنة: عفيف الدين محمد بن محمد أبو الطيب (ت ٨٩١٠هـ / ١٥٠٤م)

- السدر الزاهر في نصرة الملك الناصر «محمد بن قبايب» ٩٠١-٩٠٤هـ /

١٤٩٥-١٤٩٩م، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٣م.

الصيرفي: علي بن داود الخطيب الجوهري (ت ٨١٨-٨٧٩هـ / ١٤١٥-١٤٧٤م)

- إنباء النهصر بأبناء العصر، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م.

طرخان: إبراهيم علي

- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح

- العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.

- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة، ١٩٧٠م.

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٢م.

العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (١٠٤٩-١١١١هـ)

- سطر النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج ٤، القاهرة.

العلمي: مجير الدين الحنبلي (٨٦٠-٩٢٨هـ)

- الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ٢، النجف، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

العيدرسي: محيي الدين عبد القادر بن عبدالله

- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، بيروت.

عيسى: أحمد محمد

- شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، الكويت، ١٩٦٦م.

الغزي: الشيخ نجم الدين

- الكوالب السائرة بأعيان المئة العاشرة . تحقيق : جبرائيل سليمان جبور، بيروت  
- ١١٧٥م.

القرماني: أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ / ١٦١٠م)

- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق: أحمد حطيط ، فهمي سعد، الطبعة  
الأولى، بيروت ، ١٩٩٢م.

الفلقشندی: أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

- مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج، الكويت  
- ١٩٦٤م.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٣-١٩٢٢م.

المقريزي : أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق : م . عابدين، القاهرة، ١٩٦١م.  
- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، حصص ، ١٩٥٦م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقرئية»، جزآن، القاهرة ١٨٥٣م.

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، ج ٣ ، ٤  
تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٧١م.

٢- المقالات في المجالات العلمية:

الحجى: حياة ناصر

- المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك في الفترة ما بين عامي ٦٩٤-٦٩٥هـ/  
١٢٩٤-١٢٩٥م، حولية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السابع،  
٤-٤هـ / ١٩٨٤م.

- القضاء والقضاة في مصر في عهد الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩-٧٤١هـ/  
١٣٠٩-١٣٤١م، الأردن، ١٩٨٦م.

- البيمارستان المنصوري منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر  
الميلادي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد (٢٩) شتاء ١٩٨٨م.

- التقسيم الإداري في مصر زمن المماليك الأتراك ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ،  
جامعة الكويت، العدد (٣٨) ، ربيع ١٩٩٠م.
- ٣- الموسوعات والأطالس:
- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة : أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد  
برنس، طبعة القاهرة.
- معجم المؤلفين ، ج٧ ، تأليف : عمر رضا كحالة ، بيروت.
- موسوعة حكام مصر، تأليف : ناصر الأنصاري، القاهرة.
- مؤسس : حسين
- أطلس العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ثالثا : المقالات الأجنبية (Articles in Periodicals) :

**Bachara, Jere L.,**

- Circassian Monetary Policy : Copper, Journal of Economic and Social History of the Orient (J.E.S.H.O.), vol . XIX part 1, pp. 47-72 .

**Petry , Carl E.,**

- Fractionalized Estates in a Centralized Regime : The Holdings of Al- Ashraf Qaytbay and Qansuh Al-Ghawri According to their waqf Deeds. Journal of Economic and Social History of the Orient (J.E.S.H.O), vol . 41 , Part 1 .

**Reilly , James A.,**

Past and Present in Local Histories of the Ottoman Period from Syria and Lebanon . Middle Eastern Studies January 1999 .



أ. د. رأفت غنيمى الشيخ \*

## الحياة الاجتماعية للأجانب

فى ولاية طرابلس الغرب العثمانية

### مقدمة

ترجع أهمية ليبيا - التى جعلتها مطمح القوى المتصارعة فى البحر الأبيض المتوسط - إلى أنها رأس جسر بين مصر فى الشرق وبقية بلاد الشمال الأفريقى فى الغرب ، فهى بمساحتها الواسعة المترامية الأطراف تعتبر معبراً لحجاج الشمال الأفريقى المسلمين إلى مكة المكرمة ، ثم أنها معبر للتجارة بين أفريقيا وأوروبا حيث كانت «مركزاً لثلاث طرق قوافل: الأولى تنجده جنوباً عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والثانية تنعطف جنوباً غرباً عبر غدامس وغانات إلى تمبكتو الأسطورية، والثالثة تسيير جنوباً شرقاً عبر واحة الكفرة إلى وادى ودارفور الغربى بخصبه وثرواته»<sup>١١</sup>.

وكانت طرابلس أكبر مدن ليبيا مركز الحركة التجارية مطمح لكل المغامرين والمستعمرين وذلك لوقوعها على البحر المتوسط فى مواجهة دول أوروبا ، حيث كانت تتصل بهذه الدول عن طريق البحر إلى جانب تزويدها للسفن بالمؤن والحماية، ولذلك صار لها تاريخ بحرى هام إلى جانب أهميتها التجارية كسوق لبضائع الدول الأوروبية الصناعية.

وتنقسم مساحة ليبيا إلى قسمين رئيسيين : الشريط الساحلى الخصب الذى يضم المدن الرئيسية، والذى تقوم به معظم النشاطات الزراعية معتمدة على الأمطار، والقسم الثانى يقع إلى الجنوب من الشريط الساحلى الضيق نوعاً وهو يشمل الصحراء، التى تمتد إلى حدودها مع

\* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة الزقازيق .

الجزائر والنيجر وتشاد والسودان ومصر، وهي صحراء قاحلة تكاد تخلو من أى حياة إلا فى بعض الواحات المتناثرة التى تقوم حولها بعض المدن الصغيرة، وتكاد المنطقة الصحراوية تخلو من المرتفعات الكبيرة، فيما عدا جبل غريان معقل البربر.

كان سكان ليبيا الأصليون من البربر، ثم لما دخلها الفتح العربى دخل معه عدد من العرب استوطنوا ليبيا، إلا أن عددهم حتى أوائل القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - لم يكن كافياً لصيغها كلها بالصيغة العربية نهائياً، فظل الغالب على سكانها - خاصة فى الداخل - العنصر البربرى، لكن الذى أتم لليبيا عربيتها هو محجن قبائل بنى سليم وبني هلال فى أواسط القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - وقد استقر بنو هلال فى طرابلس وتونس، أما بنو سليم فقد استوطنوا برقة وحافظوا على ما عندهم من عادات وتقاليد عربية. وامتزج ما تبقى من البربر بهم حتى صارت برقة عربية تماماً، وإلى بنى هلال يرجع الفضل فى تعريب طرابلس وتونس والجزائر.

ولم يكن لسكان ليبيا قبل الفتح العربى وهم بربر لغة مكتوبة يستطيعون التخاطب بها واستعمالها، ولذلك جاءتهم اللغة العربية مع الفتح العربى الإسلامى، فقبلوها وقبلوا معها كتابها الكريم - القرآن - فدخلوا الإسلام دون نسر أو إكراه، لأنهم رأوا فيه خلاصاً من حالة اجتماعية لا دينية، وانتقالاً من الضلالة إلى الهدى.

وقد تراءت على ليبيا الحوادث والمخضوب التى أثرت فيها تأثيراً كبيراً قبل محن العثمانيين فقد تعرضت طرابلس لغزوات النورمان من صقلية فى القرن الثانى عشر سببت الخراب لكثير من أحياء المدينة، واضطر أهلها لدفع جزية كبيرة لمدة طويلة، كما خضعت ليبيا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين للحفصيين الذين لم يكن يعنيه من أمر ليبيا سوى الحصول على أموالها. لذلك كثيراً ما أصاب المدن الليبية الخراب بسبب تخاصم أصحاب النفوذ، وتعرضها لهجمات البدو، وبخاصة أيام القحط والجذب.

وفى سنة ١٥١٠م هاجم الأسبان طرابلس واستولوا عليها، وكان ذلك نتيجة لذلك الصراع الهائل الذى قام بين العثمانيين والأسبان خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين من أجل السيادة البحرية على البحر الأبيض المتوسط، ذلك الصراع الذى جعل ملك أسبانيا يهدى طرابلس ويتنازل عن احتلالها لفرسان القديس يوحنا بمالطة عام ١٥٣٥م، الذين اتخذوا من جزيرة مالطة مقراً لهم بعد أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس، وذلك الصراع الذى

جعل فرسان سلطنة بتانوتون البحرية العثمانية في البحر المتوسط . وذلك الصراع الذي انتهى باحتلال العثمانيين لليبيا وظرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس عام ١٥٥١م.

كان المورد الرئيسي للثروة في ليبيا الحبوب والحيوانات والشحارة . ولم تكن الزراعة مزدهرة لأنها تتوقف على الأمطار . وقبل نهاية القرن التاسع عشر بدأت الطرق التجارية تتحول تدريجياً عن ليبيا ، إذ قامت في غرب القارة الأفريقية موانئ أصبحت البضائع ترسل إليها . وصدق على ليبيا في نهاية القرن التاسع عشر وصف أحد الرحالة حيث قال : « إن الماء فيها معدومة والشجر فيها مفقود ، إلا النخيل والزيتون في الساحل ، وكاد التجارة ليبيا تكون لا أثر لها ، بل ويمكن القول حتى بأنها لاموائن لها »<sup>(١٢)</sup>.

وإذا كانت هذه حالة ليبيا فلم يكن غريباً أن يكون عدد السكان فيها قليلاً جداً ، لا يتناسب مع مساحتها المتسعة ، وكان معظم هؤلاء السكان يتركزون في المدن الساحلية ، وفي الواحات المتناثرة في صحرائها الشاسعة . وقد قدر عدد هؤلاء السكان في أواخر القرن التاسع عشر بحوالي ثلاثة أرباع المليون نسمة فقط ، وهو عدد قليل جداً يعيشون في مساحة تقدر بحوالي مليون وثلاثة أرباع المليون (١.٧٥٠.٠٠٠ كيلومتر مربع) من الكيلو مترات المربعة.

### الظروف الاجتماعية :

الظروف الاجتماعية ذات تأثير كبير ، ومن هنا جاء اهتمامي بها في هذا المقام . باعتبار المجتمع هو الوعاء الذي تتفاعل فيه الأفكار والنظم . « ونقطة البداية في أي مجتمع مجسومة عديدة من الأفراد - هم المادة الخام التي ينمو منها - تستمر في وجودها وقائماً كائناً . بشع خلالها الأفراد حاجتهم البيولوجية من تزاوج وتناسل ، ويضطعمون بالصيغة الاجتماعية نتيجة عوامل متداخلة متشابهة متكاملة من انتقال للأفكار ، وتكوين للأنظمة ، وتحويل بينهم الطبيعية إلى بيئة ثقافية تنتقل فيها الأشياء إلى أدوات وموضوعات وأنظمة ذات معان بالنسبة إليهم وإلى حياتهم الجماعية<sup>(١٣)</sup> .

وبالنسبة للمجتمع العربي في ليبيا فإن العلاقات بين أفراد المجتمع تقوم على أساس الارتباط القبلي . وهذا الارتباط يساعد على تماسك المجتمع بعض الشيء ، وإن كانت الظروف والأحداث التاريخية قد حالت بين هذا الشعب العربي وبين التماسك والوحدة الوطنية ، وساعدت القوى التي سيطرت على مقدرات الأمور في البلاد - في العصر العثماني والعصر

الإيطالي وعصر الإدارتين الإنجليزية والفرنسية - على وجود انقسامات بين القبائل وتناحر فيما بينها .

إلا أن هناك مقومات أساسية جمعت بين أفراد الشعب الليبي، منها أنهم «يكونون وحدة دينية إلا من أقلية يهودية ، فغالبية الأهالي يدينون بالإسلام . ويتبع جل هؤلاء المذهب المالكي، بينما اتبع بعض أهالي الجبل الغربي وبلدة زوارة الساحلية المذهب الأباضي وعرفوا بالحوامس»<sup>١٤١</sup>. هذا إلى جانب أن اللغة العربية هي لغة كل أفراد الشعب العريسي الليبي، مع وجود عدد قليل منهم يتكلمون إلى جانب اللغة العربية اللهجة البربرية ولغة الطوارق . كما أن جميع الليبيين، وحتى البربر، من أصل عريسي أو تعربوا بالاختلاط .

وقد تأكدت عروبة الشعب العريسي الليبي بمقاومته لمحاولات محاربة تراثه الثقافي العريسي الإسلامي ، وتمسك كل فرد فيه بعرويته ودينه، بل وأرضه وتاريخه «فالفرد لا ينتمي إلا لمجتمع يشعر فيه بالزمالة ، ويحقق بين أفراد، حاجاته ومطالبه عن طريق علاقات تقوم على لغة مشتركة، وعادات وتقاليد مشتركة ، وتراث ثقافي مشترك ، ولعل هذا يفسر فشل المجتمعات الاستعمارية مثلاً في جذب أفراد المجتمعات التي خضعت لها . ومحاولاته لتلويب شخصياتهم في ثقافة غير ثقافتهم»<sup>١٤٢</sup> .

وكان من الأسباب التي ساعدت المجتمع العريسي في ليبيا ، في عصور خضوعه للعثمانيين والظليان وغيرهم ، للمحافظة على عرويته أن معظم السكان كانوا يكونون مجتمعاً بدوياً ، وقد ظل هذا المجتمع البدوي بعيداً عن سلطات القوي المسيطرة على الأمور ، والتي تتخذ من المدن مراكز لفرض سيطرتها . وقد تأثر هذا المجتمع البدوي بالبيئة الصحراوية، فامتاز أفرادها بالقرية والمحشونة والمحافظة على العادات والتقاليد العربية والدين الإسلامي ، أي المحافظة على التراث الثقافي العريسي الإسلامي.

وكان إلى جانب هذا المجتمع البدوي مجتمع المدن الذي كان يزاول أفراده حياة أكثر تحضرًا بسبب اختلاطهم - في التعامل - مع أفراد الجاليات الأجنبية . وكان معظم العرب في المدن يعملون بالتجارة، ولم يهتموا بالصناعة التي استحوذ عليها أفراد الجاليات الأجنبية واليهود . وتوجد في البلاد أعداد من الزوج قدموا إلى البلاد بسبب تجارة الرقيق أو موجودون في الأمل منذ الهجرات الزنجية الأولى من وسط أفريقيا إلى الشمال ، وقد اختلط هؤلاء أيضاً بأهل البلاد الأصليين، شأنهم في ذلك شأن الأتراك الذين كونوا طبقة اجتماعية عرفت باسم

القولوغلية- التي هي نتاج تزاوج وتناسل بين الضباط العسكريين والموظفين الأتراك بالنساء الوطنيات الليبيات .

كما كان يعيش في ليبيا أقلية يهودية كبيرة العدد ، وكانت هذه الأقلية موزعة في إقامتها على أهم المدن الليبية ، وكانت هذه الأقلية نشطة في حياة المجتمع الليبي إذ سيطرت على النواحي الاقتصادية في البلاد ، وكانوا يجدون المعاملة الحسنة «فقد لاحظ ناحوم شلوش حين زار طرابلس سنة ١٩٠٦م أن السلطات العثمانية كانت تعامل اليهود بالحسنى ، وأشد بالوالى المشير رجب الباشا الذى كان يعاملهم دوماً بالحسنى والود ، وكان مستعداً أن يقدم الإمداد والعون للإليانس الإسرائيلى<sup>(٩)</sup> كما ذكر شلوش أن فئة التجار من اليهود كانت تعيش في أوضاع حسنة ، وأغنياً اليهود هم الذين كانوا يشاركون في تجارة القوافل<sup>(١٧)</sup> .

وكانت الحياة الاجتماعية في ليبيا تسير على النمط العربى المعهود من حيث العادات والتقاليد المتوارثة في الملابس والمأكل والزواج والوفاة ، والأعياد والمناسبات الدينية، وكان التدبير صفة غالبة على الناس، وقد كان هنا مجالاً لظهور الطرق الصوفية وانتشارها. وكانت دخول غالبية أفراد المجتمع ترجع إلى الزراعة البدائية والتجارة العادية الخاضعة لتناقض اليهود ، وهذا أدى إلى انخفاض مستوى معيشتهم ، وعانى الكثيرون منهم من الفقر.

وكانت تعيش في أنحاء الولايات العربية أثناء الحكم العثمانى طوائف دينية كأقليات، وكانت سياسة الدولة العثمانية الداخلية تقوم على اعتبار كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية من غير المسلمين، جماعة قائمة بنفسها، وكانت تمنح تلك الطوائف امتيازات خاصة في كل ما يمت بصلة إلى الشؤون الدينية والمذهبية ، وقد تمثلت هذه الطوائف فيما عرف بأهل الذمة ، أو أصحاب الملل الدينية والمذهبية ، وخاصة اليهود والمستوطنين الذين عرفوا بالجهاليات الأجنبية، وهي التي عاشت في الولايات العربية أثناء الحكم العثمانى، والتي استقرت في هذه الولايات منذ أزمان متفاوتة، وأصبحت من القوى ذات التأثير في أمور البلاد، التي تقبل فيها سوا، في المجال الاقتصادى أو الاجتماعى أو الثقافى.

وقد عاشت طوائف الملل في الولايات العربية في ظل الحكم العثمانى متمتعاً بامتيازات اقتصادية واجتماعية وثقافية كقوة متمسكة محافظة على نفسها من الزوال أو الذوبان داخل المجتمع الإسلامى في الدولة العثمانية. كما استفادت من الامتيازات المترحة لها في كل مجال ، فعلى سبيل المثال ظهرت المدارس الحديثة عند هذه الطوائف المليية بينما حرم منها



المسلمون الذين حرموا أصلاً من الامتيازات المسموح بها لهذه الطوائف الدينية، ولذلك فقد سبقت هذه الطوائف الدولة العثمانية في كل ولاياتها في ظهور المدارس العصرية، بينما تخلفت الدولة عن تطوير التعليم لرعاياها من المسلمين الذين حرموا من الأخذ بالتعليم الحديث في أقطارهم.

وكان في ولاية طرابلس الغرب - كما كان في غيرها من الولايات العربية في العهد العثماني - طائفة يهودية، وجاليات أجنبية استفادت من الامتيازات الممنوحة لها في ممتلكات الدولة العثمانية، ومنها ولاية طرابلس الغرب، وكانت كل دولة من الدول الأوروبية تتطلع إلى سيطر نفوذها على جزء أو أجزاء من الأقاليم الخاضعة للحكم العثماني، وحيث كان التعليم أسلوب هذه الدول لنشر ثقافتهم ونفوذها، ومن ثم العمل على ضمان ولاء الأبناء الذين يأخذون من هذه الثقافات بقدر.

وفي هذه الدراسة سوف نستعرض نشاط الأجانب في ولاية طرابلس الغرب في المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وخاصة اليهود وأصحاب الجاليات الأجنبية من الأوروبيين غير المسلمين :

### أولا : اليهود :

لقد تميزت ولاية طرابلس الغرب بأن سكانها كلهم مسلمون، وإن وجدت بها أقلية يهودية، فقد وجدت منذ ما عرفت بحاكم التنفيس في أسبانيا، عندما هاجر يهود أسبانيا واستوطنوا أقطار شمال أفريقيا العربية، وقد كانت الأقلية اليهودية في ولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني، أقلية كبيرة أقام أفرادها في أكثر مدن الولاية، وكانت لهم في مدينة طرابلس الغرب مركز الولاية حارة خاصة بهم في الشمال الغربي من المدينة، حيث وصل عددهم - على حسب تقدير المؤرخين المعاصرين - أربعة آلاف يهودي.

ومن الناحية الاجتماعية، اتصف اليهود بالقناعة، وأينما سكنوا كانت حاراتهم قدرة، ولم تصفوا بالنشاط في العمل، وقد عاشوا في مجتمعات مغلقة على أنفسهم، لا يحبذون الاختلاط بالعناصر الأخرى، وكانت حارة اليهود بمدينة طرابلس تمثل المجتمع اليهودي المغلق، أما أغنياء اليهود فكانوا يمثلون طبقة عليا عملت على حماية فقراء اليهود، إما ما تعرضوا لأذى أو اضطهاد من الحكم القائم.



ومن الناحية الاقتصادية ، اتضحت في ولاية طرابلس الغرب، نشاطات اليهود الاقتصادية، وتمثل ذلك في الحرف والتجارة والصيرفة ، إذ عملوا في أعمال صياغة الذهب والمعادن الأخرى مثل الحديد والنحاس والفضة ، إلى جانب تعاملهم بالربا في التعامل المالي مع الناس، وتغالوا في أخذ فوائد تقوهم بلغت ٢٠٪ ، وكثيراً ما كانت تزيد عن هذه النسبة. وكان التجار اليهود يمتلكون ثروات كبيرة ، ومن ثم كانت أحوالهم أحسن حالاً من غيرهم وإن كانت نسبة هؤلاء لا تزيد عن ١٠٪ من جملة اليهود بالولاية . وكانت فئة التجار اليهود بولاية طرابلس الغرب ذات نشاط واسع داخل الولاية وخارجها، فقد ساهمت في تجار القوافل التي تأتي من وسط وغرب أفريقيا عبر الصحراء إلى سواحل الولاية وموانئها، محملة بالعاج وريش النعام إلى جانب نبات الحلفا ، ثم تنقل هذه المتاجر إلى أوروبا لتباع بأثمان تعود على هؤلاء التجار بالثروات الضخمة.

وتظنراً لما يتمتع به اليهود من خوف من الآخرين ، فقد لجأ بعض أصحاب الثروات من يهود ولاية طرابلس الغرب، للحصول على جنسيات دول أوروبية حتى يتمتعوا بحماية قنصل هذه الدول إلى جانب تمتعهم بالامتيازات الممنوحة لرعايا الدول الأوروبية في الولاية، وهذا على الرغم من أن أحد الرحالة اليهود يدعى ناحوم شلوش ، سجل حين زار طرابلس عام ١٩٠٦م ، أن السلطات العثمانية كانت تعامل اليهود بالحسنى، وأشد بالوالي العثماني المشير رجب باشا الذي كان يعاملهم دائماً معاملة حسنة، وكان مستعداً لتقديم الإمداد والمعونة للإليانس الإسرائيلي ، كما سبق أن ذكرت .

وكانت الأقلية اليهودية بولاية طرابلس الغرب تتمتع بالحرية الدينية ، فلم يسجل التاريخ أن الحكام العثمانيين منعوا اليهود من إقامة معابد لهم ، وانتشرت المعابد اليهودية في المدن الطرابلسية على أن أكثرها كان بمدينة طرابلس ذاتها ، وقد وجدت بعض المعابد في مدن أخرى زصغر ، مثل العروس القريبة من طرابلس والتي زارتها « مابل تود » ، وذكرت عنها إنها قرية يهودية معظم سكانها من الحدادين وبها معبد يعتبر من أجمل مبانيها<sup>(٨١)</sup>.

أما في المجال الثقافي فقد كان لليهود في ولاية طرابلس الغرب نشرة دورية تسمى «علم صهيون» بمشابهة صحيفة تصدر بمدينة طرابلس وتعمل بحرية وتنتشر أخبار الولاية وكل ما يهم اليهود الذين يتداولونها. كما أنشئت بمدينة طرابلس عام ١٨٠٤م أول مدرسة حديثة يهودية بمساعدة المؤتمر اليهودي العالمي، وكانت تدرس بها اللغة العبرية واللغة الفرنسية حتى عام

١٩١١م، تم أضيفت إليها اللغة الإيطالية<sup>(١١٠)</sup>، وقد انشأ بعض رؤساء الطائفة اليهودية بمدينة طرابلس عام ١٨٧٦م مدرسة لتدريب الشبان اليهود على الأعمال الجارية<sup>(١١٠)</sup>، هذا إلى جانب أن دروس الدين اليهودي كانت تعطى للجماعات اليهودية في مدارس تسمى : مدارس التلمود ملحقة بالمعابد اليهودية وهذا ما يعنى الارتباط بين التعليم في المدارس والتعليم الدينى لليهود في معابدهم.

وكانت بعض مدارس اليهود تقام بجهود اليهود الموجودين في ولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني ، أو بواسطة الاتحاد العالمى الإسرائيلى ومقره باريس، كما هو الحال في المدرسة التى تأسست عام ١٩٠١م تحت اسم «اليانس إسرائيليات» أو الاتحاد العالمى الإسرائيلى Alliance Israelite Universelle وهى مقسمة إلى قسمين : قسم للذكور وقسم للإناث<sup>(١١١)</sup>.

وفي إحصائية عن التعليم ترجع إلى عام ١٩٠٢م ، تبين أن عدد التلاميذ في المدارس اليهودية بطرابلس بلغ ٦٥ طالبة في تلك السنة، وتبين هذه الوثيقة أن اليهود اهتموا بتعليم بناتهم وعمومًا اعتنوا بالتعليم وهو الأمر الذى يجعل من اليهودى صاحب مصدر كبير للدخل والثروة ، ولذلك كانت طائفة اليهود في ولاية طرابلس الغرب، أول طائفة تفتح مدرسة لتعليم أبنائها الأعمال التجارية<sup>(١١٢)</sup>.

وكان يهود طرابلس الغرب في ظل الحكم العثماني أول من أدرك أهمية الاتصال بأوروبا ، لبيئتها كان العرب المسلمون في ولاية طرابلس معزولين، وليست لهم فرص الاتصال بالأوروبيين أو الاحتكاك الحضارى مع أوروبا ، فجدد اليهود بعلمون أبنائهم أهم اللغات الأوربية وبعض العلوم الحديثة التى تتيح لهم الاستفادة من التقدم الأوروبى، وعليه لاتعجب أن كان يهود ولاية طرابلس الغرب هم حلقة الاتصال بين أهل الولاية وأوروبا<sup>(١١٣)</sup>.

وهكذا عاش يهود ولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني مستعدين بالحريّة الكاملة في النشاط الاقتصادى والاجتماعى والشقاقي، دون قيود من الأحكام أو مضايقات من أهل الولاية، بل إنهم تمتعوا بمكانة سياسية في الولاية من خلال تقربهم للولاة وإغداق الهبات على كبار موظفى الولاية، ومن ثم لعبوا دوراً سياسياً ، خاصة في أوقات الأزمات التى مرت بها الولاية.

على أن يهود ولاية طرابلس الغرب كانوا قد لعبوا دوراً ضد الوالى على برغل باشا ، الذى جاء إلى الولاية بعد أن ضاق أهل الولاية بحكم على القرمائلى الأول عام ١٧٩٢م ، وحيث

أجبر الأسرة القرمانية على مغادرة الولاية، وأثناء محاولات هذه الأسرة العودة بزعامه يوسف القرماتلى الذى حاصر طرابلس المدينة عام ١٧٩٤م، تضايق يهود الولاية من إجراءات على برغل باشا التعسفية وخاصة بعد أن سجن الملكة «إستر» حامية يهود طرابلس وهددها بالإعدام، إن لم تدفع لمائة ألف قرش، وصادر أموال الأغنياء من اليهود والعرب على السواء. أما رد فعل يهود طرابلس فهو تدبير مؤامرة تزعمها يهودى يدعى «كوهين» ضد على برغل باشا بأن أغترى كوهين بعض المرتزقة الألمان بفتح أبواب مدينة طرابلس فى ليلة معينة ليدخلها يوسف القرماتلى ورجاله، ولكن المؤامرة انكشفت مما دفع الوالى على برغل باشا إلى إحراق اليهودى كوهين ويهودياً آخر، ثم شق اثنين وعشرين من الأهالى<sup>(١٤)</sup>.

وهذه الحادثة إن دلت على شيء، فإنما تدل على الدور السياسى الذى كان يلعبه يهود ولاية طرابلس الغرب، وهو الدور الذى قتل فى اللجوء إلى التأمير من أجل مصالحهم الخاصة، وما يذكر أنه على الرغم من فشل مؤامرة كوهين، فقد نجح القرماتليون فى دخول مدينة طرابلس الغرب عام ١٧٩٥ وفرار على برغل باشا إلى مصر، وقد عاش اليهود بعد ذلك متستعين بامتيازات كثيرة فى الولاية، ونتيجة لوجود أقلية يهودية بولاية طرابلس الغرب، اتجهت أنظار المنظمة اليهودية للأراضى لإنشاء مستعمرات زراعية فى برقة، لتكون وطناً قومياً لليهود، رداً فشلت الحركة الصهيونية فى تحقيق هذا الحلم فى فلسطين، وكان من بين أعضاء البعثة جريجورى العالم الجيولوجى، وترودر الحبير الزراعى، ومدلثون الميكانيكى والمستشرق ناحوم شلوش أستاذ الدراسات السامية بجامعة السوربون فى باريس والذى كان مهتماً بدراسة أوضاع اليهود فى ولاية طرابلس الغرب<sup>(١٥)</sup>، وتدعيماً للوجود اليهودى المادى فى الولاية قدمت البعثة مذكرة للحكومة العثمانية عام ١٩٠٩م تطالب فيها بتأسيس بنك يهودى لشراء أراضى واسعة وقبول هجرة اليهود إلى الولاية، والسماح لهم بتشكيل هيئة دينية، وأن يحصلوا على الجنسية العثمانية، وأن يكون للهيئة الدينية اليهودية مقر فى موقع على الساحل، ولها ميناء وشركة ملاحية وتملك سكة حديد لتأسيس مدارس يهودية<sup>(١٦)</sup>.

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن مخطط اليهود كان التواجد فعلياً فى الولاية وبصفة خاصة فى برقة، وأعنى بالتواجد الفعلى هو الاستيطان والعمل المنتج فى الزراعة والتجارة وإعداد أبنائهم فى مدارس خاصة.

### ثانياً : المجاليات الأوروبية:

استفادت الدول الأجنبية من الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لها في كل ممتلكاتها ، ومنها ولاية طرابلس الغرب ، لكي تتوافد جماعات من الأوروبيين كان معظمهم من المالتيين والإيطاليين واليونانيين ، وكلما كان من الممكن إنشاء كنيسة صغيرة ، فإن الإخوان المبشرين كانوا ينشئون مدارس لتعليم الأطفال الطقوس المسيحية وتعليمهم كيف يقرءون ويكتبون ، وفي هذه المدارس كان الأطفال يتعلمون اللغة الإيطالية وبعض أساسيات التعليم العام<sup>(١٧٧)</sup>.

تركز المجاليات الأوروبية في مدينتي طرابلس وبنغازي ، وإن سكنت بعض العناصر الأجنبية بعض المدن الطرابلسية الأخرى ، للعمل في التجارة أو في الحرف ، وقد قدر عدد المجاليات الأوروبية - وكلهم مسيحيون- في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بحوالي ثلاثة آلاف تنتمي إلى سبع جنسيات أوروبية- قبالي جانب الإيطاليين ثم المالتيين ذوى الجنسية البريطانية، كانت هناك مجاليات فرنسية معظمها من تونس وتعمل في التجارة، وبعض الأسبان التجار وأصحاب الحرف معظمهم من اليهود، واليهولنديين ، كذلك أيضاً اليونانيون الذين يعملون في صيد الأسماك والإسفنج ، وعدد قليل من الجنسيات النمساوية والألمانية وكلهم يهود<sup>(١٧٨)</sup>.

وكان مسيحيو المجاليات الأجنبية يمارسون حياتهم في ولاية طرابلس الغرب بكل حرية دون قيود ، أسوة باليهود الذين مارسوا أعمالهم التجارية أو الحرفية، وقد تمتعوا بحماية قنصل دولهم ، كما مارسوا شعائرهم الدينية في كنائسهم أو معابدهم دون تدخل من الحكم العثماني ، أو من أهالي الولاية المسلمين وهذا ما يؤكد تسامح الحكام والأهالي وتعاونهم مع أفراد هذه المجاليات الأجنبية، وقد مارس أفراد المجاليات الأجنبية في ولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني حياتهم الاجتماعية على النسق الأوروبي ، سواء في مساكنهم أو ملاسهم أو معاملاتهم مع بعضهم البعض ، ورغم تميز أهل طرابلس الغرب بالمحافظة والتسك بإسلامهم، إلا أن بعض السكان العرب المسلمين تأثروا بالأجانب خاصة أولئك المقننين بكل ما هو أوروبي ، أو المحتكين في حياتهم اليومية بالأجانب.

كما أن أفراد المجاليات الأجنبية مارسوا نشاطاً اقتصادياً حراً ، فكان صيد الإسفنج على سبيل المثال يكاد يكون محتكراً من جانب اليونانيين ، إلى جانب صيد السمك ، واستخراج



الملح وصناعة الدخان والصابون ، وتجارة ثبات الحلقا ونقلها إلى الموانئ الأوروبية. وكل هذه الأنشطة الاقتصادية ، كان للمجاليات الأجنبية دور كبير فيها ، حيث تكونت شركات أجنبية أو فروع لشركات أوروبية ، اتخذت من طرابلس الغرب مركزاً لمباشرة نشاطاتها .

وقد ترجم التعليم عن حياة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وقد توفقت في دراستنا للتعليم بمدارس المجاليات الأجنبية بولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني على أحوال تلك المجاليات ذلك أن التعليم يرتبط بالنظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للجساعة التي تنشئ التعليم. ومن ثم يكون عرضنا للمدارس التي انشأتها المجاليات الأجنبية في ولاية طرابلس الغرب من شأنه أن يلقى الضوء على الدور الذي قامت به هذه المجاليات في الولاية تحت الحكم العثماني .

ويمكن أن نؤرخ لبداية تعليم الجالية الإيطالية بولاية طرابلس الغرب عام ١٨١٠م. عندما استقر المبشرون الفرنسيون بطناسكان بطرابلس وافتتحوا مدرسة ابتدائية صغيرة للأطفال المسيحيين القليلين في البلاد آنذاك . وقد التحق بهذه المدرسة أيضاً عدد قليل من أطفال أهل الولاية<sup>(١١١)</sup>. وفي عام ١٨٤٦م استطاعت بعثة أخوان الراعي الصالح الكاثوليكية إنشاء مدرسة للبنات إحتديت فيها بنات من الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، وقد نجحت ٦٠ طالبة كن قد تعلمن اللغة الإيطالية. وهي اللغة المستعملة غالباً عند الأوروبيين بطرابلس، وكانت هذه المدرسة تمول من قبل الإرسالية الفرنسية الكاثوليكية<sup>(١٢٠)</sup>، وتديرها فرنسية الأصل من بلدة بجوار مرسيليا تسمى (Capcleue) والمدرسة تعلم الموسيقى وتقوم بها معلمة راهبة بلغارية<sup>(١٢١)</sup> وكان ازدياد عدد المجاليات الأوربية المسيحية في ولاية طرابلس الغرب خاصة في القرن التاسع عشر نتيجة الامتيازات الأجنبية التي حصلت عليها الدول الأوروبية من الدولة العثمانية. وقد نتج عن ذلك اتخاذ أهل المجاليات الأوروبية إجراءين هما :

**أولاً :** استخدام بعض القسس الذين يعملون ضمن الإرساليات الكاثوليكية في طرابلس الغرب ، وتفريغهم من العمل الديني لإعدادهم وقيامهم بالتدريس في مدارس الإرساليات .

**ثانياً :** إنشاء مدارس تقام لغرض التعليم في الولاية ، بدلاً من إرسال أبناء المجاليات الأوربية للدراسة بأوطانهم الأوروبية . وقد قامت الحكومة الإيطالية بإنشاء مدارس في بعض مدن الولاية مثل طرابلس وبنغازي والحمص ، بينما تم إنشاء مدارس من أموال جمعت من المستوطنين الإيطاليين المهاجرين إلى الولاية ، وقد جعلت الحكومة الإيطالية هذه الجهود لأنها تتفق مع مخططاتها الاستعمارية<sup>(١٢٢)</sup>.

وفي العام الدراسي ١٩١٠ / ١٩١١م، وهي السنة السابقة للغزو الإيطالي، كانت المدارس الإيطالية في ولاية طرابلس الغرب تتواجد بمدن طرابلس والحمص وبنغازي ولبيتن والبنات وللتعليم الابتدائي والثانوي والفضي. وكان عدد التلاميذ المقيدين بهذه المدارس في هذه السنة ٨٤٠ تلميذاً يكلفون الحكومة الإيطالية ٤٥٢٨٥ ليرة إيطالية سنوياً، يخصص أكثر من ١٦٠٠٠ ليرة للمدرسة الثانوية وحدها<sup>١٢٢</sup>.

وكانت توجد مدارس تقوم على المساعدات التي تقدمها الإرساليات الإيطالية والفرنسية بمدن طرابلس والحمص وبنغازي ودرنة، أما فرنسا فكانت القوة الأوروبية الوحيدة - بعد إيطاليا - التي أنشأت لها مدارس في ولاية طرابلس الغرب وتصرف عليها الجمعية الكاثوليكية في فرنسا ما قيمته ١٨ ألف فرنك فرنسي في السنة<sup>١٢٣</sup>. هذا إلى جانب بناء مستشفى فرنسي بمدينة طرابلس، كما سيطرت الحكومة الفرنسية على بعض الشركات التي تؤدي خدمات حديثة في طرابلس، وكانت إدارة الفنار الفرنسية ولديها دائرة بريد فرنسية<sup>١٢٤</sup>. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نشاط الجالية الفرنسية في ولاية طرابلس الغرب، وهذا على الرغم من أن هذه الجالية قليلة العدد نسبياً، إلا أن نشاطها كان متنوعاً، وقد قتل في الناحية الاقتصادية والفنية والإدارية والوظيفية، إلى جانب الناحية الثقافية.

ومما يلفت النظر أن طلاب المدرسة الفنية التي تأسست عام ١٨٨٨م بمدينة طرابلس الغرب مع قسم طبي ومعامل للتحليل ملحق بها، كان عددهم عام ١٩١٠م ٨٣ تلميذاً، وهم مقسمون إلى ٥٧ ولداً و٢٦ بنتاً، وهذا العدد كان يضم الجنسيات الآتية: ٢٠ تلميذاً من الأتراك، ٦ تلاميذ من الفرنسيين، ٤ تلاميذ بريطانيين، ٤ تلاميذ مالطيين، ٣ تلاميذ المان، ٣ تلاميذ يونانيين، ٢٣ تلميذاً إيطالياً<sup>١٢٥</sup>.

إن نظرة إلى جنسيات تلاميذ المدرسة الفنية التجارية والصناعية والتي أنشئت في ولاية طرابلس الغرب قبيل نهاية القرن التاسع عشر، توضح لنا جنسيات الجاليات الأجنبية المقيمة في الولاية. وهذا ما يعنى وجود أجناب متعددي الجنسيات، لهم نشاطهم الاقتصادي وحياتهم الاجتماعية التي تختلف عن حياة المسلمين من أهل الولاية والأتراك الحكام. على أن إنشاء فئصليات بريطانية في أكثر مدن ولاية طرابلس والحمص ومصراته وغدامس ومرزق وبنغازي ودرنة منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي كان دليلاً على وجود جالية بريطانية الجنسية، كبيرة العدد ومعظم أفرادها من المالطيين الميلاديين كان دليلاً على وجود جالية بريطانية



الجنسية، كبيرة العدد ومعظم أفرادها من المالطيين الذين يعيشون في معظم المدن الطرابلسية .  
أما إنشاء هذه القنصليات البريطانية في مدن الولاية الجنوبية والشمالية على السواء فهو  
دليل على الاهتمام الرسمي البريطاني بأمور الولاية لمصلحة بريطانيا<sup>(١٢٧)</sup>.

ورداً انتقلنا إلى الجالية الإيطالية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني فسنجد  
أنها أكثر الجاليات الأجنبية عدداً ، وبالتالي أكثرها نشاطاً ، لأن الولاية كانت في نظر  
الإيطاليين مجالاً حيوياً للاستعمار ، وقد تدفق المستوطنون الإيطاليون بعد أن شاعت بين  
المواطنين في إيطاليا صورة مشرقة ومبالغ فيها لأراضي الولاية وإنتاجها ، لينزح منهم الكثير  
لتعمير تلك الأراضي، ومن ثم اهتمت الحكومة الإيطالية بإرسال البعثات تحت ستار البحث  
العلمي، ولكنها كانت تقوم بدراسة علمية وعملية عن أراضي الولاية ، وتضع لها المصورات  
والخرائط ، كما قامت بإنشاء بنك دي روما Banco di Roma الذي تأسس بمدينة طرابلس  
عام ١٩٠٥م، ثم أصبحت له فروع في أنحاء الولاية، وكان هذا البنك يقدم القروض للفلاحين  
من أهل الولاية، ويشتري الأراضي الزراعية منهم أو يستولى على أراضي من تأخر في سداد  
القروض ، كما كان يمول عمليات الدعاية الإيطالية بين أهل الولاية<sup>(١٢٨)</sup>، هذا إلى جانب إنشاء  
المدارس، والمستشفيات والملاجئ الصحية وتشجيع الإرساليات الكاثوليكية على فتح مراكز  
لها في مدن الولاية ، لتكون في خدمة الجاليات الأجنبية ، والمصالح الاستعمارية الإيطالية،  
وخصوصاً إنشاء القنصليات الإيطالية في أهم مدن الولاية مثل: طرابلس وبنغازي ، وهذا ما  
يترجم إلى كثرة أفراد الجالية الإيطالية في ولاية طرابلس تحت الحكم العثماني، حيث وصل  
أفرادها في أوائل القرن العشرين وقيل الغزو الإيطالي للولاية إلى ١١٠٠ فرد كان منهم ٩٣٠  
بمدينة طرابلس ، ١٢٠ بمدينة بنغازي، ٢٠ بمدينة الخمس ، ٢٠ بمدينة درنة ١٠ بمدينة مسراته  
<sup>(١٢٩)</sup>، وبالتالي تعدد نشاطهم الفعال في خدمة أنفسهم وخدمة الحكومة الإيطالية، وقد تكونت  
بالفعل مستوطنات إيطالية زراعية في الولاية إلى جانب الشركات التجارية الإيطالية التي  
عملت في التوريد والتصدير.

## الخاتمة :

إن وجود أجانب في ولاية عربية مثل طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني، لم يكن شيئاً غريباً، بل هو أمر مألوف، حيث عاشت الولايات العربية خلال الحكم العثماني مفتوحة أمام الأجانب، ولكن أصحاب هذه الملل - يهوداً كانوا أم مسيحيين - يشتركون في شيئين رئيسيين هما :

أولاً : النشاط الاقتصادي والفني، وأعنى به الاهتمام بالزراعة، وبناء المستوطنات والشركات التجارية، والأعمال المالية والعمل في الحرف الفنية واحتكارها، حيث تدر عليهم دخلاً كبيراً وهذا النشاط يعطى أصحابه مكانة اجتماعية، بل وسياسية في الولاية بما يمتلكون من إمكانات مادية أو فنية لا يمتلكها أهل الولاية.

ثانياً : كراهية العرب المسلمين، فإن كراهية اليهود للمسلمين أمر مألوف وواضح في كل قطر عربي، ليس تحت الحكم العثماني فحسب، بل وقبل الحكم العثماني وبعدة، إلا أن هذه الكراهية من المسيحيين للمسلمين، فأمر غير منطقي أو غير منصف، فأمامنا شهادة مهاجر إيطالي إلى ولاية طرابلس الغرب، وقد خاطب أمه قائلاً : «أنا ذاهب إلى طرابلس لأبذل دمي في سبيل سحر الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية... سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن، ليس للمجد من لم يمّت في سبيل إيطاليا، تحمسي أيتها الوالدة، وإن سألك أحد عن عدم حداثك عليّ، فأجيب أنه مات في محاربة الإسلام» (١٣٠).

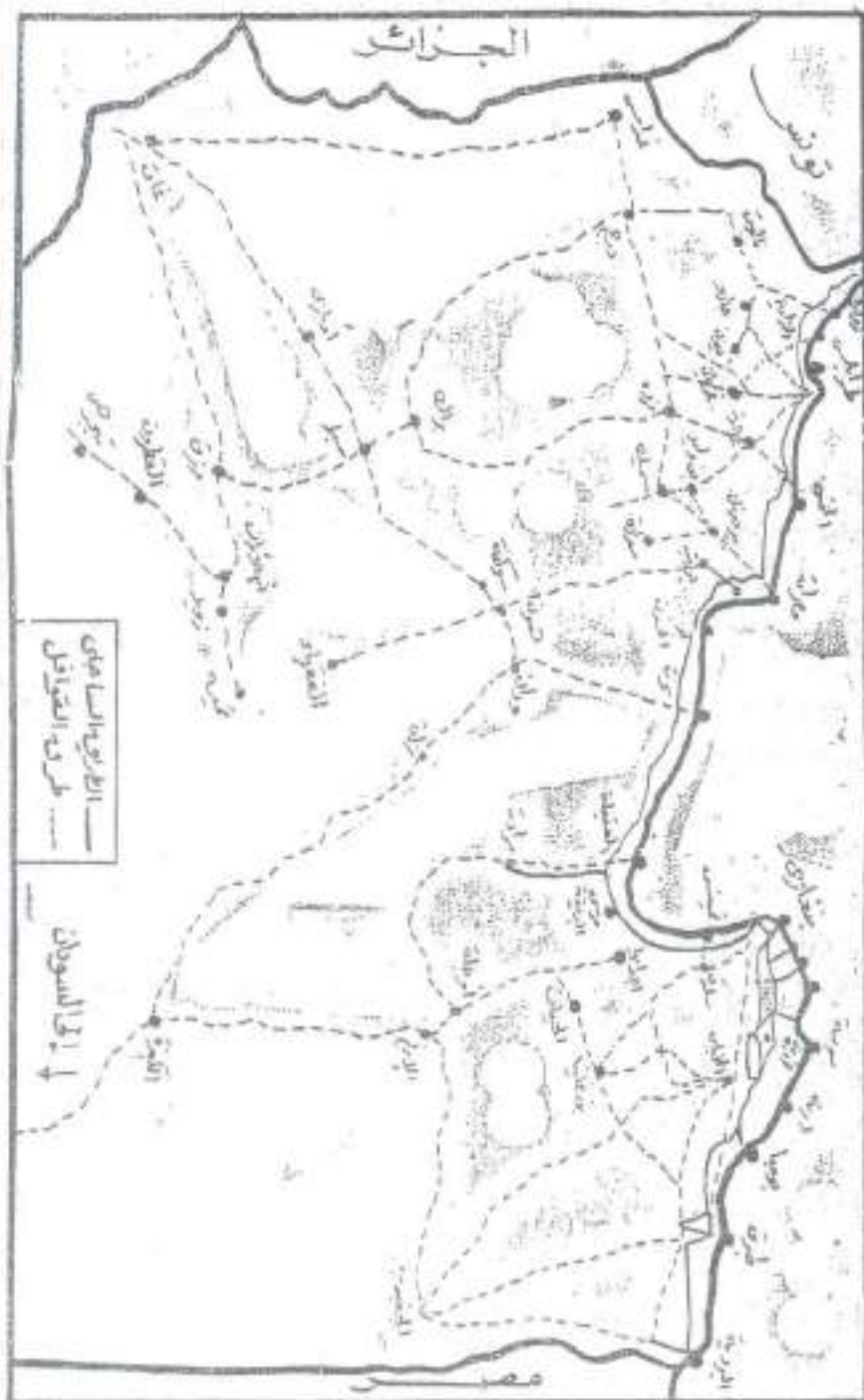
## الهوامش

- ١- ريتشارد توتلي ، عشر سنوات في بلاط طرابلس ، ص ٨ .
- ٢- نقولا زيادة ، ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال ، ص ٦٠ .
- ٣- د. محمد الهادي عفيفي ، التربية والتقرير الثقافي ، ص ٣٢ .
- ٤- د. أحمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي ، ص ٢١٧ .
- ٥- د. محمد الهادي عفيفي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .
- ٦- الاليناس الإسرائيلي : يقصد به مؤسسات الاتحاد الإسرائيلي العالمي القائمة في ليبيا كالمدارس والعياد والملاجئ .
- ٧- د. أحمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي ، ص ٢٢٧ .
- 8- Todd M.d, Tripoli the Mysterious , p. 80 .
- ٩- د. رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ، ص ١١٢ .
- 10- Annual Report of the U.N. Commissioner in Libya , p. 85 .
- ١١- محمود ناجي : طرابلس غرب (تركي) .
- ١٢- المصدر نفسه .
- ١٣- د. رأفت الشيخ : نفس المصدر ، ص ١١٤ .
- ١٤- أحمد صدقي الدجاني : أحاديث عن تاريخ في القرنين ١٨ ، ١٩ ، ص ٥٥ .
- ١٥- المصدر نفسه ، ص ٣١٥ .
- ١٦- أحمد الدجاني ، المصدر السابق نفسه ، ص ٣١٦ .
- 17- Annual Report of the U.N Commissioner in Libya , p. 85 .
- ١٨- جوزيف كاكيا : ترجمة يوسف العسلي ، ليبيا في العهد العثماني ١٨٣٥ - ١٩١١ طرابلس ، ١٩٤٥ م ، ص ١١٤ .
- 19- Greige S., Ashort History of Educatton in Tripolitania P.S.
- 20- Annual Report , Op. Cit, p. 85 .
- 21- Greige , S . Op. Cit, p. 10 .
- ٢٢- د. رأفت الشيخ : نفس المصدر ، ص ١١٧ .
- 23- Greige, S.: History of Education Oin Tripolitania , 1948, p. 10 .

- ٢٤- محمود تاجي: نفس المصدر.
- ٢٥- د. أحمد الدجاني: نفس المصدر، ص ٣٢٤.
- ٢٦- نفس المصدر.
- ٢٧- د. أحمد صديق الدجاني: لبنا قبل الاستقلال الإيطالي، ص ٣١٢.
- ٢٨- د. رأفت الشيخ: نفس المصدر، ص ١٧٩.
- ٢٩- جوزيف كاليا: نفس المصدر، ص ١١٢.
- ٣٠- أحمد أمين: يوم الإسلام، ص ٣٣.

## مصادر البحث

- ١- د. أحمد صدقي الدجاني : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني (١٨٨٢-١٩١١م) ، القاهرة ١٩٧١م.
- ٢- د. أحمد صدقي الدجاني: أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، طرابلس، د.ت.
- ٣- د. رافت غنيمي الشيخ: تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة، طرابلس ١٩٧٢م.
- ٤- أحمد أمين : يوم الإسلام ، القاهرة ، د.ت.
- ٥- جوزيف كاكيا : ليبيا في العهد العثماني الثاني، ترجمة يوسف العسلي.
- ٦- محمود ناجي ومحمد فوزي : طرابلس غرب تاريخي (تركي) إستانبول ، ١٣٣٠هـ .
- ٧- ريتشارد توللي: عشر سنوات في بلاد طرابلس .
- ٨- نفولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال.
- ٩- محمد الهادي عفيفي: التربية والتغير الثقافي.
- 10- Annual Report of the U.N Commissioner in Libya presented in Consultation with the Council for Libya , General Assembly , Official Records : Fifth Session supplement N. 15 / A / 1340 . Lake Success, New York 1950 . Annex XXVIII : Memorandum on Educational organization in Libya under Italian, administration submitted by the representative of Italy on the Council for Libya .
- 11- Steel Greige: A short History of Education , in Tripolitania , 1947 .
- 12- Steel Greige ; History of education in Tripolitania , 1948 .
- 13- Mabel Lamis Todd: Tripoli The Mysterious, Boston 1912 .





دكتور / مصطفى حبشي محمد زهران \*

## المجتمع في جمهورية جيبوتي بين الثوابت والمتغيرات

تمهيد

لعبت الجيوب الساحلية التي أوجدها الاستعمار دورا هاما في تجسيد تاريخها بصفة عامة وتاريخها الاجتماعي بصفة خاصة.

فالساحل كحقيقة لفلسفة المكان دائما في خدمة الداخل فكانت هذه الجيوب الساحلية في امتدادها وموقعها تمثل المنفذ لظهور قد يمتد في دولة أو أكثر من دولة مما يوجد معه تناقضا اقتصاديا وصراعا سياسيا وتجسيدا اجتماعيا بين المشاركين من الدول لهذا الظاهر الكل يريد أن يظفر بالجيب منفذا له ومنتفسا محريا يمكن ركوب المياه الحجازية عن طريقة وحتى لا تضطر أن تحوم حوله بحثا عن منفذ جديد وهو أمر قد يؤدي إلى الأغلب الأعم إلى تعويق خطط التنمية الاجتماعية وتجميد تجارتها وبالتالي تضخم تكلفة الصادرات والواردات بل قد يصل الأمر في بعض الدول إلى شلل تجاري شتوي يعكس على الهيكل الاجتماعي<sup>(1)</sup>

وبالتالي فليس من حل هذه المعوقات إلا بالاتفاقيات السلمية بين الدول صاحبة المصلحة المشتركة لتزدهر الروابط وتتصل شرايين الحياة في إيقاع منظم.<sup>(2)</sup>

\* المعهد العالي للدراسات الأدبية - الاسكندرية

فقد طوق الاستعمار الأوروبي القارة الأفريقية بهذه الجيوب الساحلية ولت أقداء . على أطرافها الغربية أولا من أجل امتصاص ثرواتها الطبيعية والبشرية ثم استشرى حتى بلغ شرقها وكانت جيوتي على القرن الأفريقي هي الجيب الوحيد الذي أفلح الاستعمار في ارساء أقدامه فيه على الساحل الشرقي لأفريقية ثم بدأ الانكماش الاستعماري عن القارة الأفريقية بالنسبة للوحدات السياسية الكبيرة سواء كان ذلك طوعا أو كرها وبالتالي سأل لعابه على الجيوب ولت أقدامه عليها وكان تبرره لذلك أن هذه الجيوب ذات مساحات قليلة ومحصورة بين دولتين في الغالب ومما يجعلها مظلما قويا لكل منها واستقلالها أو فكائها عن حمايته سفيرز شدا وجنبا في علاقات الدول ذات المصالح المشتركة حول الجيب ويبرز بذلك لنفسه فرصة البقاء<sup>(١٣)</sup> .

بالنسبة لجيوتي والتي تقع على الجزء الغربي من ساحل البحر الأحمر عند بوغاز باب المندب والذي تحزمه الاراضي الألبوية من الشمال والغرب ويتصل جنوبه بأرض الصومال ويمتد حول خليج تاجوره شرقا والذي خضع بلا انقطاع للاحتلال الفرنسي منذ فترة الصراع الاستعماري على ثروات القارة الطبيعية والبشرية والتي تفجرت شرارها في نهاية القرن الخامس عشر لهذا الكيان غاليته عبارة عن قسمة متساوية بين قبائل الدناقل ( عفار ) في الشمال وقبائل عيس الصومالية في الجنوب ويشكل هذان العنصران ما يقرب من ٨٥% من عدد السكان أما من تبقى منهم لهم مزيج من العرب والهنود والأوروبيين<sup>(١٤)</sup> .

وتسم القيم الاخلاقية في المجتمع الجيوتي بالطابع الاسلامي ومن مظاهر ذلك عطف الغني على الفقير حتى أنه عندما يأتي الأخير الى العاصمة جيوتي من الريف تسارع إحدى الاسر التي تملك اراض زراعية واسعة بتوزيع جزء من المحاصيل على الفقراء من أبناء القرية ليس على انه صدقة ولكن على اعتبار انه حق لهؤلاء الفقراء ومن ناحية أخرى فقد ساعد الاستعمار على توفير سبل الرذيلة ونشرها مستغلا ظروف الفقر والحاجة خاصة في الساحل وفي الداخل حيث تعمل المرأة جنبا الى جنب بجوار الرجل في الريف بالزراعة أو المراعسي وعلى صعيد آخر فإن نسبة الطلاق مرتفعة للغاية بين قبيلتي العيس والعفار في جيوتي ويرجع ذلك الى ضحالة المهور وبالتالي شيوع تعدد الزوجات زد على ذلك فإن التقاليد السائدة التي تحتم عدم رؤية الزوج لزوجته قبل الدخول لها أدى الى الافراط والتفريط فيها

وبالتالي ساد الزواج والطلاق بكثرة مما أدى الى تشرود عدد كبير من النساء والاطفال الذي ساد قبليتي جيبوتي و تقطن كلا منهما منطقة معينة وتعتبر القبيلة وحدة القلبية أو اجتماعية قائمة بذاتها إذ تشغل مساحة معينة من الأرض تستغلها وتعتبر ملكا لها ومنطقة نفوذ لها.<sup>(٢٥)</sup>

ولا يحق لاية قبيلة أخرى الاعتداء على حقوقها فيها وتكتسب القبيلة حقوق الملكية على الأرض إما باحتلالها على إلا تكون ملكا لقبيلة أخرى وألا تكون قبيلة أخرى قد وضعت يدها عليها أو باغتصابها من قبلة أخرى بقوة السلاح أو بالسرقة السلسي الي أرض ملكها قبيلة أخرى عن طريق نظام وضع اليد الذي لا يسمح لها إلا حق الانتفاع دون حق الملكية وقد يتقلب حق الانتفاع الي حق ملكية عندما تجسد القبيلة الجديدة لنفسها كيانا خاصا وتستقل بشئونها. ولكل قبيلة مجلس برئاسة زعيم ويتألف من رؤساء العشائر والبطون وكبار الشخصيات وينظر هذا المجلس في عدة أمور منها إعلان الحرب ضد القبائل الأخرى إما بسبب المراعي أو المياه أو الماشية أو الثأر.<sup>(٢٦)</sup>

ولفض المنازعات التي قد تقوم بين أفراد القبيلة ذاتها وهناك نظام عرفي لتفضيها عن طريق دفع الدية وتوزيع نفقات خيافة المسافرين والدية على أفراد القبيلة والاشراف على الزواج بين أفراد القبيلة وتبني اللاجئين من القبائل الأخرى ممن يرغبون في الانضمام الي القبيلة.

وتلعب الروح القبيلة دورا واضحا في جميع نواحي الحياة في جيبوتي وتعتبر من أولى المشاكل التي تعانيها والتي وجد فيها المستعمر الفرنسي وسيلة يستطيع استغلالها في الوقت المناسب<sup>(٢٧)</sup> لتحطيم وحدة الشعب الجيبوتي وشغله بالخلافات الشخصية والوقعية بين قبليتي ( العيسى والغفار ) حتى تنفتت قواه من جراء تلك الضغائن وبالتالي ينصرف عن المطالبة بالاستقلال وعن وجود المستعمر واجهازه على ثرواتها الطبيعية والبشرية لتحقيق أهدافه.<sup>(٢٨)</sup>

وتسيطر الروح القبيلة على نشاط الهيئات الحكومية والأحزاب السياسية وغيرها فحزب ( وحدة الشباب الجيبوتي ) ما هو إلا إتلاف بين قبليتي العيسى الغفار وأيضا (حزب الدستور المستقل) بجانب وجود المسجد الذي لعب دورا هاما في نشر العلوم الدينية والديوية بل صار مركز إشعاع حيوي لها.<sup>(٢٩)</sup>

وتسبب الروح القبلية في جيوتي عدة مشاكل اجتماعية منها أن رجال القبائل يصنعون مصلحتهم فوق كمل اعتبار وقد يضر هذا بمصلحة البلاد العامة التي تتلاشى أثناء التنازع بين كليهما على المصالح والمنافع الخاصة بهما.<sup>(١٠)</sup>

وبالتالي تسود الرعة الانفصالية للمجتمع الجيوتي حيث ان القبلية وحدة قائمة بذاتها وخاصة من الناحية الاقليمية وأيضاً شيوخ العديد من جرائم القتل بسبب حرفة الرعي للتطاحن على الكأ والماء والعصاة الخلية ، لكن أصبح من المأمول في العصر الحديث تطور الولاء القبلي الي ولاء قومي تدرب فيه العصية القبلية التي كانت لا تلائم الروح القومية.<sup>(١١)</sup>

وقد اختار الفرنسيون هذه البقعة لموقعها الاستراتيجي حتى تتمكن فرنسا من مناورة قوى الضد الاخرى غير ان هذه المنطقة التي بدأت بالاستعمار الاستراتيجي ما لبثت ان كونت نواة تشتربت حولها مصالح استراتيجية واقتصادية زادت من القيمة الاستعمارية للكيان.<sup>(١٢)</sup> بدأت فرنسا في احكام قبضتها على هذا الاقليم حتى تهيأ في نشر اجنحتها على مستعمراتها الفرنسية في القارة تمهيدا للاجهاز وفرنستها بين التخلي والسحلي.

وكانت منطقة جيوتي من المناطق التي تعاني من فرقة الوطن الام لتضعف مقومات التحرر في هذا الاقليم الصغير والذي يكتنفه قوة الضغط الإثيوبي وذلك لاعتماد اثيوبيا على جيوتي في تجارة الترانزيت مشمولة بعوامل الرغبة الذي تقدمه فرنسا بما توفره لها من رخاء اقتصادي وأيضاً محاربة روح القومية ولاسيما بين قبائل العفار وان كان الجزء الاكبر منهم في اثيوبيا وآرتيريا هم اقرب حضريا واجتماعيا الي الصوماليين منهم الي الإثيوبيين.<sup>(١٣)</sup>

وقد ترتب على استيلاء بريطانيا على عدن ١٨٣٩ إن زاد اهتمام فرنسا بالساحل الافريقي المطل على خليج عدن وكانت فرنسا أول دولة أوروبية تبدي اهتماما كبيرا بجيوتي منذ الاربعينات من القرن التاسع عشر ولم يلبث أن تضاعف اهتمامها بهذا الساحل منذ افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ تلك القناة التي ربطت مداخلها فيها للتحرر من تحكم عدن في ملاحتها وذلك للحصول على قاعدة جديدة توفر لها حاجتها خصوصا وأن مداخلها في كل من أوروبا والشرق الأقصى كانت لا تزال متضاربة مع مصالح إنجلترا فسعت الي الحصول

على احدى اشطاط المظلة على البحر الاحمر وهي (أوبوك) لتنفيذ مشروعاً للاستعمارية واتصلت بالشيخ أحمد ابوبكر الذي أبرم معها معاهدة أوبوك في ١١ مارس ١٨٦٣ التي تم بتقتضاها التنازل لفرنسا عن ميناء (أوبوك) مع السهل الممتد من رأس على في الجنوب الى رأس دوميرا في الشمال وذلك نظير مبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال تدفعها له فرنسا. <sup>(١٤)</sup>

لم تخف السلطات البريطانية الجائئة في عدن استيائها من قدوم الفرنسيين الى هذه الجهات بل شمرت عن ساعد الجد واعلنت ان هذه المناطق تابعة للإمبراطورية العثمانية وأن أحدًا لا يستطيع انكار حقوق تركيا صاحبة السيادة على كل الساحل وكانت المجلسرا تهدف الى البقاء هناك بمفردها دون وجود اي منافس لها لذلك باشرت الى اصدار الاوامر الي حكام عدن بأن يتخذون حجة الوسائل الكفيلة لتسكين بريطاني من الاحتفاظ بمركز ممتاز بين سكان الشاطئ الاقليمي المواجهة لعدن سواء بطريق الوسائل السياسية أو بطريق الوسائل التجارية أو عن طريقهما معا ومنذ ذلك الوقت اتجهت انظار الانجليز الى ساحل الصومال المطل على خليج عدن ووقفوا لنشاط الفرنسيين في هذه الجهات بالمرصاد والترقب بعد انغماسهم في دوامة الصراعات. <sup>(١٥)</sup>

حقيقة لم تقم فرنسا فترة سنوات عدة باستغلال هذه المنطقة أو حتى باحتلالها ولكن بقاء عقد الشراء جعل منها منافسا خطيرا لبريطانيا ومهددا لحقوق الدولة العثمانية لكن سررت بعض اشاعات في عام ١٨٨١ بأن الحكومة الفرنسية تعزم التخليص من أراضي أوبوك إما بالبيع أو بالتنازل ولم تكن هذه الاشاعات إلا جسا لتبنيها وذلك لعزم ايطاليا على التوسع في سواحل البحر الاحمر المجاور لعصب والتي تناخم أراضي أوبوك من الشمال فأسرعت الحكومة الفرنسية الي تكذيب هذه الشاعات. <sup>(١٦)</sup>

ولم تتحمس الحكومة الفرنسية للقيام بنشاط إيجابي في أراضي أوبوك حتى اقدمت انجلترا على احتلال مصر ١٨٨٢ وبدأت في الاستيلاء على ممتلكاتها المظلة على البحر الاحمر وخليج عدن كما بدأت في التدخل في شئون السودان وتلاشت معارضة المجلسرا في كبح جماح ايطاليا لتوسعها في سواحل البحر الاحمر المجاورة لعصب. <sup>(١٧)</sup>



فعلت فرنسا حينئذ على تأكيد ملكيتها لميناء أوبوك . ففي ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢ طلبت إرسال موظف يكلف بتحديد الاراضي التي ستمنح لبعض المسوطنين الفرنسيين في أوبوك ثم كلفته بالتفاوض مع السلطات المختصة لعقد اتفاقية ترسيم الحدود بين الممتلكات الفرنسية والممتلكات المصرية في هذه الجهات وقد آثار وصول هذا الموظف مخاوف الإنجليز الذين كانوا يستعدون في ذلك الوقت للاستيلاء على ميوث مصر. <sup>(١٨)</sup>

وكانت إنجلترا موقنة أنه من العسير عليها إبعاد فرنسا عن بلاد الصومال وخليج عدن إلا بالقوة محصورا في هذه الفترة التي اعتازت بتكالب الدول الاستعمارية على القارة الأفريقية ولن يكون إبعاد فرنسا حتى في حالة نجاحه إلا على حساب مضايقات أخرى تقوم بها فرنسا ضد إنجلترا في مصر نفسها لذلك فقد قبلت وزارة الخارجية البريطانية مبدأ ملكية فرنسا لأراضي أوبوك ولكنها أرادت ان توقف التوسع الفرنسي في هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة. <sup>(١٩)</sup>

ولما علمت الحكومة الفرنسية في يوليو ١٨٨٤ بعزم الحكومة المصرية على إخلاء هسور وبربره وتاجورة رأت أن الفرصة قد سحبت لتوسيع حدود قاعدتها في منطقة أوبوك وذلك بإدخال تاجوره وكل الجزء الشمالي من الخليج المسمى باسمها داخل هذه الحدود حيث أن الاستيلاء على تاجورة سيكون له فائدة مؤكدة لفرنسا إذ سيحرمها من الاستيلاء على كل هذه الاقاليم الواسعة بعد أن قررت الحكومة المصرية الانسحاب منها. <sup>(٢٠)</sup>

استعدت الحكومة الفرنسية لاحتلال تاجوره التي كانت تمتع بموقع جغرافي يجعل منها محطة هامة للسفن القادمة من زنجبار ولامو في طريقها الي عدن، وفي ٢١ سبتمبر ١٨٨٤ عقد لاجارد (Lagardo) معاهدة مع سلطان تاجورة الذي أعطى بموجبها لفرنسا بلاده الممتدة من رأس علي حتى قبة الحذاب وتعهد فيها بعدم إبرام معاهدات مع أية دولة أجنبية دون موافقة قائد أوبوك الفرنسي. <sup>(٢١)</sup>

وتنضج قيمة هذه المعاهدة إذ أنها منحت فرنسا أقليما هاما يوسع من مستعمرة أوبوك ويكملها بكل الحيز الواقع الي شمال خليج تاجورة ويعطيها مفتاح الطريق التجاري الذي تستخدمه القوافل للوصول الي اقليم شوا بالحيشة. <sup>(٢٢)</sup>



وتمكن لاجارد من احتلال تاجوره في ٢٥ سبتمبر ١٨٨٤ بعد خروج السلطات المصرية منها وقد دفع هذا الخلترا الي تعميم فكرة الحصول على معاهدات بالحماية على الساحل وتوسيع مناطق نفوذها على الصومال والبات اقدمية لحقوقها على هذه المناطق امام الدول الاخرى، كما أنها ارادت أن تستفيد من توسع الفرنسيين حول أوبوك وتوسع الايطاليين حول عصب حتى لا تظهر وحدها بمظهر المعتدي على حقوق السلطان العثماني ويمكن الخلترا في حالة الارة مسألة الحقوق الدولية والاقليمية للامبراطورية العثمانية في هذه المناطق ان تستند الي حياد كل من فرنسا وايطاليا ان لم تحظ بتأييدهما. (٢٣)

على ان الفرنسيين ما لبثوا أن اسوا في ١٨٨٧ قاعدة أفضل من أوبوك عند رأس جيوتي وسرعان ما حلت جيوتي محل أوبوك نظرا لاهميتها الاستراتيجية لحماية المصالح الفرنسية لوقوعها عند مخرج البحر الاحمر ولاشرفها على المحيط الهندي ولا تقتصر اهميتها على اشرفها على الطريق الي الشرق الاقصى فحسب بل لوقوعها عند نهاية الخط الحديدي القادم من هرر كما أنها أيضا ميناء والمخرج الوحيد لاثيوبيا على البحر لذلك انتقلت السلطات الفرنسية الي جيوتي حيث تقرر في عام ١٨٩٠ اتخاذ ميناء جيوتي عاصمة لمستعمرة الصومال الفرنسي وبدأت فرنسا في عقد معاهدات مع السلاطين المحليين بغية توسيع هذه المستعمرة وكانت فرنسا ترمي من وراء ذلك الي تحقيق مشروع استعماري عرف باسم مشروع البحر الاحمر - المحيط الاطلنطي استهدفت منه ربط ممتلكاتها على ساحل البحر الاحمر الغربي بممتلكاتها على ساحل المحيط الاطلنطي وذلك للزحف عن الشرق ومن الغرب معاً صوب حوض النيل. (٢٤)

وبينما كانت فرنسا تسعى الي تحقيق هذا المشروع الاستعماري. كانت بريطانيا تحاول تنفيذ مشروع القاهرة - الكيب لد النفوذ البريطاني من المحيط الهندي جنوبا الي البحر المتوسط شمالا بتأسيس امبراطورية كبيرة في أفريقيا تتصل فيها الاملاك البريطانية دون انقطاع من مستعمرة الكيب في جنوب أفريقيا الي ساحل البحر المتوسط وتحقيق هذا المشروع الاستعماري كان يتطلب تثبيت أقدام بريطانيا في مصر وقد تم لها ذلك عام ١٨٨٢ وابعاد النفوذ الفرنسي عن اعالي النيل والفرقيح الوسطى. (٢٥)

وكانت فرنسا قد دأبت منذ العقد الثامن من القرن التاسع على معارضة الاحتلال البريطاني في مصر معارضة شديدة من ناحية وعلى السعي من ناحية أخرى إلى التوغل في أفريقيا الوسطى والوصول إلى حوض النيل لمنافسة إنجلترا في هذه الجهات وذلك عن طريق مستعمراتها في الصومال الفرنسي وتضييق الخناق عليها وكانت وسيلة إنجلترا لإبعاد فرنسا تشجيع إيطاليا على احتلال إقليم الصومال المطل على المحيط الهندي حتى تسم الإحاطة بالفرنسيين من الجنوب كما سبقت إحاطتهم من الشمال بمستعمرة إريتريا وبذلك يعجزون عن التوغل في حوض النيل وبذلك يقف التوسع الفرنسي في شرق أفريقيا عند هذا الحد بعد تقليم أظافره.

وهكذا نجحت بريطانيا في منع فرنسا من الاتصال المباشر بأعالي النيل لمدة سنوات من احتدام النزاع الاستعماري بينها وبين فرنسا عدوتها التقليدية في أفريقيا. <sup>(١٦٦)</sup>

وبالرغم من ذلك فقد كانت فرنسا تحاول الإستيلاء على أمبادو التي تقع بين رأس جيبوتي وزيلع وداجاريتا التي تقع بين زيلع وبلهار لكي تتمكن من إبعاد إنجلترا إلى الشرق من بداية طريق القوافل الذي يسير من جيبوتي صوب هرر وشوا أو حتى تتمكن من السيطرة على الإقليم المحيط برأس جيبوتي بسيطرتها على أمبادو وحدها وكان إصرارها على خضوع هاتين البلدين لها تمهيدا لاحتياها وسيلة للمساومة مع إنجلترا في أثناء المفاوضات. <sup>(١٦٧)</sup>

أما إنجلترا فقد كانت تحاول أن تضمن السيطرة على كل الإقليم لتأمين ثمين عدن وعدم ترك مجال حيوي لفرنسا قد يساعدها يوماً ما على التفوق في خليج عدن وتهدد علاقتها مع الهند القلب النابض للامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

وعلى أي حال فقد أبدت كل من فرنسا وإنجلترا في ذلك الوقت استعدادها لنسوية المسألة فيما بينها بتحديد مناطق نفوذ كل منهما في بلاد الصومال بعد تقطيع أوصالها. <sup>(١٦٨)</sup>

وبدأت المفاوضات بين الطرفين وعرض الجانب الفرنسي قبوله للتنازل عن حقوقه على الإقليم والقبائل الموجودة إلى شرق زيلع نظير اعتراف إنجلترا بالحماية الفرنسية على الإقليم والأراضي الواقعة إلى غرب هذه المدينة واقترح ولدنجتون (Wildington) خطاً مستقيماً يمتد من زيلع إلى هرر كأساس لحدود الخمينتين الفرنسية والبريطانية لكن مجلس الهند قدم

اعتراضات على الشروع الفرنسي فاقترح مالمسوري في ٢ أبريل ١٨٨٧ خطاً تمتد من رأس جيبوتي إلى هرر وطلبت الحكومة البريطانية علاوة على ذلك تعهدات متبادلة لمنع الاتجار بالرقيق واستيراد الاسلحة النارية والذخائر وأخيراً تم الاتفاق على أن يكون الحد الفاصل بين مناطق النفوذ ممثداً من جيبوتي إلى هرر وطلبت إنجلترا ترك رأس جيبوتي لفرنسا ووافقت الدولتان على عدم تدخلهما في شئون هرر رغم اصرارهما على عدم التنازل عن حقهما في منع أية دولة أخرى من الحصول على أية حقوق في هرر أو فرضها عليها.<sup>(٢٩)</sup>

وفي ٣٠ يوليو ١٨٨٧ أعلنت إنجلترا حمايتها على بلاد الصومال المواجهة لعدن وأرسل مالمسوري خطاباً دورياً إلى سفراء بلاده في الخارج يعلن فيه وضع المنطقة الواقعة بين رأس جيبوتي وبندر زيادة تحت الحماية البريطانية وطلبت منهم إبلاغ ذلك إلى حكومات الدول التي يعملون فيها وذلك تنفيذاً للمادة ٣٤ من الاتفاقية العامة لمؤتمر برلين والتي تنص على ضرورة إخطار الدول لأي احتلال أي أجزاء وذلك لحفظ حق الدولة المحتلة فيها ودرء إعتداء دول أخرى على هذه الأجزاء ولكي يكون الاحتلال فعلياً كما وكيفاً.

ولم تكن جيبوتي في ذلك الوقت إلا منطقة قاحلة غير مسكونة وكانت السلطات الفرنسية تقيم في أوبوك وسرعان ما انته لوجارد حاكم الصومال الفرنسي إلى ضرورة تغيير مركز الحكم في أوبوك ودس ألفه في دوامة الصراعات لتلك الصفقات الاستعمارية.

خاصة أن هوانها كانت غير ذات قيمة كبرى وكان الإيطاليون يهددونها بسهولة من الشمال عند رأس دمبره وكانوا يعرفون الدناقل بالماء والهدايا وغيرها للإغارة عليها بسانكر والقر.<sup>(٣٠)</sup>

واختار لوجارد مكاناً يقع على طرف القوافل بعيداً عن الإيطاليين والسدناقل وبمصلحة بدرجة أكثر للملاحة فاختار جيبوتي التي تقع في بلاد العيسى صومال وهم الذين تخصصوا في نقل المتاجر على أبيهم إلى هرر وجنوب الحبشة ولم تمنع الحكومة الفرنسية في ذلك بعد تعاضد قواها.

وانتقلت الإدارة الفرنسية من أوبوك إلى جيبوتي في عام ١٨٩٢ وكانت فرنسا قد بدأت من سنوات متعددة سياسة الاتصال بمنيلك ملك شوا ثم امبراطور الحبشة وعملت على

الاتجار معه ومدته بالأسلحة والدخائر بكثرة عندما تأزمت الأمور بينه وبين الإيطاليين وسارت قوافل الأسلحة من الصومال الفرنسي إلى ملبك ولم يدفع ثمنها للحكومة الفرنسية وكانت هذه الحكومة قد خزنت هذه الأسلحة في ساحل الصومال ولما قامت ضجة حول إمداد فرنسا بتلك الأسلحة أمرت هذه الحكومة بإجراء حصر للأسلحة واثبتت هذه العملية فققدان أكثر من ثمانية آلاف بندقية ولم تقم الحكومة الفرنسية بعد ذلك بأي عمل سوى توجيه أمر إداري إلى لوجارد بضرورة وضع الأسلحة في مخازن آمنة في المستقبل وظهر ميل ملبك إلى فرنسا في هذه الفترة بشكل واضح وبخاصة أن مستشاره كان سويسريا من أصل فرنسي وهو الج (II) وكان ملبك على صلوات مستمرة بلاجارد حاكم الصومال الفرنسي<sup>(٣١)</sup>.

وكانت الدبلوماسية الفرنسية والشخصيات الفرنسية التي تعمل في هذه المشروعات وإمكانيات فرنسا المادية والأدبية تتفوق على إيطاليا وإمكانياتها ورجائها لذا عمل الفرنسيون على وضع مشروع لإنشاء سكة حديدية تمتد من جيوفني إلى هرر ثم أديس أبابا عاصمة الحبشة وتمتد بعد ذلك حتى النيل الأبيض ونفذ ذلك في عام ١٨٩٤ لانعاش الحركة في تلك المناطق لصالح باريس ذات التزعة العدوانية.

كانت جيوفني قد ازدادت أهميتها في ذلك الوقت وزاد عدد سكانها وأصبحت عاصمة ساحل الصومال الفرنسي وحثيت إنجلترا أن تتخلها فرنسا قاعدة للتوغل منها إلى بلاد الحبشة والوصول إلى حوض النيل اقتصاديًا إن لم يكن سياسيًا وإداريًا وكانت فرنسا قد عينت لوجارد منذ ١٨٩٨ وزيراً لمفاوضاتها في الحبشة ووزيراً فرنسياً في بلاد ملبك صديقه الشخصي وسيعمل هذا الفرنسي من أديس أبابا على تأييد السياسة الفرنسية في التوغل في داخل القارة غرباً حتى بعد أن أخذت بلاده في التراجع أمام إنجلترا في أعالي النيل في فاشودة<sup>(٣٢)</sup>.

وظهر جلياً أن إنجلترا تعلق أهمية سياسية أكثر من الأهمية التجارية على إنشاء خط سكك حديد جيوفني وعلى ضرورة التدخل في المشروع ذلك أن رئيس مجلس إدارة اتحاد الشركات الإنجليزية التي اشتركت مع الشركة الامبراطورية (فرنسية الجنسية) شرح أهمية وصل زيلع

بهذا الخط ومراضاة فرنسا بعمل وصلة أخرى حتى أوبوك وادعى ها الرجل المالي أن هذا المشروع سيساهم في زيادة العلاقات الودية بين فرنسا وإنجلترا وفي ازدياد الرخاء في الحيشة إذ أنه سيصبح لكل من الدولتين الاستعماريتين خطاً متعادلاً في النفوذ التجاري في شرق أفريقيا وأكد أن الانجليز لن يتهاونوا في تنمية نفوذهم في ذلك المشروع.<sup>(٣٣)</sup>

لكن الحكومة الفرنسية رأت أن هذه التصريحات لا تختلف عن تلك التي نفوه بها الكولونيل هارنجتون ( Harrington ) ممثل إنجلترا في الحيشة حينما تحدث مع حاكم مستعمرة الصومال الفرنسية وذكر له أن من مصلحة الدول الأجنبية أن تنقل على العمل سويًا في الحيشة في كل الميادين السياسية والتجارية أكثر من أن تحاول الحصول على نفوذ خاص بها وعمليت فرنسا من أن يكون هذا الكولونيل قد نجح في إقناع الأوساط ذات المصالح البريطانية بوجهة نظره هذه وإن الانجليز يسرون في تنفيذ سياسة جديدة فحسبت فرنسا حياج نفوذها في هذه المنطقة وقررت الحكومة الفرنسية تكوين لجنة وزارية لدراسة تلك المسألة والاتصال بالشركة الامبراطورية وعدم الاستماع في النهاية لغير مصلحة فرنسا نفسها ولم تنس إيطاليا مشروعها الاستعماري وكذلك إنجلترا ولكن الأخيرة نجحت في تسوية مع فرنسا عام ١٩٠٤ وكانت إيطاليا قد توصلت قبل ذلك في عام ١٩٠٢ إلى تصفية المسائل المتعلقة مع فرنسا واعترفت لها بعدم معارضتها في مد نفوذها لمراكش نظير عدم معارضة فرنسا لها في طرابلس وبرقة ومهدت هذه الاتفاقيات الدولية إلى التقرب بين الدول الاستعمارية على حساب بلاد الحيشة فاتفقت جميعها عام ١٩٠٦ واعترفت لفرنسا بحق اتمام وانشاء سكة حديد جيبيوتي التي كانت قد وصلت إلى دير داوا ومدتها حتى اديس ابابا ولكنهم اشترطوا على فرنسا عدم مد هذا الخط إلى الغرب من العاصمة الاثيوبية ذلك الشريان الذي سيعطي لهذا الميناء حياته ويسمح له باستمرار النمو والازدهار ويسمح للفرنسيين بسهولة استغلال موارد الحيشة من هذه القاعدة البحرية المطلية على خليج عدن.<sup>(٣٤)</sup>

أما جيبيوتي نفسها فقد أخذت في الاتساع بعض الوقت وازداد عدد الأهالي الذين نرحوا إليها وقاموا بها ولقد أعلنت فرنسا أن جيبيوتي وساحل الصومال الفرنسي منطقة حرة من



أول يناير ١٩٠٧ وكان هذا القرار يتماشى مع النظام الموجود عام ١٩٠٦ والذي يُسمح للتجارة بمرور كتجارة الترانزيت من وإلى الحبشة دون فرض أي رسوم عليها.

ثم جاءت فرنسا وغيرت العملة الموجودة في جيبوتي وفي ساحل الصومال الفرنسي في ١٧ مارس عام ١٩٤٩ وأصبح هناك ما يسمى ( فرنك جيبوتي ) وهو فرنك مستقل كل غطائه من الذهب ويشرف على إصداره إتحاد المصارف الفرنسي الأمريكي الموجود في نيويورك وساعد ذلك على اسراع العمليات التجارية كما شجع على الاتجار مع الحبشة عن طريق جيبوتي. (٣٥)

وهكذا لرى أن ميناء جيبوتي يعيش على حركة ملاحية السفن التي تمر في طريقها من وإلى الشرق الأقصى تلك السفن التي تحتاج إلى التزود بما يلزمها من ماء وفحم وما زوت وماكولات ويعيش من ذلك الخط الحديد الذي يتوغل في الداخل حتى ادس ابابا بمحامل إليه ما يلزمه من العالم الخارجي ويعود محملاً بصناديقها الزراعية والحيوانية وبالنسائي تسير خطوط ملاحية منتظمة بين ميناء جيبوتي تعمل فيها سفن صغيرة لنقل البضائع بين موانئ القرن الإفريقي المختلفة وموانئ البحر الأحمر لحملها إلى بلاد العرب والخليج العربي وخليج عدن وأيضاً الخليج العربي حيث تسير السفن على هذه الخطوط بجوار الساحل محملة بالمتاجر وتعتمد في رحلاتها إلى حد كبير على الرياح الموسمية (٣٦)

ولقد أثرت التنظيمات الإدارية والمالية التي ادخلتها فرنسا إلى ساحل الصومال من ناحية والنظور الدولي في العالم من ناحية أخرى خصوصاً العلاقة بين فرنسا والبلاد العربية في انعاش تلك المناطق . فيحدثنا عنماء الديموغرافية أن سكان أي إقليم هم مجموع رجاله ونسائه وأطفاله وشبابه وشيوخه فهم ليسوا في حالة ثابتة بل هم في تغير مستمر فمع مرور الأيام ينمو الأطفال وينقلون إلى مرحلة الصبا كما ينمو الصبية ويصبحون شباباً وينتقل الشباب إلى مرحلة الكهولة ثم الشيخوخة وهم في ذلك يعيشون في ظروف صحية مختلفة تصيبهم الأمراض فمنهم من يعالج ويشفي ومنهم من يقضي نحبه كما أنهم يتزوجون ويتناسلون فيقدم إلى المجتمع أطفال جدد كما أنه قد يفقد إلى المجتمع مهاجرون وقد يرثحل منهم بعض شبابه ورجاله وبالطبع تنعكس تلك المؤثرات على مكونات الكيان الجبوتي وقبائله ( العيسى ، العفاز ) أو القوى الأخرى الموافدة إليه ( عرب - اجانب ) (٣٧)



وتختلف معدلات التكاثر في جيبوتي حسب الوقت والمكان لذا فإن معدل المواليد يتعرض لتقلبات عدة كما قد نجد فروقا واسعة بين معدلات المواليد للمجموعات التي يتألف السكان منها حسب فئات السن والعرق والدين.

وكما هو موضح من ( احصائية عام ١٩٨٠ ) يبلغ عدد السكان ١٠٠ الف نسمة.  
( ٥٠% من قبائل العيسى - ٣٥% من قبائل العفار - ١٠% عرب - ٥% اجانب )

- أ- معدل المواليد ٤٠ في الالف فأكثر تمثل الاقاليم ذات المعدلات المرتفعة جدا.  
ب - معدل المواليد ٣٠-٤٠ في الالف تمثل الاقاليم ذات المعدلات المرتفعة.  
ج- معدل المواليد ٢٠-٢٩ في الالف تمثل الاقاليم ذات المعدلات المتوسطة.  
د- معدل المواليد أقل من ٢٠ في الالف تمثل الاقاليم ذات المعدلات المنخفضة.
- وبين العفار والعيسى تشابه كبير باعتبارهما من الجماعات الحامية ( الحامين الشرقيين ) وهذا التشابه يظهر في المظاهر الثقافية العامة خاصة اللغة كذلك العادات والتقاليد الاجتماعية وأيضا في الصفات التكوينية وقد زاد هذا التمازج باعتبار أن النطاق الفاصل بين الجماعتين ليس حاسما لطبيعة مزاوله كل منهما للحركة والانتقال وممارسة الرعي وما يتطلبه من البحث عن المراعي وموارد الماء محط اطماع كل قبيلة لتنامي ثرواتها الحيوانية وهي مألوفة في عاداتهم وتقاليدهم<sup>(٣٦)</sup>

وعلى هذا الاساس فإن معدل المواليد في جيبوتي يعتبر من أعلى المعدلات بالنسبة للمستويات العالمية خاصة في قبيلة العيسى فهو يبلغ ضعف مثيله في الولايات المتحدة الأمريكية ويزيد على ضعف مثيله في بريطانيا.

ويمكن ارجاع العوامل التي ادت الي ارتفاع معدل النمر في جيبوتي الي اثر العامل الثقافي ومدى انتشار التعليم والخفاض نسبة الأمية ، كذلك طبيعة حرفة السكان وهي الرعي اساسا بين قبائل العيسى وكذلك طول فترة المعاشرة الزوجية لانخفاض سن الزوجية عند الزواج وأيضا ارتفاع معدلات وفيات الأطفال الرضع ومحاولة تعويض الفاقد بزيادة الانجاب في

قبلي العيسى والعقار زد على ذلك عدم وجود سياسة سكانية تخطط لمستقبل القوة البشرية في الدولة وذلك في ضوء إمكاناتها الاقتصادية وأهمية موقعها الاستراتيجي الذي اعتمد خلال فترة الاستعمار الفرنسي على الرخاء المصطنع مما دفع في الرغبة لزيادة النسل والذي أعقبه توافد المنجرات الاجنبية الي جيبوتي وتنامي معطيات المصاهرة بينهما<sup>(٣٩)</sup>

وتعتبر الوفيات في جيبوتي ثمانية العمليات الحيوية وفي نفس الوقت ثانية العوامل الرئيسية الثلاث التي تؤثر في أعداد السكان وتوزيعهم وإن كانت أقل في الأهمية النسبية من الانجاب والذي له دوره الرئيسي في تغير حجم السكان ويصح الامر استثناء من القاعدة في حالات الأوبئة والحروب وانحاعات والكوارث.

ولا تقتصر أهمية دراسة الوفيات على الدور الذي تلعبه في تغير السكان فإن امد الحياة وطولها في حد ذاته من أهم معايير نوعية السكان وما يترتب عليه من فائدة في تخطيط القوى البشرية بين قبلي العيسى والعقار بطريقة انسيابية.

والكيان الجيبوتي ذات طابع رعوي لا يهتم بالتسجيل الحيوي في تنامي الامراض العديدة التي تسبب الوفاة وأفضل الطرق لمكافحة علاوة على أن النقل والحجرة هي السمة السائدة لمجموعات القبائل التي تعيش في البلاد سعياً وراء الرزق.

أما التسجيل الدقيق فهو ما يتم بين الحالات الحضرية الاخرى وعلى العموم فإن متوسط معدل الوفيات خلال السنوات العشر الاخيرة (١٩٨٠-١٩٩٠) برسو على (٧,٦) في الالف . ومن دراسة معدل الوفيات نجد أن الحد الأقصى لهذا المعدل لا يزيد عادة في الوقت الحاضر عن (٢٥) في الالف بينما الحد الأدنى لا يقل عن (١٠) في الالف وعلى هذا فإن انخفاض معدل الوفيات الي هذا الحد الأدنى لا يقل عن (٦٠) في الالف وعلى هذا فإن انخفاض معدل الوفيات الي هذا الحد في جيبوتي إنما يعني قصوراً في التسجيل خاصة اذا قورن بمتوسط قارة أفريقيا التي بلغ معدل الوفيات فيها حوالي (٣١) في الالف (١٩٩٠).<sup>(٤٠)</sup>

وقد يرجع انخفاض المعدل في جيبوتي إلى القصور في التسجيل أو انحصاره على المناطق الحضرية، وقد يرجع الي مزيد من التقدم الصحي والرعاية والخدمات في مناطق جمع البيانات وهي على العموم بيانات تقديرية وغير تفصيلية خاصة بين بنات وفيات الأطفال الرضع

التي توضح بصورة أكثر المؤشر الحقيقي لاتجاه معدلات الوفيات ومدى دقة تقديرات البيانات وتبيان صورة آلية الحياة بين السكان سواء للتوابعين معا أو للذكور والإناث كلا على حدة.<sup>(٤١)</sup>

هذا ويعكس البيان التالي الملامح الصحية في جيبوتي والذي يتمثل في توضيح أسباب الوفيات لكل مائة ألف حالة وفاة (١٩٨٠).

سل الجهاز التنفسي ٣,٨ البرلات المعوية ٢٩,٦

أمراض القلب والجهاز الدموي ٢١,٠ الأمراض الصدرية ١٢,٣.

ولما كانت نسبة الوفيات الناجمة عن أمراض القلب والجهاز الدموي وهي أمراض سهلة وواضحة التشخيص مرتفعة إذ تصل النسبة إلى ٢١% فإن الأمر يتطلب زيادة العناية بالخدمات الصحية وهي أمور ذات علاقة قوية بالدخل الفردي والقومي والنسب اتصالا مباشرا بالظروف الاقتصادية العامة والتي تحتاج بالضرورة إلى النسبة الشمولية على آجال قصيرة وطويلة في ضوء امکانات الدولة ومواردها المتاحة المباشرة وغير المباشرة.<sup>(٤٢)</sup>

لذا فإن النمو السكاني هو حصلة ثلاث عوامل تعرف بالعوامل المباشرة التي تؤثر في حجم السكان وهي ( المواليد - الوفيات - الهجرة ) وكما أسلفنا فإن دراسة النمو ومكوناته قد جذب انباه شريحة عريضة من الباحثين ويرجع ذلك إلى أن محطسي الدول يعتبرونه مرتبطا بالتقدم القومي والحكم على مدى نجاح مشروعات التنمية بمعناها الواسع.

وقد اصبح الاتجاه العالمي هو التزايد المستمر والمطرد في عدد السكان ولكن بنسب متفاوتة بين دولة وأخرى حسب مدى تطورها ومرورها في أي مرحلة من مراحل الدورة الديموغرافية وفي دراسة معدل الزيادة الطبيعية في جيبوتي نجد أن متوسط هذا المعدل يصل إلى حوالي ٣,٤٤% وهو في ذلك يفوق المتوسط العام في قارة أفريقيا والذي يبلغ ٢,٦%.<sup>(٤٣)</sup>

ومن الواضح لتحليل الإرتفاع الكبير في الزيادة الطبيعية إنما يرجع ذلك إلى ارتفاع معدل المواليد والإنخفاض النسبي بين معدل الوفيات في المناطق التي تم التسجيل فيها وهي

مرحلة ديموغرافية لها دلالتها حيث تبين مجلاء مؤشرات توصيف السكان في الحاضر والمستقبل وأنه لابد من تخطيط متكامل أمام الافواج الحدد من السكان والتي تتطلب منهم المزيد من الخدمات التعليمية والصحة وتوفير لهم السكن والغذاء وخاصة أن التيم جيوتي ذات الشخصية الرعوية على الرغم من موقعه الاستراتيجي الحيوي لذا يمكن ان تلعب الصناعة مع النشاط التجاري دورا هاما في حل المشكلة السكانية المرتقبة على أن يكون ذلك مواكبا لرسم سياسة سكانية لتنظيم الاسرة وخفض معدلات المواليد في المستقبل<sup>(٤١)</sup>.

أما بالنسبة لتركز السكان حسب الحضر والريف فقد لعب موقع جيوتي الاستراتيجي دوره الكبير في جذب السكان الي ميناء جيوتي البحري والذي يستقطب على ما يقرب من ثلثي عدد السكان غالبيتهم من قبيلة العيسى ويقدر سكان جيوتي عاصمة الجمهورية ٧٠ الف نسمة وتعتبر العاصمة منطقة الجذب الرئيسية سواء لسكان الصومال أو اثيوبيا بل وتتدفق اليها اعداد كبيرة من سكان آسيا وأوروبا وأمريكا للمشاركة في حركة التجارة المابضة التي اسالت لعالمهم.

وتتمركز التجمعات السكانية في جيوتي حول خط السكة الحديد الشريان التجاري الهام في توزيع السكان وارتفاع كثافتهم الي حد كبير وجعل باقي مساحة الدولة تكاد تخلو من التجمعات والمستوطنات الكبيرة بل ساعد هذا الخط في جذب المزيد من المهاجرين للعمل في النشاط التجاري أو الإنتقال الي هذه المدن وعلى الأخص الي جيوتي العاصمة والميناء المايح<sup>(٤٢)</sup>.

كما ساعد وجود الخط الحديدي على زيادة التباين بين المجموعتين الرئيسيتين لقبائل الدولة حيث اشتغل القسم الاكبر من قبائل العيسى والعفار ومجموعوا في المدن الكبرى الاخرى حوله بينما استمر معظم أفراد قبائل العفار يعملون في حرفتهم القديمة الرعي وعلى امتداد طول الساحل الذي تكتنفه المساحات الزراعية.

أما الهجرة بشقيها ( الداخلية - والحارجية ) فإنها تؤثر بطريق مباشر في خصائص سكان الاقليم سواء كان ذلك من الناحية الديموغرافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية حيث يعتبر التغير في التصنيف العمري والتنوعي أحيانا لقسيمي العيسى والعفار أحد نتائج التزوج من

الاقليم أو الوفود إليه، كما ان ناتج الهجرة يعني حالة انتقال السكان من مكان إلى آخر و يترتب على ذلك نتائج إما إيجابية مثل توافر القوى العاملة وكذا زيادة فرص الحصول على النخبة المدربة منها وإما أن يترتب على الهجرة نتائج سلبية تتمثل في زيادة نسبة البطالة في إقليم الخدب وتوابعه من المشكلات الاجتماعية الأخرى مثل الاسكان - المواصلات - التعليم - الصحة اذا لم يحسن تخطيط الهجرة لكون جيوتي من المنافذ البحرية الرئيسية عبر التاريخ للهجرات البشرية خاصة من آسيا وعلى وجه الخصوص سكان الجزيرة العربية وكذا الهند مروراً بجيوتي اما للاستقرار أو الأرتحال الى اصقاع شرق أفريقيا<sup>(١٧)</sup>

وقد ساعد على ذلك كما هو معروف المناخ الساحلي للبحر الاحمر المواجهة للاقليم وكذا أهمية موقع ميناء جيوتي الاستراتيجي الحيوي الذي يعتمد على تجارة الترانزيت حيث اثر موقعه في ماضيه وحاضره كما أنه سيعطي ملامح مستقبلية باعتبار أن موقع جيوتي الهام في خليج عدن وعلى باب المندب له أكثر من دلالة فقد كان متوسط عدد السفن التي تنزود منها بالوقود حوالي ٢٠٠٠ سفينة في الشهر في عام ١٩٩٠ وقد ازدادت الأهمية التجارية لهذا الميناء بعد انشاء خط سكة اديس ابابا - جيوتي وبالتالي اصيحت الاخيرة المنفذ الرئيسي للتجارة الأثيوبية حيث يتم تصريف ٧٠% من منتجات ومحاصيل اليوبيا مثل البن والحيوانات المسوعة والزيوت وقد ساعد تطبيق قوانين (المدينة الحرة) على جيوتي في جذب المهارات والخبرات إليها بفضل اعاش شتى هيأكل جيوتي المدنية والعسكرية

ولعل ابرز الامال في المستقبل هو المحافظة على استقلالها واستقرارها في ظل ظروفها الخاصة حيث كونها جيب محدود المساحة في قلب القرن الافريقي الذي تشهد فيه المنازعات وعلى الجانب الأخر محاولة رسم سياسة سكانية من خلال خطة شمولية ترفع عن كاهل السكان الاعباء التي يواجهونها وكذا محاولة فتح آفاق المتعددة أمام ميناء جيوتي مع الاهتمام بالمشاغل الزراعية والرعية والتعدينية والصناعية وزيادة القدرات للتصريف التجاري مستقبلاً بحكم موقع جيوتي الحيوي وبحكم المواجهة بمسافة قريبة للساحل العربي ومضيق باب المندب وخليج عدن مما جعل الاقليم معبراً بشريا عندئذ امد بعيد عندما تكالبت عليه القوى الأوروبية الجامحة والهوجاء<sup>(١٧)</sup>



### نتائج البحث

- ١- ألقى هذا البحث الضوء على تكاليف القوى الامبريالية على منطقة القرن الأفريقي وتمحض ذلك عن نجاح فرنسا في تثبيت اقدامها في ميناء جيبوتي والعمل على فرنسته قلبا وقالباً لإمتصاص ثرواته.
- ٢- تناول البحث صور السعار الاستعماري المتباينة بين القوى الأوروبية من أجل سحب البساط من تحت اقدام فرنسا وتقليل أظايرها في منطقة القرن الأفريقي بصفة عامة وجيبوتي بصفة خاصة.
- ٣- أبرز البحث مدلول عمق الدهاء والمراوغة من جانب فرنسا والذي تجسد في كبح جماح قوى الضد تمهيداً لإحكام فرنسا قبضتها على منطقة جيبوتي اليانعة.
- ٤- برهن البحث على آصالة نسج سكان جيبوتي من قبليتي العيسى والعقار في الحفاظ على هويتها الافريقية معاً.
- ٥- أكد البحث على تفاني قبليتي العيسى والعقار في الحفاظ على روح وتقاليد الحياة القبلية في جيبوتي بعد لفظ السلوكيات الاجنبية الرافدة عليهم.
- ٦- كشف البحث النقاب عن أماكن الجذب والطرود السكاني في ميناء جيبوتي وما تبعه من خلخلة سكانية في البيئة الجيبوتية.
- ٧- أشار البحث الى استبيان بعض الامراض المتوطنة التي تهدد قبليتي العيسى والعقار في جيبوتي صعوداً وهبوطاً.
- ٨- قن البحث العديد من أنماط السلوكيات الإجتماعية في جيبوتي وعلاقتها بالقوى الاخرى سواء العرب أو الأوروبيين.
- ٩- حققت الدراسة مدى فاعليات ميناء جيبوتي في ضخ التروات المتجددة على أبنائه بعد تلاشي السيطرة الفرنسية وتحكم قبليتي العيسى والعقار في حركات وسكانات هذا الميناء الحيوي والباع كما وكيفا.



## هوامش البحث

- ١- جمال حمدان - الخريطة السياسية لأفريقيا الجديدة - مجلة نمط أفريقيا - القاهرة ( سبتمبر ١٩٥٤ )  
ص ١٧ .
- ٢- Were Wilson: East Africa through thousand years ( Geopeti) ( London, 1970)  
p.p119-120
- ٣- Clarke: A short history of Geopeti ( London, 1955) .p.37 .
- ٤- جمال حمدان : مرجع سابق، ص ٢٢ .
- ٥- Were Wilson: Op.Cit.p.131-132.
- ٦- أحمد بهاء الدين : مؤامرة في أفريقيا ( القاهرة ١٩٥٧ ) ص ١٨ .
- ٧- Were Wilson: Op. Cit.p.135.
- ٨- السيد محمد رجب حواز : التوسع الإيطالي في شرق أفريقيا ( القاهرة ١٩٦٠ ) ص.١٨-١٩ .
- ٩- Edward Sreer: East Africa( N-y-1970) p.50.
- ١٠- Ibid.p.53.
- ١١- Jan Knappert: A short History of East Africa ( London, 1970) p.p50-51
- ١٢- أحمد بهاء الدين : مرجع سابق ص ٢٢ .
- ١٣- Edward Street: OP.Cit.p.55
- ١٤- جلال يحيى : التامس الدولي في شرق أفريقيا ( القاهرة ١٩٥٩ ) ص ٣٧ .
- ١٥- حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة في القرن الأفريقي ( القاهرة ١٩٧٥ ) ص ٦-١٠ .
- ١٦- حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع السابق، ص ١٠٩ .
- ١٧- Gohon Gray: History of Africa ( N-y,1960)p.106.
- ١٨- Jan Knappe , Op.Cit.p.53
- ١٩- Ibid.p.58.
- ٢٠- حورية توفيق مجاهد : مشكلة الحدود بين الصومال والنوبيا ( القاهرة ١٩٥٩ ) ص ٢٠٣-  
٢٠٤ .
- ٢١- Gohon Gray: Op.Cit.p.109.
- ٢٢- عبدالملك عودة : السياسة والحكم في أفريقيا ( القاهرة ١٩٥٩ ) ص ١٠٦ .

- ٢٣ محمد المنعم عبدالحليم : جمهورية جيبوتي ( القاهرة ١٩٦٠ ) ص. ١٠٣-١٠٤ .
- ٢٤ محمد صفى الدين : ميناء جيبوتي بين الحاضر والمستقبل ( القاهرة ١٩٦٩ ) ص ١١٩ .
- ٢٥ Gohon Gray: Op.Cit.p112.
- ٢٦ جورج باركلي : المستعمرات الفرنسية في أفريقيا (ترجمة نجده هاجر) ( القاهرة - ١٩٦٠ ) ص. ٤٧-٤٨ .
- ٢٧ محمد المنعم بولس : جيبوتي وطنًا وشعبًا ( القاهرة ١٩٥٠ ) ص ١٤١ .
- ٢٨ Encyclopoedia Britanica, Volume 20 ( London,1960) p.p20-21
- ٢٩ Johnston, H: AHistory of the colonization of Africa. ( London,1960)p. 19
- ٣٠ محمد المنعم عبدالحليم: مرجع سابق، ص ١٠٨ .
- ٣١ Edward Steer: OP.Cit.p61.
- ٣٢ محمد صفى الدين: مرجع سابق، ص ١٢٢ .
- ٣٣ Johnaton,H: Op.Cit.p.٢3-24.
- ٣٤ محمد المنعم بولس: مرجع سابق، ص ١٤٥-١٤٦ .
- ٣٥ Stamp,D: Africa ( Lardon,1993) p.p 70-71
- ٣٦ United Nation: Report: of Geaspeti Volume ( New york , 1960) p.p5.6
- ٣٧ Ibid,p8
- ٣٨ Stramp,D: Op.Cit . p. 74.
- ٣٩ United Nation : Op.Cit p.p 12-13.
- ٤٠ Lewis-J: The Modern History of Somali ( London, 1955) p.201
- ٤١ جورج باركلي: مرجع سبق ذكره، ص ٥٧
- ٤٢ جورج باركلي: نفس المرجع السابق، ص ٦٧ .
- ٤٣ Trimming,S.: Islam in East Africa ( London, 1960) p.p120121.
- ٤٤ حسن ابراهيم حسن : مرجع سابق، ص ١١٦ .
- ٤٥ Trimming,S: Op.Cit. p126.
- ٤٦ محمد المنعم عبدالحليم: ص ٢١١
- ٤٧ Lewis,J: Op.Cit: pp.207-208